
في ظلال القرآن
دراسة وتقويم
٢
المنهج الحركي
في ظلال القرآن
الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي
دار عمار

المنهج الحركي

في ظلال القرآن

الطبعة الثانية

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٥٨١/٤/٢٠٠٠)

رقم التصنيف : ٢٢٢,٦

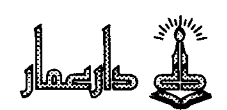
المؤلف ومن هو في حكمه : صلاح عبدالفتاح الخالدي

عنوان الكتاب : المنهج الحركي في ظلال القرآن

الموضوع الرئيسي : ١- القرآن الكريم - تفسير

بيانات النشر : عمان: دار عمار

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية.



الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب المسجد الحسيني

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١

في ظلال القرآن
دراسة وتقويم
٢

المنهج الحركي

في ظلال القرآن

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فقد مضى على إعداد هذه الدراسة حوالي عشرين سنة، حيث كانت في أصلها رسالة الدكتوراة التي بدأت بإعدادها عام ١٩٨١م-١٤٠١هـ، وكانت بعنوان «في ظلال القرآن دراسة وتقويم» وتمت مناقشة الرسالة عام ١٩٨٤-١٤٠٥هـ، والحمد لله.

ولما أردت طبع الرسالة قسمتها إلى ثلاثة كتب، من باب تسهيل الأمر على القراء، هي: مدخل إلى ظلال القرآن، والمنهج الحركي في ظلال القرآن، وفي ظلال القرآن في الميزان.

وصدرت الطبعة الأولى من هذه الدراسة قبل خمسة عشر عاماً عن دار المنارة للنشر والتوزيع بجدة واستقبلها القراء استقبالاً حسناً ولله الحمد.

ونفدت نسخ الكتب الثلاثة من فترة، وبحث عنها القراء في المكتبات، وراجعني بعض الإخوة يحثونني على إعادة طبعها، وأنا أُسَوِّفُ وأُؤَجِّل.

وهممت أن أجمع الكتب الثلاثة في كتاب واحد، في مجلد أو مجلدين، ثم صرفت النظر عن ذلك، واستقر رأيي على إبقائها على ما هي عليه، ليكون الأمر أيسر على القراء الكرام.

وقد عهدت بهذه الطبعة الثانية إلى دار عمار للنشر والتوزيع في عمان، بعد إجراء مزيد من التنقيح والتصحيح عليها، راجياً من القراء دعوة صالحة، وسائلاً الله حسن القبول، وطالباً منه الأجر والثواب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الإثنين ٢٠/ ١/ ١٤٢١هـ

٢٤/ ٤/ ٢٠٠٠م

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. صلوات الله وسلامه عليه.

أما بعد:

فها هو الكتاب الثاني من سلسلة «في ظلال القرآن» دراسة وتقويم أقدمه للقراء الكرام، وأحمد الله على ما وفق وأعان، وأرجو منه التوفيق لإعداد الكتب التالية من هذه السلسلة.

وهذا الكتاب أيضاً هو القسم الثاني من رسالتي التي حصلت بها على درجة الدكتوراه ـ ولله الحمد ـ عام ١٩٨٤ بعنوان «في ظلال القرآن: «دراسة وتقويم». وقد حوى هذا الكتاب البابين الثاني والثالث من الرسالة المذكورة. كما أشرت إلى ذلك في افتتاحية كتابي السابق «مدخل إلى ظلال القرآن».

وقد خصصت هذا الكتاب للحديث عن منهج سيد قطب في التفسير، ونظريته الحركية في الظلال، وطريقته فيه التي طبق فيها قواعد منهجه، وعرض بها نظريته..

وقد تحدثت في الكتاب السابق «مدخل إلى ظلال القرآن» مطولاً عن الظلال ومنزلته بين كتب التفسير، وذلك في فصل «الظلال نقلة بعيدة في التفسير» حيث ناقشت من زعم أنه ليس تفسيراً، وأقمت الأدلة المختلفة على كونه تفسيراً، واعتباره لوناً جديداً في التفسير، ونقلة جديدة فيه، ومؤسساً لمدرسة جديدة تفسيرية، أطلقت عليها اسم «مدرسة التفسير الحركي».

هذا وأحب أن أذكِّر القارىء الكريم بافتتاحية كتابي «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» الذي صدر قبل حوالي سنتين - عام ۱۹۸۳ - والتي أشرت فيها إلى أن الله عز وجل قد وضع بين يدي سيد قطب مفتاحين، لم يعطهما أحداً قبله، ووفقه لفتح كثير من كنوز القرآن المذخورة بهما القـرآن.

أولهما: المفتاح الجمالي: لفتح كنوز القرآن الجمالية الفنية، والمتمثل بنظريته عن التصوير الفني في القرآن، والذي خصصت له كتاب «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب».

ثانيهما: المفتاح الحركي: لفتح كنوز القرآن الحركية، والمتمثل بنظريته الحركية في التفسير، والذي وضح في طبعته المنقحة للظلال.

ووعدت في كتاب «نظرية التصوير الفني» بالحديث عن المفتاح الحركي والمنهج الحركي والنظرية الحركية، وتطبيق سيد لذلك في الظلال... والحمد لله الذي أعان على إنجاز ما وعدت به، وتقديمه للإخوان الكرام.. وأرجو أن يجدوا فيه بعض النفع، وأن يحظى منهم بحسن القبول..

إنني أعتقد أن سيد قطب قد أرسى بظلاله نظرية فريدة في التفسير، وقد أسس به مدرسة جديدة فيه، وقد التفت به إلى جانب مميز أساسي في التفسير هو الجانب الحركي... وأن الله وفقه في إرساء قواعد لمنهجه وأسس لنظريته أولاً، كما وفقه إلى تطبيقها السليم كما برز في طريقته في التفسير..

وجاء هذا الكتاب في بابين: خصصت الأول للحديث عن نظريته في الظلال وقواعدها وعوامل تكونها.. ولاحظت في الباب الثاني تطبيقه لها من خلال طريقته في التفسير..

وأقدم فيما يلي تعريفاً موجزاً بفصول ومباحث البابين المذكورين.

الباب الأول: منهج سيد قطب الحركي في التفسير.

الفصل الأول: تطور المنهج حسب اهتمامات صاحبه. وجاء في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أشرت فيه إلى أن منهجه كان جمالياً فنياً في مشروع «مكتبة القرآن الجديدة».

المبحث الثاني: بينت فيه أن منهجه صار فكرياً جمالياً في الطبعة الأولى من الظلال.

المبحث الثالث: تحدثت فيه عن الصورة النهائية التي استقر عليها وظهر من خلالها، فكان حركياً في الدرجة الأولى فكرياً جمالياً في الدرجة الثانية.

الفصل الثاني: نظرية سيد قطب في التفسير. وكان في مبحثين:

المبحث الأول: جوهر النظرية. عرضت فيه خلاصة لنظريته الحركية في التفسير، والتي تمثل مفتاحه الحركي المشار إليه.. واعتمدت في تسجيل هذه النظرية على كلامه المتفرق في الظلال، وإيراده بالنص..

المبحث الثاني: عوامل تكونها: أحببت أن أبين للقارىء العوامل التي ساعدت على تكونها وإظهارها، والجو العام الذي برزت فيه.. وبهذا يعرف أن هذه النظرية لم تتكون فجأة، ولم تولد في فراغ، وإنما هي ثمرة لمقدمات ونظرات، ونتيجة لتفاعلات وأحداث...

الفصل الثالث: قواعد منهج سيد قطب في التفسير:

حرصت فيه على استخراج القواعد الأساسية لمنهجه في التفسير، باعتبارها منطلقات رئيسية انطلق منها لعرض نظريته الفريدة، وتعريف القارىء على المقاصد الأساسية للقرآن، ومهمته العملية، وطريقة فهمه وتدبره واستخراج كنوزه ومعانيه.

وخصصت مبحثاً لكل قاعدة، وأوردت في كل واحد أمثلة عديدة من الظلال، تتضح بها القاعدة، وتظهر صلتها بالظلال ووجودها فيه. واشتمل هذا الفصل على أربعة عشر مبحثاً فيها أربع عشرة قاعدة هي: النظرة الكلية الشاملة للقرآن. التأكيد على المقاصد الأساسية للقرآن. بيان المهمة العملية الحركية للقرآن. المحافظة على جو النص القرآني. استبعاد المطولات التي تحجب نور القرآن. تسجيل إيحاءات النص وظلاله ولطائفه. دخول عالم القرآن بدون مقررات سابقة. الثقة المطلقة بالنص القرآني والتسليم التام بمدلوله. غنى النصوص بالمعاني والدلالات. بيان أهمية العقيدة ودورها وأثرها. إزالة التعارض الموهوم بين النصوص. الوحدة الموضوعية للقرآن. البعد الواقعي للنصوص وعموم دلالتها. بيان حكمة التشريعات وتعليل الأحكام.

وأعتقد بأن قارىء الظلال سيتعرف على المفتاح الحـركي في الظلال، وقواعد نظرية سيد الحركية في التفسير من خلال اطلاعه على هذا الباب بفصوله ومباحثه.

الباب الثاني: طريقة سيد قطب في التفسير:

عقدته لبيان تطبيقه الناجح لنظريته وقواعده، من خلال طريقته التفصيلية في التفسير، وفي عرض بعض موضوعات علوم القرآن، وطرق بعض موضوعات التفسير.. ثم لبيان أن الظلال حوى ما حوى من موضوعات التفسير وعلوم القرآن ـ التي زخرت بها التفاسير القديمة ـ بما يتفق مع منهج صاحبه في التفسير، وأهدافه من الظلال.. وأن الظلال ليس خالياً من تلك الموضوعات كما يشيع بعضهم.

وجاء هذا الباب في تمهيد وخمسة فصول:

التمهيد: بين المنهج والطريقة: فرقت فيه بينهما، وأخذت على بعض الدارسين للتفاسير عدم تفرقتهم بينهما.

الفصل الأول: طريقته العامة في التفسير:

المبحث الأول: المراحل التي مر فيها التفسير حيث كانت أربع مراحل:

الأولى: استعداده النفسي للتلقي عند القرآن، والمتمثل في وضوئه وصلاته قبل الشروع فيه.

الثانية: قراءته للسورة أو الدرس الذي ينوي تفسيره عدة مرات حتى يهتدي إلى موضوعه الأساسي.

الثالثة: كتابته تفسير السورة أو الدرس بأقل عدد ممكن من الجلسات.

الرابعة: النظر في المراجع للاستدراك أو الاستشهاد أو الترجيح أو التوثيق أو التوضيح.

المبحث الثاني: تعريفه بالسور وتقسيمها إلى دروس ومقاطع. بينت فيه طريقة سيد في التعريف بالسورة والتقديم لها في الطبعة المنقحة، ثم بيان الوحدة الموضوعية فيها، والربط بين دروسها ومقاطعها وبين موضوعها الأساسي.

المبحث الثالث: التفسير التفصيلي للآيات: بينت فيه طريقة سيـد في

التعريف بالدرس، ثم تسجيل دلالاته قبل التفسير التفصيلي أو بعده . . ثم طريقته في تفسير المقطع وتفسير الآية.

الفصل الثاني: سيد قطب والطريقة المثلى في التفسير. حيث بينت فيه أن سيد كان ملتزماً في الظلال بالطريقة المثلى. وجاء هذا الفصل في خمسة مباحث: تفسير القرآن بالقرآن. الظلال والتفسير الموضوعي. تفسير القرآن بالحديث. تفسير الآية بالقرآن والحديث معاً. تفسير القرآن بحياة الصحابة.

الفصل الثالث: طريقة سيد قطب في الاستنباط والاستدلال والنقاش. . عرفت فيه على طريقته في الأمور الثلاثة فجاء في أربعة مباحث: طريقته في الاستنباط. طريقته في الاستدلال. طريقته في النقاش. سيد قطب والمفسرون السابقون.

الفصل الرابع: طريقته في عرض بعض موضوعات علوم القرآن: وكانت مباحثه ثمانية: ترتيب القرآن. المكي والمدني. أسباب النزول. القراءات. الناسخ والمنسوخ. مبهمات القرآن. غريب القرآن. إعجاز القرآن.

الفصل الخامس: موقفه من بعض موضوعات التفسير: وكان في ثمانية مباحث: السيرة النبوية. الأقوال المأثورة. الإسرائيليات والأخبار. النحو والبلاغة. القصص القرآني. آيات العقيدة. آيات الأحكام. آيات الجهاد.

وبعد:

فها هو هذا الكتاب أضعه بين يديك أيها القارىء الكريم، فإن راق لك ما فيه، وأعجبتك موضوعاته فأرجو أن تكرمني بدعوة منك خالصة بظهر الغيب. . وإن لاحظت فيه ملاحظة أو أخذت عليه مأخذاً فأرجو أن تكرمني بالإشارة إليه، وترشدني بالدلالة عليه، وتدعو لي بالمغفرة ولعملي بالقبول . .

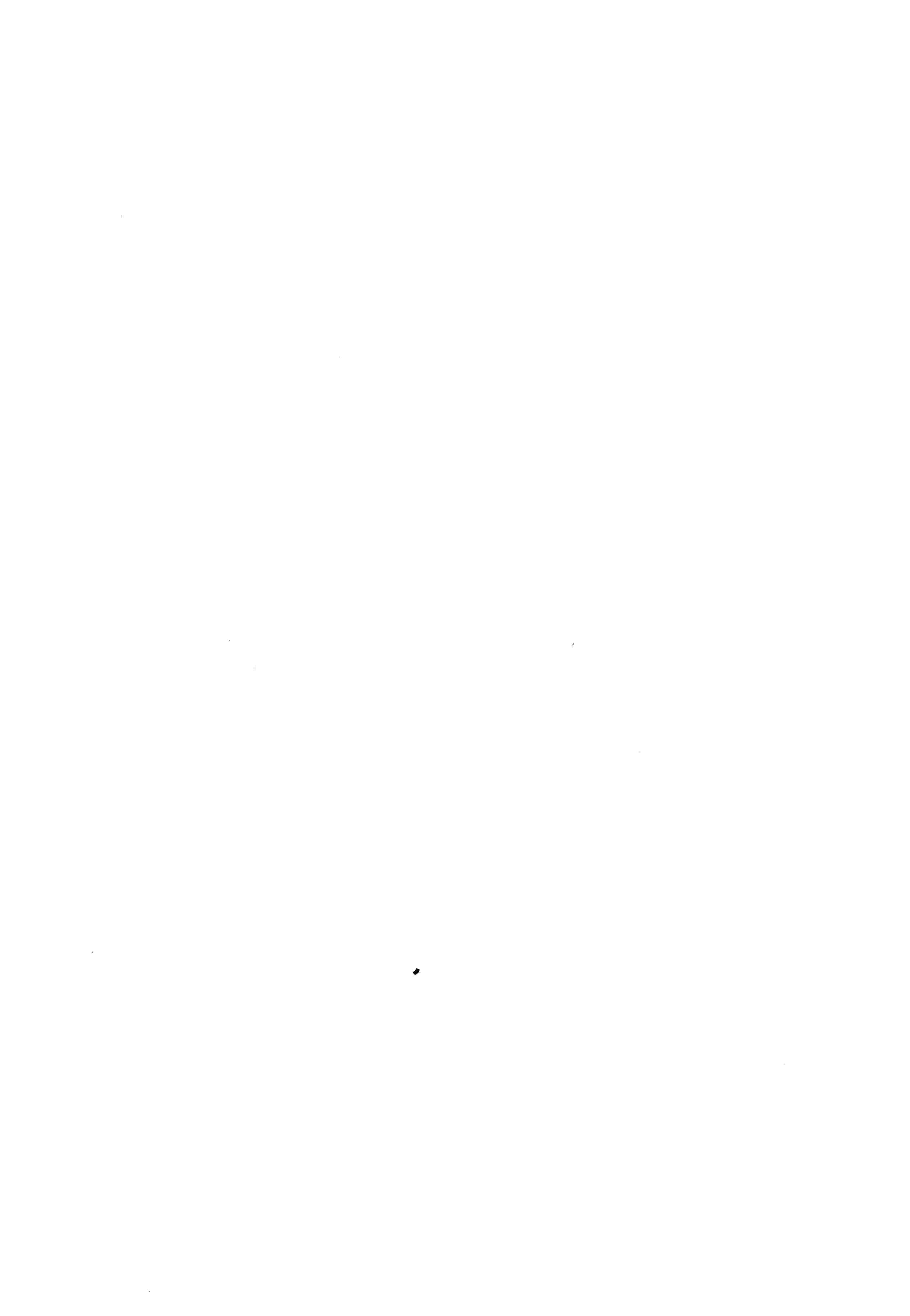
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

صويلح في ١٤٠٥/٥/١
١٩٨٥/١/٢١

البَابُ الأوَّل

مَنهَجُ سَيّد قُطبُ الحَرَكي في التّفسِير



الفَصْل الأوَّل

تَطوُّر المَنهَج حَسَبَ اهْتِمَامَاتِ صَاحِبِهِ

المبحث الأول

«منهج جمالي في مكتبة القرآن الجديدة»

أقبل سيد قطب على القرآن الكريم يدرسه ويتذوقه، وكانت دواعي هذا الإقبال وأغراض هذه الدراسة خاضعة لاهتمامات سيد الخاصة، وأهدافه الشخصية. وفق ما يشغل باله ونفسه ومشاعره. . . ونستطيع ـ من خلال معرفتنا بحياة سيد واهتماماته ـ أن نقسم هذه الدواعي أقساماً ثلاثة:

أولاً: الدواعي والاهتمامات الأدبية التي استغرقت فترة طويلة من حياته، وانتهت فيما بعد منتصف الأربعينيات ـ بعد ما ألف كتابه «مشاهد القيامة في القرآن».

ثانياً: الدواعي والاهتمامات الفكرية: تبدأ بعد ما ترك الاهتمامات الأدبية، حيث صار مشغولاً بالأمور الفكرية والإصلاحية والإسلامية. واستمرت هذه الاهتمامات إلى أن دخل سيد السجن عام **١٩٥٤** م.

ثالثاً: الدواعي والاهتمامات الحركية والدعوية والجهادية، وهي التي لازمته طيلة حياته في السجن، وبعد ما أفرج عنه ـ لفترة قصيرة ـ، ثم عودته إليه. . وإلى أن لقي ربه شهيداً في سبيله!. .

وكان منهجه في دراسة القرآن الكريم وتذوقه ـ أو قل منهجه في تفسيره ـ يختلف تبعاً لتلك الدواعي، ويتطور تبعاً لتطور اهتماماته تلك. حيث

ينظر إلى القرآن من الزاوية التي تشغله، وبالمنظار الذي يستعمله. . ويفتح كنوزه بالمفتاح الذي يملكه.

ولذلك كان منهجه في دراسة القرآن وتفسيره يمر بثلاث مراحل متدرجة:

المرحلة الأولى: المنهج الجمالي، واستعمل فيه المفتاح الجمالي الذي فتح به كنوز القرآن الفنية والجمالية.

المرحلة الثانية: المنهج الفكري: فيه تناول القرآن من زاوية فكرية عقلية.

المرحلة الثالثة: المنهج الحركي: واستعمل فيه المفتاح الحركي الذي فتح به كنوز القرآن الحركية المذخورة فيه.

وسنتناول في هذا المبحث المنهج الجمالي، على أن نخصص المباحث التالية من هذا الفصل للمنهجين الآخرين ـ بعون الله ـ.

بدأ منهج سيد الجمالي في دراسة القرآن وتفسيره عندما أقبل على القرآن يدرسه لدواعٍ أدبية فنية ـ حسب اهتماماته الأدبية الفنية ـ وكان بداية هذا في أواخر الثلاثينيات. عندما نشر في مجلة المقتطف ـ في عددي شباط وآذار «فبراير ومارس» عام ١٩٣٩ ـ مقالاً بعنوان «التصوير الفني في القرآن الكريم»[1].

وبعد ستة أعوام ـ في عام ١٩٤٥ ـ ألف كتابه «التصوير الفني في القرآن» وسجل فيه اكتشافه لنظرية فريدة تمثل المنهج الجمالي الفني أصدق تمثيل وهي نظرية التصوير الفني في أسلوب القرآن. وتعتبر هذه النظرية ـ التي بيّن في كتابه المذكور قواعدها وسماتها وآفاقها وموضوعاتها ـ المفتاح الجمالي الذي ادخره الله له، فلم يعطه أحداً قبله ـ كما يقول علي الطنطاوي في إشادته بالكتاب ـ هذا المفتاح الذي فتح به كنوز القرآن الجمالية المذخورة فيه، واهتدى به إلى القواعد العامة الموحدة للجمال الفني في القرآن. .

---

(١) انظر المقتطف مجلد ٩٤. الجزء الثاني والجزء الثالث. فبراير ومارس ١٩٣٩.

اكتشف سيد في كتابه المذكور القاعـدة العامة للتعبير القرآني وهي «التصوير» الذي عرض القرآن به مختلف موضوعاته.. «التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسّة المتخيلة عن: المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة. فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل...»[١].

بهذه العبارات عرض سيد نظريته الفريدة، وجعل كتابه معرضاً لبيان سمات نظريته وآفاقها، وإيراد الأمثلة عليها[٢].

وجعل سيد كتاب «التصوير الفني» أساس دراساته القرآنية التي وعد بإخراجها فيما بعد، وجعل نظريته عن التصوير الفني قاعدة «مكتبة القرآن الجديدة» التي كان ينوي تأليفها.

ولكنه لم يصدر من مكتبته إلا كتابين: «التصوير الفني» و«مشاهد القيامة في القرآن» الذي صدر بعد عامين من الكتاب الأول، وخصصه للحديث عن التصوير في أفق واحد من آفاق التصوير وهو مشاهد القيامة بنوعيها: مشاهد النعيم ومشاهد العذاب.. وكل نـوع له لـونان: حسّي ومعنوي.

والكتب الأخرى التي كان ينوي إصدارها ـ كحلقات تالية في مكتبة القرآن الجديدة هي «القصة بين التوراة والقرآن» و«النماذج الإنسانية في القرآن» و«المنطق الوجداني في القـرآن» و«أساليب العـرض الفني في

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٣٢.

(٢) خصصنا للنظرية دراسة خاصة هي كتاب «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب».

القرآن». هذه الحلقات تسير على منهجه الجمالي الفني في دراسة القرآن وتفسيره.. ولذلك عدل عن إخراج هذه الحلقات بعد ما تغيرت اهتماماته وتطور منهجه من المنهج الجمالي إلى المنهج الفكري[١]..

منهج سيد في «مكتبة القرآن الجديدة» منهج فني جمالي، نظر في القرآن من الزاوية الجمالية، بالمنظار الفني... يقول: «والقرآن: هذا الكتاب المعجز الجميل، هو أنفَس ما تحويه المكتبة العربية على الإطلاق، فلا أقل من أن يعاد عرضه وأن تُرَد إليه جدته، وأن يُستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضاً! وأن تبرز فيه الناحية الفنية، وتستخلص خصائصه الأدبية، وتنبه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه. وذلك هو عملي الأساسي في «مكتبة القرآن». وقد تناولت هذه المشاهد كما يصورها ظاهر اللفظ الواضح المشرق البسيط، لم أحاول أن أُعقدها بالتأويلات البعيدة، ولا أن أُدخل عليها مباحث لغوية ودينية لا يقتضيها العرض الفني الجميل. وفي اعتقادي أن العرب الأولين قد تلقوا الجمال الفني في القرآن هذا التلقي، فتعمق في إحساسهم، وهز نفوسهم، قبل أن يُعَقده المفسرون والمؤولون..»[٢].

من هذا النص نتعرف على منهج سيد قطب في دراسة القرآن وتفسيره في «مكتبة القرآن الجديدة» وهدفه من إخراج دراساته القرآنية. وطريقته التي التزمها في تلك الدراسات، وهو المنهج الجمالي كما أطلقنا عليه.

وأحب أن أشير هنا إلى أن حرص سيد على (استنقاذ القرآن من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية..) وحرصه على أن يَرُد إلى القرآن جِدته وحياته، وأن يعيد عرضه.. هذا الحرص بقي عند سيد وهو يفسر القرآن ويدرسه وفق المنهج الفكري، وهو يفسر القرآن ويدرسه وفق المنهج الحركي أيضاً...

---

(١) انظر مبحث «بحوث لم تنشر» في كتابنا «سيد قطب الشهيد الحي..».
(٢) مشاهد القيامة في القرآن: ٨.

غرض ـ سيد ـ إذن ـ من مكتبة القرآن الجديدة غرض فني، ومنهجه في إنشائها منهج جمالي، وقد صرح أكثر من مرة ـ في كتاب التصوير الفني ـ بغرضه الفنـي، واستبعـاده الغرض الديني.

يقول في مقدمة الكتاب: «كان همي كله موجهاً إلى الجانب الفني الخالص دون التعرض للمباحث اللغوية أو الكلامية أو الفقهية أو سواها من مباحث القرآن المطروقة...»[1].

ويقول أثناء حديثه عن الجدل التصويري في المنطق الوجداني.. «وطبيعي أن الذي يهمنا ـ في هذا البحث ـ ليس موضوع الجدل، ولكن طريقة التعبير عنه! فالطريقة التصويرية التي سلكها هي التي تجعله عنصراً من عناصر بحثنا، إذ الجانب الفني وحده في القرآن هو موضوعنا الوحيد، ولا شأن لنا هنا بما عداه من مباحث القرآن..»[2].

ويقول في كتاب «مشاهد القيامة في القرآن» عن غرضه الفني.. «ذلك الهدف البعيد، هو إعادة عرض القرآن واستحياء الجمال الفني الخالص فيه، واستنقاذه من ركام التأويل والتعقيد، وفرزه من سائر الأغراض الأخرى التي جاء لها القرآن. بما فيها الغرض الديني أيضاً. فهدفي هنا هـدف فني محض، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل. فإذا التقت في النهاية قداسة الفن بقداسة الدين، فتلك نتيجة لم أقصد إليها، ولم أتأثر بها. إنما هي خاصة كامنة في طبيعة هذا القرآن، تلتقي عندها دروب البحث في النهاية، ولو لم يحسب السالك حسابها في الطريق..»[3].

وقد قصر هدفه في هذه المرحلة على الهدف الفني، نظراً لاهتماماته الأدبية والجمالية، وانشغاله بالمباحث النقدية والفنية.. وكان موهوباً في تحقيق هذا الهدف، وتطبيق هذا المنهج، حيث وفقه الله إلى إدراك القواعد

(١) التصوير الفني في القرآن: ٨.
(٢) المرجع السابق: ١٨٥.
(٣) مشاهد القيامة في القرآن: ١٠.

العامة للجمال الفني في القرآن، وأعطاه المفتاح الجمالي الذي فتح به كنوز القرآن الفنية المذخورة. .

لكن هل تخلى عن هذا الهدف الفني؟ وهل ترك هذا المنهج الجمالي فيما بعد؟ وهو يطبق المنهج الفكري، وكذلك وهو يطبق المنهج الحركي؟ كلا. فقد بقي هذا الهدف من بين أهدافه ـ كما سيمر معنا ـ ولكنه لم يكن الهدف الوحيد كما هو هنا.

ويخطىء من يظن أن سيداً قد تخلى عن الغرض الفني وهو يفسر القرآن تفسيراً فكرياً ـ في الطبعة الأولى من الظلال ـ لأنه صرح في مقدمة تلك الطبعة بأنه حقق فيها أمنية من أمانيه. وهي عرض القرآن كله على المنهج الجمالي، وتسجيل ما يخالجه من إحساس بالجمال الفني العجيب في القرآن[1] فكان هدفاً من بين أهداف الطبعة الأولى. وكان المنهج الجمالي مع المنهج الفكري في تلك الطبعة أيضاً.

كذلك كان الهدف الفني من بين أهدافه وهو يطبق المنهج الحركي في التفسير في الطبعة المنقحة من الظلال[2]، فكان منهجه الجمالي ـ بالإضافة إلى منهجه الفكري ـ مع المنهج الحركي في تلك الطبعة أيضاً.

ويخطىء من يظن أن منهج سيد في تفسير القرآن هو منهج جمالي فني فقط فيسحب هذا المنهج على الطبعة الأولى والطبعة المنقحة من الظلال، وهو بهذا إما مغرض يريد أن يلغي المنهج الحركي في الظلال، ويطمس صورته الحركية، وإما غافل عن ملاحظة ذلك المنهج الحركي الفريد.

وممن يعتبر منهج سيد في التفسير منهجاً جمالياً فقط السيد رجاء النقاش. حيث كتب في مجلة الهلال تحت عنوان «منهج سيد قطب في تفسير القرآن» معتبراً منهجه «أفضل المناهج الحديثة في النظر إلى القرآن

---

(١) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١: ٦ ـ ٧.

(٢) انظر فصل «أهداف الظلال» من كتابنا «مدخل إلى ظلال القرآن».

وفهمه»[1] ولكن ما هو هذا المنهج يا ترى؟ إنه «المنهج الجمالي»: الذي يتحدث عنه النقاش بقوله: «جاء سيد قطب بثقافته الأدبية الجديدة ـ وهو الناقد والشاعر الحسّاس ـ بما يمكن أن نسميه باسم المنهج الجمالي في تفسير القرآن، وهذا المنهج الجمالي يهدف إلى البحث في أسرار «الجمال الفني التعبيري» في القرآن. فعن طريق هذا «الجمال» استطاع القرآن أن يؤثر في الناس، وأن يكسب عقولهم وقلوبهم . . »[2].

ويعتمد النقاش اعتماداً كاملاً على كتاب «التصوير الفني في القرآن» في بيان منهج سيد الجمالي ـ الوحيد! ـ في التفسير، لذلك ينقل فقرات كاملة ـ موثقة ـ من الكتاب المذكور، توضح أصالة ذلك المنهج، وتفرد سيد في اكتشافه ونجاحه في تطبيقه. وبيان خصائصه وآفاقه[3].

ويختم هذه النقول بقوله: «هذا هو المنهج الجمالي المعتمد على «التصوير الفني» كما يشرحه سيد قطب من الجانب النظري، وهو يقدم بعد ذلك نماذج عديدة من القرآن يحللها حسب هذا المنهج . . »[4].

ويخلص النقاش من ذلك إلى نتيجة قاطعة، يصدر بها حكماً عاماً، يعمم فيه المنهج الجمالي على كل دراسات سيد القرآنية باعتبارها تطبيقاً له فيقول: «هذا هو منهج سيد في تفسير القرآن، وهو المنهج الذي شرحه في كتابه «التصوير الفني» ثم طبقه في كتابه «مشاهد القيامة في القرآن» وكان هو نفسه المنهج الأساسي الذي اعتمد عليه في تفسيره الكبير للقرآن، والذي سماه «في ظلال القرآن»[5].

وهذا المنهج الجمالي يعتبره النقاش «نموذجاً لما يمكن أن نسميه باسم «التفسير العصري» الصحيح الناضج للقرآن وهو تفسير يستحق أن نلفت النظر

---

(١) مجلة الهلال. سنة ٨٥ فبراير ١٩٧٧ صفحة: ١٧٣.

(٢) المرجع السابق: ١٧٧.

(٣) المرجع السابق: ١٧٧ ـ ١٨٠.

(٤) المرجع السابق: ١٨٠.

(٥) المرجع السابق: ١٨٠ ـ ١٨١.

لما فيه من فائدة كبرى للقارىء العربي بوجه عام. وللجيل الجديد على وجه الخصوص»[1].

ولأجل ذلك «كان منهج سيد قطب» الجمالي «في تفسير القرآن منهجاً دقيقاً حيث استطاع أن يكشف لنا الكثير من أسرار الجمال القرآني الصحيح. . . وهكذا يجب أن نفهم القرآن. . . »[2].

ونحن مع رجاء النقاش في رأيه وحكمه، وفي تقديره للمنهج الجمالي لسيد، لكن على أساس تخصيصه في المرحلة الأولى من مراحل منهجه المتطور، ـ وهي التي خصصنا لها هذا المبحث ـ لكننا نخالفه أشد المخالفة إذا أراد أن يعممه على المراحل التالية من منهج سيد، وأن يسحبه على تفسيره للقرآن في الظلال ـ وهو ما نلمحه من مقاله ـ لأنه يظلم الرجل.

---

(١) المرجع السابق: ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٢) المرجع السابق: ١٨١.

المبحث الثاني

«منهج فكري . . في الطبعة الأولى من الظلال»

استمرت نظرات سيد في القرآن بعد ما ألف «التصوير الفني» و «مشاهد القيامة» ولفتت نظره إشارات القرآن وتقريراته حول أمور فكرية وإصلاحية واجتماعية . . فاستوقفته هذه الإشارات والتقريرات، وصار يتعمق دراستها والنظر فيها . . حينئذٍ لم يكن غرضه الفني هو الوحيد، ولا منهجه الجمالي هو الوحيد، وإنما جدّ له هدف آخر، وصار عنده منهج آخر، وهو المنهج الفكري . . فصار يبحث عن النصوص القرآنية التي تتحدث عن الأمور الفكرية والقضايا الاجتماعية والمناهج الإصلاحية والنظم الحياتية . . ويقف عندها ويتعمق دلالتها . . .

وقد سجل نتائج نظراته ودراساته وخواطره وأفكاره في كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام». الذي هو ثالث دراسة قرآنية له[1] ـ بعد التصوير والمشاهد ـ.

وقد استغرق تأليف الكتاب أكثر من سنتين. حيث صدرت طبعته الأولى في أبريل «نيسان» عام ١٩٤٩. وأشرف على طبعه شقيقه الأستاذ محمد قطب ، لأن سيد كان في أمريكا في ذلك الوقت . .

وعدوله عن المنهج الجمالي البياني إلى المنهج الفكري في دراسة

---

(١) تعتبر كتب سيد الإسلامية كلها دراسات قرآنية، لأنه استخرجها من نصوص القرآن وتوجيهاته، ولأنها تتحدث عن مناهج الحياة التي رسمها القرآن، أو تُعرِّف بهذا القرآن ومنهجه وطريقته وطبيعته . . وانظر ما نقلناه من كلام سيد نفسه في نهاية هذا المبحث . . .

القرآن وتفسيره، ناتج عن اهتماماته الفكرية والاجتماعية والإصلاحية الجديدة، التي حلّت محل الاهتمامات الأدبية والفنية.

فقد كان سيد في هذه الفترة صاحب نزعة إصلاحية، وكانت اهتماماته تقوم على معالجة أمراض المجتمع، وإصلاحه على أساس الإسلام، وتحقيق العدالة الاجتماعية الإسلامية فيه.

وفي هذه الفترة أصدر مجلة «الفكر الجديد» - بتمويل من الحاج محمد حلمي المنياوي صاحب دار الكتاب العربي - وكان جريئاً في معالجة الأوضاع الاجتماعية الشائهة في المجتمع، وفي الهجوم على الإقطاع والرأسمالية والباشوات وأصحاب السلطة.. ولذلك ضاقت السلطة ذرعاً به وبمجلته، فأغلقتها بعد صدور إثني عشر عدداً منها[1].

كذلك كانت مصر تعيش في ذلك الوقت مرحلة اجتماعية وسياسية قلقة مضطربة، وهي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. كانت غالبية الشعب تعيش على هامش الحياة، لا تكاد تملك من مقومات الحياة الإنسانية شيئاً، بينما طبقات الباشوات والأغنياء ورجال القصر وأغنياء الحرب في ترف فاجر.

وفي هذا الجو الموبوء نشط الشيوعيون في الدعاية لمذهبهم، وراحوا يمنّون الجماهير من المعدمين بجنتهم الموهومة..

وقد راع سيد هذا الوضع الشائه، وانزعج من هذا الجو الموبوء، وأسي للجماهير المستغَلَّة من قبل اللصوص والانتهازيين، والمستغْفَلَة من الشيوعيين... فأقبل على القرآن الكريم يبحث فيه عن علاج لهذا الوضع الاجتماعي، وحلٍ لهذا الاضطراب الفكري..

واكتشف أن للقرآن منهجاً فريداً في تحقيق «العدالة الاجتماعية» وإقرارها في المجتمع. فاستخرج منه هذا المنهج ودعا المفكرين والمثقفين وعامة الجماهير إلى الالتزام به، والعمل على تحقيقه في عالم الواقع..

(١) انظر «سيد قطب الشهيد الحي»: ١١٨ - ١١٩.

وقد أحدث الكتاب - فور صدوره - ضجة في مختلف الأوساط في مصر: فالأوساط الشيوعية اعتبرته عدوها الرئيسي لأنه يفتح عيون الجماهير على باب آخر غير ما يدعونهم إليه..

وأوساط الحكومة والقصر اعتبرته انتصاراً للحركة الإسلامية والفكر الإسلامي، وبخاصة «جماعة الاخوان المسلمين» الذين كانوا داخل السجون عقاباً لهم على اشتراكهم في الجهاد ضد اليهود في فلسطين!!....

والأوساط الإسلامية - وبخاصة الاخوان المسلمون - اعتبرته فتحاً جديداً في المكتبة الإسلامية، ونصراً مؤزراً للفكر الإسلامي، وإرهاصاً لانضمام صاحبه إلى الحركة الإسلامية[1]..

وسافر سيد إلى أمريكا واهتماماته في الإصلاح الاجتماعي، وخواطره في الفكر الإسلامي لم تفارقه، وعاش هناك صراعاً فكرياً مع الجاهلية الأمريكية.. وعاد من هناك مفكراً إسلامياً ملتزماً، عاد بحصيلة فكرية كبيرة ناتجة عن نظراته المتكررة المتعمقة في القرآن، وخواطره الفكرية حول نصوصه وتقريراته.. عاد إلى مصر ليجد فيها الصراع على أشدِّه بين الفكر الإسلامي وبين الفكر الجاهلي، وتقدّم الفكر الإسلامي على خصمه، وقوة الحركة الإسلامية المتعاظمة، وتحقيقها لانتصارات ومكاسب جديدة في عالم الفكر والبحث، وفي عالم الدعوة والبيان، وفي عالم الجهاد والعمل..

ولم يكن أمام سيد خيار في أن يكون إلى جانب الفكر الإسلامي، وبين جنود الحركة الإسلامية.. وكان انضمام سيد إلى الحركة الإسلامية مكسباً ضخماً يضاف إلى مكاسبها السابقة، ونصراً كبيراً للفكر الإسلامي تقدّم به خطوات واسعة إلى الأمام.

وفي هذه المرحلة ذات الاهتمامات الفكرية لسيد، كانت له نظرات في

---

(١) انظر تعريفنا بكتاب العدالة الاجتماعية والجو الذي ألف فيه والأثر الذي أحدثه: في مقالنا «كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام هل تخلى عنه سيد قطب؟» في مجلة المجتمع الكويتية. عدد: ٥٣٢ تاريخ ٩ يونيو ١٩٨١ م.

القرآن، ووقفات فكرية حول نصوصه، وخواطر مختلفة عن إيحاءاته وصوره وظلاله، ولكنه كان يكتفي بأن يعيش لحظات مع تلك الخواطر والنظرات، ولا يسجلها على الورق بهدف إطلاع الناس عليها..

ولما صدرت مجلة «المسلمون» في نهاية عام **١٩٥١**. طلب رئيس تحريرها ـ سعيد رمضان ـ من سيد أن يشارك في تحريرها بمقال شهري.. وحبذ أن يكون المقال في موضوع مسلسل، أو تحت عنوان دائم.. وهنا استيقظت رغبة سيد الكامنة، وقرر أن يسجـل في حلقات في المجلة، خواطره ووقفاته ونظراته الفكرية حول القرآن تحت عنوان دائم مثير «في ظلال القرآن».

نشر سيد في المجلة سبع حلقات من الظلال في سبعة أعداد متوالية، وفي نهاية الحلقة السابقة أعلن عن توقف الظلال في «المسلمون» لأنه سيصدره في أجزاء مستقلة تصدر تباعاً.

وظهر الجزء الأول من الظلال في أكتوبر «تشرين أول» عام **١٩٥٢**. وصار يوالي إصدار أجزائه.. وكانت اهتمامات سيد وهو يُصـدر الظلال اهتمامات فكرية وخواطره ونظراته فكرية.. صحيح أنه كان منهمكاً في واجباته العملية المختلفة مع الحركة الإسلامية في مصر، ولكن وقفاته ونظراته في القرآن، وخواطره حول نصوصه لا تعدو المنهج الفكري.

ولهذا يبين هذا المنهج في مقدمة الطبعة الأولى من الظلال، من خلال حديثه عن طبيعته، فيقول: «وبعد: فقد يرى فريق من قراء هذه الظلال أنها لون من تفسير القرآن. وقد يرى فريق آخر أنها عرض للمبادىء العامة كما جاء بها القرآن، وقد يرى فريق ثالث أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلٓهي في الحياة والمجتمع، وبيان الحكمة في ذلك الدستور. أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هـذا كله، وما جـاوزت أن أسجل خـواطري، وأنـا أحيا في تلك الظلال..»[١].

---

(١) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١ : ٦.

واستمر منهجه الفكري حتى ما بعد إدخاله السجن، ولم يُفتح عليه بالمنهج الحركي إلا في تفسير الأجزاء الأخيرة من الظلال، ولهذا نستطيع أن نقول: إن الطبعة الأولى من الظلال ـ باستثناء الأجزاء الأخيرة ـ كتبت على أسس المنهج الفكري في دراسة القرآن وتفسيره.

وكان المنهج الجمالي ـ الذي أشرنا إليه ـ ملحوظاً في الطبعة الأولى، ولكنه لم يكن هو الوحيد، كما لم يكن في المقام الأول، وإنما كان هدفاً ثانوياً، في المقام التالي للمنهج الفكري. ولهذا يقول: «وكذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من إحساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير..»[1].

كان القرآن الكريم زاده وهو يفسره في الطبعة الأولى من الظلال، ولهذا لم يرجع إلى الكتب «المتأخرة» التي تبحث في الموضوعات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية وغير ذلك، لأنه اعتبرها حاجباً تحجب عنه إيحاءات القرآن وتقريراته..

ومن هنا نستطيع أن نقول إن سيد رجل قرآني في تصوره وفكره، وفي خواطره ونظراته، وفي بحوثه ودراساته التي ألفها مع الظلال.

وقف يجول في جنبات الحقائق الموضوعية للقرآن، في شتى حقول المعرفة الإنسانية، ويقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض هذه الجوانب، فيرى الفرق كبيراً، كالفرق بين كل ما صدر عن الله، وما حاوله جهد البشر..

قارَن بين تقريرات القرآن وبين محاولات بني الإنسان في الموضوعات التي تطرق جوانب منها فلسفة البشر.. وفي الموضوعات التي تطرق جوانب منها علوم الحياة والنفس والتربية والاجتماع والعقائد والأديان.. وفي الموضوعات التي تطرق جوانب منها النظريات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..

---

(١) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١: ٦.

وبعد ما عقد هذه المقارنات قال: «في كل حقل من هذه الحقول يجد الدارس الواعي لهذا القرآن وفرة من النصوص والتوجيهات، يحار في كثرتها ووفرتها! فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة!»[1].

وعن نفسه يتحدث، مبيناً منهجه القرآني في مختلف دراساته التي أصدرها فيقول: «إنني لم أجد نفسي مرة واحدة - في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية - في حاجة إلى نص واحد من خارج هذه القرآن - فيما عدا قول رسول الله ﷺ وهو من آثار هذا القرآن - بل إن أي قول آخر ليبدو هزيلاً - حتى لو كان صحيحاً - إلى جانب ما يجده الباحث في هذا الكتاب العجيب..»[2].

ويقول في «معركة الإسلام والرأسمالية: «ولقد كتبت قبل اليوم كتاباً كاملاً عن «العدالة الاجتماعية في الإسلام، في نحو ثلاثمائة صفحة، وكتاب آخر عن «السلام العالمي والإسلام» في نحو مائتي صفحة، فلم أجد أنني بحاجة إلى الرجوع إلى شيء من كتب الحواشي، لأن الينابيع الأصلية في الإسلام، في الكتاب والسنة والسيرة والتاريخ، كانت كافية لإخراج هذين البحثين، ولإخراج سواهما مما سيجيء..»[3].

منهج سيد قطب في الطبعة الأولى من الظلال - التي تمثل المرحلة الثانية من مراحل منهجه المتطور في التفسير - هو منهج فكري في المرتبة الأساسية، ومنهج جمالي في المرتبة الثانية.

---

(1) الظلال - الطبعة المنقحة - ٣: ١٤٢٢.

(2) الظلال ٣: ١٤٢٣.

(3) معركة الإسلام والرأسمالية: ٨٥.

المبحث الثالث

«منهج حركي.. في الطبعة المنقحة»

بعد ما قطع سيد أشواطاً في تفسير الظلال على أساس منهجه الفكري...... وقعت قاصمة ضد الحركة الإسلامية في مصر، حيث اتهم «الاخوان المسلمون» بمحاولة اغتيال الرئيس المصري عام ١٩٥٤، وكانت مسرحية حادث «المنشية» في الإسكندرية التي خطط لها أعداء الإسلام في الداخل والخارج، والتي نفذها أعوان السلطة هناك... واستغلت الحكومة هذا الحادث للانتقام من «الإخوان». وفتحت أمامهم أبواب السجون والمعتقلات.. وكان سيد قطب ـ أحد قياديي الاخوان ـ في مقدمة المعتقلين..

ووقفت الجماهير المستغفلة «تتفرج» على ما يجري ضد أبنائها.. وهي التي كانت تعطي ولاءها وتأييدها للحركة الإسلامية وقت الرخاء.. وصب على جنود الحركة في أقبية سجون التعذيب العذاب صباً ووقعت هناك مجازر ومآسي لا مثيل لها.. تحت سمع الأكثرية الصامتة من الشعب وأمام بصرها..

وكان نصيب سيد قطب من التعذيب والاضطهاد كبيراً.. توجّته السلطات هناك بالحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة[1]..

---

(١) انظر «سيد قطب الشهيد الحي» ١٤٥ ـ ١٤٦.

وبعد ما توقف تعذيبه، واستقر في السجن - بعد صدور الحكم - وتكيف مع حياته الجديدة بنفسه ومشاعره وكيانه وأفكاره.. صار يسأل نفسه عن سر ما حدث له ولاخوانه: لماذا وقعت هذه القاصمة؟ لماذا توحدت جهود الأعداء - على اختلاف طوائفهم - على حرب الحركة الإسلامية؟ ولماذا نفذ عملاؤهم إشارة أسيادهم بدقة ونشاط؟ ولماذا تنكروا للصادقين المخلصين؟ ولماذا أسلمت الجماهير أبناءها البررة إلى أعدائها؟ وخلّت بينهم وبين وحوش الغاب؟ وسكتت على ما يجري لهم من الاضطهاد والتعذيب؟ وسارت بسذاجة وغفلة وراء جلاديها الذين يقودونها إلى حتفها؟

كان يشغل بال سيد في هذه المرحلة، الحركة الإسلامية وقضاياها ووضعها في مرحلتها الجديدة، ويرى على وجوه إخوانه وملامحهم فجيعتهم - المؤقتة - في آمالهم في إنشاء المجتمع الإسلامي، ويأسى لهم وهم يضمدون جراحهم بعزة واستعلاء وثبات.

صارت هذه هي اهتمامات سيد في وضعه الجديد، وكانت هذه التساؤلات والخواطر لا تفارقه.. وأقبل على القرآن الكريم، بهذه الاهتمامات والخواطر والشواغل، أقبل عليه يعيش معه، ويستظل بظله، ويستنطقه عن سر ما حدث له ولإخوانه، وكان لا بدّ أن يجد عنده الجواب على تساؤلاته.

ودخل سيد عالم القرآن الرحيب برصيد ضخم من «المشاعر والمدركات والتجارب» تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله. وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك.. معترك الجهاد، جهاد النفس وجهاد الناس.. وجو مكة... ثم جو المدينة.. وجو نشأة الأمة المسلمة..»[1].

هذا الرصيد ساعده في التعرف على مهمة القرآن العملية الحركية، واكتشاف المفتاح الحركي الذي فتح به كنوز القرآن الحركية المذخورة فيه.

وكما كان ملهَماً ومتفرداً في إدراك المفتاح الجمالي وتطبيق المنهج

---

(١) خصائص التصور الإسلامي: ٨.

الجمالي في بداية دراسته للقرآن وتفسيره، فقد كان ملهماً ومتفرداً في إدراك المفتاح الحركي وتطبيق المنهج الحركي في المرحلة الأخيرة ـ المستقرة ـ التي درس بها القرآن وفسره في الظلال. .

خرج من تجربته الدامية ـ هو وإخوانه ـ مع الجاهلية بنتائج قاطعة، وحقائق يقينية: وهي حتمية المعركة بين الإسلام والجاهلية. وضرورة المفاصلة بين الحركة الإسلامية وبين الجاهليين. واتفاق الجاهليين على حرب الإسلاميين. وأن على الحركة الإسلامية أن تُدْخل القرآن المعركة مع الجاهلية، وأن تُقبل عليه بهدف الصياغة النفسية والفكرية، وإنشاء الشخصية القرآنية المتكاملة، وبيان معالم طريقها إلى ربها. .

وعرف السر في سكوت الجماهير على ضرب الحركة الإسلامية، وأنه يتلخص في عدم تصورها لعقيدتها، وعدم وضوح العقيدة وموضوعاتها في فكرها وحياتها. . لم تعرف معنى «لا إله إلا الله» حق المعرفة، ولا أبعادها وحقيقتها. لم تعش مبادىء العقيدة في حياتها وسلوكها. . ولم تترك للعقيدة توجيه مواقفها ومواقعها. . ولذلك خافت من الطغاة، وجبنت عن نصرة جنود الحق. . .

وهو لم يخرج بما خرج به من النتائج والحقائق، ولم يدرك ما أدركه من تجربته العملية، ولم يجد الجواب على أسئلته، إلا بعد ما أقبل على القرآن برصيده ذلك. وفتح به كنوزه بمفتاحه ذلك. .

وكلما تكررت نظراته في القرآن، وطالت حياته في ظلاله، كلما ازداد رصيده وخبراته وتعرفه على المنهج الحركي للقرآن. . وأدرك سر القرآن، وفتح كنوزه، ودبت الحياة في نصوصه، ورأى به دوره الحركي الواقعي. .

فتح الله على سيد بهذه الفتوحات وهو يقترب من نهاية الطبعة الأولى من الظلال، ولذلك صاغ الأجزاء الثلاثة الأخيرة على منهجه الحركي الجديد. . ولم تَخْلُ الأجزاء التي سبقتها من إشارات حركية وتربوية

ودعوية.. ولكنها لم تكن هي طبيعة تفسيره مثل ما كانت الأجزاء الثلاثة الأخيرة[1]..

ونظر في الأجزاء الأولى من الظلال - التي كتبها على هدي منهجه الفكري السابق - فرأى أنها لا تتضمن نظراته وأفكاره الحركية والتربوية، ومن ثم لا تعطي القارىء المسلم المعاصر الزاد الحركي والتربوي الذي يحتاجه في حياته.. ولذلك عمل على تنقيحها وتعديلها..

وهكذا كان.. حيث أعاد كتابتها على أساس منهجه الحركي الجديد، فجاءت صورة جديدة لا تكاد تجد شبهاً بينها وبين صورتها في طبعتها الأولى لا في الكم ولا في الكيف ولا في الطريقة والمنهج.. وكأنهما كتابان لمؤلفيْن مختلفيْن[2]..

ورغم أن سيد فسر القرآن في طبعة الظلال المنقحة على هدي منهجه الحركي إلا أنه لم يستبعد وقفاته الفكرية في الطبعة الأولى، ولا نظراته الفنية الجمالية في «مكتبة القرآن الجديدة». فهما موجودتان في الطبعة المنقحة بقسط وافر. لكنهما ليستا الغرض الأساسي أو الهدف الرئيسي - كما بينا في المبحثين السابقين من هذا الفصل - وإنما وُجدتا تابعتين للمنهج الحركي التربوي كأغراض ثانوية.

من هذا نستطيع أن نقول: إن وقفاته مع القرآن، ونظراته فيه، ودراسته له هي: جمالية في «مكتبة القرآن الجديدة» وفكرية جمالية في الطبعة الأولى للظلال ودراساته القرآنية الصادرة في تلك الفترة. وحركية تربوية فكرية جمالية في الطبعة المنقحة، في الصورة الأخيرة التي ارتضاها قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى..

وقد نجح سيد في اكتشاف المفتاح الحركي، وتطبيق منهجه في الطبعة المنقحة:

---

(١) انظر كتاب «سيد قطب الشهيد الحي»: ٢٤٢.
(٢) انظر «الفروق المنهجية بين طبعتي الظلال» في كتابنا «مدخل إلى ظلال القرآن».

١ ـ لأنه استصحب ـ وهو يفسر القرآن ـ «الأحوال والملابسات، والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآن.. فأدرك وجهة النص وأبعاد مدولاته، ورأى حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة..»[١].

٢ ـ لأنه عاش في ظلال القرآن طويلاً قبل أن يقوم بتفسيره، واستلهم نصوص القرآن مباشرة، واستأنس بسوره في معتقله.. فلكل سورة شخصية متفردة وملامح متميزة.. فهي كالشأن في نماذج البشر يشتركون في صفة الإنسانية العامة، ويتمايزون بصفاتهم الشخصية الفردية. ولهذا يقول: «هكذا عدت أتصور سور القرآن. وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها، بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته، وملامحه وسماته.... إنها أصدقاء.. كلها صديق.. وكلها أليف.. وكلها حبيب.. وكلها ممتع..»[٢].

٣ ـ لأنه دخل عالم القرآن الرحيب بدون مقررات عقلية سابقة. ولكنه واجه نصوص القرآن مباشرة، وتلقى منها مقرراته وتصوراته، ولهذا سكبت في كيانه إيحاءاتها وحقائقها وتقريراتها.. يقول: «ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً. لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية ـ من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته ـ نحاكم إليها نصوصه؛ أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة!

لقد جاء النص القرآني ـ ابتداء ـ لينشىء المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، أن تقوم عليها حياتهم..... فعليهم أن يتلقوها وقد فرَّغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل غبش دخيل..»[٣].

٤ ـ لأنه تحرك بالقرآن حركة عملية حية، وجاهد به الجاهلية جهاداً عملياً،

---

(١) الظلال ٤: ٢١٢١ ـ ٢١٢٢.

(٢) الظلال ٣: ١٢٤٣.

(٣) خصائص التصور الإسلامي: ١٦ ـ ١٧.

وخاض به تجربة دعوية حيوية. . وكتب تفسيره من الميدان لا من وراء المكاتب، أو خلف الجدران!، ونزّل نصوصه على الواقع الذي عاشه، ونظر فيما حوله بمنظار القرآن، وقوّم الأحداث بميزانه. . . . ولهذا أدرك أهم سمات القرآن وهي «الواقعية الحركية».

وهذه «الواقعية الحركية» هي ما نسميه بالمفتاح الحركي، يقول عنها سيد: «ونحن نؤكد على هذه السمة في القرآن. . سمة الواقعية الحركية. . لأنها - في نظرنا - مفتاح التعامل مع هذا الكتاب، وفهمه وفقهه، وإدراك مراميه وأهدافه. .»[1].

وهو يدعو القراء والباحثين، والكتاب والمثقفين والمؤلفين - إذا أرادوا أن يتعرفوا على القرآن ومنهجه - أن يتحركوا به حركة عملية. . ويجهر برأيه بقوة وصراحة وتحديد ووضوح: «إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة، ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها، وإن الذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون، يدرسونه دراسة بيانية أو فنية، لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً في هذه القعدة الباردة الساكنة، بعيداً عن المعركة، وبعيداً عن الحركة. .»[2].

يخلص لنا في نهاية هذا الفصل - أن منهج سيد قطب في التفسير، كان يتطور ويتدرج، حسب اهتماماته الجديدة، وأنه - نتيجة لذلك - مر بثلاث مراحل متدرجة: فهو منهج جمالي صرف في مكتبة القرآن الجديدة، وهو منهج فكري جمالي في الطبعة الأولى من الظلال، وهو منهج حركي ثم فكري جمالي في الطبعة المنقحة من الظلال، وهي الصورة النهائية التي ارتضاها وأحب أن يعرفه الناس من خلالها. . .

(١) الظلال ٤ : ٢١٢١.
(٢) الظلال ٤ : ١٨٦٦.

الفَصْلُ الثَّانِي

نَظَرِيَّةُ سَيِّدْ قُطُبْ فِي التَّفْسِيرِ

المبحث الأول

«جوهر النظرية»

ترتبط نظرية سيد قطب الحركية في التفسير بالمهمة الأساسية للقرآن. وفهم الصحابة له ـ وسنخصص المبحث الثاني من هذا الفصل لبيان عوامل تكونها عنده.

إن الغرض الأساسي للقرآن ـ كما فهمه سيد قطب ـ هو غرض عملي حركي حيوي. إنه يهدف إلى تكوين الشخصية الإسلامية السوية، وإنشاء الجماعة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وقيادته في معركته الحتمية مع الجاهلية. يقول: «نزل هذا القرآن الكريم على قلب رسول الله ـ ﷺ ـ لينشىء به أمة، وليقيم به دولة، ولينظم به مجتمعاً، وليربي به ضمائر وأخلاقاً وعقولاً، وليحدد به روابط ذلك المجتمع فيما بينه، وروابط تلك الدولة مع سائر الدول. . . على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد. . الأصل فيه إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وتلقي منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك. .»[1].

وقد أدرك الصحابة هذا الغرض القرآني حق الإدراك، وفهموا مهمته حق الفهم، ومن ثم تمثلوها خير تمثيل. ونفذوها أصدق تنفيذ. .

---

(١) الظلال ٢: ٨٢٥.

كان الصحابة يتلقون القرآن للتنفيذ والعمل، لا للثقافة والإطلاع، ولا للتذوق والمتاع، يتلقون القرآن ليتلقوا أمر الله في خاصة شؤونهم، وشأن الجماعة التي يعيشون فيها، وشأن الحياة التي يحيونها، وكانوا يعملون به فور تلقيه..

منهج التلقي للتنفيذ كان يفتح لهم آفاقاً من المتاع، وآفاقاً من المعرفة، ولكنها مكاسب ثانوية، وليست هدفهم الأساسي من تلقي القرآن.. ومن ثم اختلط القرآن بذواتهم، وتحول في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي حركي جدي، وإلى ثقافة حية متحركة لا تبقى داخل الأذهان أو بطون الصحائف..

تفرد الصحابة ـ كجيل قرآني فريد ـ لتلقيهم القرآن وفق هذا المنهج، وتأخرت أجيال المسلمين اللاحقة لأنهم خالفوا هذا المنهج في التلقي، وتلقوه للدراسة والمتاع، والمعرفة الذهنية والثقافة العقلية[1]..

دخل سيد قطب عالم القرآن ليتعرف على منهجه، ويتلقى منه إيحاءاته وتقريراته، ونجح في مهمته، ووفقه الله إلى إدراك ما يريد، وفتح له القرآن عن كنوزه التي راح يغترف منها ويعرضها على الناس.

نجح في مهمته، لأنه استلهم القرآن مباشرة، وأقبل عليه بدون مقررات فكرية أو شعورية مسبقة، يقول: «منهجنا في استلهام القرآن الكريم، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً، لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية ـ من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته ـ نحاكم إليها نصوصه، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السباقة..

لقد جاء النص القرآني ـ ابتداء ـ لينشىء المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم..»[2].

استخرج من القرآن خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، وتعرف على

---

(١) انظر فصل «جيل قرآني فريد» في معالم الطريق.

(٢) خصائص التصور الإسلامي: ١٦ ـ ١٧. وانظر الظلال ٦: ٣٩٧٩.

طريقته في عرض العقيدة، وعلى أهم سمات هذه العقيدة. .

«الحركة» هي طابع العقيدة الإسلامية. . ومن ثم هي الطابع لهذا الدين. والطابع للمجتمع الإسلامي الذي ينبثق من هذه العقيدة، وينشأ من هذا الدين[١].

ولذلك فإن القرآن الكريم ـ كما بيّن سيد قطب ـ كان يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية. . ويواجه بها واقعاً بشرياً كاملاً بكل ملابساته الحية. . ومن ثم صارت هذه العقيدة تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي. . . . فظهر بناء العقيدة ـ في مجتمع الصحابة الفريد ـ لا في صورة «نظرية» ولا في صورة «لاهوت» ولا في صورة «جدل كلامي». . ولكن في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة، وتجمع عضوي حيوي، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها. . فكان «نمو» الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي، وفي سلوكها الواقعي، وفي مواجهتها الحركية مع الجاهلية. . كان هذا النمو ذاته ممثلاً تماماً لنمو البناء العقيدي وترجمة حية له.

وإن الخروج عن هذه السمة للعقيدة، وتحويلها عن هذه الطبيعة، إلى «نظرية» للدراسة الذهنية، والمتعة العقلية، والمعرفة الثقافية، إن هذا ـ الذي جرى في العصور الإسلامية المتأخرة ـ يعتبر خطأً قاتلاً، وخطراً كبيراً، تموت به العقيدة في القلب، وتتحول إلى تراث ثقافي ومعرفة عقلية. .

التجمع العضوي الحيوي الحركي هو الصورة العملية الحتمية للتصور الاعتقادي فإذا لم ينبثق هذا التجمع من هذا التصور، فإن هذا التصور لا حياة فيه. . إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية، وفي تنظيم واقعي، وفي تجمع عضوي، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها. وهي في صورتها هذه تُشْغل من القلوب والعقول ـ ومن الحياة أيضاً ـ مساحة أضخم وأوسع وأشمل مما تشغله «النظرية».

---

(١) معالم في الطريق: ١٥٨.

ويختم سيد بيانه المفصل لطبيعة العقيدة وسماتها بعبارات حازمة جازمة: «ومرة أخرى أكرر: إن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلاً صحيحاً، وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي.

ومرة أخرى أكرر كذلك: إن هذا هو المنهج الطبيعي للإسلام الرباني، وإنه منهج أعلى وأقوم وأشد فاعلية، وأكثر انطباقاً على الفطرة البشرية، من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة. وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين بالفعل بحركة واقعية، وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري[1]..

ويعتبر إدراك سيد لطبيعة العقيدة وسماتها، ولمنهج القرآن في عرضها، ولحتمية التجمع الحركي العضوي المنبثق عنها.. يعتبر هذا مفتاح منهجه الحركي في فهم القرآن وتذوقه. وأساس نظريته الحركية في تفسيره.

أخبرنا بجوهر نظريته في تفسير القرآن التي عرضها في الطبعة المنقحة من الظلال، وبفهمه الفريد لطبيعة القرآن، وذلك عندما رسم لنا الطريق الذي ندرك به مدلولات القرآن وإيحاءاته، ونفسر به آياته ونصوصه.. يقول:

«إن المسألة ـ في إدراك مدلولات هذا القرآن وإيحاءاته ـ ليست هي فهم ألفاظه وعباراته. ليست هي «تفسير» القرآن ـ كما اعتدنا أن نقول! ـ المسألة ليست هذه. إنما هي استعداد النفس برصيد من المشاعر والمدركات والتجارب، تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله، وصاحبت حياة الجماعة المسلمة وهي تتلقاه في خضم المعترك.. معترك الجهاد.. جهاد النفس وجهاد الناس.. جهاد الشهوات وجهاد الأعداء. والبذل والتضحية، والخوف والرجاء. والضعف والقوة. والعثرة والنهوض..

---

(١) الظلال ٢: ١٠١٤ وانظر بيان سيد لطبيعة العقيدة ومنهج القرآن في عرضها في الظلال ٢: ١٠٠٤ ـ ١٠١٥ وفصل «طبيعة المنهج القرآني» من كتاب «معالم في الطريق».

جو مكة، والدعوة الناشئة، والقلة والضعف، والغربة بين الناس.. جو الشّعب والحصار، والجوع والخوف، والاضطهاد والمطاردة، والانقطاع إلا عن الله.. ثم جو المدينة: جو النشأة الأولى للمجتمع المسلم بين الكيد والنفاق والتنظيم والكفاح.. جو «بدر» و«أحد» و«الخندق» و«الحديبية». وجو «الفتح» و«حنين» و«تبوك».. وجو نشأة الأمة المسلمة، ونشأة نظامها الاجتماعي، والاحتكاك الحي بين المشاعر والمصالح والمبادىء في ثنايا النشأة وفي خلال التنظيم..

.. في هذا الجو الذي تنزلت فيه آيات القرآن حية نابضة واقعية.. كان للكلمات وللعبارات دلالاتها وإيحاءاتها.. وفي مثل هذا الجو الذي يصاحب محاولة استئناف الحياة الإسلامية من جديد يفتح القرآن كنوزه للقلوب، ويمنح أسراره، ويشيع عطره، ويكون فيه هدى ونور..»[1].

من هذه الفقرة الكاشفة، يتبين لنا بعض الأسس التي بنى عليها نظريته في التفسير:

منها: التزود برصيد ضخم من المشاعر والمدركات والتجارب، واستصحابها وهو ينظر في نصوص القرآن، ويتلقى إيحاءاته.

ومنها: الذهاب - بخياله ومشاعره وأحاسيسه - إلى الجو الذي تنزل فيه القرآن في مكة والمدينة، لإدراك أثر القرآن فيه وتأثيره به، والوقوف على الملابسات التاريخية لنزول القرآن.

ومنها: ملاحظة حركة الصحابة - في جو مكة وفي جو المدينة - بالقرآن وتفاعلهم معه، وحياتهم به.

ومنها: الوقوف على الأغراض الأساسية الحيوية للقرآن، ومنهجه الواقعي الحركي، الذي صاغ به حياة الأمة المسلمة أفراداً أو جماعات، ومناهج ومجتمعات. وتنزيل نصوص القرآن على واقع جدي حي، متحرك مجاهد.

---

(١) خصائص التصور الإسلامي: ٧ - ٨.

ومنها: القيام بدور عملي جهادي، وتجربة حية دعوية، مشابهة ـ في بعض مظاهرها ـ لتجربة الصحابة الكرام ـ وبخاصة في «جو» مكة ـ والحركة العملية الجهادية بالقرآن، وشغل النفس والمشاعر والكيان بشواغلها واهتماماتها، وهمومها وآلامها. . والإقبال ـ من ثم ـ على القرآن، ليجد عنده الجواب الواضح، والبلسم الشافي.

وينتج عن السير في الطريق الذي رسمه بهذه الأسس، بث الحياة في نصوص القرآن، في ألفاظه وعباراته، ورؤيتها حية متحركة، نابضة واقعية، والأنس بمصاحبة القرآن، وكأن كل سورة من سوره صديق أليف حبيب! . . .

يدعو سيد قطب القراء إلى الحياة في جو القرآن ـ كما عاش هو ـ للوقوف على أسرار القرآن وطبيعته ومنهجه وكنوزه، وفهم دلالاته وإيحاءاته، وحسن تفسيره. تفسيراً صحيحاً حياً مؤثراً.

وهذه الدعوة تمثل أيضاً جزءاً أساسياً من نظريته في فهم القرآن وتفسيره، ومن ثم يحدد لنا معنى هذه الدعوة، وطبيعة الحياة في جو القرآن بقوله:

«الحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن، وقراءته والإطلاع على علومه. . إن هذا ليس «جو القرآن» الذي نعنيه. . إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع وفي اهتمامات. . كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن. . أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض اليوم، وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن ينشىء الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس ـ مرة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية. .»[1].

ويبين أن القرآن نزل في مثل هذا الجو. والذين لا يعيشون في هذا

---

(١) الظلال ٢: ١٠١٦ ـ ١٠١٧.

الجو «معزولون عن القرآن، مهما استغرقوا في مدارسته وقراءته والإطلاع على علومه. . »[1].

بل إن «الظلال» لن يحقق الهدف منه، إلا إذا انتقل الناس هذه النقلة وعاشوا في «جو القرآن» «والمحاولة التي نبذ لها لإقامة القنطرة بين المخلصين من هؤلاء وبين القرآن، ليست بالغة شيئاً، إلا بعد أن يجتاز هؤلاء القنطرة، ويصلوا إلى المنطقة الأخرى، ويحاولوا أن يعيشوا في «جو القرآن» حقاً بالعمل والحركة. . وعندئذٍ فقط، سيتذوقون هذا القرآن، ويتمتعون بهذه النعمة التي ينعم الله بها على من يشاء. . »[2].

القرآن الكريم إذن ـ في نظرية سيد قطب ـ كتاب هذه الأمة الحي، ورائدها الناصح، ومدرستها الأصيلة، إنه «قرآن حكيم»[3] وإنه «عليّ حكيم»[4] والحكمة من صفات العقلاء. فالقرآن حكيم عاقل، رائد مرب، وقائد مجاهد! وإن له وظيفة تربوية حركية أساسية في حياة الأمة المسلمة. . فيجب أن ننظر إليه بهذا المنظار. وأن نتلقاه بوعي. وأن نتدبره «على أنه توجيهات حية، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه كلام جميل يرتل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود. . . وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي، سنجد عنده ما نريد، وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي!، سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق. . »[5].

ويصرح سيد في موضع آخر من الظلال بهذه الطبيعة الحركية الدعوية للقرآن بقوله: «هذا القرآن هو كتاب هذه الدعوة، هو روحها وباعثها. وهو قوامها وكيانها. وهو حارسها وراعيها. وهو بيانها وترجمانها. وهو دستورها

---

(١) الظلال ٢: ١٠١٧.
(٢) المرجع السابق ٢: ١٠١٧.
(٣) يس: ٢.
(٤) الزخرف: ٤.
(٥) الظلال ١: ٢٦١.

ومنهجها. وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة ـ كما يستمد منه الدعوة ـ وسائل العمل، ومناهج الحركة، وزاد الطريق. .»[١].

ويعلن بأنه ستظل فجوة عميقة بيننا وبين القرآن ما لم نستحضر في حسنا وواقعنا وحركتنا هذه الطبيعة لـلقرآن. وسيظل حاجز سميك بين قلوبنا وبين القرآن ما لم نتعامل معه بهذا الاعتبار، وننظر إليه من هذه الزاوية. ويعتبر هذه الطبيعة العملية الحركية للقرآن، من أبرز وجوه إعجازه[٢].

بهذه الطبيعة المعجزة للقرآن، أدى القرآن دوره الأساسي في حياة الجماعة المسلمة، وكان دائماً معها في المعركة، سواء تلك الناشبة في القلوب ـ بين تصورات الجاهلية وتصورات الإسلام، أو الناشبة في الجو الخارجي ـ بين الجماعة المسلمة وأعدائها الخارجيين ـ.

ولذلك يدعو سيد الأمة المسلمة إلى إدخال القرآن معركتها «الحتمية» التي ما زالت قائمة بينها وبين أعدائها. .» ولا نجاة للنفس البشرية ولا للأمة المسلمة إلا بإدخال هذا القرآن في المعركة. ليخوضها حية كاملة، كما خاضها أول مرة. . وما لم يستيقن المسلمون من هذه الحقيقة فلا فلاح لهم ولا نجاح!»[٣].

أدرك سيد ـ على هدي نظريته الحركية في تفسير القرآن ـ أهم سمات القرآن وهي «سمة الواقعية الحركية» واعتبرها مفتاح التعامل مع القرآن. وكانت حقاً «المفتاح الحركي» الذي وضعه الله بين يديه ففتح به كنوز القرآن، وكان أساس نظريته في التفسير والقاعدة العامة للطبعة المنقحة من الظلال!.

«ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن. . سمة الواقعية

---

(١) الظلال ١ : ٣٤٨.
(٢) انظر الظلال ١ : ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٣) الظلال ١ : ١٨٠.

الحركية. . لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب، وفهمه وفقهه، وإدراك مراميه وأهدافه»[1].

وعلى أساس هذه السمة المعجزة، يدعو سيد المسلمين المعاصرين إلى التعامل مع القرآن، أما الطريق الذي يتذوقون به إيحاءات القرآن وتوجيهاته وتقريراته فهو: «استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني. . لا بدّ من هذا لإدراك وجهة النص، وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده. وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها، كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته، كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية، وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية. . »[2].

وسيد الذي استصحب ما أشار به، أدرك منهج القرآن الفريد وهو يقدم العقيدة الإسلامية، ومنهجه وهو يقدم هذا الدين بمناهجه وتشريعاته وقيمه وأنظمته. . كان يقدم هذا كله منهجاً عملياً حركياً واقعياً جدياً[3]. .

كذلك أدرك المنهج الحركي لهذا الدين. وأبرز أهم سماته الحركية. وهي:

١ ـ الواقعية الجدية.
٢ ـ الواقعية الحركية.
٣ ـ وضوح الطبيعة وثبات الأهداف.
٤ ـ الضبط التشريعي على أساس القواعد الأساسية[4].

وسيد الذي أدرك هذه السمات في هذا الدين، من خلال نظرته العملية في النصوص، دل القراء على الطريق الذي يدركون به هذا الإدراك،

---

(١) الظلال ٤: ٢١٢١.
(٢) انظر الظلال ٤: ٢١٢١ ـ ٢١٢٢ و ٣: ١٥٠٩ ـ ١٥١٠.
(٣) انظر الظلال ٢: ١٣٩٩.
(٤) انظر شرح سيد لهذه السمات في الظلال ٣: ١٤٣٢ ـ ١٤٣٣.

ويفهمون به هذا الفهم، ويفسرون به القرآن تفسيراً حيوياً... إن النصوص القرآنية تُدرَك «بالحياة في جوها التاريخي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملها مع الواقع الحي.. وهي لا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلا في ضوء ذلك الواقع التاريخي.. ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم، وفاعليتها المستمرة.. ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم»[1].

وبعد أن يوضح للناس الطريق يدعوهم إلى التعامل المباشر مع القرآن، والوقوف على معالم منهجه وملامح طبيعته ـ بالشروط التي أوردناها ـ ولن يتم هذا كله إلا بالتذوق المباشر للقرآن: «ولا يمكن أن نصف نحن في أسلوبنا البشري، ملامح المنهج القرآني، فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج»[2].

وبعد أن بين سيد ملامح المنهج القرآني، وطبيعته الواقعية الحركية، والطريق العملي لفهم نصوصه وتفسيرها وتذوقها، والزاد لهذه الطريق، بعد أن بين هذا صرح بأنه ليس كل الناس مؤهلين للسير في هذا الطريق، وفهم هذا المنهج، فلا بدّ للسالكين فيه من مؤهلات خاصة، ومهمة خاصة، وشخصية خاصة.

إن المؤهلين للسير في ذلك الطريق هم أهل القرآن وخاصته. وهؤلاء ليسوا الذين يدرسونه دراسة بيانية أو فنية أو لغوية، أو يدرسونه للمتاع العقلي والمعرفة الثقافية، ولكنهم هم الذين يتحركون به... «إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه، جديدة دائماً، : كلما عاشوا في ظلاله؛ وهم يخوضون معركة العقيدة ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ، ويطالعون بوعي أحداث الحاضر. ويرون بنور الله الذي يكشف الحق، وينير الطريق..»[3].

أما القاعدون من المسلمين الباحثين والمفسرين، الذين لا يتحركون حركة عملية بالقرآن، فهم لا يفهمون القرآن، ولا يحسنون تفسيره، ولا

---

(١) الظلال ٣: ١٤٥٣.
(٢) الظلال ٣: ١٧٩٠.
(٣) الظلال ٢: ١٠٦٢.

يدركون منهجه. . . «إن هذا القرآن لا يتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة، ويواجه مثل تلك المواقف التي تنزل فيها ليواجهها ويوجهها. والذين يتلمسون معاني القرآن ودلالاته وهم قاعدون. يدرسونه دراسة بيانية أو فنية، لا يملكون أن يجدوا من حقيقته شيئاً، في هذه القعدة الباردة الساكنة، بعيداً عن المعركة وبعيداً عن الحركة. .»[1].

المعاصرون من المسلمين ـ الذين كتب لهم الظلال ـ لا يدركون طبيعة القرآن ومنهجه، ولا موضوعه ووجهته ـ إلا من رحم الله منهم ووفقه للتذوق والفهم والتلقي عن القرآن ـ لأنهم:

١ ـ ابتعدوا عن الجو الذي تنزل فيه القرآن.

٢ ـ وابتعدوا عن الاهتمامات والأهداف التي تنزل لها القرآن.

٣ ـ وانماعت وذبلت في حسّهم وتصورهم مدلولات القرآن وأبعادها الحقيقية.

٤ ـ وانحرفت في حسّهم مصطلحاته عن معانيها. . وهم يعيشون في جاهلية. .

٥ ـ ولأنهم لا يتحركون بالقرآن حركة عملية واقعية في وجه الجاهلية[2].

وأعتقد في نهاية هذا المبحث بأن جوهر نظرية سيد قطب في فهم القرآن وتفسيره صار معروفاً، فمفتاحه الحركي الذي فتح به كنوزه موجود في الظلال، ومن السهولة ـ الآن ـ ملاحظته والوقوف عليه.

ونستطيع أن نلخص في كلمات نظريته في التفسير: القرآن هو كتاب هذه الدعوة. والواقعية الحركية من أهم سماته. ولا بدّ من إدخاله المعركة مع الجاهلية. ولا بدّ من الحياة في جوه. والحركة العملية به. وتلقي نصوصه للتنفيذ. والإقبال عليه بروح المعرفة المنشئة للعمل والتربية. ولا بدّ من استصحاب المشاعر والمدركات والتجارب التي صاحبت نزوله أول مرة. . ولا بدّ من الحركة به. . لأنه لا يدرك أسراره قاعد. ولأنه لا يفتح كنوزه إلا لمن يتحرك به فعلاً. .

---

(١) الظلال ٤: ١٨٦٤. وانظر الظلال ٤: ١٨٩٤ و ٤: ١٩٤٨.

(٢) انظر الظلال ٤: ٢٠٣٨.

المبحث الثاني

«عوامل تكوين النظرية»

نظرية سيد قطب الفريدة في التفسير - التي بينا جوهرها في المبحث السابق - لم تتكون عنده في يوم وليلة، وإنما هناك ملابسات أحاطت بها، وعوامل ساعدت على تكوينها، وأحداث وحوادث اعتبرت إرهاصات لها.

وقد وقفنا - في الفصل الأول من هذا الباب - على تطور منهج سيد قطب في فهم القرآن وتفسيره، وأن هذا التطور كان أثراً من آثار اهتمامات صاحبه، وما طرأ على حياته من أهداف مرحلية.

لماذا لم تكن نظريته الحركية في التفسير هي أساس نظراته الأولى في القرآن؟ ولماذا لم يفسر القرآن على أساس منهجه الحركي في بداية تعامله مع القرآن؟ ولماذا تأخر ظهور نظريته إلى نهاية الخمسينيات؟ وتأخر تفسيره الحركي إلى ذلك الوقت؟

للإجابة على هذه التساؤلات نقول: إن نظرية سيد في التفسير، لم تظهر فجأة، ولم تولد في فراغ، ولقد كان لاهتمامات صاحبها، والأحداث والحوادث التي حدثت في حياته، والتجارب العملية الحية التي مر بها، كان لكل هذا صلة بتكون تلك النظرية.

ولقد بينا في مبحث «منهج حركي في الطبعة المنقحة» في الفصل السابق الملابسات التي ألف فيها سيد الطبعة المنقحة، واهتماماته وهو يؤلفها، والجو العام الذي ألفها فيه.

تلك الملابسات والاهتمامات هي التي ساعدت على تكون النظرية، وأعتقد بأن هذه النظرية الحركية الفريدة، لم تكن لتتكون عند سيد لو أنه بقي على اهتماماته الفنية والجمالية في دراسته للقرآن، أو بقي على اهتماماته الفكرية والثقافية الذهنية في دراسته للقرآن! لو بقي على اهتماماته الفنية والأدبية، لن يعدو أن يكون متذوقاً متفرداً بين متذوقي جمال القرآن وبيانه! ولو بقي على اهتماماته الثقافية والفكرية، لن يعدو كذلك طبقة الباحثين والكتاب المسلمين المعاصرين، الذين يكتبون من وراء المكاتب بمنطق ذهني عقلي ثقافي، والذين تملأ مؤلفاتهم أرفف المكتبة الإسلامية المعاصرة..

إن انضمام سيد قطب إلى الحركة الإسلامية كان عامل إرهاص بقرب تكوُّن نظريته. وإن فجيعته بآماله القريبة بإقامة المجتمع الإسلامي في أقرب فرصة لا تعدو منتصف الخمسينيات، ومكر رجال الثورة به وبإخوانه، ووقوع الحدث الخطير الذي غيَّر مسار حياته وفكره وتصوراته ـ وهو تجربته المرة في السجون ـ كل ذلك ساعد على تشكيل الوسط الذي ولدت فيه النظرية، والجو الذي تكونت فيه. وإن إدخال سيد للقرآن في معركته مع الجاهلية، وحياته في ظلاله، وحركته به، هو الظرف الذي عاشت فيه نظريته، والميدان الذي نمت فيه..

إن أهم العوامل التي ساعدت على تكوُّن تلك النظرية عند سيد قطب هي:

١ ـ ملاحظته الغرض الأساسي للقرآن، وأنه ليس كتاباً للتلاوة فقط، ولا للثقافة فقط، ولا للبيان والفن والأدب فقط، ولا للتشريع الدقيق المحكم فقط، ولكنه يهدف إلى صياغة الشخصية المسلمة، وإخراج الأمة المسلمة، خير أمة أخرجت للناس..

٢ ـ وقفته الطويلة أمام ظاهرة «جيل الصحابة القرآني الفريد» وتساؤله عن بروز هذه الظاهرة، وأسباب ذلك التفرد. والوقوف على تعليل الظاهرة، وبيان الأسباب، التي من أهمها: أنهم نشأوا في محضن القرآن،

وصيغوا على نصوصه، وعاشوا في ظلاله، وأنهم تلقوا القرآن وتوجيهاته للعمل والتنفيذ، وأنهم تحركوا به حركة عملية في مواجهة الجاهلية.

ولذلك وبعد ما أدرك هذا، فإنه حرص على أن يتلقى القرآن كما تلقاه الصحابة، وأن يتحرك به كما تحركوا، وأن يعيش في ظلاله كما عاشوا، ودعا الجماعة المسلمة إلى أن تتلقى القرآن هذا التلقي.

٣ ـ حياته في «جو القرآن» في العهدين المكي والمدني، واستصحاب الملابسات والظروف والأحوال التي صاحبت نزول القرآن، والتدرج في الواقع التاريخي للأمة المسلمة عصر نزول القرآن، وملاحظة تفاعل الصحابة مع القرآن، وحركتهم به، والآثار التي طرأت على نفوسهم ومشاعرهم وحياتهم وهم يتلقون نصوص القرآن.

٤ ـ حصوله على رصيد ضخم من المشاعر والمدركات والتجارب، نتيجة حركته العملية بالقرآن وحياته معه، تشابه المشاعر والمدركات والتجارب التي حصل عليها الصحابة وهم يتلقون القرآن ويتعاملون معه.

٥ ـ حركته العملية بالقرآن، في مواجهة الجاهلية، ومجاهدتها به جهاداً كبيراً، وبيان شمول نصوصه للواقع المعاصر، والنظر في الأحداث بمنظار القرآن، ووزن الأشخاص والأفكار والقيم بميزان القرآن، وفتح منافذ نفسه لإيحاءات القرآن وتقريراته وتوجيهاته، حيث عاشها وتذوقها وتأثر بها..

٦ ـ صحبته الطويلة للقرآن، وعكوفه عليه في سجنه، وتفرغه له، وحياته في ظلاله، حياة هانئة مباركة، حياة رفعت عمره وباركته وزكته، أنس فيها بنصوص القرآن، واستصحب سوره في رحلة ممتعة في عالم الفكر والتصور، وفي عالم السلوك والحركة، وفي دنيا الواقع والحياة، فوجد كل سورة صديقاً أليفاً حبيباً ممتعاً أنيساً رفيقاً..

٧ ـ ملاحظته الحياة في نصوص القرآن، وتذوقه للحيوية فيها، فالقرآن حي حكيم، كله حياة وحكمة، وهو دعوة للأمة المسلمة لأن تعيش حياتها التي أرادها الله لها. ومن صفات الحي أنه يقدر على أن يربي، وأن

يتحرك. وأن يجاهد، ومن مظاهر الحياة الحكمة والعقل، والأنس والصحبة، والعمل والحركة، ومن مظاهر الحيوية تلبية حاجات الناس على اختلاف الزمان والمكان، ورسم معالم طريقهم، وتبصيرهم بواجبهم، ومعالجة قضاياهم بواقعية حركية جدية... وهذا ما اتصف به القرآن، وهذا ما أدركه سيد فيه، وتعرف عليه في طبيعته وسماته ومنهجه..

٨ - إدراكه شمول القرآن لكل ما يهم الجماعة المسلمة، وبيانه لكل ما تحتاج إليه، وتفصيله لكل شيء. وهو صبغة الله، أنزله بصائر للأمة، وهدى ورحمة، ونوراً مبيناً، وهو لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلِق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء. ونصوصه غنية جداً بمدلولاتها وحقائقها وتقريراتها، ويستطيع الباحثون أن يكتفوا به في بيان مناهج الحياة، في الفكر والتصور، وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، وفي التشريع والتوجيه، وفي المعرفة والثقافة، وفي الدعوة والحركة والجهاد والتربية.

٩ - حركته بالعقيدة ومباحثها وقضاياها، حركة عملية واقعية، وحياته بخصائص التصور الإسلامي وتذوقه لها، وإدراكه لمقومات هذا التصور، وتجاوزه عصر الخلاف المذهبي بين فرق المسلمين في مباحث الجدل وعلم الكلام، واستقاؤه من معين القرآن مباشرة، واستخراج حقائق العقيدة وخصائصها وسماتها من نصوصه، والوقوف على منهجه في عرض العقيدة، وطريقته في تثبيتها في النفوس، وأثرها في الحياة.. ولذلك يدعو إلى التزام منهج القرآن في عرض العقيدة ودراستها وتقديمها، لا في صورة نظرية أو جدل كلامي، وإنما في صورة عملية حية، وحيوية جهادية. وتعامله العملي الواقعي اليومي مع العقيدة. ونصوص القرآن التي بينها، ومعايشته لها، وحياته معها، قاده إلى الوقوف على السمة الواقعية الحركية لهذا القرآن..

١٠ - دخوله عالم القرآن الرحيب بدون مقررات سابقة، عقلية كانت أو فكرية أو شعورية، ألقى على عتبة القرآن ماضيه الفكري والتصوري والثقافي،

وفتح منافذ نفسه لتلقي إيحاءات القرآن وتقريراته، واستسلم بكل كيانه للقرآن، ليشكِّل له خليفته العقلية والفكرية والثقافية والحركية. .

إن النص القرآني هو الأصل، ويجب أن يؤخذ مدلوله وحقائقه باستسلام ويقين. ولا يجوز أن يحاكَم لمقررات العقل البشري العاجز القاصر. ولذلك أعطاه القرآن بمقدار ما أقبل عليه، ولبى له حاجاته، وكشف له عن منهجه وطبيعته، وفتح له كنوزه، ورافقه في حياته وجهاده.

١١ - استبعاده المطولات الثقافية الضخمة التي ملأت التفاسير السابقة، المطولات الفقهية واللغوية والتاريخية والمذهبية والأسطورية. . واعتقاده - بحق - أن هذه المطولات تحجب إيحاءات القرآن عن روح القارىء وقلبه، وأن السابقين من المفسرين أكثروا منها بهدف تقديم زاد ثقافي ضخم متنوع للقارىء وأنه إذا جاز صنيعهم - في ظلال المجتمع الإسلامي السابق - فإنه لا يجوز الآن - في عصر غربة الإسلام - وإن استبعاده لهذه المطولات جعله مباشرة أمام نصوص القرآن وإيحاءاته وأنواره. . فتفاعل معها وعاش في ظلالها، فدلته على طبيعتها وأرشدته إلى منهجها. . فسار إليه واثقاً مطمئناً.

١٢ - حياته في عصر غربة الإسلام، في تصوراته ومناهجه وأفكاره وتشريعاته، ووجوده الواقعي الحركي، وعنف المعركة التي شنتها الجاهلية عليه وعلى رجاله وجنوده، وشدة المأساة التي تعرض لها هو وإخوانه، وقسوة المحنة التي عاشها، ومرارة التجربة التي مر بها، والثمن الباهظ الذي دفعه من نفسيته ومشاعره وصحته، فكان هذا الواقع هو الجو الذي تعامل فيه مع القرآن فوجد عنده الأنس والراحة، والسعادة والطمأنينة، والجواب الصحيح الصائب على تساؤلاته.

هذه - في رأيي - أهم العوامل التي ساعدت على تكوُّن نظرية سيد قطب في التفسير، فكانت نظرية منهجية، والحاجة إليها ماسة، لأنها ناتجة

عن نظرات متأنية ثاقبة، ورافقتها معاناة كاملة. وكان سيد قطب فريداً في معايشته لهذه العوامل، وفريداً في إدراكه لتلك النظرية، وفريداً في تطبيقها في تفسير القرآن. وأصبح بها رائداً للفكر الإسـلامي، ولمناهـج العمل الحركي والتربوي. . .



الفَصْل الثَّالِث

مِنْ قَوَاعِدِ مَنْهَجِهِ فِي التَّفْسِير

المبحث الأول

«النظرة الكلية الشاملة للقرآن»

تتميز نظرة سيد قطب إلى القرآن بالشمول، حيث لم ينظر إليه كأجزاء وتفاريق، بل كوحدة موضوعية شاملة، وكُلٍّ متناسق متناسب، فهو ـ وإن نزل في فترة زمنية طويلة مقدارها ثلاثة وعشرون عاماً ـ إلا أن منهجه هو هو، وطبيعته هي هي، سواء في الآيات الأولى التي نزلت في مكة، أو في أواخر الآيات نزولاً في المدينة.

نظرته الشاملة إلى أغراض القرآن، وإلى مهمته العملية الحركية، وإلى سمته الواقعية الجدية، وإلى طريقته الفريدة المعجزة في العرض الفني المعجز، وفي التربية المنهجية الناجحة، وفي قيادة الجماعة المسلمة في طريقها إلى الله. طريقته في عرض العقيدة وإقرارها في القلوب، وفي بيان الشرائع والأحكام ومناهج الحياة، طريقته في عرض أسس التصور الإسلامي، وبيان الصلة بين الإنسان والكون، ومظاهر تكريم الله للإنسان، ومظاهر نعمه عليه.

آيات القرآن الكريم لا تناقض بينها ولا تعارض، وهي غنية بالدلالات المتناسقة، وتعرض كثيراً من المعاني والإشارات، والحقائق والإيحاءات، والصور والظلال والمقومات، في مساحة قصيرة من الألفاظ والعبارات.

وهذه الآيات كلها حياة وحيوية، تعطي إيحاءاتها المختلفة للقلب المؤمن المتحرك بالقرآن، الذي يتعرض لموحيات النصوص ويفتح لها منافذه، فتنزل عليه جديدة طرية، عامرة غامرة ندية، فيعيش معها حياة خاصة تبارك العمر وتزكيه.

ولعله لأجل هذا كان للقرآن سر خاص معجز في تأثيره في القلوب، وسيطرته على المشاعر.

إننا نرى سيد قطب - من خلال الظلال - في عالم القرآن الرحيب متفكراً متأملاً، وفي محرابه خاشعاً متبتلاً، ومع نصوصه متفاعلاً متحركاً مجاهداً.

هذه النظرة الكلية الشاملة للقرآن التي امتاز بها، لم يتمتع بها كل المفسرين السابقين، ممن يجعل هدفه من تفسيره «تثقيف» القارىء، وتحويل القرآن إلى موسوعة ثقافية شاملة. أو من يقصر القرآن على بعض موضوعاته التي يضمها: لغوية أو فقهية، أو قصصية أو تاريخية. أو من يجعل القرآن ميداناً للاستدلال لآراءه في الخلافيات بين رجال الفرق ومباحث علم الكلام!

ومما أعان سيد على نظرته الكلية الشاملة إلى القرآن، نظريته في التفسير - التي تحدثنا عن جوهرها في الفصل السابق - وبخاصة عندما دخل عالم القرآن بدون مقررات سابقة، بل تلقّى دلالاته وإيحاءاته بالتسليم، وعدم محاكمتها إلى مقرراته العقلية الخاصة، وكذلك عندما عاش في ظلال القرآن حياة عملية، وتحرك به حركة واقعية، وجاهد به الجاهلية جهاداً كبيراً. وكذلك عندما استصحب معه وهو يفسر القرآن رصيداً من التجارب والملابسات، والمدركات والأحوال، تشابه تلك التي صاحبت نزوله أول مرة. وعندما استصحب - وهو يفسر الآية - الآيات الأخرى التي تشابهها أو تكملها، وعندما جعل هدفه من تفسيره تربية المسلم وليس تثقيفه. وعندما أدرك الأغراض الأساسية للقرآن.

ولم يكتفِ سيد قطب بإشاراته المتفرقة في الظلال إلى طبيعة القرآن

الشاملة، ونظراته الكلية المتكاملة له، وإنما أعد بحثاً بعنوان «هذا القرآن» بحثاً لم يرَ النور، لأنه أُتلف في جملة ما أتلفه الطغاة من أبحاثه التي لم يطبعها[1].

وأعتقد أن موضوع ذلك البحث هو ما أشرت إليه من نظرة سيد الشاملة الكلية للقرآن. لأنه بعد ما وقف وقفة مطولة أمام آية التحدي في سورة يونس، تحدث فيها عن إعجاز القرآن ومظاهره، وطريقة القرآن في عرض موضوعاته، قال بعد ذلك.

«ولسنا نملك المضي أبعد من هذا في بيان طبيعة هذا القرآن الدالة على مصدره، ففي هذا القدر كفاية. . .»[2].

فطريقة عرضه للموضوع، واعتبار ذلك جزءاً من طبيعة القرآن، ووضع كلمة «هذا القرآن» بين علامتي التنصيص، هذا يوحي بأن هذا العنوان بين علامتي التنصيص هو عنوان البحث الذي أعلن عنه في نهاية الجزء الثالث عشر من الظلال. وما عرضه في تفسير سورة يونس هو نموذج من موضوعات ذلك البحث الذي أعلن عنه.

أدرك سيد قطب طريقة القرآن الكريم في مخاطبة كيان الإنسان كله، وتأثيره في مختلف جوانبه تأثيراً معجزاً. . «إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها. فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة. وقلبها الشاعر مرة. وحسّها المتوفز مرة. ولكنه يخاطبها جملة، ويخاطبه من أقصر طريق، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها. . وينشىء فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق، وبهذا الشمول، وبهذه الدقة وهذا الوضوح، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً»[3].

---

(١) سيد قطب الشهيد الحي: ٢٦١.
(٢) الظلال: ٣: ١٧٩٤.
(٣) الظلال ٣: ١٧٨٨.

ومن أهم خصائص هذا المنهج القرآني المعجز في نظر سيد هي:

١ - إن هذا المنهج يعرض الحقيقة - كما هي في عالم الواقع - في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها، وكل جوانبها، وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها.. وهو - مع هذا الشمول - لا يُعقِّد هذه الحقيقة، ولا يلفها بالضباب! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها..

٢ - إنه مبرء من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات العلمية، والتأملات الفلسفية، والومضات الفنية جميعاً. فهو لا يُفْرد كل جانب من جوانب «الكل» الجميل المتناسق بحديث مستقل، كما تصنع أساليب الأداء البشرية. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول..

٣ - إنه مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقها، يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها - في الكل المتناسق - مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله - وهو الميزان -...

٤ - إنه يمتاز بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية. مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم. وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً[١]...

كذلك وقف سيد قطب وقفة أخرى أمام طبيعة القرآن الشاملة، وطريقته المعجزة في مخاطبة الكينونة الإنسانية. وذلك عندما فسر قوله تعالى: ﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٢].

أشار فيها إشارة عابرة إلى منهج القرآن العجيب في مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود، ومنهجه العجيب وهو يتناول قضايا هذا الوجود، ومنهجه العجيب وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية خطوة خطوة، إلى القمة السامقة التي يريدها أن تصلها، ومنهجه العجيب وهو يلمس الفطرة الإنسانية من حيث لا يحتسب أحد من البشر أن يكون موضع لمسة.

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٧٨٨ - ١٧٩٠.

(٢) الأعراف: ٢٠٣.

كما أشار ـ في وقفته تلك ـ إلى المادة التي يعرضها القرآن في ذلك المنهج، المادة التي تتضمن نظرته الكلية إلى هذا الوجود الكوني الشاسع، وإلى الكيان الإنساني الشامل، وإلى الحياة الإنسانية المتكاملة. ففي كل حقل من هذه الحقول «يجد الدارس الواعي لهذا القرآن وفرة من النصوص والتوجيهات، يحار في كثرتها ووفرتها، فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة!»[1].

واستشهد لكلامه هذا بتجربته العملية الخاصة مع القرآن الكريم، وممارسته الفعلية التي استغرقت خمسة وعشرين عاماً من صحبته الواعية الدارسة للقرآن، وجولاته في جنبات حقائقه الموضوعية، وكتابته الأبحاث القرآنية الأصيلة التي لم يجد نفسه في حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن[2]. .

إن أهم ما يتصف به القرآن في منهجه وطريقته ـ في رأي سيد قطب ـ هو الشمول والإحاطة والنظرة الكلية. وكيف لا يتصف بهذا وهو كلام الله عز وجل الذي وسع كل شيء علماً.

ألفاظ القرآن وتعابيره واسعة موحية غنية بالدلالات مع أصالة ووفرة وعمق ونفاسة[3]. والقرآن الكريم يعرض القضايا بحقائقها كما هي عرضاً عميقاً شاملاً.

والقرآن الكريم يجمع بين الدراسات العلمية والتأملات الفلسفية، والومضات الفنية على صعيد واحد، بشمول وعمق وتناسق وترابط وتوازن. . .

والقرآن الكريم يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى، يكشف فيها عن النواميس الإلَهية في الوجود، وينشىء بها

---

(١) الظلال ٣: ١٤٢٢.

(٢) انظر الظلال ٣: ١٤٢١ ـ ١٤٢٤.

(٣) انظر مبحث «غنى النصوص بالدلالات» من هذا الفصل.

عقيدة ضخمة شاملة، وتصوراً كاملاً لهذا الوجود، كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والقلوب، ويقظة في المشاعر والحواس . . .

استمع إلى قوله تعالى: ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون، أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين. على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون.

أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون. إنا لمغرمون. بل نحن محرومون.

أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون.

أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . . ﴾[١].

إنها مشاهدات كونية بسيطة مألوفة للبشر، تدخل في تجارب كل إنسان: النسل. والزرع. والماء. والنار. والموت. أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره. إنه المصدر الذي صدر منه الكون. فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون ـ إنه يتناول المواد الأولية في الكون. ويبني بها العقيدة في يسر وسهولة[٢].

كذلك يتصف القرآن بالشمول والتوازن بين توجيهاته كلها، والاستواء على أفق واحد فيها كلها. . إنه يتصف بالتناسق المطلق الشامل الكامل، وكل متدبر للقرآن يستطيع أن يلحظ هذا. ولهذا يحض الله على تدبر القرآن للوقوف على هذه الظاهرة في قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان

---

(١) الواقعة: ٥٧ ـ ٧٣.

(٢) انظر توضيح سيد لهذه الطريقة في تفسير تلك الآيات في الظلال ٦: ٣٤٦٦ ـ ٣٤٧٠.

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . . ﴾[1].

ولذلك يبين سيد قطب هذه الظاهرة «التناسق» أو «عدم الاختلاف» في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية، بالمقارنة بينه وبين أسلوب البشر البلغاء. فيقول. . « . . ففي كلام البشر تبدو القمم والسفوح، التوفيق والتعثر. القوة والضعف. التحليق والهبوط. الرفرفة والثقلة. الإشراق والانطفاء. . إلى آخر الظواهر التي تتجلى معها سمات البشر. . وأخصها سمة «التغير» والاختلاف الدائم المستمر من حال إلى حال. .

. . هذه الظاهرة واضح كل الوضوح أن عكسها وهو «الثبات» و«التناسق» هو الظاهرة الملحوظة في القرآن».

كما بيّن سيد ظاهرة عدم الاختلاف. والتناسق المطلق الشامل الكامل في مناهج القرآن: منهجه في التربية للنفس البشرية والمجتمعات البشرية. ومنهجه في تنظيم النشاط الإنساني للأفراد والمجتمع. ومنهجه في تقويم الإدراك الإنساني. ومنهجه في التنسيق بين الكائن الإنساني بجملته وبين الكون الذي يعيش فيه. وبين دنياه وآخرته»[2].

وانطلاقاً من نظرة سيد قطب الشاملة الكلية، إلى القرآن الكريم، نجح في الوقوف على كنوزه الفنية والجمالية والبيانية، وكنوزه الحركية والدعوية، والتشريعية والحياتية، وأجاد في تقديم كل هذا في الظلال!!.

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) انظر الظلال ٢: ٧٢١ ـ ٧٢٣ و٢: ٨٢٢ وفصل «الشمول» من كتاب خصائص التصور الإسلامي.

المبحث الثاني

التأكيد على المقاصد الأساسية للقرآن

لقد استطاع سيد قطب - بتوفيق من الله عز وجل ونتيجة لحياته الطويلة في ظلال القرآن، وتعامله الحي مع نصوصه - استطاع معرفة الأغراض العملية للقرآن، وتمكن من الوقوف على مقاصده الأساسية، ولذلك نراه يجعل تحقيق أغراض القرآن في عالم الواقع من أهم أهدافه من الظلال[1].

كما نراه يؤكد - وباستمرار، وكلما رأى الفرصة سانحة والمجال مناسباً - على مقاصد القرآن الأساسية تأكيداً يبدو فيه التكرار في خواطره وأفكاره، ووقفاته ونظراته، تكرار أخذه بعضهم عليه، لأنهم لم يلحظوا هذا المنطلق الذي انطلق منه سيد وهو يفسر القرآن[2].

القرآن الكريم - في رأي سيد - ليس حديثاً عن فترة زمنية مضت وانتهت، ولا مواجهة لجاهلية بادت. . وإنما هو حديث عن الجاهليات على اختلاف زمانها ومكانها.

ولهذا يقول «وإننا نبخس القرآن قدره، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت، إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة. ومواجهة للواقع المنحرف دائماً، ورده إلى صراط الله المستقيم. . . »[3].

---

(١) انظر فصل «أهداف الظلال» في كتاب «مدخل إلى ظلال القرآن».
(٢) انظر فصل «مآخذ على الظلال» في كتاب «في ظلال القرآن في الميزان».
(٣) الظلال ٣: ١٢١٩.

هذا مقصد من المقاصد الأساسية للقرآن، إنه يقود الأمة المسلمة في معركتها مع الجاهلية، ويخوض هذه المعركة مع الجاهلية «بواقعية جدية» ولقد حقق للجماعة المسلمة الأولى الانتصار في معركتها مع الجاهلية، وهو قادر على أن يحقق للجماعة المسلمة في فترات تاريخها اللاحقة ذلك الانتصار، بشرط أن تُقْدم عليه «بشعور التلقي للتنفيذ» وأن تتركه يبصرها بطريقها وبمعركتها مع أعدائها...

إن القرآن يوضح بنصوص صريحة قاطعة طبيعة معركة الأمة المسلمة مع أعدائها، وأهدافهم من حربها[1]. ولهذا يقرر سيد انطلاقاً من تلك النصوص «إن المعركة بين الأمة المسلمة وبين أعدائها هي قبل كل شيء معركة هذه العقيدة..» ولذلك يحاربها الأعداء أولاً في عقيدتها. كانوا يحاربونها بالدس والتشكيك، ونشر الشبهات وتدبير المناورات...

وكان القرآن يخوض هذه المعركة، ويدفع أسلحة الجاهلية المسمومة الموجهة ضد العقيدة، ويثبت الأمة على طريقها[2].

كما كان من المقاصد الأساسية للقرآن الكريم، وهو يخوض «معركة العقيدة» مع أعداء الأمة المسلمة: توضيح وبيان خصائص التصور الإسلامي، وتحديد مقوماته في كل مناسبة، حتى أصبحت خصائص التصور واضحة بينة، وصارت مقوماته بارزة محددة، وتعمقت حقائقه في ضمير الأمة وقلبها ومشاعرها وكيانها وحياتها وحركتها...

ومن أهم الحقائق الأساسية التي ركز عليها القرآن وبيَّنها: حقيقة الألوهية وخصائصها، وحقيقة العبودية، وتحديد الصلة بينها وبين الألوهية. وحقيقة الغيب ـ بما فيه القدر والآخرة ـ وحقيقة الإنسان وحقيقة الكون وحقيقة الحياة...[3].

---

(١) انظر على سبيل المثال آيات: البقرة: ١٠٩ و ١٣٠ و ٢١٧ والنساء: ٨٩ وتفسير تلك الآيات من الظلال.

(٢) انظر الظلال: ١ : ٣٥٤.

(٣) انظر الظلال ٣ : ١٧٨٩.

ومن ثم لاحظ سيد قطب ـ بنظره الفاحص الثاقب ـ أن القرآن يركز في سياقه على (قضية الألوهية والعبودية، وتجلية حقيقتهما، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس، أما سائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة (سورة يونس) كقضية الوحي، وقضية الآخرة، وقضية الرسالات السابقة... فقد جاءت في صدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى وتعميقها وتوسيع مدلولها، وبيان مقتضياتها في حياة البشر واعتقادهم وعبادتهم وعملهم...)

وقد ركز القرآن على بيان هذه القضية، حيث جعلها قضيته الأساسية لأنها هي مقصده الأساسي وموضوعه الرئيسي: «فتعريف الألوهية الحقة، وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها، والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلاههم الحق، واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده.. هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله.. وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها..»[1].

ولأنها هي الموضوع الرئيسي للقرآن، ومقصده الأساسي، لذلك رأينا سيد يكثر من الوقوف أمامها وهو يفسر آيات القرآن. ويؤكد عليها تأكيداً مستمراً، كما رأيناه يخصص لها دراسات وأبحاثاً عميقة ناضجة مثل: «خصائص التصور الإسلامي» و«مقومات التصور الإسلامي» و«هذا الدين» و«أوليات في هذا الدين»..

ركز القرآن على هذه الحقيقة ومن ثم أكد عليها سيد قطب، لأن حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصورهم، واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم[1]...

ولا تستقيم إزاء الكون الذي يعيشون فيه، ويتعاملون مع أشيائه وأحداثه...

---

(١) الظلال ٣: ١٧٥٣.

ولا تستقيم إزاء بعضهم البعض وتحولهم إلى عبيد ومتألهين، وطواغيت ومستذلين[١]. .

ويتصل بحقيقة الألوهية اتصالاً مباشراً قضية «الحاكمية» ولذلك ركز عليها القرآن، وكانت من مقاصده الأساسية، ومن ثم أكد عليها سيد في الظلال وكرر الحديث عنها.

إن الحاكمية هي أخص خصائص الألوهية ـ في رأي سيد قطب[٣] ـ وإن الاعتبار الأول فيها «هو أنها قضية الإقرار بألوهية الله وربوبيته وقوامته على البشر ـ بلا شريك ـ أو رفض هذا الإقرار. . ومن هنا هي قضية كفر أو إيمان. . وجاهلية أو إسلام. . »[٢].

ومن ثم كان القرآن كله معرضاً لبيان هذه القضية: إن الله هو الخالق. . وإن الله هو المالك. . وإن الله هو الرازق. . وإن الله هو صاحب السلطان المتصرف في الكون والناس. . »[٤].

ولهذا يرى سيد قطب أن «المنهج القرآني يتكىء كثيراً جداً على هذا المبدأ (الحاكمية) لتقريره في كل مناسبة، ولا يمل تكراره حيثما جاءت مناسبته أمام كل تشريع للصغير وللكبير من الأمور. . . ذلك أن هذا المبدأ هو العقيدة، وهو الدين، وهو الإسلام، وليس وراءه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتفريعات. . . »[٥].

ومعظم سور القرآن تعالج قضية الحاكمية وتبينها، حسب سياق السورة وشخصيتها والأداء الفني فيها وموضوعها. . في البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام والأعراف، والتوبة، ويونس، وهود. . وغيرها. .

---

(١) انظر تعليل سيد لسر تركيز القرآن على الألوهية ومقتضياتها في الظلال ٣: ١٧٥٣ ـ ١٧٥٥.

(٢) الظلال ٢: ٨٩٠.

(٣) الظلال ٣: ٨٨٩.

(٤) انظر تفسير سيد لدرس الحاكمية من سورة المائدة في الظلال ٢: ٨٨٦ ـ ٩٠٥.

(٥) الظلال ٣: ١١٩٣.

ويرى سيد أن وجود الدين الواقعي مرتبط بتحقيق الحاكمية لله في أمور البشر وحياتهم، فإن لم تتمحض الحاكمية لله انتفى الوجود الفعلي المؤثر لهذا الدين. ولذلك مشكلة هذا الدين في الأرض هي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله باعتدائها على حقه في الحاكمية، واغتصابها سلطانها، وتشريعها للبشر وتعبيدهم لها من دون الله[1]..

بل يصل سيد قطب إلى تقرير أن معركة الدين والإسلام والقرآن مع الأعداء هي معركة «الحاكمية» «!!!» إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر «وجوده» لم تكن هي المعركة مع الإلحاد، حتى يكون مجرد «التدين» هو ما يسعى إليه المتحمسون لهذا الدين! ولم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي ـ فهذه معارك تالية لمعركة «وجود» هذا الدين!....

لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام لتقرير وجوده «هي معركة «الحاكمية» وتقرير لمن تكون.. لذلك خاضها وهو في مكة.. خاضها وهو ينشىء العقيدة، ولا يتعرض للنظام والشريعة...»[1].

ومن مقاصد القرآن الأساسية التي ركز عليها سيد قطب، ربط التشريعات والأحكام والأوامر والمناهج بالعقيدة، والتعامل معها بالقلب العامر بالإيمان، المراقب لله عز وجل، الحريص على مرضاته، والمتحرج من عصيانه، والنظر لهذه التشريعات والمناهج من زاوية العقيدة والإيمان، والمراقبة والإخلاص.

إن هذا الربط وهذا النظر هو الذي يضمن الالتزام بها، وهو الذي يضمن لها الحياة والتأثير. ولهذا يصرح سيد ـ في تفسيره لقصة أصحاب السبت في الأعراف ـ ببيان الطريق الصحيح لحراسة التشريعات، والحارس الأمين لها بقوله: (إن القانون لا تحرسه نصوصه ولا يحميه حراسه. إنما

---

(١) الظلال ٣: ١٢١٧.

تحرسه القلوب التقية، التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه. . .).

ويحدد سر فشل الأنظمة والقوانين البشرية الوضعية: «من أجل ذلك تفشل الأنظمة التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية، وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله. . .)[١].

أكد سيد قطب على هذا المقصد الأساسي للقرآن وهو يفسر الدرس الذي تضمن تنظيم جوانب من النظام الاجتماعي في الإسلام في سورة البقرة[٢].

تضمن هذا الدرس اثني عشر حكماً من أحكام الزواج والمعاشرة، والإيلاء والطلاق والعدة، والنفقة والمتعة، والرضاعة والحضانة. . وقد ارتبط كل حكم منها بالعقيدة، وكل تشريع منها بالقلب المؤمن، وكل توجيه منها بمراقبة الله وخشيته وتقواه. .

الحكم الأول: يتضمن النهي عن زواج المسلم بمشركة، وعن تزويج المشرك من مسلمة، والتعقيب بقوله تعالى: ﴿ أولئك يدعون إلى النار، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة باذنه، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾[٣].

الحكم الثاني: يتعلق بالنهي عن مباشرة النساء في المحيض، والتعقيبات بقوله تعالى: ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله. . إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. . ﴾ وقوله تعالى: ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾[٤].

والحكم الثالث: حكم الأَيْمان بصفة عامة، والتعقيب «والله سميع عليم» و﴿ والله غفور رحيم ﴾[٥].

(١) الظلال ٣: ١٣٨٤.
(٢) انظر آيات البقرة: ٢٢١ ـ ٢٤٢.
(٣) البقرة: ٢٢١.
(٤) البقرة: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.
(٥) البقرة: ٢٢٤ و ٢٢٥.

والحكم الرابع: حكم الإيلاء والتعقيب ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم. . ﴾[1].

والحكم الخامس: حكم عدة المطلقة، وأمرها بأن لا تكتم ما في رحمها بصيغة ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر. . ﴾[2].

والحكم السادس: عدد الطلقات، ورد حكم استرداد شيء من المهر والنفقة بهذه الصيغة: ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[3].

والحكم السابع: حكم الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان بعد الطلاق، وهذا التعقيب: ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا، واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ .

والحكم الثامن: حكم الرضاعة والاسترضاع والأجر، وهذا التعقيب ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير. . ﴾[4].

والحكم التاسع: حكم عدة المتوفى عنها زوجها، والتعقيب قوله تعالى: ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾[5].

والحكم العاشر: حكم التعريض بخطبة النساء أثناء العدة، والتعقيب

---

(١) البقرة: ٢٢٦ و ٢٢٧.
(٢) البقرة: ٢٢٨.
(٣) البقرة: ٢٢٩.
(٤) البقرة: ٢٣١.
(٥) البقرة: ٢٣٣.
(٦) البقرة: ٢٣٤.

في قوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أن الله غفور حليم ﴾[1].

والحكم الحادي عشر: حكم المطلقة قبل الدخول التي فرض لها مهر والتي لم يفرض، وهذا التعقيب ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم، إن الله بما تعملون بصير ﴾[2].

والحكم الثاني عشر: حكم المتعة للمطلقة بصيغة ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾[3].

والتعقيب العام على هذه الأحكام كلها هو قوله تعالى: ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾[4].

ولهذا يقرر سيد قطب هذا المقصد الأساسي للقرآن بقوله عن السياق الذي عرضت به الأحكام، والجو الذي عرضت فيه: (إنها تجيء في جو يشعر القلب البشري أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلّهي للحياة البشرية وأصلاً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الإسلامي، وأن هذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة.... ومن ثم فهو موصول بغضبه، ورضاه وعقابه وثوابه، وموصول بالعقيدة وجوداً وعدماً.....

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الإنسان بخطر هذا الأمر وخطورته، كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته، وأن كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله. وأن الله يتولى بذاته ـ سبحانه ـ تنظيم حياة هذا الكائن، والإشراف المباشر على تنشئة الجماعة المسلمة...)[5].

---

(١) البقرة: ٢٣٥.

(٢) البقرة: ٢٣٧.

(٣) البقرة: ٢٤١.

(٤) البقرة: ٢٤٢.

(٥) الظلال ١: ٢٣٦ وانظر تفسير سيد لهذا الدرس وتأكيده على هذا الربط في الظلال ١: ٢٣٤ ـ ٢٥٩ وانظر الظلال ٢: ٧٩٣.

ومن المقاصد الأساسية للقرآن التي أكد عليها سيد كثيراً: **تنشئة الأمة** المسلمة على هدي القرآن. فهو كتابها الحي، ورائدها الناصح، ومدرستها التي تلقت فيها دروس حياتها، انبعثت من خلال نصوصه من العدم، وجاءت أمة متميزة، خير أمة أخرجت للناس. فالقرآن دعوة الأمة المسلمة للحياة.. الحياة الدائمة المتجددة، التي يشملها قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم.. ﴾[1].

ولذلك يدعو سيد الأمة - بحرارة - إلى التميز في كل شيء: في تصوراتها وأفكارها، ومناهج حياتها وحركاتها وسكناتها، وأهدافها واهتماماتها وكيانها[2].

كما يدعوها إلى تمحيض ولائها لربها ولرسولها ولعقيدتها، وقطع كل حبال الجاهلية، أو الركون إلى غير الله، وإلى ضرورة المفاصلة الكاملة بينها وبين كل من لا يتبع هدى الله[3]. إن قضية الولاء والمفصالة - كمقصد أساسي للقرآن - قضية اعتقادية إيمانية، كما أنها قضية تنظيمية حركية[4].

كذلك من مقاصد القرآن الأساسية التي أكد عليها سيد: بيان سبيل المجرمين، والوقوف في وجه المادية الجاهلية، وتفنيد أفكارها وتصوراتها ومناهج حياتها، وتعرية مواقفها ومجتمعاتها ورجالها، ومهاجمتها في عقر دارها.

إنطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ وكذلـك نفصل الآيـات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾[5].

ومن المقاصد الأساسية للقرآن تربية الأفراد المسلمين، وإعدادهم

---

(١) الأنفال: ٢٤ وانظر تفسير الآية في الظلال ٣: ١٤٩٤ - ١٤٩٥ وانظر الظلال ١: ٢٦١.
(٢) انظر - على سبيل المثال: الظلال ١: ١٢٧ - ١٢٩.
(٣) انظر - على سبيل المثال الظلال ٢: ٩٠٧ - ٩٢١.
(٤) الظلال ٢: ٩١٦.
(٥) الأنعام: ٥٥ وانظر تفسير الآية من الظلال ٢: ١١٠٥ - ١١٠٧.

ليكونوا رجالاً ربانيين مجاهدين. ولهذا نرى سيد يؤكد باستمرار على هذا المقصد ويبين سمات منهج القـرآن في التربية وطريقته الربانية في تحقيقه في عالم الواقع، ووسائله في علاجِ النفوس والأوضاع، وتجاوب الصحابة معه خطوة خطوة حتى أصبحوا جيلاً قرآنياً فريداً، وراح سيد يلاحظ التغييرات التي طرأت على المجتمع الإسلامي في المدينة وهو يتحرك بالقرآن ويتربى بنصوصه.

أكد على هذا وهو يتحدث عن طريقة القرآن في تحريم الخمر، في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون..﴾[1].

وأكد عليه وهو يسجل مظاهر النقاء في مجتمع الصحابة في المدينة، وهو يسجل مظاهر الخلخلة فيه من خلال نصوص القرآن، وأسباب الخلخلة وعوامل الصفاء والخلوص والنقاء[2].

كذلك أكد عليه وهو يسجل موازنات تربوية بين إيحاءات سورة محمد، وإيحاءات سورة الفتح ـ التي نزلت بعدها بثلاث سنوات ـ ويبين مدى فعل القرآن بالجماعة المسلمة، وبخاصة في تربيتها ومظاهر تقدمها في التربية خلال السنوات الثلاث[3].

ومن مقاصد القرآن الأساسية بيان حقيقة الحياة الدنيا «وقيمتها بالنسبة إلى الآخرة «دار الحيوان» ونجده يركز على هذا المعنى كثيراً في نصوص كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[4].

ومثل قوله تعالى: ﴿إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر

---

(١) المائدة: ٩٠ وانظر تفسير الآية في الظلال ٢: ٩٧٣ ـ ٩٧٧ وانظر الظلال ٢: ٦٦٣ ـ ٦٦٧.
(٢) انظر نظرات سيد وتحليلاته الفريدة في هذه الظاهرة في الظلال ٣: ١٥٧٠ ـ ١٥٧٨.
(٣) انظر الظلال ٦: ٣٣١٤ ـ ٣٣١٦.
(٤) العنكبوت: ٦٤ وتفسيرها في الظلال ٥: ٢٧٥١.

بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد. . . ﴾[1].

يقول (والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي، وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ أمراً عظيماً هائلاً، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود، وتوزن بميزان الآخرة، تبدو شيئاً زهيداً تافهاً. . لعبة أطفال لعب. . . . ولهو. . وزينة. . وتفاخر. . وتكاثر هذه هي الحقيقة. . .)[2].

هذه هي أهم مقاصد القرآن الأساسية، والتي أكد سيد قطب عليها، وكرر الحديث عنها، وهو يفسر الآيات التي تقررها، ولا غرابة في أن يؤكد عليها تأكيداً خاصاً، وأن يجعلها قاعدة من قواعد منهجه في التفسير، ومنطلقاً من منطلقاته الأساسية فيه، لأنه كان يعيش في ظلال القرآن، ويهدف ـ من جملة ما يهدف إليه ـ إلى عرض حقائق القرآن ومقاصده وأغراضه، ليقبل عليه الناس. . . .

---

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) الظلال ٦: ٣٤٩١ ـ ٣٤٩٢.

المبحث الثالث

«بيان المهمة العملية الحركية للقرآن»

بعد ما نظر سيد إلى القرآن نظرة كلية شاملة، وقف على مهمته العملية الحركية، ووفقه الله عز وجل باتباع المنهج الحركي في تفسيره، ووضع بين يديه «المفتاح الحركي» الذي فتح به كنوز القرآن.

القرآن الكريم في رأي سيد ليس كتاباً للتلاوة فقط، ولا مجالاً للأجر والثواب فقط، ولا سجلاً للثقافة أو الفقه أو اللغة أو التاريخ فقط، ولكنه «الرائد الحي لقيادة أجيال الأمة، وتربيتها وإعدادها لدور القيادة الراشدة. . «ومن يتدبر القرآن بقلب يقظ خاشع فإنه يجده توجيهات حية تتنزل اليوم لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل. .»[1].

إن القرآن الكريم حي علي حكيم، يربي بحكمة، ويتصرف بحكمة، ويقود الأمة بحكمة ﴿ يٓس والقرآن الحكيم. . ﴾[2] ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم. . ﴾[3].

«وإن لهذا القرآن لروحا وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه. حين تصغي له قلبك، وتصغي له روحك، إذ أنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك، وخلصت له بروحك، وإنك لتشتاق منه

---

(1) انظر الظلال ١: ٢٦١ ومعالم في الطريق ـ طبعة دار دمشق ـ ١٧ ـ ٢٠ وخصائص التصور الإسلامي ٧ ـ ١٠.

(2) يٓس: ١ ـ ٢٠.

(3) الزخرف: ٤.

إلى ملامح وسمات، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته، حين تصاحبه وتأنس به، وتستروح ظلاله»[1].

لقد تمكن سيد ـ بتوفيق الله ـ من إدراك سمات هذا القرآن الحركية الأساسية ـ التي هي سمات هذا الدين ـ بعدما وقف طويلاً أمام نصوصه، وعاش في ظلاله، وتحرك به. وأهم هذه السمات هي: ـ

١ ـ الواقعية الجدية.
٢ ـ الواقعية الحركية.
٣ ـ الأهداف الثابتة.
٤ ـ الضبط التشريعي بين المجتمع الإسلامي وسائر المجتمعات[2].

السمة الثانية من هذه السمات «الواقعية الحركية» يركز عليها سيد كثيراً، لأنه يعتبرها «مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراميه وأهدافه. . »[3].

هذه السمة تدرك باستصحاب «الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني».

ويركز سيد على ضرورة وأهمية استصحاب هذه الأشياء لكل من يتلو القرآن ويتذوق نصوصه، ويتحرك به، ويريد تفسيره. لأنه لا بدّ من هذا «لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده. . وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامه وتذوقها، كما هي ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما جدّت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية»[4].

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٥٨.
(٢) انظر شرح هذه السمات في الظلال ٣: ١٤٣٢ ـ ١٤٣٣.
(٣) الظلال ٤: ٢١٢١.
(٤) انظر الظلال ٤: ٢١٢١ ـ ٢١٢٢.

هذه السمة «الواقعية الحركية» هي التي تحدد المهمة العملية الحركية للقرآن، وتحدد وظيفته العملية الجدية في الحياة. «فهو كائن حي متحرك. ونحن نراه في ظل هذه الواقعية يعمل ويتحرك في وسط الجماعة المسلمة، ويواجه حالات واقعة فيدفع هذه ويقر هـذه، ويدفـع الجماعـة المسلمة ويوجهها. فهو في عمل دائب، وفي حركة دائبة.. إنه في ميدان المعركة، وفي ميدان الحياة..»[1].

بهذه المهمة العملية الحركية أنشأ القرآن الكريم الجماعة المسلمة، وقادها في طريقها إلى ربها، وبهذه المهمة العملية الحركية هو قادر على القيام بنفس الدور مع أي جماعة مسلمة لاحقة.

فهذا القرآن «هو كتاب هذه الدعوة، هو روحها وباعثها. وهو قوامها وكيانها. وهو حارسها وراعيها. وهـو بيانهـا وترجمـانها. وهـو دستورهـا ومنهجها. وهو في النهاية المرجع الذي تستمد منه الدعوة - كما يستمد منه الدعاة - وسائل العمل، ومناهج الحركة، وزاد الطريق..»[2].

وحتى ندرك نحن في واقعنا المعاصر هذه المهمة العملية الحركية، يدعونا سيد قطب إلى إزالة الفجوة العميقة بيننا وبين القرآن، وردم الحاجز السميك بين قلوبنا وبين القرآن، ويتم هذا بأن نستحضر في تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى، وهي تتحرك بالقرآن في واقع الحياة. ونرى كيف يأخذ القرآن بيدها خطوة خطوة، في سيرها نحو غايتها.. ونشعر أننا نحن أيضاً مخاطبون بهذا القرآن، وأننا نستطيع التعامل الصحيح مع القرآن، والاستجابة له، والانتفاع بقيادته..

ويجزم سيد قطب أننا بهذه الطريقة، وبهذه النظرة «سنرى القرآن حياً يعمل في حياة الجماعة المسلمة الأولى، ويملك أن يعمل في حياتنا نحن أيضاً، وسنحس أنه معنا اليوم وغداً، وأنه ليس مجرد تراتيل تعبدية مهومـة

---

(1) الظلال ١: ٣٠٤ و ١٨٠.
(2) الظلال ١: ٣٤٨.

بعيدة عن واقعنا المحدد، كما أنه ليس تاريخاً مضى وانقضى، وبطلت فاعليته وتفاعله مع الحياة البشرية. . »[1].

إننا لا ندرك مهمة القرآن تلك، ولا نراه كائناً حياً متحركاً دافعاً، لأننا لم ننظر إليه النظرة الصحيحة، ولم نتعامل معه التعامل الصائب، ولم نتحرك به الحركة المطلوبة، لقد «مات القرآن في حسنا. . أو نام. . ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التي كانت له عند نزوله في حسّ المسلمين. ودرجنا على أن نتلقاه إما ترتيلاً منغماً نطرب له، أو نتأثر التأثر الوجداني الغامض السارب! وإما أن نقرأه أوراداً أقصى ما تصنع في حسّ المؤمنين الصادقين منا أن تنشىء في القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المجملة. . ».

هذه النظرة وهذه الصلة يدعونا سيد إلى تعديلها، إلى أن نستبدل بها نظرة أخرى صائبة، ندرك بها مهمته العملية الحركية. فالمطلوب منا أن ينشىء القرآن فينا وعياً وحياة. أن ينشىء حالة وعي يتحرك معها القرآن حركة الحياة التي جاء لينشئها. المطلوب أن نرى القرآن في ميدان المعركة فعلاً. وأن نتوجه إليه لنسمع منه ماذا ينبغي أن نعمل. المطلوب منا أن ندرك حقيقة التوجيهات القرآنية فيما يحيط بنا من أحداث ومشكلات وملابسات الحياة[2]. .

من مظاهر المهمة العملية الحركية للقرآن عند سيد قطب إخراج الأمة المسلمة إخراجاً معجزاً من بين دفتيه لقوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس. . ﴾[3] لقد أنشأ القرآن الأمة المسلمة ونشَّأها، «ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضي في الحديث: حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معاً. . فقد كانت. . على التحقيق ـ إنشاء وتنشئة، كانت ميلاداً جديداً للأمة، بل ميلاداً جديداً للإنسان. . ».

---

(١) الظلال ١: ٣٤٨ ـ ٣٤٩ باختصار.

(٢) انظر الظلال ١: ٣٠٥.

(٣) آل عمران: ١١٠.

«إنها كانت نشأة ولم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة! كانت «إخراجاً» من صنع الله كتعبير القرآن الدقيق.. وكانت أعجب نشأة وأغرب إخراج.. فهي المرة الأولى والأخيرة ـ فيما نعلم ـ التي تنبثق فيها أمة من بين دفتي كتاب و«تخرج» فيها حياة من خلال الكلمات! ولكن لا عجب.. فهذه الكلمات.. كلمات الله..»[1].

ومن مظاهر مهمته أيضاً رسمه «استراتيجية المعركة» التي تخوضها الأمة المسلمة مع أعدائها، يرسمها لها بصفة عامة، وهي إن التزمت بها يتحقق لها الظفر على أعدائها والانتصار عليهم.

ففي رسم الخطة العامة للمعركة، ووضعها بين يدي الحركة الإسلامية يقول «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة»[2].

إن خطة الحركة الجهادية ـ كما يرسمها القرآن ـ خطة مرحلية. إنها تأمر بقتال الذين «يلون» دار الإسلام، فإذا انتهى قتالهم انتقلت جيوش الجهاد إلى الذين يلونهم.. وهكذا، وبهذه الخطة القرآنية تتوحد الرقعة الإسلامية، وتتصل حدودها، ولا توجد «جيوب» فيها لأعدائها.. وعلى هدي هذه الخطة سارت حركة الفتح الإسلامي الأولى. مرحلة مرحلة، فلما أسلمت الجزيرة العربية كان التوجه إلى بلاد العراق ثم بلاد الشام.. ثم الانسياح إلى بلاد الفرس والروم وإفريقيا والأندلس........ الخ..[3].

وفي رسم الخطة التنفيذية أو «التاكتيك» الجهادي يقول القرآن ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً.. ﴾[4] ويقول: ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم مَنْ خلفهم لعلهم يذكرون. وإما تخافن

(١) انظر الظلال ٢: ٦٨٥ ـ ٦٨٦.
(٢) التوبة: ١٢٣.
(٣) انظر الظلال ٣: ١٧٣٦.
(٤) النساء: ٧١.

من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء. . ﴾[1].

يقول سيد قطب عن هذا الموضوع: «وهكذا نجد هذا الكتاب لا يعلم المسلمين العبادات والشعائر فحسب، ولا يعلمهم الآداب والأخلاق فحسب ـ كما يتصور الناس الدين ذلك التصور المسكين ـ إنما هو يأخذ حياتهم كلها جملة. ويعرض لكل ما تتعرض له حياة الناس من ملابسات واقعية. .

. . وها هو يرسم للمسلمين جانباً من الخطة التنفيذية للمعركة، المناسبة لموقفهم حينذاك، ولوجودهم بين العداوات الكثيرة. . »[2].

ونظراً لمهمة القرآن الحركية، فإنه قادر على أدائها في هذا الزمان ـ كما أداها مع الجماعة المسلمة الأولى ـ بشرط أن تتوفر عليه الأمة أو الجماعة المسلمة، وأن تتحرك به، وأن تجعل لنصوصه «بُعْداً واقعياً» في واقعها وحياتها وحركتها. ولهذا يقول سيد «والذين يحملون دعوة الإسلام اليوم وغداً خليقون أن يتلقوا هذه التقريرات وتلك الإشارات، كأنهم يخاطَبون بها اللحظة، ليقرروا على ضوئها مواقفهم من شتى طوائف الناس، ومن شتى المذاهب والمعتقدات والآراء، ومن شتى الأوضاع والأنظمة، وشتى القيم والموازين. . »[3].

فإذا فعلت ذلك فستتعرف على أعدائها، وتنتصر عليهم: «ومن علامات الإعجاز في هذا القرآن، أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليديين، الذين ما يزالون هم هم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها. . . »[4].

---

(١) الأنفال: ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) انظر الظلال ١ : ٧٠٤ ـ ٧٠٥.

(٣) الظلال ١ : ٩٥٩.

(٤) الظلال ١ : ٥٦٦.

ونتيجة لهذه المهمة الفريدة للقرآن يجب أن ننظر إليه بمنظار جديد: يحقق لنا وللأجيال اللاحقة كلها هذه المهمة. «إن هذا القرآن لم يأتِ لمواجهة موقف تاريخي، إنما جاء منهجاً مطلقاً، خارجاً عن قيود الزمان والمكان. منهجاً تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن. .»[1].

ولذلك فإن هذا القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة، قد تتكرر فيما بعد، فتجد الأجيال اللاحقة علاجاً لحالتهم عند القرآن الكريم. والقرآن لا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلاً، لتأخذ الأجيال هذه الحقيقة في تغيير صور الباطل وأشكاله وظواهره المماثلة.

إن القرآن «يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي، إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفني. .»[2].

ولذلك يقرر سيد قطب مرة أخرى أن القرآن ليس كتاباً للتلاوة. . وكفى. . «إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة، وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متى وُجِد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب. .»[3].

وبما أن للقرآن مهمة حركية عملية، لذلك فإن لكل سورة كريمة فيه «شخصية» مستقلة متناسقة، وتكوِّن وحدة موضوعية متكاملة، ولها ملامح متميزة، وأسلوب خاص، ومجال متخصص، والذي يعيش مع سور القرآن بكيانه، ويتحرك بها في حياته، يجدها كما وجدها سيد قطب. . «إنها أصدقاء. . كلها صديق. . وكلها أليف. . وكلها حبيب. . وكلها ممتع. . .

ومصاحبة السورة من أولها إلى آخرها رحلة، رحلة في عوالم ومشاهد،

---

(١) الظلال ٢ : ١٠٥٩ وانظره في ٣ : ١٢٤٨.

(٢) الظلال ٣ : ١٢٤٥.

(٣) الظلال ٥ : ٢٨٣٦.

ورؤى وحقائق، وتقريرات وموحيات. . . »[1].

ويلحظ ذو الحسّ البصير، أن سمة الواقعية الجدية، سمة لهذا الدين أيضاً، وأن مهمة القرآن الحركية العملية هي مهمة هذا الدين. فالإسلام له مهمة عملية حركية، لأن أساسه هو القرآن الكريم الذي يتميز بهذه المهمة. فهي تنسحب تلقائياً على الإسلام: لتكون مهمة له!!

«إن هذا الدين ليس نظرية ليتعلمها الناس في كتاب، للترف الذهني، والتكاثر بالعلم والمعرفة! وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى! كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه. .

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان. . وهو منهج حركي واقعي. . يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة. . . .

والحركة في هذا الدين حركة في واقع بشري. والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابَل بنظرية. . . هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين. . »[2].

لاحظ سيد قطب ـ إذن ـ المهمة العملية الحركية للقرآن، فجعل بيانها هدفاً من أهدافه في التفسير، حتى يدركها المسلمون، ويحققوها في حياتهم، وجعلها قاعدة رئيسية من قواعد منهجه في الظلال. . .

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٢٤٣.

(٢) انظر الظلال ٣: ٥٠٩ ـ ١٥١٠.

المبحث الرابع

المحافظة على جوالنص القرآني

انطلاقاً من أهداف سيد قطب من «الظلال» ونتيجة لنظرته الكلية الشاملة للقرآن، وتأكيده على مقاصد القرآن الأساسية، وعلى مهمة القرآن العملية الحركية؛ رأينا سيد قطب «محافظاً» على جو النص القرآني، لا يخرج عنه إلى موضوعات ثقافية، وإذا اقتضت المناسبة وقفة له حركية، أو استطراداً في قضايا العقيدة والدعوة والحركة، فإنه سرعان ما يعود إلى الجو القرآني، وإلى ظلال النصوص.

إنه يريد من القارىء أن يتعامل مباشرة مع القرآن، وأن يعيش بنفسه في جو النصوص وأن يحيا في ظلالها، ويعتبر «الظلال» وسيلة للقارىء وأداة تعينه على ذلك، لذلك كان حريصاً على إبقاء القارىء في جو النص، يتأمله ويتذوقه ويعيشه ويحيا معه.

وتظهر هذه المزية «للظلال» عندما ننظر إلى التفاسير السابقة المطولة التي كان صاحبها يخرج فيها ويُخْرج معه القارىء عن جو النص، إلى مباحث مختلفة، ويستطرد في موضوعات موسعة في الفقه أو اللغة أو القصص أو الجدل والخلاف. . كما في تفاسير الرازي وأبي حيان والخازن والآلوسي على سبيل المثال. . .

إن محافظة سيد على جو النص القرآني، وإبقاء القارىء فيه قاعدة أساسية من قواعده منهجه في الظلال، لذلك عندما وقف أمام قصة آدم عليه السلام وتجربته في الجنة وما جرى بينه وبين الملائكة، وبينه وبين إبليس،

وقصة الشجرة «المحرمة»، لم يخرج عن جو النص إلى «تحقيقات» عن هذا الحادث الـغيبـي، ولم يخض في تفصيلات الحدث ـ كما خاض بعض السابقين ـ كيفية خلق آدم وتفصيلاته ومراحله، وكيفية خلق حواء وتفصيلاته، ونوع الشجرة المحرمة، ودور الأفعى في المؤامرة، وما تفصيلات الحادث بعد الأكل من الشجرة، وإنزالهم إلى الأرض، والمنطقة التي نزلوا فيها. . . إلى غير ذلك من «الخوض» المأخوذ عن الإسرائيليات.

وقف أمام القصة مسلّماً بها، مؤمناً بعالم الغيب، ثم راح يسجل الإيحاءات التي توحي بها، والحقائق التي تتضمنها «وفي اختصار يناسب ظلال القرآن، سنحاول أن نمر بهذه الإيحاءات والتصورات والحقائق مروراً مجملاً سريعاً. . »[1]. حتى الحقائق التي يتضمنها لم يتوسع في تفصيلها في الظلال. «فالحقائق هذه تشارك في تقرير «مقومات التصور الإسلامي». . وسنحاول أن نلم بها بقدر ما يسمح «منهج الظلال، ونُبْقي تفصيلاتها للبحث المتخصص عن «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. . . »[2].

وعندما وقف أمام قصة آدم كما وردت في سورة الحجر، أورد بعض الخواطر السريعة حول تكوين الإنسان، ولم يتوسع فيها حتى لا يخرج عن جو النص القرآني، وحتى لا يوقف تدفق النص.

«هذه بعض الخواطر التي تطلقها في النفس حقيقة تكوين الإنسان، كما يقررها القرآن، نمر بها سراعاً، حتى لا نوقف تدفق النص القرآني في عرض مشاهد القصة الكبرى، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات في نهايتها. . . »[3].

ولما انتهى من تفسير النصوص القرآنية، ووقف يسجل بعض إيحاءاتها ويعقب عليها، كان يلاحظ منهجه ـ وهو البقاء في جو النص وفي ظلال القرآن ـ ولذلك قال: (وبعد، فإن قصة البشرية الكبرى ـ كما تُعرض في هذا

(١) الظلال ١: ٦٠ ـ ٦١.
(٢) الظلال ٣: ١٢٧.
(٣) الظلال ٤: ٢١٤٠.

السياق القرآني ـ تستحق تعقيبات مفصلة، لا نملك أن نستطرد فيها ـ في ظلال القرآن ـ فنكتفي أن نلم بها إلماماً على قدر المناسبة. . .)[1].

ولما كان يفسر قوله تعالى: ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. . ﴾[2].

أشار إشارة سريعة إلى اختلاف الروايات في تعين الشخص المقصود، وفي قصته وحقيقته، وألمح إلى رائحة الإسرائيليات المنبعثة منها. . . ولذلك لم يذكرها ولم يعتمدها ولم يبينها لأنها لا تتفق مع منهجه في الظلال. (لذلك رأينا ـ على منهجنا في ظلال القرآن ـ ألا ندخل في شيء من هذا كله، بما أنه ليس في النص القرآني فيه شيء. .)[3] وأخذ من النبأ ما وراءه، وهو اعتباره مثلاً مصوراً متكرراً في حياة البشر، ينطبق على كل الذين يكذبون بآيات الله بعد أن عرفوها.

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش. . . . ﴾[4] صرح بأن البحث في كيفية خلق الله للسموات والأرض، وكيفية استوائه على العرش، وكيفية العرش نفسه، والمقصود بالأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. . صرح بأن البحث في هذه المباحث غير منهجي وغير سليم، ولهذا ترك البحث في هذا وبقي في جو النص يرتاد معه رحلة موحية في الكون العجيب «ونخلص نحن من هذه المباحث التي لا تضيف شيئاً إلى هدف النص ووجهته لنرتاد مع النصوص الجميلة تلك الرحلة الموحية في أقطار الكون المنظور وفي أسراره المكنونة[5].

---

(١) الظلال ٤: ٢١٤٢.
(٢) الأعراف: ١٧٥.
(٣) الظلال ٣: ١٣٩٧.
(٤) الأعراف: ٥٥.
(٥) الظلال ٣: ١٢٩٧ وانظر تفسير الآيات كاملة في الظلال ٣: ٢٧٩٥ ـ ١٢٩٧ وانظر في تجاوزه الجدل الفقهي الظلال ٣: ١٦٠٢.

ومما يتفق مع هذه القاعدة من قواعد منهجه في التفسير، موقفه من «مبهمات القرآن» تلك المبهمات التي خاض فيها سابقون ووضعوا مؤلفات في تحديدها، واختلفوا فيما بينهم في ذلك التحديد، مع أنهم وقعوا في خطأ أساسي منهجي، لأن البحث في تلك المبهمات لا يتفق مع منهج القرآن في «الواقعية الجدية الحركية»، ولا نملك الأداة العلمية الموثوقة في تحديدها أو تعيينها، ولو علم الله أن في تحديدها منفعة أو خيراً لنا لما أبهمها في القرآن . .

إن سيد قطب يعتبر الخوض في المبهمات وتحديدها خروج عن جو النص القرآني، فضلاً عن عدم علميته أو منهجيته أو جديته ـ ولذلك لن يخوض فيه مع الخائضين.

من هو الشخص الذي حاوره إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأقام الحجة عليه يقول سيد «لا يذكر السياق اسمه، لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئاً . .»[1].

كذلك من هو الشخص الذي مر على قرية؟ وهل هو العزير أو غيره؟ وما هي القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها؟ أهي من قرى فلسطين أم غيرها؟

لم يفصح القرآن عن ذلك، ولذلك لم يحاول سيد أن يحدده «إن القرآن لم يفصح عنهما شيئاً ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمله في القرآن، فلنقف نحن ـ على طريقتنا في هذه الظلال ـ عند تلك الظلال . .»[2].

ولم يحاول سيد أن يخوض في صفة الرزق أو أنواعه الذي كان يأتي مريم من الله، ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً . . ﴾[3] لأن خوضه فيه خروج عن جو النص القرآني، «ولا نخوض نحن في صفة

---

(١) الظلال ١ : ٢٩٧ .

(٢) الظلال ١ : ٢٩٩ وانظره كذلك في ١ : ١٧١ و ١ . ٢٦٣ - ٢٦٤ و ٣٢١ .

(٣) آل عمران . ٣٧ .

هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة. فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة، ليفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقا..»[١].

وعندما وقف سيد أمام آيات المواريث الثلاث في سورة النساء[٢]. أشار إلى أنها تتضمن أصول علم الفرائض، ولذلك لم يدخل في التفريعات والتطبيقات لعلم الفرائض، وإنما فسر الآيات بإيجاز، وعقب على بعض ما تضمنته من أصول المنهج الإسلامي في التشريع والتوجيه والتربية. وهذا يتفق مع المنطلق الأساسي الذي نتحدث عنه[٣]..

وانطلاقاً من هذا الأمر نجد أن سيد قطب لم يتوسع في المسائل الفقهية، ولم يضرب في الجدل الفقهي حول آيات الأحكام، وإنما كان يشير إلى المسألة الفقهية بأوجز عبارة، ثم يحيل على كتب الفقه لاستقصاء الأدلة والمذاهب والفروع والفرضيات، ولم يتحدث عن هذه في الظلال لأنه يعتبر ذلك خروجاً على جو النص القرآني وهو حريص على أن يبقى فيه..

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.. ﴾[٤] أشار إلى ما تحتمله كلمة (من أوسط ما تطعمون أهليكم) من أوسط الطعام أو أوسط الكسوة.

أما تحرير الرقبة وصيام ثلاثة أيام، فيشير إلى الخلافات الفقهية فيها بقوله: «أو تحرير رقبة» لا ينص هنا على أنها مؤمنة... ومن ثم يرد بشأنها خلاف فقهي ليس هذا مكانه... (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) وهي الكفارة التي يعاد إليها في اليمين المعقودة عند عدم استطاعة الكفارات

---

(١) الظلال ١: ٣٩٣ وانظر تساؤلاته حول خلق عيسى ـ عليه السلام ـ وتجاوزها في الظلال ١: ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) النساء: ١١ ـ ١٢ و ١٧٦.

(٣) انظر الظلال ١: ٥٩٠.

(٤) المائدة: ٨٩.

الأخرى. . . وكون هذه الأيام الثلاثة متتابعة أو غير متتابعة فيه كذلك خلاف فقهي بسبب عدم النص هنا على تتابعها. . والخلافيات الفقهية في هذه الفرعيات ليست من منهجنا في هذه الظلال. فمن أرادها فليطلبها في مواضعها في كتب الفقه. .)[1].

ولما تحدث عن مكانة الأسرة في الإسلام، بيَّن بياناً مجملاً نظرة الإسلام إلى الأسرة، ومنهجه في بنائها والمحافظة عليها. . وكان بيانه المجمل يتفق مع هذه القاعدة، وتَرَكَ التفصيل فيه لأنه يخرجه عن جو النص[2]. وكذلك فعل وهو يتحدث عن «قوامة الرجال» على النساء ومقوماتها ومبرراتها. .»[3].

ولم يخرج عن هذا وهو يتحدث عن القصص القرآني، فلم يتوسع في التفصيل فيه، والأخذ في ذلك عن الإسرائيليات ـ كما فعل بعض السابقين ـ وإنما وقف عند السياق القرآني، وبقي في جوه وعاش في ظلاله.

فقصة «ابني آدم» في سورة المائدة[4] لا يحدد السياق القرآني زمان أو مكان أو أسماء أو تفصيلات القصة. . وكل ما ورد من تفصيل في ذلك فإنما خاض فيه المفسرون ولذلك آثر سيد أن يستبقي القصة ـ كما وردت ـ مجملة بدون تحديد (وبقاء القصة مجملة ـ كما وردت في سياقها القرآني ـ يؤدي الغرض من عرضها، ويؤدي الإيحاءات كاملة، ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية. . لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه ولا نفصله. . .)[5].

وفي قصة نوح ـ كما في سورة هود ـ وبخاصة فوران التنور وكيفيته،

---

(١) الظلال ٢: ٩٧١ وانظر موقفه من عقوبة الجارية البكر إذا زنت ٢: ٦٢٩ وكيفيات صلاة الخوف ٢: ٧٤٨ وقضاء الصلوات الفوائت ٢: ٧٤٩ ونجاسة ذات الخمر ٢: ٩٧٧.

(٢) انظر الظلال ٢: ٦٤٨.

(٣) انظر الظلال ٢: ٦٥٢.

(٤) المائدة: ٢٧ ـ ٣٢.

(٥) الظلال ٢: ٨٧٥.

وتفصيل الأحياء التي حمل نوح ـ عليه السلام ـ في سفينته منها من كُلٍ زوجين اثنين. وتفصيل الطوفان وبدايته ونهايته.. في كل هذا لم يخرج سيد عن جو النص القرآني، لأنه يخرج إلى التيه والخيال والإسرائيليات... «وتتفرق الأقوال حول فوران التنور، ويذهب الخيال ببعضها بعيداً، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي قصة الطوفان كلها واضحة. أما نحن فلا نضرب في متاهة بغير دليل، في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلا ما يقدمه لنا النص، وفي حدود مدلوله بلا زيادة.»[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها..»[2] ينتقد سيد صنيع المفسرين الذين راحوا يُبدون ويُعيدون في سبب وصية يعقوب ـ عليه السلام ـ لأولاده بدخولهم من أبواب متفرقة، لأنهم في عملهم ذلك يفعلون ضد ما يقتضيه السياق القرآني، ويخرجون عن جوه ولهذا يقول: «فينبغي أن يقف المفسرون عندما أراده السياق، احتفاظاً بالجو الذي أراده، والجو يوحي بأنه كان يخشى شيئاً عليهم، ويرى في دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشيء..

ثم ليكن هذا الشيء الذي كان يخشاه هو العين الحاسدة، أو هي غيرة الملك من كثرتهم وفتوتهم، أو هو تتبع قطاع الطريق لهم، أو كائناً ما كان، فهو لا يزيد شيئاً في الموضوع، سوى أن يجد الرواة والمفسرون باباً للخروج عن الجو القرآني المؤثر إلى قال وقيل، مما يذهب بالجو القرآني كله في كثرة الأحايين!.»[3].

وهذه الكلمات من أصرح كلمات سيد وأوضحها في انتقاده للمفسرين الذين يخرجون عن جو النص ويُخرجون معهم القارىء.. وعندما فسر قوله تعالى: ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا، وجعلناها وابنها آية

---

(1) الظلال ٤: ١٨٧٧.

(2) يوسف: ٦٨.

(3) الظلال ٤: ٢٠١٨.

للعالمين ﴾[1] لم يُطل الوقفة أمام النفخ وكيفيته، والروح التي نفخ فيها منها، هل هي جبريل أو روح الله التي خلق منها الإنسان؟ لأن ذلك يبعده عن جو النص القرآني ويخرجه عنه.

(والنفخ هنا شائع لا يحدد موضعه كما في سورة التحريم ـ وقد سبق الحديث عن هذا الأمر في تفسير سورة مريم[2] ـ. ومحافظة على أن نعيش في ظلال النص الذي بين أيدينا، فإننا لا نفصل ولا نطول، فنمضي مع النص إلى غايته...)[3].

كانت الآيات توحي له إيحاءات عديدة، وخواطر منوعة، لو أراد أن يخوض فيها لخرج عن جو النص، ولذلك كان لا ينساق وراء خواطره، بل يكبحها ويعيدها إلى النص وجَوِّه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿كتب على نفسه الرحمة ﴾[4] فتقصِّي مظاهر الرحمة الإلَهية وظواهرها لا يتفق مع منهجه هذا ولهذا جاوزه[5] وآثار استقرار حقيقة رحمة الله في تصور المسلم، آثار عميقة كثيرة في حسّ المسلم وفي خُلُقه وفي حياته، وتقصيها لا يتفق مع منهجه، لذلك أشار إلى أهمها إشارات سريعة[6].

وقوله تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء.. ﴾[7] يهز القلب بالآفاق الشاسعة لعلم الله وقدرته، وتدبيره وإشرافه. وكل مجال منها لا يملكِ التوسع في

---

(١) الأنبياء: ٩١.

(٢) انظر الظلال ٤: ٢٣٠٦ حاشية.

(٣) الظلال ٤: ٢٣٩٥ وانظر نماذج أخرى في الظلال ٤: ٢٢٧٨ و٢٢٩٨ و٢٣٨٧ و٢٣٩١ و٥: ٢٨٩٨.

(٤) الأنعام: ١٢.

(٥) الظلال ٢: ١٠٤٩.

(٦) الظلال ٢: ١٠٥٢.

(٧) الأنعام: ٣٨.

الحديث عنه حتى لا يخرج على جو النص، ومن ثم يخرج على منهج الظلال، فجاوز الآفاق كلها ليتمشى معه، ويعيش في ظلاله، ويبقى في جو النص الكريم[1].

ومن مظاهر حرصه على البقاء في جو النص القرآني أن بعض المقاطع أو القصص القرآنية توحي له عدة إيحاءات وخواطر، ويرى الحاجة تدعو إلى وقفات طويلة، وتعقيبات حركية. . . . . فيؤخر تلك الوقفات والتعقيبات إلى حين انتهائه من التفسير، حتى لا يقطع تدفق السياق القرآني، أو يخرج على جوِّه. كما في تعقيباته على قصة نوح في سورة هود[2]. وقصة هود في السورة[3]، وتعقيبه على سورة هود نفسها[4].

البقاء في جو النص القرآني، قاعدة من قواعد منهج سيد قطب في التفسير، انطلق منها وهو يفسر القرآن، وحرص على عدم الخروج عنها، إلى موضوعات ثقافية مختلفة، كما فعل بعض المفسرين من السابقين. . . .

---

(١) الظلال ٢: ١٠٨٠ وانظر نماذج أخرى في الظلال ٢: ١١٠٤ و١٠٣٥ و١١٥٩ ـ ١١٦٠ و٦: ٣٤٤٠.

(٢) انظر الظلال ٤: ١٨٨٠ ـ ١٨٩٤.

(٣) انظر الظلال ٤: ١٩٠١ ـ ١٩٠٦.

(٤) انظر الظلال ٤: ١٩٣٤ ـ ١٩٤٨ وانظر نماذج أخرى في الظلال ٤: ٢٠٦٦ ـ ٢٠٧٦ و٢١٠٠ ـ ٢١٠٣ و٢١٤٢ ـ ٢١٤٥.

المبحث الخامس

استبعاد المطولات التي تحجب القرآن

هذا المبحث تابع للمبحث السابق ومتمم له، أن سيد قطب كان حريصاً على البقاء في جو النص القرآني - كما بينا في المبحث الرابع السابق - لذلك كان حريصاً على عدم الخوض في المطولات المختلفة، وعدم التفصيل في القضايا والأمور الخلافية في العقيدة أو الفقه أو اللغة أو القصص أو غير ذلك.

إن سيد يعتقد أن البحث في تلك المطولات يحجب نور القرآن وإيحاءاته عن المفسر والقارىء، ويحوّل التفسير من هدفه العملي التربوي إلى موسوعة علمية ثقافية خلافية.. تلك المطولات هي التي حجبت جمال القرآن ولذته عن سيد قطب الذي تذوق جماله وبلاغته مبكراً.. «ودخلت المعاهد العلمية، فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير، وسمعت تفسيره من الأساتذة، ولكنني لم أجد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل الذي كنت أجده في الطفولة والصبا.. وأسفاه لقد طمست كل معالم الجمال فيه، وخلا من اللذة والتشويق.. ترى هما قرآنان؟ قرآن الطفولة العذب الميسر المشوق، وقرآن الشباب العسر المعقد الممزق؟ أم إنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير.

وعدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير. وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب»[1].

---

(١) التصوير الفني في القرآن: ٧.

ومن أجل هذا كان من منهج سيد قطب أن يستبعد المطولات المختلفة عن دراساته الأدبية الفنية الجمالية في مشروع «مكتبة القرآن الجديدة». ذلك المنهج الذي يبينه بقوله: «والقرآن: هذا الكتاب المعجز الجميل، هو أنفس ما تحويه المكتبة العربية على الإطلاق، فلا أقل من أن يعاد عرضه. وأن تُرد إليه جدّته، وأن يستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية والأسطورية أيضاً.. وأن تبرز فيه الناحية الفنية، وتستخلص خصائصه الأدبية، وتنبه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه. وذلك هو عملي الأساسي في مكتبة القرآن»[1].

وكان هذا من منهجه في الطبعة الأولى من الظلال، كما بينه في المقدمة بقوله: «كل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية، تحجب القرآن عن روحي وتحجب روحي عن القرآن وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآني ذاته، من خاطرة روحية أو اجتماعية أو إنسانية. وما أحفل القرآن بهذه الإيحاءات»[2].

وبقي هذا من قواعد منهجه في الطبعة المنقحة من الظلال. حيث أشار فيها إشارات مختلفة إلى حرصه على استبعاده تلك المطولات، وإذا دعته خواطره إلى الخوض فيها والاستطراد. فإنه يكبح جماحها ويعدها إلى «جو النص القرآني» ويحيل القارىء الراغب في تلك المطولات على كتب التفسير وكتب الفقه التي اهتمت ببيانها والتوسع فيها.

في تفسير قوله تعالى: ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت... ﴾[3].

وقف كثير من المفسرين السابقين وقفات مطولة، تحدثوا فيها عن السحر وحقيقته، وأقوال المذاهب في ذلك وأدلة كل منهم، وترجيح المفسر

(١) مشاهد القيامة في القرآن: ٨.
(٢) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١: ٦.
(٣) البقرة: ١٠٣.

ورده على الآخرين واستدلاله لرأيه. كما تحدثوا - طويلاً - عن حكم السحر وعمل الساحر وتوبته وقتله وكفره وغير ذلك. وكذلك خاضوا طويلاً في أمر الملكين هاروت وماروت بين الأساطير والإسرائيليات والخرافات. وأوردوا روايات عديدة في تفسير الآية استغرقت مساحة واسعة في التفاسير.

ولكن سيد قطب لم يستطرد في ذلك، ولم يخض فيه، أما السحر فكان حديثه عنه لا يتعدى الصفحة الواحدة، بين فيها منهجه ومنهجيته في النظر إليه - كأمر لا يعرف الناس حقيقته ولكنهم يعرفون مظاهره وآثاره - واستشهد له بشواهد من الحياة المعاصرة كالتنويم المغناطيسي، والتليبائي - التخاطر عن بعد - والأحلام التنبؤية والأحاسيس الخفية.

أما هاروت وماروت، فلم يجر خلف الإسرائيليات والأساطير والخرافات في تحديدها، ومتى كانا ببابل، وماذا حدث معهما، بل مر بذلك كله مرور الكرام. فقال: «ولا أحب أن نجري نحن - في ظلال القرآن - خلف الأساطير الكثيرة التي وردت حول قصة الملكين. فليست هنالك رواية واحدة محققة يوثق بها..»[1].

وعلى هذا الأساس فسر قوله تعالى: ﴿ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم..﴾[2].

حيث لم يذهب «في تيه التأويلات» عن هؤلاء: من هم؟ وفي أي زمان خرجوا؟ وكيف قال الله لهم موتوا؟ وكيف ماتوا وبأي سبب؟ وكيف أحياهم؟.. لم يجب عن هذه الأسئلة - كما أجاب بعض المفسرين! - لئلا يتيه في أساطير لا سند لها. وتجاوز هذا البحث الأسطوري المطول إلى بيان العبرة من قصتهم[3].. كما ألم بالجمال الفني في الأداء القرآني وهو يعرض قصتهم، وما فيها من تقابل وتناسق وتصوير[4].

---

(١) الظلال ١ : ٩٧.

(٢) البقرة: ٢٤٣.

(٣) الظلال ١ : ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٤) الظلال ١ : ٢٦٥ - ٢٦٦.

وكذلك استبعد الروايات المطولة في شأن عيسى عليه السلام. كيف حملت به أمه مريم.. وكيف نفخ فيها من روح الله؟ وما هي تلك النفخة؟ أهي الكلمة أم الإرادة[1]....

كذلك محاولة الكفار قتل عيسى وصلبه عليه السلام. وكيف أنجاه الله منهم ورفعه إليه. لقد بقي في جو قوله تعالى: ﴿ وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[2].

«ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت الوفاة وأين؟ وهم ما قتلوه وما صلبوه، وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه».

ولا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة، إلا ما ورد في السورة الأخرى من قوله تعالى: ﴿ يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ.. ﴾[3]... وهذه كتلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة. ولا عن طبيعة هذا التوفي وموعده.. ونحن ـ على طريقتنا في ظلال القرآن ـ لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال، ولا أن نضرب في أقاويل وأساطير، ليس لدينا من دليل عليها، وليس لنا إليها سبيل[4]..

وإذا اطلعنا على التيه الذي تخبط به النصارى في عقائدهم ومؤلفاتهم حول قضيتي ولادة عيسى ورفعه عليه السلام، وإذا اطلعنا على الركام الذي امتلأت به صفحات عديدة من تفاسير سابقة حول هاتين القضيتين ـ بدون علمية أو منهجية أو فائدة ـ أدركنا هذه المزية للظلال، وإحسان سيد قطب صنعا عندما أضرب عن كل هذه الأقوال، واستبعد تلك الروايات والمطولات من تفسيره!!

---

(١) الظلال ١: ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) آل عمران: ٥٥.

(٤) الظلال ٢: ٨٠٢ وانظر الظلال ١: ٤٠٣ ـ ٤٠٤ و ٢: ٨٦٠.

وكما أضرب عن إيراد تلك المطولات، أضرب عن الرد والتفصيل التاريخي لتسلل فكرة التثليث إلى النصرانية[1].

ويتجلى هذا المنطلق من منطلقاته الأساسية أيضاً في حديثه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، وعن مشرق الأرض ومغربها الذي وصل إليه، وعن مكان السدّين ووجودهما، وعن يأجوج ومأجوج ومكانهما ووجودهما. .

لقد استبعد - وهو يفسر الآيات الواردة بذلك - المطولات، وكان منهجياً في تفسير تلك النصوص حيث لم يخرج عن إيحاءات النص ومعانيه وظلاله.

يبين منهجه في النظر في قصة أصحاب الكهف بقوله: «وفي القصة - روايات شتى، وأقاويل كثيرة، فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتىٰ ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المستيقن. ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بغير سند صحيح وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها، وعن المراء فيها والجدل رجماً بالغيب»[2].

كذلك لم يخض في المكان الذي وصله موسى - عليه السلام - وفتاه حتى بلغ «مجمع البحرين»[3] ولا الزمان الذي وقعت به أحداث قصة موسى - عليه السلام - مع العبد الصالح. ولم يحاول تعيين فتى موسى - عليه السلام - ولا العبد الصالح. من هو؟ ما اسمه؟ هل هو نبي أو رسول؟ أم

---

(١) انظر الظلال ٢: ٨١٥ - ٨١٦.

(٢) الظلال ٤: ٢٢٦١.

(٣) رغم منهجيته في عدم تحديد المكان الذي وقعت فيه القصة إلا أنه خرج عنها قليلاً في محاولته الإشارة إلى المقصود بمجمع البحرين حيث رجح أنه مكان التقاء البحر المتوسط بالبحر الأحمر إما في بحيرة التمساح والبحيرات المرة، أو في خليجي السويس والعقبة واستبعد احتمال كونه ما بين بحري فارس والروم، أو عند مضيق جبل طارق، بين المتوسط والمحيط الأطلسي. وهو وإن لم يتوسع في الأقوال والخلافيات في ذلك إلا أن هذه الإشارة لا تنطبق على منهجيته السابقة! ولعله كان سيحذف هذا الكلام عندما يصله في الطبعة المنقحة. . . .

عالم؟ أم ولي؟ . . لأن القرآن لم يحدد ذلك كله ولذلك يقول: «ونحن نقف عند نصوص القصة في القرآن. لنعيش «في ظلال القرآن» ونعتقد أن لعرضها في القرآن على النحو الذي عرضت به، دون زيادة، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء، حكمة خاصة، فنقف نحن عند النص القرآني نتملاه . .»[1].

وكذلك سيرة ذي القرنين وتعيينه وأعماله، لم يزد في التفسير على ما ورد في القرآن الكريم «وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة، فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم. وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة، ولكنها لا تعتمد على يقين، وينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من إسرائيليات وأساطير[2]. . ولم يحاول تحديد المكان الذي وصل إليه ذو القرنين عند مغرب[3] الشمس، وعند مشرق الشمس[4]، وبين السدين[5]».

ولو اطلعنا على ما قاله المفسرون السابقون حول أهل الكهف، وموسى ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح، وذي القرنين وفتوحاته، ويأجوج ومأجوج، وعلى الصفحات الطويلة التي سودت بها تلك التفاسير، من يطلع على تلك المطولات يدرك أهمية البقاء مع جو النص القرآني، واستبعاد المطولات الأخرى، وهو ما فعله سيد في الظلال.

ولم يستبعد المطولات حول السابقين وقصصهم فقط، ولكن استبعد المطولات في الموضوعات الأخرى. كالنقاش والجدل مع أصحاب الفرق الأخرى في العقيدة وغيرها.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي

(١) الظلال ٤: ٢٢٧٨.
(٢) الظلال ٤: ٢٢٩١.
(٣) الظلال ٤: ٢٢٩١.
(٤) الظلال ٤: ٢٢٩٢.
(٥) الظلال ٤: ٢٢٩٢.

آذانهم وقرا. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.. ﴾[1] تحدث عن القضاء والقدر، وعرض نصوصاً أخرى للقرآن تبين «التوازن» بين مشيئة الله الطليقة وبين مشيئة الإنسان المقيدة المحدودة، عرضها بصورة تقريرية سهلة مقنعة، ولم يذهب مع «الفرق» الإسلامية الأخرى - من معتزلة وقدرية وجبرية ومرجئة وغيرهم - في جدل مطول، ونقاش موسع. وإنما أشار إشارة سريعة إلى الخطأ الأساسي الذي وقعوا فيه، الخطأ في منهج تناولهم لقضية «القضاء والقدر» حيث تركوا منهج القرآن في عرضها وتقريرها، إلى فروضهم العقلية، وتقديراتهم البشرية، وخوضهم في عالم الغيب...» والذين أثاروا قضايا القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وإرادة العبد وكسبه، ليجعلوا منها مباحث لاهوتية، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه العقيدة في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة[2].

كذلك لم يذهب في جدل مطول ونقاش موسع مع المعتزلة حول اعتبار الخمر رجساً، وهل هو ناشىء عن أمر الشارع بتحريمها، أم ناشىء عن صفة لازمة لها.. «وهل المحرمات محرمات لصفة ملازمة لها، أم إن هذه الصفة تلزمها من التحريم.. فهو جدل عقيم في نظرنا، وغريب على الحسّ الإسلامي..»[3].

استبعاد المطولات - في مختلف الموضوعات - التي تحجب القرآن عن المفسر، قاعدة من قواعد منهج سيد قطب في التفسير ومزية من مزايا الظلال، خلص بها من الخرافات والإسرائيليات والاستطرادات. وأعطى القارىء حقائق القرآن وتقريراته ودلالاته.

---

(١) الأنعام: ٢٥.
(٢) الظلال ٢: ١٠٦٦.
(٣) الظلال ٢: ٩٧٨.

المبحث السادس

«تسجيل إيحاءات النص وظلاله ولطائفه»

كان سيد قطب يتلو الآيات التي يريد تفسيرها، ويعيد التلاوة، ويعيش بكيانه مع معانيها وإيحاءاتها وظلالها. ثم يكتب تفسيرها، ويقيد خواطره حولها، ويدون إيحاءاتها وإيماءاتها، وحقائقها ودلالاتها، وصورها وظلالها.

وهو في عمله هذا يطبق المنهج القويم في التفسير، ويسير مع أقرب الطرق لفهم كلام الله. هذا الطريق الذي بينه حسن البنا ـ رحمه الله ـ جواباً على سؤال وُجّه إليه عن أقرب طرق الفهم لكتاب الله. فقال له: «قلبك» فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى. وأقرب طرائق الفهم: أن يقرأ القارىء بتدبر وخشوع، وأن يستلهم الرشد والسداد، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة.... وأن يلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة، ويعني بنوع خاص بأسباب النزول، وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة. فسيجد في ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم، وإذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دق عليه، أو تركيب خفي أمامه معناه، او استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله.. فهي مساعدات على الفهم.. والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوؤه في صميم القلب..»[1].

ولا شك أن هذا المنهج القويم والطريق السليم ـ كما بينه حسن البنا ـ يحقق للقارىء التعامل المباشر مع القرآن والتلقي منه، والتفاعل الحي معه،

---

(١) مقدمات تفسير القرآن لحسن البنا: ٣٠.

والتعرض لايحاءاته وظلاله، ثم تأتي المرحلة الثانية وهي «توثيق» ما فهمه، والاستدلال له وبيان «صوابيته». وهكذا كان يفعل سيد قطب، كما سنبين بالتفصيل عند حديثنا عن «طريقته العامة» في التفسير[1]..

وقد وضح سيد قطب طبيعة الظلال، والتي كانت خواطر متناثرة شتى، عنَّت له من عيشه في ظلال القرآن وتفاعله مع نصوصه.. «وكانت تعنُّ في هذه الجولات خواطر متناثرة: خواطر في العقيدة، وخواطر في النفس، وخواطر في الحياة، وخواطر في الناس... كنت أكتفي بأن أعيشها ولا أسجلها، فقد كان حسبي أن أعيش هذه اللحظات في تلك الظلال..»[2].

ولما صار يكتب الظلال قال: «ما جاوزت أن أسجل خواطري، وأنا أحيا في تلك الظلال»[3].

هذه الخواطر كانت فنية في منهج سيد الجمالي في التفسير، ثم صارت فنية فكرية في منهجه الفكري بعد ذلك، واستقرت في صورتها النهائية جمالية وفكرية وحركية وتربوية وجهادية في منهجه الحركي[4]..

ولا يعني هذا أن كلام سيد كله خواطر وعواطف، وأدب وانفعال، ولا يحوي شيئاً من العلم والفكر والتربية.. كما قد يفهم البعض - بل لقد «لمزه» بعضهم في ذلك - لكنه قالب فني ساحر، صب فيه أفكاره وعلمه وآراءه...

كان سيد قطب - اذن - حريصاً على أن يسجل إيحاءات النص ودلالاته، وإيماءاته وظلاله، وهي إيحاءات ودلالات صائبة، ناتجة عن تذوق مباشر، ونظر فاحص، كما أنها إيحاءات شتى، في التصور والعقيدة. وفي الفكر والرأي، وفي الأدب والجمال، وفي الدعوة والحركة، وفي الأحكام

---

(١) الفصل الأول من الباب الثاني القادم.
(٢) الظلال - الطبعة الأولى - ١: ٥.
(٣) الظلال ١: ٦.
(٤) انظر الفصل الأول من هذا الباب.

والتشريع، وفي التربية والجهاد، وفي التنظيم والعمل.. وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...»[1] تملاه سيد قطب بحسه اليقظ وبصيرته المفتوحة وأوحى له هذا إيحاءات عدة منها:

مشيئة الله عز وجل في تسليم الإنسان زمام الأرض، وتسخيرها له، وإطلاق يده فيها، ليكشف ما فيها من قوى وطاقات، وكنـوز وخامات، ليؤدي وظيفته التي قدرها له على أتم وجه.

ومنها: ما وهبه الله له من طاقات كامنة، واستعدادات مذخورة، وقوى خفية كفاء ما في الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، ليتمكن من استغلالها واستعمارها.

ومنها: الوحدة أو التناسق بين النواميس التي تحكم الأرض والكون. والنواميس التي تحكم الإنسان وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون العظيمة.

ومنها: منزلة الإنسان العظيمة في نظام الوجود، وتكريم الله له بأن جعله خليفة فيه[2].

كما يوحي قول الملائكة: «قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء..» بأنه كان لديهم «من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) إعترض بعض الكتاب المسلمين المعاصرين على كون الإنسان خليفة عن الله لأنه يستلزم - في ظنهم - غياب المستخلف - بالكسر - مع أن الراغب الأصفهاني - رحمه الله - يقول «والخلافة النيابة عن الغير: إما لغيبة المنوب عنه. وإما لموته. وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض» المفردات للراغب: ١٥٦ وانظر فصل «الخلافة» من كتاب «مصطلحات قرآنية» لأستاذنا الدكتور أحمد فرحات.

المخلوق» فتوقعوا إفساده وسفكه للدماء. وهم - بفطرتهم !! ملائكية - يرون الغاية الوحيدة هي التسبيح والتقديس لله»[1].

ولا أدري هل تعتبر هذه الإيحاءات: عواطف وانفعالات وأدب فقط، أم إنها تمثل تصورات صائبة وأفكاراً ناضجة، وحقائق ثابتة!!

ووقف أمام قوله تعالى: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين.. ﴾[2] وسجل إيحاءاته ودلالاته:

أهم إيحاءاته اثنان: الأول أن الذي ينفَق خير. خير في ذاته. وخير للمعطي وللآخذ وللجماعة. والثاني: أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده فينفق منه لأن في هذا الطيب الخير الطهارة للقلب، والتزكية للنفس، والوجود الواقعي للإيثار.

كما يدل هذا النص على منهج الإسلام الحكيم الميسر. في تربية النفس الإنسانية وقيادتها. ونجاحه في ذلك نجاحاً باهراً[3].

استوقفته لفظة «عليكم» في قوله تعالى: ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف.. ﴾[4] فأوحت له بعدة إيحاءات منها:

إنها توحي بمعنى الجماعة المتضامنة المسؤولة عن كل ما يقع فيها. فهي التي يناط بها أمر العقيدة والشريعة وأفراد المجتمع، ومن ثم فهي التي يكون عليها جناح فيما يفعل أفرادها أو لا يكون.

كما أنها توحي بضرورة قيام هذه الجماعة لتقوم على الشريعة وتحرسها، ولتكون مسؤولة عن أفرادها في الصغيرة والكبيرة[5]..

---

(١) انظر الظلال ١: ١٥٦.
(٢) البقرة: ٢١٥.
(٣) الظلال ١: ٢٢١ - ٢٢٢.
(٤) البقرة: ٢٤١.
(٥) الظلال ١: ٢٥٩ وانظره في ٢٤٩ و٢٥٢ و ٢٥٦.

وللألفاظ والعبارات إيحاءاتها بالنسبة للأنبياء السابقين. فدعاء نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ لوالديه ﴿ رب اغفر لي ولوالدي.. ﴾[1] يوحي بأنهما كانا مؤمنيْن وإلا «لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين..»[2].

ووصف القرآن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام بأنه ﴿ كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين.. ﴾[3] وتأكيد أنه «ما كان من المشركين» مع أنها متضمنة في ما قبلها، يوحي بعدة إيحاءات، ويشير إلى عدة لطائف منها:

أن اليهود والنصارى زمن رسول الله ﷺ مشركون. ولذلك لا يمكن أن يكون إبراهيم منهم.

ومنها: أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر، وبينهما مفاصلة تامة، فلن يلتقيا أبداً.

ومنها: إبطال دعوى المشركين العرب وبخاصة قريش أنهم على دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأنهم سدنة بيته في مكة. فهو حنيف مسلم. وهم مشركون.

ومنها: أنه لا يحق ـ من ثم ـ لليهود أو للنصارى أو لقريش إدعاء وراثة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأنهم ليسوا على دينه، ولا يعتقدون عقيدته، وورثته الحقيقيون هم المسلمون ورثة عقيدته. فالعقيدة هي الوشيجة بين الناس، وهي آصرة التجمع الوحيدة المعتبرة في دين الله[4]...

ونسبة عيسى ـ عليه السلام ـ إلى أمه ـ رضي الله عنها ـ كما في قوله

(١) نوح: ٢٨.
(٢) الظلال ٦: ٣٧١٧.
(٣) آل عمران: ٦٧.
(٤) الظلال ١: ٤١٢.

تعالى: ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس.. ﴾[1] وغيره من النصوص القرآنية، من باب التوكيد الدائم على بشرية عيسى ـ عليه السلام ـ والقضاء على أباطل وأساطير النصارى حول بنوته لله ـ سبحانه وتعالى ـ أو ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت، أو تفرده بطبيعة إلٰهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية... فها هو بشر معروف الأم، عاشا معاً وكانا يأكلان الطعام[2]...

ووصْفُ رسول الله محمد ـ ﷺ ـ بأنه ذِكْر في قوله تعالى: ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا، قد أنزل الله إليكم ذكراً. رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات.. ﴾[3] حيث جُسّم الذكر ومُزج بشخص الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فجاء الرسول بدلاً من الذكر ـ حسب قواعد العربية ـ. وهذا له إيحاءات ودلالات منوعة:

منها: أن هذا الذكر الذي جاء للناس من ربهم قد مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق، حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مبشارة بذاته. لم تحجب شخصية الرسول شيئاً من حقيقته.

ومنها: أن شخصية الرسول ـ ﷺ ـ قد استحالت ذكراً، فهي صورة مجسمة لهذا الذكر مزجت به فصارت هو. وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن. ولا عجب فقد كان خلقه ـ ﷺ ـ هو القرآن[4].

ويقف سيد قطب أحياناً ليسجل إيحاءات ولطائف ولفتات السياق القرآني، في ورود الآيات بموضوعاتها المتناسقة المتناسبة. ففي مطلع سورة المائدة وردت آية تبين الطهارة للصلاة بالوضوء أو التيمم، بعد آيات تحدثت عن الطيبات من الطعام ومن النساء عند أحكام الصيد والذبائح، وهذا لا يأتي

---

(١) البقرة: ٢٥٣.
(٢) الظلال ١: ٢٨٢.
(٣) الطلاق: ١٠ ـ ١١.
(٤) الظلال ٦: ٣٦٠٥.

اتفاقاً ومصادفة لمجرد السرد، وإنما يأتي لحكمة واضحة، ويوحي إيحاءات ويدل دلالات منها.

إن الطهارة والصلاة لون آخر من طيبات الروح الخالصة. إلى جانب طيبات الطعام والنساء.

ومنها: إن هذه الأحكام كلها: أحكام الطهارة والصلاة، وأحكام الطعام والنكاح، وأحكام الصيد والذبائح وأحكام التعامل مع الناس.. إن هذه الأحكام كلها ـ عبادات ومعاملات ـ عبادة لله وخضوع له، وبينها صلة وتكامل وانسجام[1].

ويقف سيد أمام الآية الكريمة ويستخرج منها إيحاءات ودلالات، ويتعرف بها على حقائق أساسية في التصور والفكر. فالآية الأولى من سورة النساء ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام... ﴾[2] حوت حقائق أساسية منها:

إنها ابتداء تذكر «الناس» بمصدرهم الذي صدروا عنه. وتردهم الى الله خالقهم.

كما أنها تذكر بأن هذه البشرية الواحدة تتصل في رحم واحدة، وتلتقي في وشيجة واحدة، وتنتسب إلى نسب واحد.

كذلك تشير إلى كرامة المرأة في التصور الإسلامي، حيث خلق الله المرأة من «النفس الواحدة..».

وتوحي أيضاً بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة، ومن ثم فالأسرة هي قاعدة النظام الاجتماعي الإسلامي...

وهي أيضاً تدعو المسلم إلى التأمل في «الناس» والتنوع في أشكالهم

---

(١) الظلال ٢: ٨٤٩.
(٢) النساء: ١.

وسماتهم وملامحهم وطباعهم وأمزجتهم وأخلاقهم ومشاعرهم واستعداداتهم واهتماماتهم وتملي هذا التنوع يدل على قدرة الله القادرة الطليقة[1].

كذلك لنصوص القرآن وتوجيهاته وتقريراته، إيحاءات على واقع الصحابة الكرام في مكة والمدينة، وحركتهم بالقرآن وتفاعلهم معه، وإيحاءات شتى على ملامح المجتمع الإسلامي، ومظاهر النقاء فيه، ومظاهر الخلخلة فيه أيضاً. وصلة أفراده بالفئات الأخرى يهوداً ومنافقين ومشركين.... كما تدل على ملامح المجتمع الجاهلي ومظاهر الحياة فيه...

من النماذج على ذلك تعريف سيد قطب بسورة النساء حيث سجل فيه ملامح المجتمع الجاهلي ومظاهر الظلم فيه، بشتى ألوانه، وطريقة القرآن في القضاء على رواسبه في نفوس الصحابة وإنشاء مجتمع إسلامي مكانه[2].

ومنها: حديثه عن مظاهر النقاء في المجتمع الإسلامي الوليد، ومظاهر الخلخلة فيه وأسبابها وكيفية إزالتها، واستخراجه هذا من نصوص القرآن المتفرقة[3].

ومنها: ملاحظته مدى التغيير الإيجابي والتقدم المؤثر، الذي سار به الصحابة في سيرهم إلى الله، وذلك من خلال إيحاءات سورة محمد، ثم إيحاءات سورة الفتح التي نزلت بعدها بحوالي ثلاث سنوات، وتلك إيحاءات صادقة الدلالة على مجتمع الصحابة، وتحتاج إلى ذي موهبة مبدعة في تلقي الإيحاءات واستخراج دلالاتها[4].

وللألفاظ القرآنية ظلال خاصة تشعها وتلقيها، يحسّها القارىء المتذوق، ويعيش في أفيائها، وقد لا يستطيع نقل كل ما يجده ويتذوقه منها، بأسلوبه البشري القاصر - وإن كان أديباً موهوباً -!!!

---

(١) الظلال ١: ٥٧٣ - ٥٧٥.

(٢) الظلال ١: ٥٥٥ - ٥٧١.

(٣) الظلال ٣: ١٥٦٥ - ١٥٧٨.

(٤) الظلال ٦: ٣٣١٤ - ٣٣١٥.

وقف سيد لحظات أمام قوله تعالى: ﴿ ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾[1] المعنى المقصود أن الله يرضى عن ذلك الخير ويثيب عليه ولكن كلمة «شاكر» تلقي ظلالاً ندية وراء هذا المعنى المجرد، تلقي ظلال الرضى الكامل، حتى لكأنه الشكر من الرب للعبد، ومن ثم فهي توحي بالأدب الواجب من العبد مع الرب. فإذا كان الرب يشكر لعبده الخير، فماذا يصنع العبد ليوفي الرب حقه من الشكر والحمد؟؟ تلك ظلال التعبير القرآني التي تلمس الحسّ بكل ما فيها من الندى والرفق والجمال...»[2].

وكلمة «إليه» في قوله تعالى: ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾[3] تلقي على التعبير حركة مصورة. إذ ترسم المؤمنين ويد الله تنقل خطاهم في الطريق إلى الله على استقامة، وتقربهم إليه خطوة خطوة.. وهي عبارة يجد مدلولها في نفسه من يؤمن بالله على بصيرة. فيعتصم به على ثقة.. حيث يحسّ في كل لحظة أنه يهتدي، وتتضح أمامه الطريق، ويقترب فعلاً من الله كأنما هو يخطو إليه في طريق مستقيم... إنه مدلول يذاق... ولا يُعرف حتى يذاق!!»[4].

وقوله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ ولتصنع على عيني. ﴾[5] وقوله لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ إصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا.. ﴾[6] تعبيران عجيبان يدلان على مقامات رفيعة، وعناية إلّهية، وإعزاز رباني وأنس حبيب. قوله لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يلقي ظلاً رفيقاً لطيفاً عميقاً، يتذوقه الإنسان ويعجز عن وصفه والتعبير عنه»[7] لكن قوله لمحمد ـ ﷺ: ﴿ فإنك بأعيننا. ﴾ «فيه إعزاز خاص، وأنس خاص، وهو

---

(١) البقرة: ١٥٨.
(٢) الظلال ١ : ١٥٠.
(٣) النساء: ١٧٥.
(٤) الظلال ٢ : ٨٢٣.
(٥) طه: ٣٩.
(٦) الطور: ٤٨.
(٧) الظلال ٤ : ٢٣٣٥.

يلقي ظلاً أرق وأشف من كل ظل.. ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص.. فحسبنا أن نشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذه الظلال..»[1].

نكتفي بهذه النماذج الدالة على اعتماد سيد قطب على هذه القاعدة ـ تسجيل إيحاءات النص وظلاله ولطائفه ـ عندما فسر القرآن، واعتبارها منطلقاً أساسياً لفهم آيات القرآن... وفي الظلال الأمثلة الكثيرة على هذه القاعدة الأساسية...

---

(١) الظلال ٦: ٣٤٠٢.

المبحث السابع

دخوله عالم القرآن بدون مقررات سابقة

تحدثنا في الفصل الثاني من هذا الباب عن نظرية سيد قطب في التفسير. وخصصنا المبحث الأول فيه للحديث عن جوهر النظرية. وأشرنا هناك إلى أنه استلهم نصوص القرآن مباشرة، فأقبل عليه بدون مقررات سابقة[1]. ونتحدث الآن عن هذا الأمر باعتباره منطلقاً رئيسياً من منطلقاته الأساسية في التفسير، وقاعدة رئيسية من قواعد منهجه فيه.

وقد كان سيد حريصاً على بيان هذا بعبارات صريحة اعتقاداً منه بأهمية معرفته عند القراء، حتى يدركوا سر تعامله مع القرآن، ونجاحه في استخراج كنوزه وصوابية أفكاره، وقرآنية خواطره ونظراته واستدلالاته ونتائجه التي خرج بها، وحتى يعرفوا كيفية فهم القرآن، ويقفوا على مفتاح التعامل معه.

يقول في كتابه: «خصائص التصور الإسلامي»: ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً. لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية ـ من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته. نحاكم إليها نصوصه، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة.

لقد جاء النص القرآني ـ ابتداء ـ لينشىء المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر، وأن تقوم عليها حياتهم. .»[2].

---

(١) انظر مبحث «جوهر النظرية» من هذا البحث.

(٢) خصائص التصور الإسلامي: ١٦ ـ ١٧.

ويقول في الظلال ـ في تفسير سورة الفيل ـ أثناء انتقاده مدرسة محمد عبده في التفسير، التي دخل رجالها عالم القرآن بمقررات سابقة، وفسروه وفق هذه المقررات ولذلك سلكوا طريقاً غير مأمونة، وخرجوا بنتائج غير سليمة. يقول: «إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة. لا مقررات عامة.. ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص، بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا، فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكوِّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعاً، فإذا قررتْ لنا أمراً فهو المقرر كما قررْته! ذلك أن، ما نسميه العقل ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشري المحدود وتجاربنا البشرية المحدودة»[1].

وهذا العقل محدود بحدود وجودنا البشري. والقرآن كلام الله تعالى لا يقيد بقيودنا، فهو الذي يحكمنا ويحكم عقولنا...

إن دخول سيد عالم القرآن بدون مقررات سابقة، مزية تضاف إلى مناقبه، لأننا نعلم أنه كان واسع الثقافة كثير الاطلاع، وكوّن نتيجة لذلك حصيلة علمية وفكرية ضخمة، في مختلف الموضوعات، فلما جاء إلى القرآن، ألقى على عتبته كل تلك الحصيلة وشك في كل أمر منها ـ لأنها مقررات قاصرة، مأخوذة عن العقول البشرية المحدودة القاصرة، والنقص والخطأ ملازمان لها ـ وسلم نفسه وكيانه للقرآن، واستسلم بين يديه «ليشكل له خلفيته» الفكرية والثقافية، واستلهم نصوصه مباشرة في شتى المجالات والموضوعات. وإن هذا الأمر الذي قام به ـ مقتدياً بالصحابة الكرام عندما أسلموا ـ لم يتم فجأة، ولم يتحقق بسهولة، وإنما هو نتيجة طريق سلكها بجهد ومعاناة ومشقة. أعانه الله على السير فيها، وفتح له من كنوز القرآن المذخورة فيه.

وقف عند حدود الدرجة التي جعلها الله للرجال على النساء في قوله

---

(١) الظلال ٦: ٣٩٧٨ ـ ٣٩٧٩.

تعالى: ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾[1]. هل هي درجة عامة مطلقة في كل ما يتعلق بالعلاقات بين الرجل وزوجه؟ أم هي درجة خاصة، مقيدة بردهن إلى عصمتهم في فترة العدة فقط؟

ذهب سيد في دراساته الإسلامية قبل الظلال إلى الاحتمال الأول، وكان يفهم منها ـ كما يفهم الكثيرون من المسلمين المعاصرين كتّاباً ومفكرين ـ أنها مطلقة الدلالة.

ولكنه لما دخل عالم القرآن بدون مقررات سابقة واستلهم السياق القرآني مبشارة قال بالاحتمال الثاني ورجحه، وتراجع عن فهمه الأول باعتراف صادق صريح قال: «أحسب أنها مقيدة في هذا السياق بحق الرجل في ردهن إلى عصمتهم في فترة العدة. وقد جعل هذا الحق في يد الرجل لأنه هو الذي طلق، وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطي حق المراجعة لها هي! فيتذهب وترده إلى عصمتها! فهو حق تفرضه طبيعة الموقف، وهي درجة مقيدة في هذا الموضع، لا كما يفهمها الكثيرون، ويستشهدون بها في غير موضعها. .».

وبهذه المناسبة اعترف بخطأ فهمه السابق وتراجع عنه فقال في الحاشية: «وما أبرىء نفسي فقد وقعت في هذا التأويل الذي أرجح عدم صحته، في بعض ما كتبت»[2].

تناول سيد قطب قضية «القضاء والقدر» أو «الجبر والاختيار» بهذا الاعتبار، واستلهمها من نصوص القرآن الواضحة السهلة البسيطة الجازمة في شأنها، وسجل أساس خطأ فرق المتكلمين في تناولها، ومنشأ انحرافهم فيها. وقد حرص على بيان هذه المسألة في أكثر من موطن في الظلال. من ذلك قوله: «النصوص القرآنية تقول: إن كل ما يحدث بإرادة الله وقدره. وتقول في الوقت ذاته: إن الإنسان يريد ويعمل ويحاسب على إرادته وعمله.

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) الظلال ١: ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

والقرآن كله كلام الله. ولن يعارض بعضه بعضاً. فلا بد إذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول وذاك، ولا بدّ إذن أن يكون هناك مجال لإرادة الإنسان وعمله يكفي لحسابه عليه وجزائه، دون أن يتعارض هذا مع مجال الإرادة الربانية والقدر الإلٓهي. كيف؟ هذا ما لا سبيل لبيانه، لأن العقل البشري غير كفء لإدراك كيفيات عمل الله!»[1].

وبهذه المناسبة ينقد الفرق الإسلامية لاختلافها في قضية «الجبر والاختيار« أو «القضاء والقدر» ينقدها نقداً علمياً منهجياً، حيث بين أساس الخطأ الذي وقعوا فيه، ومنشأ انحرافهم في هذه المسألة «العويصة المعقدة» وهو أنهم دخلوا عالم القرآن بمقرر فكري سابق، وطلبوا من نصوص القرآن أن تشهد لما يعتقدونه من آراء وأفكار، ولووا أعناقها ليلزموها بهذه الشهادة!!!.

يقول «وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة... وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي واللاهوت المسيحي في هذا الجدل، فتعقد تعقيداً لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية.. ولو أُخذ الأمر بمنهج القرآن الميسر المباشر الجاد، ما اشتد هذا الجدل وما سار في ذلك الطريق فيه...»[2].

هذا بالإضافة إلى أنهم أقحموا عقولهم البشرية المحدودة القاصرة لتجول وتبحث في عالم الغيب، وهي غير مؤهلة للخوض فيه. والقرآن صريح في أن العقل البشري لا يستطيع إدراك كيفية فعل الله - سبحانه - ولا كيفية اتصال مشيئته - سبحانه - بما يراد خلقه، ولا كيفية توجه إرادته إلى خلق ما يريد. ولهذا أجابت الملائكة زكريا عليه السلام على تساؤله عن كيفية إعطائه يحيى وهو عجوز وامرأته عاقر أجابته قائلة: ﴿ كذلك الله يفعل ما

---

(١) الظلال ٢: ٧١٩ حاشية. وانظر أيضاً الظلال ١: ٥١٤ و٢: ١٠٦٥ - ١٠٦٦ و٣: ١٢٠٤ - ١٢٠٥ و٦: ٣٧٦٣ - ٣٧٦٤ و٦: ٣٩١٧ - ٣٩١٨.

(٢) الظلال ٣: ١٢٢٦.

يشاء.. ﴾[1] وكذلك أجابت مريم على نفس التساؤل عندما بُشرت بعيسى ـ عليه السلام ـ ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون... ﴾[2] ورددوا استغراب زوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما بشر بإسحاق ـ عليه السلام: ﴿ قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً؟ إن هذا لشيء عجيب! قالوا: أتعجبين من أمر الله؟!. ﴾[3].

ولذلك نرى سيد لا يُعمل عقله في أمور الغيب، وإنما هو يتلقى فيها نصوص القرآن الكريم، ويستخرج منها دلالات وحقائق وتصورات قرآنية.

فعلى سبيل المثال اهتدى بنصوص القرآن في شأن خلق آدم وإعطائه خصائصه ووظائفه. فقوله تعالى: ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم.. ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.. ﴾[5] يوحيان بأن إعطاءه خصائصه الوظيفية كان عند خلقه، ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق والإعطاء. ولفظ «ثم» في الآيتين لا يفيد التراخي الزمني. ولكن يفيد الترقي في الرتبة.

ولهذا يقول سيد: «وعلى أية حال فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه. وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية ولم يكن ترقياً في «وجود» الإنسان..»[6].

وترك سيد قطب لنصوص القرآن أن «تَعرّف» له مصطلح «الجاهلية» وتوضح له معناها. كما في قوله تعالى: ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[7].

---

(1) آل عمران: ٤٠.
(2) آل عمران: ٤٧.
(3) هود: ٧١ ـ ٧٢.
(4) الأعراف: ١١.
(5) طه: ٥٠.
(6) الظلال ٣: ١٢٦٤.
(7) المائدة: ٥٠.

فهو يقول في تفسير هذه الآية: ﴿إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية - كما يصفها الله ويحددها قرآنه - هي حكم البشر للبشر. لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله»[1].

كذلك سار سيد مع نصوص القرآن الصريحة وهي تقرر «أن آدم - عليه السلام - وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية. وعرف الدينونة لله وحده باتباع ما يتلقى منه وحده، وأنه عرَّف بنيه هذه العقيدة. فكانت هناك أجيال - في أقدم تاريخ البشرية - لا تعرف إلا الإسلام ديناً. وإلا التوحيد عقيدة...».

ولذلك يـرد سيد ما يقرره علماء «الأديان المقارنة» من الغربيين، وما يتابعهم فيه بعض الكُتَّاب المسلمين - مثل عباس محمود العقاد في كتابه «الله» - من أن العقيدة الإلّهية تطورت في تاريخ الإنسان - لأن الإنسان هو الذي يصنع عقيدته!! - فكانت أولاً تمر بدور التعدد. ثم مرت بدور التمييز والترجيح، وأخيراً استقرت على صورة الوحدانية!!!. ويدعو سيد - بهذه المناسبة - إلى وجوب التلقي في كل أمور التصور والمعروفة من قرآننا، وينبه إلى خطورة تلقي هذا من غير القرآن[2].

كذلك كان سيد حريصاً على عدم حمل القرآن على النظريات العلمية التي يكتشفها الإنسان لأن القرآن ليس مجالاً لها. فهو أكبر منها، وهو لم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيماوي أو طبي... ولكنه يسير مع النص القرآني حيث سار به، ويتلقى منه تقريراته وإيحاءاته. فهو يدخله بدون مقررات سابقة، وهو يتلقى منه توجيهاته وتقريراته.

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار

---

(١) الظلال ٢: ٩٠٤.

(٢) انظر الظلال ٤: ١٨٨٢ - ١٨٨٥.

على الليل ﴾[1] «وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض. ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ـ لأنها نظريات تخطىء وتصيب، وتثبت اليوم وتبطل غداً، والقرآن هو ثابت يحمل آية صدقه في ذاته، ولا يستمدها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل! ـ مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرني قسراً على النظر في موضوع كروية الأرض، فهو يصوّر حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض. . »[2].

هذا النص الكاشف لسيد قطب نستخرج منه دلالات على منهجه في التفسير، يهمنا منها في هذا المبحث دخوله عالم القرآن بدون مقررات مسبقة، وسيره مع النص حيث سار، ودورته معه حيث دار، ولأن الآية صريحة في الحديث عن كروية الأرض، فلنقل بكرويتها، ونحن في هذا لا نُخضع النصوص للنظريات العلمية، ولا ندخل عالم القرآن بمقررات مسبقة، ولكننا نسجل حقائقها ودلالاتها فقط.

كذلك نلحظ في هذا النص، ثقة سيد بالنص القرآني وتسليمه بمدلوله، لأنه حق في ذاته، ولا يحاول أن يستدل على صدقه بكلام البشر واكتشافاتهم ـ كما فعل بعض الكُتاب من المسلمين المعاصرين المضبوعين بالمادية الجاهلية الغربية، والمهزومين أمام التقدم المادي والعلمي!! ـ

من هذا المنطلق ـ دخول عالم القرآن بدون مقررات سابقة ـ فسر سيد قوله تعالى: ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فأما منًا بعد وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها. . »[3] واستخرج منها حكم الأسرى في الإسلام وهو: «إنه يجوز المن عليهم إذا رأى الإمام المصلحة، أو الفداء بهم بالمال أو بالمسلمين. إذا ظل قومهم قوة

---

(1) الزمر: ٥.

(2) الظلال ٥: ٣٠٣٨ وانظره في ٦: ٣١١٠ و ١: ١٨٠ ـ ١٨٤.

(3) محمد: ٤.

لم تستسلم بعد، ولم تقبل الجزية، فأما عند الاستسلام للجزية فالأمر مختلف بطبيعته وهذه حالة أخرى. .» أما قتل الأسرى ـ أحياناً فهي حالات فردية لأسباب خاصة. وإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى فالإسلام يرجع إلى قاعدته الإيجابية «فإما منًّا بعد وإمّا فداء». لأن الاسترقاق ليس حتمياً.

وبعد ما قرر سيد هذا الذي استوحاه من نص القرآن، أشار إلى منطلقه الرئيسي وقاعدته الأساسية التي ساعدته على هذا. وهي أن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يوحي به. وقال: «لا لأنه يهجس في خاطري أن استرقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرىء الإسلام منها! إن مثل هذا الخاطر لا يهجس في نفسي أبداً. فلو كان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير، لأنه ما من إنسان يعرف شيئاً من الأدب يملك أن يقول: إنه يرى خيراً مما يرى الله. إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه، فأجنح إلى ذلك الرأي بإيحاء النص واتجاهه»[1].

هذا المنطلق الرئيسي الذي انطلق منه وهو يفسر القرآن هو الذي منح لأفكاره واستدلالاته صدقاً وصوابية ـ داخل إطار العقل البشري المعرض للخطأ والصواب! ـ وأساس خطأ الذين يفسرون القرآن ويتعاملون معه ويخرجون بآراء خاطئة تخالف نصوصه الصريحة، هو أنهم لم يتعاملوا مع نصوصه بهذا الاعتبار، وإنما تعاملوا معها ومعهم تصورات البشر ومقرراتهم التي يريدون لها أدلة من القرآن.

أشار سيد إلى هذا الخطأ المنهجي الذي وقعوا فيه وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً. . ﴾[2] حيث أخذ الآية على ظاهرها وأوكل حقيقة ذلك إلى علم الله لأنه من عالم الغيب. ورد على من يزعم بأن هذا إنما هو مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر. والسبب الرئيسي الذي دفعهم لهذا القول هو: «أنهم يجيئون إلى

---

(١) الظلال ٦: ٣٢٨٥.

(٢) الجن: ٨.

القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة في أذهانهم من قبل.. ومن ثم يرون الملائكة تمثيلاً لقوة الخير والطاعة - والشياطين لقوة الشر والمعصية.. والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة.. الخ».

ويقرر الطريقة المثلى لفهم القرآن وتفسيره، ولتكوين التصور الإسلامي وهي «أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصوريه أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود. ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن. ولا ينفي شيئاً يثبته القرآن ولا يؤوله! ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله. وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته..»[1] ويعترف - بصراحة - أنه وقع في ذلك الخطأ سابقاً بقوله: «وما أبرىء نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال، أنني انسقت إلى شيء من هذا، وأرجو أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله.. وما أقرره هنا هو ما أعتقده الحق بهداية من الله..»[2].

وهكذا كان، حيث وضحت هذه القاعدة في منهجه في التفسير في الطبعة المنقحة - المعتمدة - من الظلال، وتدارك الأخطاء اليسيرة الموجودة في الطبعة الأولى.

---

(١) الظلال ٦: ٣٧٣٠.

(٢) الظلال ٦: ٣٧٣١ حاشية.

المبحث الثامن

الثقة المطلقة بالنص القرآني والتسليم التام بدلالته

كان سيد قطب يثق بالنص القرآني ثقة مطلقة ويصدق به تصديقاً جازماً، ويسلم بدلالته تسليماً تاماً، ويتلقى إيحاءاته وتوجيهاته وحقائقه دون تأويل أو تحريف، فما يقرره هو الحق، وما يوحي به هو الصدق، وما يدل عليه هو الخير، وكيف لا وهو كلام الله، ﴿ومن أصدق من الله حديثاً؟﴾[1].

وموقف العقل المؤمن هو التسليم بدلالته وتصديق تقريره والثقة به، ودور المفسر الملتزم هو فهم تقريراته وتوجيهاته وبيانها للناس دون تأويل أو تحريف.

وقف سيد أمام هذا الأمر وقفة مطولة وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[2]. حيث بين مجال العقل ودوره ـ الكبير ـ في أمر الدين، وذلك أن أداة الإدراك البشري ـ وهي العقل ـ أوكل الله إليها إدراك الحقيقة الكبرى: «حقيقة أن هذا الدين من عند الله. لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها، وهي كافية بذاتها للدلالة على أن هذا الدين من عند الله.. ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلماً بها، أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلِّم ـ بعد ذلك ـ تلقائياً بكل ما ورد في هذا الدين ـ لا يهم عندئذٍ أن يدرك حكمته الخفية أو لا يدركها. فالحكمة متحققة حتماً ما دام من عند الله.

---

(١) النساء: ٨٧.

(٢) النساء: ٨٢.

والعقل البشري ليس ندا لشريعة الله ـ فضلاً على أن يكون الحاكم عليها ـ لأنه لا يدرك إلا إدراكاً ناقصاً في المدى المحدود.. فلا ينبغي أن يكون الحكم فيها، أو في حكم ثابت قطعي من أحكامها موكولاً إلى الإدراك البشري... وأقصى ما يطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه، لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه، فالمصلحة متحققة أصلاً بوجود النص من قبل الله تعالى..

يبقى بعد ذلك للعقل البشري مجال واسع كبير يعمل فيه وهو معرفة نواميس الكون والإبداع في عالم المادة، وهو مجال عريض!!!»[1].

إن القارىء المسلم الملتزم، يعجب لكتّاب ومؤلفين ومفسرين من السابقين والمعاصرين، اقبلوا على القرآن «بخلفية» فكرية ومقررات سابقة يطلبون الدليل عليها من نصوص القرآن ـ ولو تحكما!! ـ كيف كانوا يجعلون العقل ندا للنص بل حاكماً عليه، ويجب أن يُؤول النص ليطابق ذلك العقل، ويجب أن يُصرف عن ظاهره ليطابق ما في عقولهم، ويجب أن يدور مع عقولهم حيث دارت. هذا المنهج الخاطىء هو الذي سار عليه رجال الفرق الإسلامية السابقة...

وبمقارنة الظلال مع تفاسير رجال هذه الفرق، تظهر هذه المزية له، ويسجل له هذا الأمر، ويتصف ـ من ثم ـ سيد قطب بالعلمية والمنهجية والسلفية في نظرته إلى نصوص القرآن الكريم.

وقد قرر سيد هذه القاعدة التي التزم بها في التفسير وهو ينتقد عمل الذين يعلقون نصوص القرآن وإشاراته العلمية بالنظريات العلمية المتغيرة، إذ أن عملهم هذا ناتج عن الهزيمة الداخلية «التي تخيل لهم أن العلم ـ البشري القاصر ـ هو المهيمن، والقرآن له تابع، لذلك يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الاستدلال له من العلم[2].

---

(1) الظلال ٣: ٧٢٣ بتصرف واختصار.

(2) انظر الظلال ١: ١٨٢.

النص القرآني عند سيد يجب أن يبقى على دلالته، وأن نسلم بمدلوله، ولا يجوز أن نؤوله أو نحرفه، وقد أوضح هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. .﴾[١].

حيث يفيد هذا النص أن كل ما في الوجود يسبح لله سبحانه وتعالى: «ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله. فالله يقول: ونحن لا نعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه. فسبح لله ما في السموات والأرض» تعني «سبح لله ما في السموات والأرض». . ولا تأويل ولا تعديل. .

وتتوافق نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة على إقرار هذه الحقيقة، وهي أن كل ما في السموات والأرض له روح - على صورة من الصور - يتوجه إلى خالقه بالتسبيح، ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن[٢].

تلقى سيد نصوص القرآن وهي تتحدث عن الغيبيات بالثقة والتصديق، وتلقى دلالاتها بالتسليم واليقين. من ذلك حديث القرآن عن الجن، واستماعهم القرآن من رسول الله ﷺ وإيمانهم به. ذلك الذي يقرره قوله تعالى: ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قُضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾[٣].

إن ذكر القرآن لهذا الحادث - في رأي سيد قطب - «وحده كافٍ بذاته لتقرير وجود الجن، ولتقرير وقوع الحادث، ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق، كما يلفظه رسول الله ﷺ ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران، مستعدون للهدى وللضلال. . وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة فما يملك إنسان أن

(١) الحديد: ١.
(٢) انظر الظلال ٦: ٣٤٧٧ - ٣٤٧٨.
(٣) الأحقاف: ٢٩.

يزيد الحقيقة التي يقررها الله ـ سبحانه ـ ثبوتاً. . . . »[1].

كذلك الآيات التي تحدثت عن صفات الله ـ باعتبارها تتحدث عن أمور غيبية، ـ أبقاها ـ غالباً ـ على ظاهرها، وسلم بمدلولها، وأنكر على من يخوض فيها بعقله البشري المحدود وألفاظه البشرية القاصرة. .

قال ـ وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾[2] «فكيف كان هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ولا نملك أن ندركه، ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله، حين تشف أرواحنا وتصفو، وتتجه بكليتها إلى مصدرها. فأما الألفاظ المجردة فلا تملك أن تنقل شيئاً. لذلك لا نحاول بالألفاظ أن نصور هذا التجلي. . ونحن أميَل إلى إطراح كل الروايات التي وردت في تفسيره وليس منها رواية عن المعصوم ـ ﷺ ـ والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً»[3].

وكما تدل هذه العبارات على قاعدته المنهجية في النظر إلى نصوص القرآن، كذلك تدل على سلفيته «الخاصة» في النظر إلى آيات الصفات وتفسيرها. على عكس ما اتهم به من أنه يؤول دائماً تلك الصفات المتشابهات!!

الأوامر والنواهي، والأحكام والتشريعات، يسلم سيد قطب بها ويصدق بالنصوص التي تبينها، ولا يعلق هذا بإدراك الحِكَم منها. فهي حق وصدق ولو لم ندرك نحن الحكمة منها: «وإنني لا أميل إلى تعليق الفرائض والتوجيهات في العبادات ـ بصفة خاصة ـ بما يظهر للعين من فوائد حسّية، إذ الحكمة الأصلية فيها هي إعداد هذا الكائن البشري لدوره على الأرض. . وتهيئته للكمال المقدر له في حياة الآخرة. . »[4].

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٢٧٢ ـ ٣٢٧٣ وانظر موقفه من حادث الفيل في الظلال ٦: ٣٩٧٧.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) الظلال ٣: ١٣٦٩ وانظر موقفه من رؤية الله في الآخرة في الظلال ٦: ٣٧٧١.

(٤) الظلال ١: ١٦٧.

وعندما تعرض للحكمة من تحريم «الخنزير» أشار إلى ما اكتشفه العلم الحديث - حديثاً - أن في لحمه وأمعائه ودمه دودة شديدة الخطورة - وهي الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة - ويرد على كلام يقال: بأن وسائل الطهي الحديثة قد تقدمت وهي كفيلة بإبادة تلك الديدان. يرد على هذا بقوله: «وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة. فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها وندع كلمة الفصل لها، ونحرم ما حرمتْ، ونحلل ما حللت...»[1].

وعن استخدام الشيطان الخمر والميسر وسيلة لإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين عندما يمارسونهما، ويصدهم بذلك عن ذكر الله وعن الصلاة، يرى سيد أن هذا حقيقة طالما ورد في القرآن الكريم﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة..﴾[2] ويستشهد سيد بالواقع المعاصر لزيادة اليقين والتصديق لا لإنشائهما. فاليقين والتصديق يتحققان «من خلال القول الإلهي الصادق ذاته..»[3].

كان يستشهد لصحة وصدق مدلول النص بالتاريخ، من خلال حركة الناس، وانطباق مدلول النص عليهم. فالتاريخ - على اختلاف مراحله - عند سيد وسيلة وأداة استعان بها لإعطاء «البعد الواقعي» و«الصدق التاريخي» لنصوص القرآن الكريم. ولم يجعل هذا التاريخ حاكماً على تلك النصوص[4]، يحاكمها إليه ويحكم ببطلانها واختلاقها إن لم تتفق هي معه -. كما فعل «المستغربون» ممن يحملون أسماء إسلامية في بلاد المسلمين -.

---

(١) الظلال ١: ١٥٦.

(٢) المائدة: ٩١.

(٣) الظلال ٢: ٩٧٦.

(٤) انظر أسباب عدم محاكمة القرآن للتاريخ في الظلال ٤: ٢٢٩٠ و٤: ١٨٨١.

لما فسر قوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الـذين كفروا من قبل.. ﴾[1] أشار إلى أن قول النصارى «المسيح ابن الله» معلوم ومشهور وما يزال هذا في عقائدهم حتى الآن ـ ومع ذلك استشهد له بالواقع التاريخي نقلاً عن تفسير المنار[2] ـ.

أما قول اليهود: «عزير ابن الله» ـ فهو ـ كما يقول سيد قطب «ليس شائعاً ولا معروفاً اليوم. والذي في كتب اليهود المدونة الباقية سفر باسم «عزراً» وهو عزير. نُعت فيه بأنه كاتب ماهر في توارة موسى، وأنه وجه قلبه لالتماس شريعة الرب... ولكن حكاية هذا القول عن اليهود في القرآن دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل ـ وبخاصة يهود المدينة ـ زعموا هذا الزعم، وراج بينهم.. وقد كان القرآن يواجه اليهود والنصارى مواجهة واقعية، ولو كان فيما يحكيه من أقوالهم ما لا وجود له بينهم، لكان هذا حجة لهم على تكذيب ما يرويه رسول الله ﷺ ولما سكتوا عن استخدام هذا على أوسع نطاق...»[3].

ومن باب زيادة اليقين والاطمئنان، والاستشهاد بالواقع التاريخي الذي عليه اليهود والذي يثبت هذه الحقيقة القرآنية، أورد تحقيق رشيد رضا المفيد ونقوله الكاشفة على مكانة عزراً عند اليهود، وزعم بعض فرقهم بأنه ابن الله[4]. وحتى في هذا النقل والتلخيص نرى سيد يقف ليعقب على الكلام الذي يورده رشيد رضا، أو على تحفظات الشيخ رشيد نفسه، وهو في تعقيباته واستدراكاته يسجل ثقته الكاملة المطلقة بالنص القرآني[5]. كذلك استشهد بما اكتشفه العلماء حديثاً أثناء دراستهم لعقائد الوثنيين الهنود

---

(١) التوبة: ٣٠.
(٢) الظلال ٣: ١٦٣٨ ـ ١٦٣٩.
(٣) الظلال ٣: ١٦٣٥.
(٤) الظلال ٣: ١٦٣٦ ـ ١٦٣٧.
(٥) انظر حاشية رقم (٢) في صفحة ١٦٣٦ وحاشية رقم (٢) في صفحة ١٦٣٧.

والإغريق والفراعنة، وأن اليهود والنصارى في عقائدهم «يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل» كما يقرر القرآن الكريم[1]..

لكن الاستشهاد بالتاريخ يجب أن يبقى استشهاداً فقط، ولا يجوز أن نخلط بين عرض القرآن المعجز الصادق، وبين عرض التاريخ وبخاصة العرض الأسطوري والخرافي الذي تخصص به بنو إسرائيل.. يقول ـ أثناء حديثه عن سفينة نوح ـ عليه السلام ـ والطوفان ـ عن الأساطير والخرافات حول السفينة والطوفان.. «وأساطير بني إسرائيل المدونة فيما يسمونه «العهد القديم» تحوي كذلك ذكرى طوفان نوح.. ولكن هذا كله لا ينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان، ولا ينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة. وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد...»[2].

نظر إلى النصوص القرآنية التي تقرر حكم الله على «يهود» بثقة وصدق، مثل قوله تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب...﴾[4] وأن هذا واقع بهم لا محالة!! لكن كيف يفسر سيد ما عليه «يهود» الآن من القوة والتمكين والانتصار على من يحاربونهم من الدول المحيطة بهم؟ لا بدّ أن يفرق بين مدلول النص وبين الواقع المعاصر. الذي يبدو ـ في ظاهره ـ مخالفاً له. فما يقرره النص هو الحق والصدق، وهذه الظواهر المخالفة لا بدّ من إخضاعها لمدلوله ـ بعلمية ومنهجية ـ فهي مخالفة للنظرة العجلى، أما في حقيقتها فهي متفقة معه تمام الاتفاق، لأنه لا تعارض بين آية قرآنية وبين سنة إلّهية.

يقرر القرآن بأن الله قضى على يهود باللعنة الأبدية، وصدر عليهم «إذْن

---

(١) الظلال ٣: ١٦٤٠.
(٢) الظلال ٤: ١٨٨١.
(٣) آل عمران: ١١٢.
(٤) الأعراف: ١٦٧.

الأبد» . بأن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . . واستشهد سيد لصدق هذا الأذن وتحققه في اليهود في تاريخهم القديم . أما هم في وضعهم المعاصر فهم ينتظرون تحققه فيهم أيضاً «ولقد يبدو أحياناً أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عزت واستطالت! وإنْ هي إلا فترة عارضة من فترات التاريخ . . ولا يدري إلا الله من ذا الذي سيسلط عليهم في الجولة التالية، وما بعدها إلى يوم القيامة . . . »[1].

ويقرر الله بأن ﴿الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا . .﴾[2] ويبين سيد أن «وعد الله صادق لا محالة» وأنه «إذا بدا في فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون في الأرض، ويستعلون بنفوذهم على الأممين . . . فهم بصفاتهم هذه وأفعالهم يختزنون النقمة في قلوب البشر، ويهيئون الرصيد الذي يدمرهم من السخط والغضب» . وأما انتصارهم على العرب المعاصرين، واستطالتهم على الناس الآن في فلسطين «فلأن الناس لم يعد لهم دين! ولم يعودوا مسلمين! إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية، ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية! وهم من ثم يخيبون ويفشلون، وتأكلهم إسرائيل! غير أن هذه الحال لن تدوم! إنها فترة الغيبة عن السلاح الوحيد . . » وستجيء الصحوة من هذه الغيبوبة . . وسيفيء أخلاف المسلمين إلى سلاح أسلافهم المسلمين . . ومَن يدري فقد تصحو البشرية كلها يوماً على طغيان اليهود! لتحقق وعيد الله لهم، وتردهم إلى الذلة التي كتبها الله عليهم . . فإن لم تصْحُ البشرية فسيصْحُ أخلاف المسلمين . . هذا عندنا يقين . .)[3].

كذلك كانت ثقته بوعد الله الذي تقرره بعض النصوص مثل «لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»[4] ومثل قوله

---

(١) الظلال ٣ : ١٣٨٦ .

(٢) الأعراف : ١٥٢ .

(٣) الظلال ٣ : ١٣٧٥ ـ ١٣٧٦ باختصار .

(٤) آل عمران : ١١١ وانظر الظلال ١ : ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

تعالى: ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب... ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.. ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون.. ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين. كتب الله لأغلبن أنا ورسلي.. ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم. والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[5].

كانت ثقته بوعد الله في هذه النصوص ثقة مطلقة جازمة لا يخالجها شك، وكان يسلم بمدلول تلك النصوص على أنه هو الأساس، وكان يُخضع الواقع المخالف - في ظاهره - لها، إنه لا بدّ أن يتوافق معها لأنها تمثل وعد الله، ووعد الله حق وصدق «مهما تكن الأمور تخالفه، فوعد الله أصدق مما تراه عيون البشر وتقدره عقولهم»[6].

ولذلك يدعو سيد قطب المسلمين - وبخاصة الحركة الإسلامية - إلى «التعامل مع وعد الله الصادق - لا مع ظواهر الواقع الخادع - ووعد الله هو واقع العصبة المسلمة الذي يرجح كل واقع»[7].

كذلك سيد يستشهد لصحة النص القرآني، وتحقيقه في عالم الواقع، بمظاهر الواقع المعاصر، كما في قوله تعالى: ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات.. ﴾[8] وصدق وعيد الله ووعده. فها نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو

---

(١) آل عمران: ١٥١ وانظر الظلال ١: ٤٩١ - ٤٩٢.
(٢) النساء: ١٤١ وانظر الظلال ٢: ٧٨٢ - ٧٨٣.
(٣) الصافات: ١٧١ - ١٧٣ وانظر الظلال ٥: ٣٣٠١ - ٣٣٠٢.
(٤) المجادلة: ٢٠ - ٢١ وانظر الظلال ٦: ٣٥١٤.
(٥) الصف: ٨ - ٩ وانظر الظلال ٦: ٣٥٥٧ - ٣٥٥٩.
(٦) الظلال ١: ٤٤٩.
(٧) الظلال ٣: ١٤٩٧.
(٨) البقرة: ٢٧٦.

طمأنينة.»[1] وكذلك تهديده للمتعاملين بالربا بقوله: ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله.. ﴾[2] حيث يعيش هؤلاء اليوم حالة حرب معلنة مشبوبة مسعرة شاملة داهمة[3]!!.

(١) انظر الظلال ١: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٢) البقرة: ٢٧٩.
(٣) انظر الظلال ١: ٣٣٠ ـ ٣٣٢.

المبحث التاسع

«غنى النصوص بالمعاني والدلالات»

نصوص القرآن الكريم دقيقة في صياغتها، جليلة في معانيها، مترابطة في أهدافها ومراميها، متينة في أدائها، قوية في تأثيرها، غنية في دلالاتها ومعانيها، ساحرة في صورها وظلالها. . .

والناظر المتأمل في تلك النصوص، لا يرى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا مبالغة ولا عسفاً، ولا زيادة ولا إطناباً، فكل آية أصيلة في مكانها، وكل كلمة محكمة في نسجها وبنائها، وكل حرف أخذ موضعه الذي لا يناسبه غيره. ويوضح هذا المعنى قول المفسر ابن عطية في مقدمة تفسيره «وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذٍ في سلامة الذوق وجودة القريحة، وميز الكلام. . »[1].

وفي هذا رد على من يزعم ـ من النحويين ـ وجود كلمات أو حروف زائدة في القرآن[2].

وينتج عن المقدمة السابقة نتيجة تعتبر سمة من سمات أسلوب القرآن، ومزية من مزاياه وهي التي أطلق عليها الدكتور محمد عبد الله دراز ـ في كتابه

(١) مقدمتان في علوم القرآن نشر آرثر جفري: ٢٧٨.
(٢) انظر كتاب الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين. للدكتور أحمد مكي الأنصاري.

«النبأ العظيم» ـ اسم «القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى» حيث جمع القرآن بين هاتين الغايتين بإعجاز بياني واضح. مع أن جهد البشر في هذا يقصر في واحدة على حساب الأخرى. فاما أن يقتصر في ألفاظه فيوجزها ويحيف على المعاني فلا يدخلها ألفاظه، وإما أن يورد المعاني الكثيرة، ولكن في ألفاظ كثيرة يبدو فيها الإسهاب والاطناب والتوسع والاستطراد.

ولذلك يدعوك الدكتور دراز إلى النظر المتعمق في أسلوب القرآن، فإنك ستجد «بياناً قد قُدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحسّ فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير». وحتى يتضح هذا في تصورك وفكرك يدعوك الدكتور دراز إلى أن تقوم بتمرين عملي «ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كفك من الكلمات عدا، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره، خارجاً عن الدفتين، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بالمعنى؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟»[1].

كان سيد قطب ينظر إلى نصوص القرآن بهذا المنظار، ويتعامل معها على هذا الأساس، فأسلوب القرآن معجز لا حشو فيه ولا تطويل، ولا إطناب ولا أسهاب، فهو في كل مقاماته لا يجاوز سبيل القصد ولذلك فكله «إيجاز» يستثمر أقل ما يمكن من الألفاظ في أكثر ما يمكن من المعاني[2].

ويطيب لي أن أورد فقرتين بليغتين لسيد قطب يسجل فيهما ظاهرتين بارزتين للأداء القرآني الغني المعجز، يتجلى فيهما غنى النصوص بالدلالات والمعاني وإدراك سيد العميق لذلك: «إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض، وذلك بأوسع مدلول، وأرق تعبير، وأجمله وأحياه أيضاً! مع

---

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز: ١٠٥.

(٢) انظر كلام الدكتور دراز الممتع في كتابه «النبأ العظيم»: ١١٢ ـ ١٣٦. وبخاصة حاشيته المطولة صفحات ١٢١ ـ ١٢٥.

التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو. ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال. ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلاً. لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال. ومن ثم يدركون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً.

وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني.. هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات. وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها. بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع! وهي ظاهرة قرآنية لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها..»[1].

من أوضح الأمثلة على هذا عرض القرآن العجيب المعجز لغزوة بدر، واستحضاره لمشاهدها ومواقفها وموقعها، مع مقارنته بحديث البشر عنها وتأريخهم لها في كتب السيرة.

قال تعالى: ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى، والركب أسفل منكم. ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد. ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم. إذ يريكهم الله في منامك قليلاً، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور. وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وإلى الله ترجع الأمور..»[2].

---

(١) الظلال ٣: ١٧٨٧.

(٢) الأنفال: ٤٢ - ٤٤.

«إن المعركة شاخصة بمواقع الفريقين فيها، وشاهدة بالتدبير الخفي من خلالها.. إن يد الله تكاد تُرى، وهي توقف هؤلاء هنا، وهؤلاء هناك، والقافلة من بعيد! والكلمات تكاد تشف عن تدبير الله في رؤيا الرسول ـ ﷺ ـ وفي تقليل كل فريق في عين الفريق الآخر، وفي إغراء كل منهما بالآخر...

وما يملك إلا الأسلوب القرآني الفريد، عرض المشاهد وما وراء المشاهد بهذه الحيوية، وبهذه الحركة المرئية، وفي مثل هذه المساحة الصغيرة من التعبير[1]!

ومن هذه الأمثلة أيضاً قوله تعالى ـ أثناء الحديث عن غزوة بدر أيضاً ـ في بيان عدة النصر الحقيقية في المعركة وتصوير حالة قريش وتزيين الشيطان لها، حيث يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين. ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط. وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم. فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم. إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب. إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم.. ﴾[2].

بدأ سيد قطب تفسيره لهذه الآيات بإشارة إلى الإعجاز في أدائها، وإلى غنى ألفاظها وعباراتها بالمعاني: «وفي هذه الفقرات القليلة تحتشد معانٍ وإيحاءات وقواعد وتوجيهات، وصور ومشاهد، وتتشخص مواقف من المعركة كأنها حية واقعة، وتتكشف خواطر ومشاعر وضمائر وسرائر.. مما يحتاج تصويره إلى أضعاف هذه المساحة من التعبير، ثم لا يبلغ ذلك من هذا التصوير المدهش الفريد!»[3].

---

(١) الظلال ٣: ١٥٢٤.

(٢) الأنفال ٤٥ ـ ٤٩.

(٣) الظلال ٣: ١٥٢٧ وانظر عرض القرآن لغزوة أحد وبيان سيد لذلك في الظلال: ٤٦٧ و٤٩٠ و٥٠٠.

كذلك وقف سيد وقفة مطولة أمام الحشد الهائل العجيب من المعاني والأشياء والحركات والأحجام والأشكال والصور والهيئات، الذي يعرضه هذا النص: ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾[1] كما وقف أمام الحقائق الكامنة، والصور والظلال الموحية المثيرة المنبعثة، والمشاعر والأحوال المنبثقة من النص الكريم ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا.. ﴾[2].

وبعد ما انتهى سيد قطب من تفسير سورة الأنعام، حيث خصص لها حيزاً كبيراً من الظلال، أشار في الخاتمة إلى غنى السورة بالدلالات والإيحاءات والصور والظلال، والمعاني والحقائق، والمشاهد والحشود، «... وننظر إلى حجم السورة، فإذا هي كذا صفحة، وكذا آية، وكذا عبارة.. ولو كان هذا في كلام البشر ما اتسعت هذه الرقعة لعشر معشار هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والمؤثرات والموحيات. في مثل هذه المساحة المحدودة!.... وذلك فضلاً على المستوى المعجز الذي تبلغه هذه الحقائق بذاتها، والذي يبلغه التعبير عنها كذلك..»[3].

ويضرب سيد قطب مثلاً عملياً على غنى النصوص بالمعاني، ووفرة وأصالة دلالاتها، بتجربته العملية الخاصة مع القرآن - والتجربة أكبر برهان - حيث قضى خمسة وعشرين عاماً في الصحبة الواعية الدارسة للقرآن.. يجول في جنبات الحقائق الموضوعية له، في شتى حقول المعرفة الإنسانية.. في نظرته الكلية الى الوجود.. وفي نظرته الكلية إلى الإنسان.. وفي نظرته الكلية إلى الحياة... وهي حقول كثيرة متشعبة متداخلة، يتيه البشر إذا خاضوا فيها فيضلون ويعجزون.. أما القرآن فإنه قد عبر عنها بصدق وأصالة وإعجاز، مع وفرة في النصوص وعمقها ونفاستها: «وفي كل حقل من هذه الحقول يجد الدارس الواعي لهذا القرآن وفرة من النصوص والتوجيهات يحار

---

(١) سبأ: ٢٣ وانظر الظلال ٥: ٢٨٩١ - ٢٨٩٢.
(٢) النجم ٤٣ - ٤٤ وانظر الظلال ٦: ٣٤١٥.
(٣) الظلال ٣: ١٢٤٢.

في كثرتها ووفرتها! فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة!. إنني لم أجد نفسي مرة واحدة ـ في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية ـ في حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن ـ فيما عدا قول رسول الله ﷺ وهو من آثار هذا القرآن..»[1].

القرآن ـ إذن ـ مبارك بركة شاملة عامة. مبارك بكل معاني البركة، مبارك في أثره وتأثيره.. ومبارك في حجمه ومحتواه.

وقد قال سيد قطب وهو يفسر قوله تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك..﴾[2] مبيناً البركة في حجم القرآن ومحتواه: «فإن هي إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه، ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من البشر، وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول، ولا يعالجون قضايا التعبير.. إن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية، وإن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز ـ ولا في أضعاف أضعافه ـ عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات! وإن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق، ما يجعل الاستدلال بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له في كلام البشر..»[3].

ففي الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة تلخيص لموضوعات السورة، وتناسق مع خط السورة الأصيل وفيهما «كل كلمة لها موضعها، ولها دورها، ولها دلالتها الضخمة، وهي قائمة في العبارة لتمثيل ما وراءها ـ وهو كبير ـ من حقائق العقيدة.. نعم.. كل كلمة لها دورها الضخم، بصورة عجيبة. عجيبة

(١) الظلال ٣: ١٤٢٢ ـ ١٤٢٣.
(٢) الأنعام: ٩٢.
(٣) الظلال ٢: ١١٤٧.

حتى في نفس من عاش في ظلال القرآن، وعرف شيئاً من أسرار التعبير فيه، وطالع هذه الأسرار في كل آية من آياته!..»[1].

وسورة الملك ـ رغم قصر آياتها ـ سورة ضخمة «سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها. وكأنما هي سهام تشير إلى بعيد. ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد! فهي تعرض حقائق أساسية من حقائق التصور الإسلامي مثل: «حقيقة قدرة الله المطلقة، وحقيقة الهيمنة المطلقة، وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيداً للحشر والجزاء. وحقيقة الكمال في صنعة الله، وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى. وحقيقة مصدر الرزق، وحقيقة حفظ الله للخلائق، وحضوره ـ سبحانه ـ مع كل مخلوق...»[2].

وسورة المرسلات آياتها قصيرة، ومقاطعها معدودة، ولكن كل مقطع من مقاطعها «يمثل جولة أو رحلة في عالم، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات... أعرض بكثير من مساحة العبارات والكلمات، وكأنما هي سهام تشير إلى عوالم شتى...»[3].

وسورة النبأ القصيرة تعرض حشداً عظيماً هائلاً من الصور والمشاهد «وتذكر في حيز ضيق مكتنز من الألفاظ والعبارات..»[4].

وسورة الانشقاق قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر، ولكنها تعرض جولات ومشاهد وإيحاءات ولمسات عديدة، وهو ما لا يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير. ولا تؤدي بهذه القوة وبهذا التأثير»[5].

وسورة العصر من أقصر سور القرآن الكريم، وآياتها الثلاث تعرض

---

(١) الظلال ١: ٣٤٠.
(٢) الظلال ٦: ٣٦٤٨.
(٣) الظلال ٦: ٣٧٩٠.
(٤) الظلال ٦: ٣٨٠٣.
(٥) الظلال ٦: ٣٨٦٥.

منهجاً إسلامياً كاملاً للحياة البشرية، وتبرز معالم التصور الإيماني: «إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار. وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها. في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة.. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله»[1].

ونتيجة لهذه النظرة المتعمقة لنصوص القرآن، كان سيد يستخرج من النص الواحد عدة دلالات. كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ـ ولو شاء ربك ما فعلوه ـ فذرهم وما يفترون. ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة.. ﴾[2] حيث استخلص منه خمس دلالات..

أولاً: إن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي، ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء.. هم «شياطين».

ثانياً: إن هؤلاء الشياطين لا يقدرون على فعل شيء لقدرة ذاتية فيهم، لأنهم في قبضة الله، والله يبتلي بهم أوليائه لحكم عديدة.

ثالثاً: إن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت ترك هؤلاء الشياطين ليتشيطنوا...

رابعاً: هوان هؤلاء الشياطين وهوان كيدهم وأذاهم، لأنهم لن يعْدوا ما قدره الله، ولن يتجاوزوا ما أذن به الله.

خامساً: لتستمع لإيحاء الشياطين أفئدة أناس كفار، فيسيرون معهم، ويتميز الحق بالمفاصلة، وتصلح الحياة بالدفع بين جنود الرحمان وجنود الشيطان[3].

كذلك كان سيد يمعن النظر في النص ويطيل الوقفة أمامه، ليقف على دلالات وإيحاءات كثيرة فيه. متجاوزاً في ذلك تفاسير السابقين. مثال ذلك

---

(١) الظلال ٦: ٣٩٦٥.

(٢) الأنعام: ١١٢ ـ ١١٣.

(٣) انظر الظلال ٣: ١١٨٩ ـ ١١٩١.

وقفته أمام قوله تعالى عن غزوة بدر: ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.. ﴾[1] قال عنها المفسرون إجمالاً إنها كانت «فرقاناً بين الحق والباطل». لكن سيد وقف يستعرض مظاهر ونماذج لهذا الفرقان الذي هو «أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيراً». فكانت فرقاناً بين الحق الأصيل والباطل الزائف. فرقاناً بينهما في أعماق الضمير، وفي الواقع المادي الظاهر. وكانت فرقاناً بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية. وبين عهدين في تاريخ البشرية، وبين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة. كما كانت فرقاناً حركياً جدياً عملياً لإحقاق الحق وإبطال الباطل[2]..

النصوص القرآنية - قصيرة كانت أو طويلة - غنية بالمعاني والدلالات، والحقائق والإيحاءات، وكان هذا منطلقاً انطلق منه سيد قطب للوقوف على حقائقها وإيحاءاتها، وبيان معانيها ودلالاتها، وعرضها على القراء في الظلال...

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) انظر بيان سيد لمظاهر هذا الفرقان في الظلال ٣: ١٥٢١ - ١٥٢٤.

المبحث العاشر

«بيان أهمية العقيدة وأثرها»

بينا عند حديثنا عن «مراحل تأليف الظلال» في كتاب «مدخل إلى ظلال القرآن» الملابسات والجو العام الذي عاشه سيد قطب وهو يكتب الظلال في طبعته المنقحة، والأسباب التي كانت وراء إعادة كتابته.

وإن من أهم هذه الأسباب هو سكوت جماهير الشعب على ضرب الحركة الإسلامية بل وتشجيعها ذلك، وهي التي كانت تؤيد الحركة من قبل. وأن مرد هذا إلى عدم إدراك الجماهير لعقيدتها حق الإدراك، وعدم تفاعلها معها، وعدم وقوفها على أهمية العقيدة وملاحظتها لفاعليتها، ومن ثم عدم تحركها بالعقيدة وظهور آثارها على سلوكها وتصرفاتها. . . .

ولقد جعل من أهدافه في الظلال توضيح هذا الأمر وبيان حقيقة العقيدة وطبيعتها، ووظيفتها وآثارها في حياة الفرد والأمة.

ولذلك كان هذا من قواعده الأساسية في التفسير، فحرص على بيانه وتوضيحه والتركيز عليه في كل مناسبة، وفي مواطن عديدة من الظلال.

طريقة القرآن الفريدة:

أول ما لاحظه سيد في هذا المجال هو طريقة القرآن الفريدة المعجزة، في عرض العقيدة وبيان طبيعتها، وإقرار حقائقها. . . «إنه لم يعرضها في صورة «نظرية»! ولم يعرضها في صورة «لاهوت»! ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاوله فيما بعد ما سمي بعلم التوحيد أو علم الكلام! . . .».

كلا.. لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة الإنسان... ويستنقذ فطرته من الركام، ويخلّص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها.. ويفتح منافذ الفطرة لتلقي الموحيات والاستجابة لها..

كما كان يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية، مع الواقع البشري الجاهلي.. ومن ثم ظهر بناء العقيدة «في صورة تكوين تنظيمي مباشر للحياة. ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها» وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي وفي سلوكها الواقعي وفي دربتها على مواجهة الجاهلية.. ممثلاً تماماً لنمو البناء العقيدي، وترجمة حية لها.. ولذلك تم «بناء الجماعة، وبناء الحركة، وبناء العقيدة في وقت واحد..»[1].

الاستفادة من هذه الطريقة:

ويدعو سيد إلى الاستفادة من طريقة القرآن هذه، وإلى الاقتداء به، وإلى إدراك هذا البعد الشامل المؤثر الواقعي الحركي للعقيدة. ومن ثم يؤكد على الدعاة والمربين ـ بخاصة ـ على أن تكون العقيدة هي نقطة البدء، وأن يركزوا عليها باستمرار، وأن لا يجعلوها أشبه بموضوع يتجاوزونه ويمضون عنه إلى غيره، ولكن يعتبرونها قاعدة عامة، ومنهجاً شاملاً يمضي به إلى غيره. وأن يستفيدوا من منهج القرآن المكي في ذلك.

إن تحويل العقيدة إلى «نظرية» ذهنية للدراسة والمعرفة الثقافية الباردة. قاتلة للعقيدة وقاتلة للمسلم. لأن هذا ليس من طبيعتها ولا يمثل حقيقتها. إن العقيدة الإسلامية واقعية إيجابية. ويجب أن تتمثل في أناس، وفي تنظيم حي، وفي حركة واقعية.. وطريقتها في التكوُّن أن تنمو من خلال الحركة والواقع، فتكتمل نظرياً في نفس الوقت الذي تكتمل فيه واقعياً.. «وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ولا يتمثل من خلاله هو خطر وخطأ».

التصور الاعقتادي والتجمع الحركي:

ولهذا يدعو سيد ـ وبإلحاح وتكرار ـ الدعاة إلى هذا بقوله: «إن التصور

---

(١) انظر الظلال ٢: ١٠١١ ـ ١٠١٢.

الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلاً صحيحاً وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي...»[1].

إن العقيدة الإسلامية وحقائقها ومقوماتها هي من أهم شيء في حياة المسلمين، بها يكونون في أرقى واسمى حياتهم، وبدونها يصيرون إلى أذل وأرذل حياتهم.. بل إن حياة البشر لا تستقيم ولا تزكو إلا بالعقيدة ومقوماتها ـ وبخاصة قضية الألوهية والعبودية وهي أهم قضايا العقيدة على الإطلاق ـ.

وقد بين سيد السر في تركيز القرآن المكي على هذه القضية. «والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة. فتعريف الألوهية الحقة، وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها، والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لآلههم الحق، واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده.. هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله.. وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها...»[2].

كما بيَّن أهم الأسباب التي تجعل هذه الحقيقة هي «عماد» حياة البشرية لا تستقيم إلا بها. فإن حياتهم لا تستقيم إزاء الكون الذي يعيشون به ويتعاملون مع أشيائه وأحيائه.. لأنهم ـ بدونها ـ يروحون يؤلهون هذه الأشياء والأحياء، بل يؤلهون الأشباح والأوهام. ويُعبِّدون أنفسهم لها في صور مضحكة بائسة...

كذلك لا تستقيم حياتهم إزاء بعضهم البعض بدون إقرار هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصورهم. وفي واقعهم وحياتهم «إن إنسانية الإنسان وكرامته وحريته الكاملة لا يمكن أن تتحقق في ظل اعتقاد أو نظام لا يفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والحاكمية..» والواقع البشري ـ على مدار

---

(١) الظلال ٢: ١٠١٤.

(٢) الظلال ٣: ١٧٥٣.

التاريخ ـ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها. . إنهم عندما ينحرفون عن هـذه الـحقيقة يفقدون إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم. . .

«والتفسير الإسلامي للتاريخ، يرد ذل المحكومين للطواغيت، وسيطرة الطواغيت عليهم. إلى عامل أساسي هو: فسوق المحكومين عن دين الله، الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية، ومن ثم يفرده بالربوبية والسلطان والقوامة والحاكمية. . قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿فاستخف قومه فأطاعوه. . إنهم كانوا قوماً فاسقين. . ﴾[١] فما يستخف الحاكم الطاغي قومه وهم مؤمنون بالله موحدون، لا يدينون لسواه بربوبية تزاول القوامة والحاكمية»[٢].

الكون بكل ما فيه تحت سلطان الله:

ولقد كان القرآن الكريم ـ وهو يعرض العقيدة ـ حريصاً على بيان حقيقة ضخمة: وهي أن هذا الكون العريض وما فيه ومن فيه، بيد الله عز وجل، خاضع لإرادته ومشيئته، ونافذة فيه قدرة الله وهيمنته ـ سبحانه ـ ولذلك ورد فيه ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر. . ﴾[٣]. . . «كل شيء. . كل صغير وكل كبير. كل ناطق وكل صامت. كل متحرك وكل ساكن. كل ماضٍ وكل حاضر. كل معلوم وكل مجهول. كل شيء. . خلقناه بقدر. . .

قدر يحدد حقيقته. ويحدد صفته. ويحدد مقداره. ويحدد زمانه. ويحدد مكانه. ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء. وتأثيره في كيان هذا الوجود»[٤]. «ومع التقدير والتدبير، القدرة التي تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات» وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر «إشارة واحدة. أو كلمة واحدة. .» واحدة تنشىء هذا الوجود الهائل. وواحدة تبدل فيه وتغير.

---

(١) الزخرف: ٥٤.

(٢) انظر الظلال ٣: ١٧٥٣ ـ ١٧٥٥.

(٣) القمر: ٤٩ ـ ٥٠.

(٤) الظلال ٦: ٣٤٣٦ وانظر استشهاده بتقريرات العلم الحديث عن الحياة والأحياء ٦: ٣٤٣٧ ـ ٣٤٤١.

وواحدة تذهب به كما يشاء الله. وواحدة تحي كل حي. وواحدة تذهب به هنا وهناك. وواحدة ترده إلى الموت.. وواحدة تبعثه في صورة من الصور. وواحدة تبعث الخلائق جميعاً.. وواحدة تجمعهم ليوم الحشر والحساب.. واحدة لا تحتاج إلى جهد، ولا تحتاج إلى زمن. واحدة فيها القدرة ومعها التقدير. وكل أمر معها مقدر ميسور..»[1].

والقرآن يرد كل حركة في الكون ـ مهما كانت صغيرة أو جليلة ـ إلى الله سبحانه: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين. وحفظناها من كل شيطان رجيم. إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون. وجعلنا لكم فيها معايش، ومن لستم له برازقين.. وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم. وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين. وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون، ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين. وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم...﴾[2].

ولنحظ في هذا المقطع أن التعبير القرآني يرد كل حركة في هذا الكون إلى الله، وأنه خاضع لأمر الله وقدرته وسنّته ومشيئته.. ولو قمنا بعملية إحصائية، لعدد المرات التي ذكرت فيها «نون العظمة» في هذا المقطع القصير: النون. و«إنا» و«نحن». فإننا سندرك أن هذا أمر مقصود، لربط الكون بيد الله. لقد ذكرت هذه الحروف الثلاثة تسع عشرة مرة، يضاف لها أربع مرات في الالتفات من التكلم إلى الغيبة في الآية الأخيرة من المقطع[3].

وينتج عن هذه الحقيقة، إفراد الله بالألوهية والربوبية، ومن ثم إفراده سبحانه بالقوامة والسلطان. وبالحاكمية والتشريع. إن الله هو الخالق. ومن

(١) الظلال ٦: ٣٤٤١ ـ ٣٤٤٢.
(٢) الحجر ١٦ ـ ٢٥.
(٣) انظر تفسير هذا المقطع في الظلال ٤: ٢١٣٢ ـ ٢١٣٥.

ثم فهو وحده المالك. . ولذلك فهو الرازق. . إذن فهـو صاحب الأمـر والسلطان «إن الحاكمية هي أخص خصائص الألوهية. والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها. .»[1].

ومن أجل أهمية الحاكمية، ونظراً لارتباطها بقضية الألوهية، واتصالها بالعقيدة الإسلامية. كانت هي المعركة الحقيقية التي خاضها هذا الدين في مكة والمدينة ومع الجاهلية عموماً ليقرر وجوده[2].

الفاعلية الإيجابية لصفات الله:

كان سيد قطب وهو يتحدث عن العقيدة وآثارها. ويعرض صفات الله سبحانه ـ كما وردت في نصوص القرآن ـ يبين آثارها في الكون والحياة. وهو ما أطلق عليه اسم «الفاعلية الإيجابية» لصفـات الله. والتفاتـه إلى هذه الناحية، وبيانها على أتم صورة وأوفاها، مزية من مزايا الظلال، وفضيلة تذكر لسيد قطب.

أشار في مقدمة الظلال إلى أنه عاش في الجو الذي فسر فيه الظلال يستشعر «إيجابية صفاته تعالى وفاعليتها. .»[3].

كما أشار إلى هذه الفاعلية الإيجابية لصفات الله وهو يفسر سورة الفاتحة، ويبين صفات الله فيها، وآثـارها الإيجـابية في الكـون والحياة والإنسان[4].

كذلك في تفسيره لآية الكرسي تعرّض للفاعلية الإيجابية لصفات الله التي تقررها تلك الآية: وحدانية الله، وحياته، وقوميته، وملكيته الشاملة، وعلمه الشامل[5]. .

---

(١) انظر الظلال ٢: ٨٨٨ ـ ٨٩١.
(٢) الظلال ٣: ١٢١٧.
(٣) الظلال ١: ١٣.
(٤) انظر الظلال ١: ٢٢ ـ ٢٤.
(٥) انظر الظلال ١: ٢٨٦ ـ ٢٩٠.

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. . ﴾[1] أشار إلى تأكيد الآية على وحدة الألوهية، مرة في أولها، ومرة في آخرها. «مصحوبة بصفة العزة وصفة الحكمة. والقدرة والحكمة لازمتان كلتاهما للقوامة بالقسط. فالقسط يقوم على وضع الأمور في مواضعها مع القدرة على إنفاذها. . وصفات الله ـ سبحانه ـ تصور وتوحي بالفاعلية الإيجابية. فلا سلبية في التصور الإسلامي لله. وهو أكمل تصور وأصدقه، لأنه وصْف الله لنفسه ـ سبحانه ـ وقيمة هذه الفاعلية الإيجابية أنها تعلق القلب بالله وإرادته وفعله. فتصبح العقيدة مؤثراً حياً دافعاً لا مجرد تصور فكري بارد!»[2].

ونظراً لهذه المزية الإيجابية، فقد اعتبرها سيد إحدى الخصائص البارزة للتصور الإسلامي. ـ وإنها لكذلك ـ وخصص لها فصلاً من فصول كتابه «خصائص التصور الإسلامي» وهو فصل «الإيجابية» عرض فيه للإيجابية الفاعلة لصفات الله في الكون والحياة والإنسان، وقارنها بالتصور الجاهلي لله ولصفاته الذي يتسم بالسلبية وعدم الاحتفال من الله. بخلقه. وعرض كثيراً من نصوص القرآن التي تقرر هذه الإيجابية. . وتصور تدخل العناية الإلٓهية علانية في شؤون صغيرة للمسلمين، كما في حادث ابن أم مكتوم، والمرأة التي كانت تجادل الرسول ـ ﷺ ـ في زوجها الذي ظاهر منها، كما تصور تدخلها في الأحداث الكبرى في حياة المسلمين كما في رحلة الهجرة، وغزوتي بدر وأُحد، وتدخلها في حركة الأنبياء السابقين كموسى وإبراهيم ونوح ـ عليهم السلام ـ وتدخلها في أمر الكون كله والأحياء التي فيه[3]. .

وختم هذا المبحث بقوله: «والقرآن كله معرض هذه «الإيجابية» وهي أساس التصور الإسلامي ـ بعد التوحيد ـ وهي التي تتجلى فيها حقيقة

---

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) الظلال ١: ٣٧٩.

(٣) انظر كتاب «خصائص التصور الإسلامي» ١٧٢ ـ ١٨٣.

التوحيد. فالتوحيد الإسلامي يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير وليس مجرد التوحيد السلبي الذي يصفه أرسطو. أو يصفه أفلوطين!»[1].

ولما لهذه العقيدة الإسلامية من إيجابية فإن لها آثاراً إيجابية على السلوك والحياة. فلما فسر سيد قوله تعالى: ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾[2] تحدث عن مظاهر رحمة الله في الكون، وفي حياة الإنسان، وأورد عدة أحاديث لرسول الله - ﷺ - يقرر هذه الحقيقة ويقربها لقلوب المؤمنين، ثم ختم تفسيره لها بإشارة سريعة إلى أهم آثار استقرار هذه الحقيقة في حسّ المؤمن وفي حياته، وفي خلقه وفي سلوكه[3]..

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض.. ﴾[4].

أشار إلى أن الإيمان بالله وحده، وتقواه سبحانه، ليسا سلبيين، لكنهما إيجابيين: «إن العقيدة الإيمانية في الله، وتقواه، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة، وعن خط تاريخ الإنسان. إن الإيمان بالله وتقواه، ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض. وعداً من الله. ومن أوفى بعهده من الله» ثم عرض خمسة مظاهر لتحقيق وعد الله في عالم الواقع، وفي حياة البشر، يظهر فيها الأثر الإيجابي العملي لهذا الإيمان ولهذه التقوى[5]...

ولما تحدث عن أركان الإيمان وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.. ﴾[6] كان يعرضها من زاويتين: الزاوية النظرية التصورية، والزاوية الإيجابية الواقعية ببيان آثارها في السلوك والحياة[7]..

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) الأنعام: ١٢.

(٣) انظر الظلال ٢: ١٠٤٨ - ١٠٥٢.

(٤) الأعراف: ٩٦.

(٥) انظر الظلال ٣: ١٣٣٨ - ١٣٣٩.

(٦) البقرة: ٢٨٥.

(٧) انظر الظلال ١: ٣٤٠ - ٣٤٤.

وفي كل موضع كان يفسر فيه صفات المتقين التي تعرضها النصوص القرآنية، كان حريصاً على الالتفات إلى الآثار العملية لهذه الصفات الإيمانية، فهي ليست تصوراً فقط، ولا أخلاقاً سلبية فردية، ولكنها صفات عملية ذات دلالات تربوية ودعوية وحركية وجهادية، ولها آثار إيجابية واقعية، على مستوى الأفراد وعلى مستوى الجماعات، فإذا ما تخلفت تلك الآثار لدى أصحابها فعليهم أن يعيدوا النظر في درجة ومستوى تلك الصفات في تصورهم وحياتهم[1]. . .

والإيمان نفسه في نظر سيد قطب، هو كبرى المنن التي ينعم الله بها على عباده على الإطلاق. لأنه يجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة، ويجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً. .

وقد أشار إلى أهم الآثار العملية لهذا الإيمان وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ يمنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان ﴾[2].

إن أهم ما يصنعه الإيمان في الإنسان هو «سعة تصوره لهذا الوجود، ولارتباطاته هو به، ولدوره هو فيه، وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله، وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقي الله. وأنسه بكل ما في الوجود حوله. وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود، وشعوره بقيمته وكرامته، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضي عنه الله. ويحقق الخير لهذا الوجود كله[3]. .

وعندما كان يتحدث عن الإيمان، لم يكن هدفه تعريفه الفقهي. ولكن بيان طبيعته وقيمته في الحياة. فلما فسر سورة العصر بيَّن مقومات الإيمان، وتحدث عن آثارها العملية باعتبارها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة. .

---

(١) انظر على سبيل المثال: الظلال ١: ٣٨ ـ ٤١.

(٢) الحجرات: ١٧.

(٣) الظلال ٦: ٣٣٥١ وانظر بيانه لآثار الإيمان ٦: ٣٣٥١ ـ ٣٣٥٣ وانظر كذلك ٦: ٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٤.

والمقومات التي عرضها ثمانية وهي (١) التعبد لإلـه واحد (٢) الربانية (٣) وضوح الصلة بين الخالق والمخلوق (٤) الاستقامة على منهج الله (٥) الاعتقاد بكرامة الإنسان على الله (٦) نظافة المشاعر (٧) التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمـول الرقـابة (٨) الارتفـاع عن التكالب على أعـراض الدنيا[١]. . .

ونظراً لأهمية العقيدة في التصور والحياة، وانطلاقاً من دورها الإيجابي الفاعل، ووظيفتها الاجتماعية الإيجابية كان سيد قطب يبين الحكمة من ربط التشريعات والتوجيهات والمبادىء والأحكام بهـا باستمرار في نصوص القرآن الكريم. . ويعرض في الظلال أهمية العامل العقيدي للالتزام بالتوجيهات والتشريعات الإسلامية، وانفلات هذا الالتزام، وتلاشي هذه الأحكام إذا غاب هذا العامل، أو ضعفت الرقابة الوجدانية القلبية. . .

ففي تفسيره لآيات القصاص والوصية والصيام والاعتكاف، أشار إلى الحكمة من ربطها ـ كلها ـ بالعقيدة في الآيات التي بينتها لضمان التزامها[٢]. وعقب على ذلك بقوله: «وهو اطراد يوجه النظر إلى حقيقة هذا الدين. . إنه وحدة لا تتجزأ، تنـظيماتـه الاجتماعيـة، وقواعـده التشريعيـة، وشعائـره التعبدية. . كلها منبثقة من العقيدة فيه، وكلها نابعة من التصور الكلي الذي تنشئه هذه العقيدة، وكلها مشدودة برباط واحد إلى الله، وكلها تنتهي إلى غاية واحدة هي العبادة. .»[٣].

وفي تفسيـره لدرس آخـر من دروس سورة البقـرة، ربط الأحكام والتشـريعات بـالعقيدة، وأشـار إلى الحكمة من هـذا، وإلى أهميته[٤].

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٩٦٤ ـ ٣٩٦٧. وانظر نماذج أخرى في الظلال ١: ٢٠٧ ـ ٢٠٩ و٣: ١٤٧٥ ـ ١٤٧٨.

(٢) انظر الظلال ١: ١٦٣.

(٣) الظلال ١: ١٦٤.

(٤) انظر الظلال ١: ١٧٨ ـ ١٧٩. وانظر نماذج أخرى في الظلال ١: ٢٣٤ ـ ٢٣٨ و٢: ٦٦ و٢: ٧٧٧ و٣: ١١٩٦ و٣: ١٣٨٤.

المبحث الحادي عشر

إزالة التعارض الموهوم بين النصوص

هناك بعض الآيات القرآنية تبدو في ظاهرها ـ ولأول وهلة ـ بينها شيء من التعارض كأن تتحدث الأولى عن أمر، وتتحدث الثانية عن الأمر نفسه بصورة أخرى. وكأن تنفي الأولى أمراً، وتطلبه الثانية أو تثبته. . . وقد استغل أعداء الإسلام وخصوم هذا الدين هذه الآيات، وصاروا يوجهون مطاعنهم ضد القرآن، ويشككون في نصوصه، ويثيرون الشبهات من حوله. فقام نفر من علماء القرآن يردون عليهم سهامهم، ويبطلون شبهاتهم. . وينفون التعارض الموهوم بين الآيات، ويظهرون التوافق والتناسق والانسجام بينها. .

وقد اهتم سيد قطب بهذا الأمر، وكانت له في الظلال وقفات ووقفات يجمع فيها بين تلك النصوص الموهمة ثم يفسرها بما يزيل ذلك التعارض الظاهر.

وكان هذا من قواعده الأساسية في التفسير، فهو يرى أن القرآن وحدة موضوعية متكاملة، وتلتقي آياته على تحقيق أغراضه السامية، وتسري بينها روح الاتفاق والانسجام. ولذلك فإننا لا نجد تعارضاً حقيقياً بينها، فلا يجوز أن نضرب بعضها ببعض، وإذا كان ثمة تعارض فهو ظاهري وهمي بسبب النظرة العجلى، ويزول هذا التعارض بقليل من التدبر في النصوص، واستصحاب هذه السمة للقرآن.

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير

الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . . ﴾[1] يرى بأن هذا النص الكريم «يعين لهم منهج النظر الصحيح، كما يعين لهم الظاهرة التي لا تخطىء أبداً إذا اتبعها ذلك المنهج. وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن من جهة، ويمكن للعقل البشري إدراكها من جهة أخرى. . ودلالتها على أنه من عندالله دلالة لا تمارى. . »[2].

أطلق على هذه الظاهرة اسم «عدم الاختلاف» واسم «التناسق المطلق الشامل الكامل» أو «الثبات والتناسق». . وأوضح ما تكون ظهوراً لدى مقارنة أسلوب القرآن ومناهجه، بنتاج البشر في أفكارهم، حيث يتصف ذلك الجهد البشري بالتغير والاختلاف.

التناسق. والثبات. وعدم الاختلاف وعدم التعارض يظهر في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية. . كما يظهر في المنهج الفريد الذي تحمله العبارات ويؤديه الأداء. . منهجه في التربية. . ومنهجه في التقويم. ومنهجه في التنظيم. ومنهجه في التنسيق - وغير ذلك[3].

هناك نصان يبدوان متعارضين - في الظاهر - بشأن العدل مع الزوجات. نص يشترط العدل بين الزوجات عند تعددهن وهو قوله: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا. . ﴾[4] ونص آخر يبين أن العدل بينهن متعذر، ومنفي نفياً تأبيدياً وهو قوله: ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة. . ﴾[5].

أشار سيد إلى محاولة بعض المشككين - أعداء هذا الدين - إلى

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) الظلال ٢: ٧٢١.

(٣) انظر الظلال ٢: ٧٢١ - ٧٢٢.

(٤) النساء: ٣.

(٥) النساء: ١٢٩.

التشكيك في نصوص القرآن، وفي تعاليمه وتوجيهاته، وإلى محاولة بعض المغرضين الحاقدين المحاربين لنظم الإسلام وتشريعاته تحريم تعدد الزوجات ـ لأن الجاهليين يحرمونه ـ وتجريم المعددين من المسلمين، وذلك باتخاذهم من الآية الثانية دليلاً على تحريم التعدد. . . «والأمر ليس كذلك. وشريعة الله ليست هازلة، حتى تشرع الأمر في آية، وتحرمه في آية. بهذه الصورة التي تعطي باليمين وتسلب بالشمال. . ».

وجمع سيد بين النصين، وأزال التعارض الوهمي بينهما، بأن نزَّل العدل في كل منهما على حالة ومعنى. فالآية الأولى توجب عدلاً في مقدور الطاقة البشرية، والآية الثانية تقرر عدلاً فوق هذه الطاقة، ولذلك لا يوجبه الله لأنه لا يكلف بالمحال. . . . .

العدل المطلوب «ـ في الآية الأولى ـ والذي يتعين عدم التعدد إذا خيف ألا يتحقق: هو العدل في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة، وسائر الأوضاع الظاهرة. ». والعدل المستحيل ـ المنفي في الآية الثانية هو «العدل في مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس، فلا يطالَب به أحد من بني الإنسان، لأنه خارج عن إرادة بني الإنسان»[1].

وهناك نصوص يفيد ظاهرها أن الأعمال الحسنة تنفع صاحبها يوم القيامة حتى لو كان كافراً، مثل قوله تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾[2]. وهناك نصوص أخرى تفيد أن الكافر لا ينفعه عمله يوم القيامة. حتى لو كان في ظاهره حسناً خيّراً، مثل قوله تعالى: ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء. ذلك هو الضلال البعيد. . ﴾[3].

لذلك وقع بعضهم في خطأ. فذهبوا إلى أن الأعمال الحسنة تنفع

---

(١) الظلال ١ : ٥٨٢.

(٢) الزلزلة: ٧.

(٣) إبراهيم: ١٨.

صاحبها الكافر في الآخرة، وقد استدرك سيد قطب على الشيخ محمد عبده عندما ذهب إلى هذا الرأي الخطأ.

ولقد جمع سيد بين هذين النصين بأن آية سورة إبراهيم صريحة أصيلة في أن أعمال الكفار ـ الحسنة ـ لا تنفع أصحابها، لأنهم لن يجدوها هناك.. أما آية سورة الزلزلة فهي خاصة بالمؤمنين يوم القيامة، وإن جاءت بصيغة العموم. فهي عام أريد به الخصوص.

يقول بعد ما أورد آية سورة إبراهيم ـ وآية قريبة من معناها في سورة النور ـ «وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان. الذي يجعل له دافعاً موصولاً بمصدر الوجود. وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود. وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله. فمن انقطع عنه فقد انقطع، وفقد حقيقة معناه..»[1].

كذلك يجمع سيد بين نصوص متعارضة ـ في ظاهرها ـ بشأن موقف النصارى من المسلمين. بأن حمل كل نص على حالة خاصة حسبما يوحي بذلك سياق القرآن وتقريراته.

فقوله تعالى: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون..﴾[2] يخطىء الكثيرون في فهم مدلوله، ويجعلون منه (مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة، وموقف هذه المعسكرات منهم... ويستغل الأعداء الخبثاء ـ وبخاصة النصارى ـ هذه الآية في خداع المسلمين. وفي تمييع الحقيقة وتزويرها. وهم يفعلون هذا لأنهم ينظرون ـ عن مكر وخبث ـ إلى أوائل مثل هذا النص القرآني، دون متابعة لبقيته، ودون متابعة لسياق السورة كله، ودون متابعة لتقريرات القرآن عامة، ودون متابعة للواقع التاريخي الذي يصدق ذلك كله[3]..

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٩٦٦ ـ ٣٩٦٧ ولاحظ حاشيتها.
(٢) المائدة: ٨٢.
(٣) الظلال ٢: ٩٦٧.

مع أن هذه الآية وما تلاها من آيات لا تشهد لهم، ولا تصور طبيعة عامة للنصارى على اختلاف الزمان ـ كما يدعي البعض ـ ولكنها تصور حالة خاصة معينة، وتقرر حكماً في هذه الحالة.. إنها تصور حالة فريق من أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ فريق مؤمن خيِّر طيب مهتد. والآيات التالية تتابع الحديث عن هذا الفريق الخاص، وتكمل تصوير ملامحه عندما يسمع آيات القرآن ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع.. ﴾[1] ولا يكتفون بهذا الفيض من الدمع، ولا يقفون من هذا القرآن ـ الذي سمعوه ـ موقفاً سلبياً. ولكنهم يؤمنون به إيماناً إيجابياً، ويدعون الله أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا القرآن. وأن يسلكهم في سلك الأمة المسلمة ﴿ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين... ﴾[2].

وقد أورد سيد قطب ثلاث روايات مأثورة في تحديد هذا الفريق المؤمن من النصارى أخذها من تفسير القرطبي ومن سيرة ابن هشام.

أما غير هذا الفريق الطيب، أما بقية النصارى الذين استمروا على نصرانيتهم بعد البعثة المحمدية، والذين زاد عداؤهم ومكرهم لهذا الدين وأهله. فإن الآيات لا تنطبق عليهم. ولكن تنطبق عليهم آيات أخرى تعتبرهم كافرين، وتقرنهم مع اليهود والمشركين. أورد سيد خمس آيات منها. كما استشهد لهذه الحقيقة الصريحة بسياق سورة المائدة، وبالواقع التاريخي الذي عرفت فيه الأمة المسلمة النصارى على حقيقتهم، والذي ذاقت فيه من كيدهم وعداوتهم ما ذاقت في القديم والحديث.

قدم حديثه عن سياق السورة وتقريراتها عن كفر النصارى وعداوتهم بقوله: «إن السورة وحدة في اتجاهها وظلالها وجوها وأهدافها، وكلام الله سبحانه لا يناقض بعضه بعضاً «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».. وقد وردت في هذه السورة نفسها نصوص وتقريرات تحدد معنى

---

(١) المائدة: ٨٣.

(٢) المائدة: ٨٣.

هذا النص الذي يواجهه هنا وتجلوه»[1].

وختم حديثه عن التوفيق بين هذه النصوص بشأن النصارى ـ الذي وفقه الله إليه ـ بدعوته إلى تدبر القرآن على بصيرة لإزالة التعارض الظاهري بين نصوصه: «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وهو لا يناقض بعضه بعضاً، فلنقرأه إذن على بصيرة. . .»[2].

ومن روائع نظراته في النصوص المتعارضة ـ ظاهرياً ـ وتوفيقه بينها، وإزالة التعارض الموهوم بينها. توفيقه بين النصوص الواردة بشأن القضاء والقدر، أو الجبر والاختيار، أو الهدى والضلال، في مواطن عديدة في الظلال، كما في قوله تعالى ـ بشأن ما أصاب المسلمين يوم أُحد ـ: «أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم. . ﴾[3] حيث نسب ما أصابهم إلى أنفسهم. بينما في الآية التي تليها بيّن أنّ ما أصابهم كان بإذن الله: ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله. . ﴾[4].

وكما في قوله تعالى: ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. قل كل من عند الله ﴾[5] لأنه كان يرد على كلام المشركين فيقرر أن الله ـ سبحانه ـ هو الفاعل الواحد لكل ما يقع للناس.

قول تعالى: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾[6] الذي يقرر حقيقة أخرى غير التي قررتها الآية الأولى. وهي أن الحسنة من الله، لأنها تحصل بعونه وتوفيقه. وأما السيئة الحقيقية فهي من

---

(١) الظلال ٢: ٩٦٦.
(٢) الظلال ٢: ٩٦٧ وانظر بيانه كاملاً في الظلال ٢: ٩٦٢ ـ ٩٦٧.
(٣) آل عمران: ١٦٥.
(٤) آل عمران ١٦٦ وانظر التوفيق بينهما في الظلال ١: ٥١٤.
(٥) النساء: ٧٨.
(٦) النساء: ٧٩.

عند الإنسان نفسه لأنه لم يتبع منهج الله وطريقه. والقرآن حق كله، لأنه كلام الله، ولن يعارض بعضه بعضاً[1].

كما كانت له وقفات أخرى في التوفيق بين الآيات المتحدثة عن القضاء والقدر في تفسيره لسور الأنعام[2]، والأعراف، ويونس[3]، والشمس[4]، كذلك خصص لها حديثاً في كتابه «خصائص التصور الإسلامي» مبحث «التوازن» بيَّن التوازن في القضاء والقدر: التوازن بين مجال المشيئة الإلّهية الطليقة، ومجال المشيئة الإنسانية المحدودة. وكان حديثاً شاملاً وافياً شافياً[5].

ويصلح تفسيره لقوله تعالى: ﴿ من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾[6] مثلاً لجمعه بين النصوص وإزالة التعارض بينها، وإعمالها كلها، وعدم وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر ـ كما فعل أصحاب الفرق الإسلامية في التاريخ الإسلامي. يقول: «ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية. .».

وبعد أن يقرر هذا الطريق الواضح الصريح الصادق، بعبارات موجزة دالة، يشير إلى أنه استخرج هذا من جمعه بين النصوص، وهو الذي لم يفعله رجال الفرق الإسلامية، بل فعلوا نقيضه: يقول: «وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج والجدل»[7].

---

(١) انظر الظلال ٢: ٧١٧ ـ ٧١٩ مع ملاحظة حاشية ٧١٩.
(٢) انظر الظلال ٢: ١٠٦٥ ـ ١٠٦٦.
(٣) انظر الظلال ٣: ١٨٢١.
(٤) انظر الظلال ٦: ٣٩١٧ ـ ٣٩١٨.
(٥) انظر خصائص التصور الإسلامي: ١٤٣ ـ ١٥٤.
(٦) الأعراف: ١٧٨.
(٧) انظر الظلال ٣: ١٤٠٠.

كذلك كان لسيد قطب وقفات فريدة جمع فيها بين آيات الجهاد في الإسلام، ووفق بينها، وأزال التعارض الظاهري عنها، ورد على النتائج الخاطئة التي خرج بها المهزومون من الكُتاب المسلمين المعاصرين، الذين حرفوا معنى الجهاد، وصرفوه عن حقيقته إلى صورة مسخ هزيلة. وخرج من توفيقه بالقول «بالمرحلية الحركية» في آيات الجهاد. فالآيات الأولى ليست منسوخة بالآيات النهائية في سورة التوبة، كما ذهب إلى ذلك بعض السابقين.

وليست هي الأصل في أحكام الجهاد، كما قال بعض المعاصرين من المسلمين، ولكنها يجوز الأخذ بها حسب حالة ووضع وقوة الحركة الإسلامية. . «وذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه الأمة المسلمة في شتى الظروف والأزمنة والأمكنة، هي التي تحَدد - عن طريق الاجتهاد المطلق - أي الأحكام هو أنسب للأخذ به، في ظرف من الظروف، في زمان من الأزمنة، في مكان من الأمكنة! مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التي يجب أن يصار إليها، متى أصبحت الأمة المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام، كما كان حالها عند نزول سورة التوبة. . »[1].

وقد بيّن سيد أساس الخطأ الذي وقع فيه الكاتبون المعاصرون. فلم يستطيعوا التوفيق بين آيات الجهاد بأحكامها المختلفة، لأنهم كانوا «يعمدون إلى النصوص المرحلية، فيجعلون منها نصوصاً نهائية، وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة، فيجعلون منها نصوصاً مطلقة الدلالة، حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة، أولوها وفق النصوص المقيدة المرحلية. . »[2].

كذلك جمع سيد بين آيتين متعارضتين في الظاهر بخصوص الأسرى. وهما قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في

---

(١) الظلال ٣: ١٥٨٠ وانظر الظلال ٣: ١٤٣١ - ١٤٥٢ و ١٥٠٨ - ١٥١٠ و ١٥٤٥ - ١٥٤٨ و ١٥٧٨ - ١٥٨٣.
(٢) الظلال ٣: ١٥٤٦ - ١٥٤٧.

الأرض ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فأما منّا بعدُ وإما فداء.. ﴾[2] فقد رأى معظم المفسرين السابقين أن مدلول كل منهما يختلف عن مدلول الأخرىٰ. ولذلك أجهدوا أنفسهم في التوفيق بينهما.

وقد جمع سيد بينهما بأن آية الأنفال تقرر الإثخان والتقتيل في المشركين، في المراحل الأولى من الجهاد لتحطيم قوة المشركين وكسر شوكتهم، فإذا ما تحقق هذا الهدف وتمت الغلبة للمسلمين تأتي آية سورة محمد التي تقرر الأسر.. «فالإثخان أولاً لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته، وبعد ذلك يكون الأسر. والحكمة ظاهرة».. «فأما الحكم في الأسرى بعد ذلك، فتحدده هذه الآية. وهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى: فأما منًّا بعد وأما فداء.. وليس في الآية حالة ثالثة. كالاسترقاق أو القتل..»[3].

وقد كان لسيد جمع وتوفيق بين نصوص أخرى، من ذلك ـ رأيه في الرجفة التي أصابت بني إسرائيل زمن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في قوله تعالى: ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي.. ﴾[4] فهي نفس الصاعقة في قوله تعالى: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون.. ﴾[5] «حسب ظاهر السياق القرآني»[6].

ومن ذلك ترجيحه أن كلمة «روحنا» الواردة في سورة مريم بشأن قصة مريم، هي غير «روحنا» الواردة في سورة التحريم بشأن نفس القصة. فهي

---

(١) الأنفال: ٦٧.
(٢) محمد: ٤.
(٣) انظر الظلال ٦: ٣٢٨٢.
(٤) الأعراف: ١٥٥.
(٥) البقرة: ٥٥.
(٦) انظر الظلال ٣: ١٣٧٦.

كلمة ذات مدلولين: في سورة مريم «تعني جبريل الروح الأمين، وهو رسول الله إلى مريم. أما في التحريم فتعني الروح الذي نفخ الله منه في آدم فإذا هو إنسان، ونفخ منه في فرج مريم»[1].

ولسيد قطب وسائل في التوفيق بين النصوص وإزالة التعارض الموهوم بينها: منها ما بيّنه أثناء جمعه بين الآيات الخاصة بالنصارى - والذي بيناه قبل قليل - حيث كانت وسائله في ذلك التوفيق:

١ - متابعة بقية النص الذي يعرض الحادثة.
٢ - متابعة سياق السورة كله وتقريراته عن النصارى.
٣ - متابعة تقريرات القرآن عامة بشأن النصارى.
٤ - متابعة الواقع التاريخي للعداء الأصلي الذي يكنه النصارى للمسلمين والذي يصدق هذه التقريرات القرآنية الصريحة[2].

ومن تلك الوسائل التي أطلعَنا عليها وهو يبين المرحلة التي تقررها آيات الجهاد في سورة الأنفال تلك التي «تمثل مرحلة وسطى بين ما كان عليه الحال أول العهد بالمدينة، وما انتهى إليه الحال بعد نزول سورة براءة». فكانت وسائله في ذلك.

١ - مراجعة أحداث السيرة النبوية.
٢ - تاريخ نزول السور والآيات التي تتضمن هذه الأحكام.
٣ - تلخيص الإمام ابن القيم الموجز الجيد لمراحل الجهاد في كتابه «زاد المعاد»[3].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . ﴾[4] وفق بينه وبين الآيات الأخرى في موضوع الجهاد، حيث خصصه بالفريق من

---

(١) انظر الظلال ٣: ٢٣٠٦ حاشية.
(٢) انظر الظلال ٢: ٩٦٧.
(٣) انظر الظلال ٣: ١٥٤١.
(٤) الأنفال: ٦١.

المشركين الذين اعتزلوا الرسول - ﷺ - ولم يقاتلوه، وجنحوا للسلم.. فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يترك هذا الفريق المسالم إلى حين..
ومن ثم فهو ليس حكماً نهائياً على إطلاقه الذي يؤخذ من نصه مجرداً عن هذه الملابسات. ومجرداً كذلك من النصوص التالية له في الزمن، وعن التصرفات الواقعية بعد الرسول -ﷺ -».

ووسائله إلى هذا التوفيق والتخصيص هي:

١ ـ مراجعة أحداث السيرة النبوية.
٢ ـ وملاحظة تاريخ النزول وجوهٍ وأسبابه.
٣ ـ وملاحظة الطبيعة الحركية للمنهج الإسلامي في الجهاد.
٤ ـ النظر في النصوص الأخرى التالية له في الزمن[1].

كان سيد قطب حريصاً على التوفيق بين النصوص التي تبدو - في ظاهرها ـ متعارضة، وكانت له وسائله العلمية المنهجية في إزالة التعارض الموهوم بينها، وكان دافعه إلى هذا «دفع إيهام الاضطراب» عن الآيات، وبيان التناسق والانسجام في أسلوب القرآن الكريم...

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٥٤٥.

المبحث الثاني عشر

«الوحدة الموضوعية للقرآن»

القرآن الكريم وحدة موضوعية، تتعانق آياته وسوره، وتتناسق معانيه ودلالاته، وتعتبر كل سورة فيه وحدة جزئية قائمة بذاتها. ولها دور رئيسي في «الكل» القرآني المتناسق الجميل. وقد دعانا الله إلى تدبر القرآن ـ ويدخل في التدبر ملاحظة هذه الوحدة الموضوعية ـ قال تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. . ﴾[1] هذه الآية تقرر حقيقة جازمة، وتسجل ظاهرة ملموسة في القرآن الكريم، وهي حقيقة الوحدة الموضوعية فيه، وظاهرة التناسق المطلق الشامل الكامل في أسلوبه، في تعبيره وأساليب العرض الفني وطرائق الأداء الفنية، وفي منهج القرآن في التربية والتشريع والتوجيه والبناء، وفي المناهج التي يقررها للحياة البشرية الكريمة[2].

وقد تفاوت نظر المفسرين إلى هذه الوحدة الموضوعية ـ قديماً وحديثاً ـ ويعتبر سيد قطب ـ في كتابه «الظلال» ـ أبرز الذين لاحظوها، وأقدر الذين أحسنوا التعبير عنها، بعد أن وفق لاكتشافها في جميع السور القرآنية، ثم تطبيقها على نصوص القرآن وسوره في الظلال.

من المفسرين السابقين من لم يلتفت إلى الوحدة الموضوعية، ولم يهتم ببيانها في تفسيره، كما فعل الإمام محمد بن جرير الطبري، الذي يبدو

---

(١) النساء: ٨٢.

(٢) انظر تفسير الآية السابقة في الظلال ٢: ٧٢١ ـ ٧٢٣.

أن منهجه في التفسير ـ وهو جمع الروايات والأقوال المأثورة في تفسير الآية أو المقطع من مقاطعها ـ هو الذي حدد له طريقه في التفسير، ومن ثم تجاوز الكلام عن الوحدة الموضوعية. . .

ومن المفسرين السابقين من لم يلاحظها في جميع سور القرآن الكريم ـ رغم أنه قال بها ـ حيث عرضها في بعض الآيات والسور، ولكنه لم يعرضها في كل الآيات والسور.

ومنهم من لاحظها في جميع الآيات والسور، ولكنه عجز عن تقديمها للناس.

ومنهم من جعل الهدف من تفسيره ـ وهو برهان الدين البقاعي ـ بيان هذه الوحدة، إلا أنه لم يقدمها بصورة شاملة مفصلة دقيقة في جميع السور والآيات. . . .

كما ظهرت مؤلفات خاصة تعني ببيان التناسب في القرآن، وتبرز وجوه الربط بين السور والآيات ـ كما فعل السيوطي ـ لكنها لم تستقص مظاهر الوحدة الموضوعية في السور كلها، ولم يكن ـ السيوطي ـ موفقاً في كثير مما عرض له التوفيق المطلوب.

وقد اهتم المعاصرون بهذا الأمر، وحاولوا في تفاسيرهم أو دراساتهم القرآنية بيان الوحدة الموضوعية، وعرضوا نماذج جيدة، وخرجوا بنتائج طيبة، لكنهم ـ كالسابقين ـ لم يستقصوا هذه المظاهر والنماذج، ولم يبينوا هذه الوحدة في جميع السور والآيات.

وأستطيع أن أستثني من هؤلاء المعاصرين، عالماً فطناً، ومتذوقاً موهوباً لأسلوب القرآن الكريم، ومتخصصاً في دراسة القرآن وتفسيره، وهو «المعلم» عبد الحميد الفراهي ـ الهندي ـ صاحب تفسير «نظام القرآن: تأويل الفرقان بالفرقان». والذي كان يؤمن بالوحدة الموضوعية في جميع السور القرآنية إيماناً جازماً، وكان يطلق عليها اسم «نظام القرآن» وجعل الهدف من تفسيره «نظام القرآن» بيان هذه الوحدة وعرضها، ولئن كان قد انتقل إلى الرفيق

الأعلى قبل إكمال تفسيره، فقد ترك لنا بعض الكتب التي يتحدث فيها عن هذه الوحدة، والتي «يؤصّل» لها أصولاً علمية، ويرسم الطريق السليم لإدراكها وبيانها. ومن أشهر هذه الكتب «دلائل النظام» و«أساليب القرآن» و«التكميل في أصول التأويل».

وهناك الكثير من أوجه الالتقاء في أفكار «المعلم» عبد الحميد الفراهي وسيد قطب، في نظراتهما الفنية للقرآن الكريم، وآرائهما البيانية في أسلوبه المعجز الحكيم سواء في ظاهرة «التصوير الفني» في أسلوب القرآن، أو في حقيقة الوحدة الموضوعية التي تربط سوره وآياته. مع أن العالميْن الجليلين المتعاصرين لم يحدث أن التقيا معاً، وأعتقد أنه لم يقرأ أحدهما للآخر.

وأن هذا الالتقاء في الأفكار أنما هو توارد خواطر أولاً، ونتيجة واضحة يوفق الله إليها كل متذوق لآيات القرآن متدبر لها. . . .

أما سيد قطب فإنه سيد هذه الساحة وقطب رحاها، لأنه قدم لنا ـ في الظلال ـ السور والآيات كلبنات وحلقات متناسقة متراصة في النص القرآني المتناسق المعجز الجميل.

وفي ذلك يقول الدكتور عدنان زرزور: «بل لعله كذلك أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية المفردة طالت أم قصرت! أبرزه بشكل عملي مكتوب، أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظيم ـ رحمه الله ـ والذين سبقوا سيداً من المفسرين منهم من لم يلاحظها ولم يسلم بوجودها، ومنهم من ذهب إلى القول بها ولكنه عجز عن ملاحظتها وتقديمها فيما كتبه للناس من تفسير لكتاب الله تعالى. ثم جاء سيد ليؤكد على هذه الوحدة المحورية في السورة الواحدة، وليضع أيدينا بعد ذلك برفق وسهولة ولين على وجه الانتقال من موضوع إلى موضوع. . .»[1].

وقد بين الدكتور زرزور سبباً من أسباب نجاح سيد في القول بالوحدة الموضوعية وإبرازها وتطبيقها، ووسيلة من وسائله إلى ذلك وهي «ملاحظته

---

(١) علوم القرآن للدكتور عدنان زرزور: ٤٣١ بتصرف.

الأساسية المتمثلة في أن مجال النص الأصلي في القرآن هو العقيدة، وأن سلوك الإنسان وتصرفاته العملية هي النتيجة الطبيعية لاحكام هذا الجانب العقدي. . . »[1].

العقيدة ـ إذن ـ هي الأصل والأساس، الذي تنبثق منه سائر التصورات والمبادىء والمناهج، وهي المحور الذي تشد إليه جميع الفروع والجزئيات، وهي الموضوع الأساسي في القرآن الكريم، الذي يربط سائر موضوعاته ومعانيه، فهي أساس الوحدة الموضوعية في القرآن. وقد أشرنا إلى طرف منها في المبحث السابق من هذا الفصل. . .

وأضيف إلى السبب الذي ذكره الدكتور زرزور والوسيلة التي بينها، حياته الطويلة التي قضاها في ظلال القرآن، ومداومته إنعام النظر فيه، وتدبر معانيه، والتعمق في فهم أسراره ومراميه، والغوص إلى حقائقه وأغراضه، والوقوف على الناظم الدقيق المتين الذي يشد آياته وسوره، والروح الخفي الذي يسري في موضوعاته ومعانيه. .

كما أضيف إلى ذلك أيضاً ثقافة سيد الأدبية، وموهبته الشعرية، وقدرته وتجربته النقدية، والتي بزّ بها أقرانه وأساتذته، حيث تربع على عرش النقد الأدبي في الأربعينيات، وقبل أن ينصرف عنه إلى مهمة جديدة في العمل والدعوة والجهاد. فقد كان خبيراً بالنتاج الأدبي البشري، ومواطن السمو والهبوط فيه، ومدى قربه أو بعده من العمل الأدبي النموذجي الفذ، كما كان ماهراً في معرفة «مفتاح» شخصية كل أديب وكاتب، والذي به تفهم أفكاره، وتفتح مغاليق نتاجه، وتفسر به شخصيته ومواهبه. . .

لقد استخدم هذه الثقافة، وتلك الموهبة والخبرة في دراسته المتأنية الفاحصة المتذوقة لأسلوب القرآن، حيث وقف على مظاهر الوحدة الموضوعية، وأساليب العرض الفني الموحدة، وطرائق الأداء الفني المعجزة، والخصائص العامة المتفردة للجمال الفني التصويري في القرآن، ونتاجه في هذا كله متفرد أصيل.

---

(١) المرجع السابق: ٤٣١ ـ ٤٣٢ بتصرف.

وقد كان سيد موفقاً في إدراك ذلك كله والوقوف عليه، كما كان موهوباً موفقاً في بيانه وتقديمه للناس، حيث جعل من الظلال ميداناً واسعاً فسيحاً، صال فيه وجال، وكشف لنا عن خفي الروابط بين آياته وسوره، ومستور الجمال الكامن في تناسب ظلاله وصوره.

هـذه ـ الثلاثـة ـ هي أهم أسباب نجـاح سيد في بيـان الوحـدة الموضوعية، وهذه ـ الثلاثة ـ هي أهم الوسائل التي مكنته من عرض مظاهر هذه الوحدة والتوسع فيها في الظلال، وجعلها قاعدة من قواعد منهجه في التفسير، ومنطلقاً من منطلقاته الأساسية فيه.

الوحدة الموضوعية للقرآن ـ عند سيد قطب ـ ملحوظة في القرآن كله، سوره المكية والمدنية، وآياته القصيرة والطويلة، فالقرآن بترتيبه ـ التوقيفي ـ الذي هو عليه الآن، يعتبر «نظاماً» واحداً، لا تناقض فيه ولا اضطراب ولا اختلاف، رغم أن آياته وسوره نزلت في فترة زمنية طويلة، وبعضها نزل لأسباب مختلفة.

ونستطيع أن نستخلص الأقسام التالية للوحدة الموضوعية كما عرضها سيد في الظلال: .

١ ـ التناسب بين السورة والسورة.
٢ ـ التناسب بين دروس السورة الواحدة التي تلتقي على تحقيق هدف السورة وغرضها، وتتناغم في إبراز ملامح شخصية تلك السورة.
٣ ـ التناسب بين مقاطع الدرس الواحد، كجزئيات تكمل موضوع ذلك الدرس.
٤ ـ التناسب بين آيات المقطع الواحد، كأفراد تلتقي وتكمل بعضها في إبراز شخصيته.
٥ ـ التناسب بين كلمات الآية الواحدة وجملها، لتكون لبنة متكاملة، من لبنات النص القرآني المعجز الفريد.

والذي ينتهي من قراءة الظلال يخرج بقناعة تامة بالوحدة الموضوعية، ويكاد يلمس الخيط الدقيق المتين الذي نظم كلمات الآية، وآيات المقطع

ومقاطع الدرس، ودروس السورة، وسور القرآن الكريم. فهذا الكتاب المبارك أشبه ببناء ضخم متناسق في مظهره الخارجي كما يبدو من بعيد، فإذا اقتربت منه وجدت التناسق في طوابقه، وإذا دخلت الطابق وجدت التناسق في حجراته وممراته وقواطعه، فإذا دخلت الحجرة وجدت التناسق في نوافذها وجدرانها ومادة بنائها، فإذا أمعنت النظر في النوافذ والجدران وجدت كلا منها متناسقة في أقيستها وحجمها ومنظرها!!!.

جعل سيد بيان الوحدة الموضوعية قاعدة من قواعد منهجه في التفسير. يقول في مقدمة الطبعة الأولى من الظلال: «وكذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من إحساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز، ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير...»[1].

وأثبت في تعريفه بسورة الأعراف ـ في الطبعة المنقحة ـ نظرته المتفردة إلى القرآن وإلى سوره، قال: «إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة...

إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع وتحقيق هذه الغاية....

إن الشأن في سور القرآن ـ من هذه الوجهة ـ كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة: كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية، وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني.. ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع، نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة!.

هكذا عدت أتصور سور القرآن، وهكذا عدت أحسّها، وهكذا عدت

---

(١) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ١ : ٦.

أتعامل معها، بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها، وفق طباعه واتجاهاته، وملامحه وسماته[1]!.

ولقد سار سيد في الطبعة المنقحة على طريقة موحدة في بيان موضوع السورة العام الذي يضم موضوعاتها الجزئية، والمحور العام الذي يربط أجزاءها مع بعضها البعض، فكان يقدم بين يدي التفسير التفصيلي بمقدمة شاملة، كتقديم للسورة وتعريف بها، وبيان لملامحها وصورها وظلالها، وتحديد لشخصيتها ومنهجها، وبعد ما تنتهي من قراءة هذا التعريف تبدو لك السورة شخصية متميزة، ووحدة موضوعية متناسقة، وإن تعريفه بالسور، يكفي وحده لإعطاء صورة موجزة عن السورة وموضوعاتها، ولو اكتفى به سيد وحده لكفاه تفرداً وأصالة ومنهجية في هذا المجال..

ولم يكن سيد ـ في بيان شخصية السورة ووحدتها وتناسقها ـ مغالياً ولا مبالغاً، وإنما كان مقتصداً ومنهجياً، وربطه بين موضوعات السورة ومقاطعها علمي منهجي مقبول. وذلك لأن عملية الربط بين جزئيات السورة ومقاطعها لا تحتاج إلا إلى إدراك الموضوع العام لها، والمحور الذي تشد إليه جزئياتها، وهذا متوفر في كل سورة...... «ومن ثم يلحظ من يعيش في ظلال القرآن، أن لكل سورة من سوره شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص ـ إذا تغير في ثنايا السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة... وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً...»[2].

سورة البقرة ـ على سبيل المثال ـ رغم أنها أطول سور القرآن، ورغم أنها ضمت آيات عديدة، ورغم أنها نزلت في فترة زمنية طويلة، وبقيت

---

(١) الظلال ٣: ١٢٤٣.

(٢) الظلال ١: ٢٧ ـ ٢٨.

«مفتوحة» عشر سنوات تقريباً ـ حيث إن منها ما نزل في أول العهد المدني، وإن آخر آيات القرآن نزولاً هي من بين آياتها ـ ورغم أنها تحوي عدة موضوعات، رغم هذا كله إلا أن «المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطاً شديداً.. فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية... وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض...»[1].

وسورة آل عمران تتكون من مقطعين رئيسيين عريضين بينهما تناسق تام وتناسب ظاهر: المقطع الأول يبين موقف أهل الكتاب المنحرفين عن كتابهم من الجماعة المسلمة والعقيدة الجديدة...)[2].

المقطع الثاني: (خاص بغزوة أُحد ويشتمل على تقريرات في حقائق التصور الإسلامي والعقيدة الإيمانية. وتوجيهات في بناء الجماعة المسلمة على أساس تلك الحقائق...).

والعلاقة بين المقطعين في السورة ظاهرة: فالأول يعرض حقائق العقيدة والتصور والدعوة والحركة، في الميدان النظري للمعركة بين المسلمين وأعدائهم، المتمثل في الجدال والحجاج. والمقطع الثاني يعرض المعركة في الميدان العملي الحربي العسكري المتمثل في غزوة أُحد[3].

وحتى يكتمل التعريف التام بسورة آل عمران يقف سيد ليبين «ثلاثة خطوط عريضة فيها، تتناثر نقطها في السورة كلها، وتتجمع وتتركز في مجموعها، حتى تُرسم هذه الخطوط العريضة بوضوح وتوكيد...

وهذه الخطوط الثلاثة هي:

١ ـ بيان معنى الدين، ومعنى الإسلام.

---

(١) الظلال ١ : ٢٨.

(٢) الظلال ١ : ٣٥٣.

(٣) الظلال ١ : ٣٥٦.

٢ ـ تصوير حال المسلمين مع ربهم، واستسلامهم له، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع.

٣ ـ التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين[١].

وسورة المائدة ـ رغم أنها تتقارب مع السور الثلاث التي سبقتها في الموضوعات التي تعالجها، إلا أنها تتميز بشخصيتها الكاملة، وطابعها الخاص: «والطابع العام لهذه السورة هو طابع التقرير والحسم في التعبير.. سواء في ذلك الأحكام الشرعية التي تقتضي بطبيعتها الحسم والتقرير في القرآن كله، أو المبادىء والتوجيهات، التي قد تتخذ في غير هذه السورة صوراً أخرى، ولكنها في هذه السورة تقرر في حسم وصرامة، في أسلوب التقرير الدقيق، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة.. من بدئها إلى منتهاها..»[٢].

والجزء الثلاثون في القرآن الكريم، رغم كثرة سوره وقصر آياتها ـ حيث بلغت ستا وثلاثين سورة ـ إلا أن لهذه السور طابعاً خاصاً «يجعلها وحدة ـ على وجه التقريب ـ في موضوعها واتجاهها، وإيقاعها، وصورها وظلالها وأسلوبها العام...»[٣].

نكتفي بهذه النماذج من تعريفه بالسور، وتحديده لشخصية كل منهما، وإظهاره الوحدة الموضوعية فيها، لننتقل إلى جزئية أخرى في هذا المبحث: حيث كان ـ أحياناً ـ يقف ليقارن بين سورة وسورة: سورة الأنعام وسورة الأعراف[٤] وسورة يونس وسورة هود[٥]، وسورة الرعد وسورة فاطر[٦] وسورة الفيل وسورة قريش[٧].

---

(١) انظر تفصيل هذه الألوان في الظلال ١: ٣٥٧ ـ ٣٥٩.

(٢) الظلال ٢: ٨٣٣.

(٣) الظلال ٦: ٣٨٠٠.

(٤) الظلال ٣: ١٢٤٤ ـ ١٢٤٥.

(٥) الظلال ٤: ١٨٤٤.

(٦) الظلال ٥: ٢٩١٨.

(٧) الظلال ٦: ٣٩٨٣.

ففي مقارنته بين سورتي الأنعام والأعراف، بيَّن أن موضوع كل منهما هو العقيدة. ولكنهما تفترقان في الجانب الذي تعرض كل منهما العقيدة من خلاله. فسورة الأنعام تعرض العقيدة في مجالها النظري التقريري. وسورة الأعراف تعرض العقيدة في مجالها الحركي الواقعي. فتكمل الأعراف موضوع الأنعام بصورة موضوعية متناسقة.

سورة الأنعام «تعالج العقيدة في ذاتها، وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها..» وسورة الأعراف «تأخذ طريقاً آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر.. إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها.. مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى.. وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها..»[1].

ونتج عن تمييز كل منهما في المجال الذي تعرضه، تميزها في طبيعة التعبير: «فالتعبير في كل سورة يناسب منهجها في عرض الموضوع. وبينما يمضي السياق في الأنعام في موجات متدافعة، وبينما تبلغ المشاهد دائماً درجة اللألاء والتوهج والالتماع، وتبلغ الإيقاعات درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع... إذا السياق في الأعراف يمضي هادىء الخطو، سهل الإيقاع، تقريري الأسلوب. وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد. خطوة خطوة، ومرحلة مرحلة، حتى تؤوب! وقد يشتد الإيقاع أحياناً في مواقف التعقيب، ولكنه سرعان ما يعود إلى الخطو الوئيد الرتيب!»[2].

ويرقى سيد إلى أفق جديد في بيان الوحدة الموضوعية من خلال تعريفه بالسور حيث يقارن بين سورتين وسورتين، ويبين أوجه الشبه بين المجموعتين وأوجه التميز: قارن بين الأنعام والأعراف من جهة، وبين يونس وهود من جهة أخرى. فرغم أن لكل سورة «شخصيتها الخاصة وملامحها المميزة» إلا أنه لاحظ أوجهاً للتشابه وأوجهاً للاختلاف بينهما. فسورتا الأنعام ويونس تتشابهان في أمور كثيرة، وسورتا الأعراف وهود تتشابهان كذلك. ويبين أوجه

---

(١) الظلال ٣: ١٢٤٤.

(٢) الظلال ٣: ١٢٤٥.

الشبه والاختلاف بين السور الأربع بقوله: «والعجيب أن هناك شبهاً كبيراً بين هاتين السورتين (يونس وهود) وهاتين (الأنعام والأعراف) في الموضوع وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك!» وبعد أن يشير إلى طريقة كل من الأنعام والأعراف في عرض العقيدة، والمجال الذي تعرضها من خلاله. يشير إلى هذا في يونس وهود: «كذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود.. في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضاً. إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة في الإيقاع، وسرعة وقوة في النبض، ولألاء شديد في التصوير والحركة.. بينما تمضي سورة يونس في إيقاع رخي، ونبض هادىء وسلاسة وديعة.. فأما هودفهي شديدة الشبه في الأعراف موضوعاً وعرضاً وإيقاعاً ونبضاً.. ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة، بعد كل هذا التشابه والاختلاف...»[1].

وسيد حريص على بيان التناسق والتناسب بين دروس السورة الواحدة، وإظهار الربط بينها، ونكتفي بمثال صريح دال في ذلك. فعندما فسر الآيات ٣٦ ـ ٤٣ من سورة النساء اعتبرها درساً خاصاً، ووحدة موضوعية متناسقة، وحرص على ربطها بموضوع سورة النساء العام، وبالآيات قبلها... فقال: «هناك أكثر من مناسبة واحدة، تربط بين مطلع هذا الدرس، وبين محور السورة كلها، وموضوعاتها الأساسية من ناحية، وبينه وبين موضوعات الدرس السابق في هذا الجزء من ناحية أخرى»[2].

وبعد ما بين الربط وأظهر أكثر من مناسبة في ذلك قال: «حلقات متماسكة بعضها مع بعض. ومع الدرس السابق. ومع محور السورة كذلك»[3].

السورة وحدة موضوعية، بدروسها ومقاطعها وآياتها وعباراتها، يظاهر بعضها بعضاً. وبيان هذا التناسق والربط إنما هو اجتهاد ناتج عن التأمل

---

(١) الظلال ٣: ١٧٤٥ ـ ١٧٤٦ وانظر الظلال ٤: ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤.
(٢) الظلال ٢: ٦٥٧ ـ ٦٥٨.
(٣) الظلال ٢: ٦٥٨.

والتذوق بمقدار ما يفتح الله به على صاحبه. ولذلك يقرر سيد أن الله فتح عليه في هذا. وبيّن هذه الوحدة الموضوعية في كل السورة القرآنية: (تبدو السورة وحدة متناسقة، يظاهر بعضها بعضاً، وذلك مع ما هو معلوم من أن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادراً، وأن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متتالية تواليها في المصحف. ولكن ترتيب هذه الآيات في السور ترتيب توقيفي. فلا بدّ من حكمة في ترتيبها على هذا النسق. وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السور التي عرضناها، في تماسك بنيان السور، واتحاد الجو والظلال في كل سورة.. والعلم بعد ذلك لله. إنما هو اجتهاد. والله الموفق إلى الصواب..)[1].

ويعتبر هذا دليلاً من أظهر الأدلة على مصدر القرآن، وأنه من عند الله، فأَنْ تبقى السورة «مفتوحة» لسنوات قد تتعدى العشر، ومع ذلك يظهر التناسق والصلة والربط بين آياتها التي نزلت سابقاً، وتلك التي نزلت بعدها على دفعات. فلا يكون هذا إلا لكلام الله في كتاب الله...

ويجب أن أشير - في ختام هذا المبحث - إلى أن بيان سيد للوحدة الموضوعية في السور، وإظهار التناسب في السياق القرآني، لم يكن يتم بسهولة في غالب الأحيان، وإنما يسبقه إطالة الوقفة، وطول التأمل، وإعمال النظر، وإشراك قوى النفس ومنافذ الإدراك، وتكرار المحاولة.. فأحياناً يدرك هذا بسهولة، وأحياناً يبذل جهداً أكثر، وأحياناً تستمر وقفته شهوراً، وتزيد في بعض الأحيان حتى تصل سنوات، ونكتفي بهذا المثال الواضح في الظلال والذي أطلعنا فيه سيد على ما بذل في سبيل الوقوف على الربط والتناسق من جهد ومعاناة.

استوقفته الآيات ٢٢١ - ٢٤٢ من سورة البقرة. والتي تمثل درساً خاصاً بأحكام الأسرة في الإسلام، وبخاصة بعض أحكام الزواج والمعاشرة والإيلاء والطلاق والخلع، والعدة والنفقة والمتعة والرضاعة والحضانة، التي عرضت في اثني عشر حكماً.

---

(١) الظلال ٤: ٢١٤٧.

والذي استوقفه هو ورود آيتين تبينان حكم الصلاة في الخوف والأمن! حيث قال تعالى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[1].

فما هو سر ورودهما أثناء آيات الأسرة، والصلاة شعيرة تعبدية والأسرة أحوال شخصية! يبدو هذا غير متناسق للوهلة الأولى!

ولكن أنىّ لسيد أن يترك هذا دون بيان الرابط، والوقوف على سر السياق، والحديث عن التناسب والوحدة الموضوعية!!.

وقف وأطال الوقفة، وقلَّب الفكر وأمعن النظر، ولكن لم يقف على سر ذلك، فاستنجد بالقراء كي يسعفوه بآرائهم، ووافوه بالكثير! ولكن السر بقي خافياً، فوعد القراء بأن بين لهم هذا في طبعة تالية، إذا وقف عليه، وبعد سنوات زادت على سبع فتح الله عليه بما كان خافياً، ووفى بوعده مع القراء، وأطلعهم عليه في الطبعة المنقحة.

قال في الطبعة الأولى من الظلال «أشهد أني وقفت أمام هذه النقلة طويلاً، لا يفتح عليَّ في سرِّها، ولا أريد أنا أن أتمحل لها، ولا أقنع كل القناعة بما جاء في بعض التفاسير عنها: من أن إدخال الحديث عن الصلاة في جو الحديث عن الأسرة إشارة إلى الاهتمام بأمرها، والتذكير بها حتى لا تُنسى...

لقد بقيت ستة أشهر أو تزيد لا أجاوز هذه النقلة، ولا أمضي وراءها، لأن سرها لم يكشف لي كشفاً يستريح ضميري إليه، وأشهد أنه لم يسترح بعد لما اهتديت حتى اللحظة إليه...».

وبعد أن يورد ما اهتدى إليه يقول: «ولكنني ـ كما قلت مخلصاً ـ لا أستريح الراحة الكافية لما اهتديت إليه. فإذا هُديت إلى شيء آخر، فسأبينه

(١) البقرة: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

في الطبعة التالية، وإذا هدى الله أحداً من القراء فليتفضل فيبلغني مشكوراً بما هداه الله. . . . »[1].

واستجاب له القراء وأخبروه بما لديهم، لكنه لم يرتح له لأن ذلك كله لا يعلل ورودها في هذا السياق[2].

وبعد طول تأمل ونظر وتفكر، وبعد معاناة وجهد، وبعد سنوات عديدة، فتح الله عليه بإدراك السر في هذا، وهداه إليه، فبينه في الطبعة المنقحة. وهو أنها كلها عبادة لله، وتعتبر توسيعاً لآفاق العبادة في الإسلام: فالصلاة عبادة، وأحكام الأسرة عبادة. . . (وتندمج عبادة الصلاة في عبادات الحياة، الاندماج الذي ينبثق من طبيعة الإسلام، ومن غاية الوجود الإنساني في التصور الإسلامي. ويبدو السياق موحياً هذا الإيحاء اللطيف. . . إن هذه عبادات. وطاعة الله فيها من جنس طاعته في الصلاة. والحياة وحدة. والطاعات فيها جملة. . والأمر كله من الله. وهو منهج الله للحياة. . .)[3].

وبذلك اطمأن إلى ما فتح الله به عليه، ووجد به الطريق إلى الربط والتناسب والوحدة الموضوعية المعجزة في هذا الكتاب المعجز.

ويحمل هذا المثال في عباراته العديد من الإيحاءات والدلالات على نفسية سيد وتواضعه، وصلته بكتاب الله، ومنهجه في تفسيره، وطريقته في بيان الوحدة السارية في نصوصه وموضوعاته، وأثر المفتاح الحركي والمنهاج الحركي الذي التزمه في الطبعة المنقحة من الظلال. حيث أدرك به مهمة القرآن العملية، وأغراضه الأساسية، إدراكاً جعله وسيلة إلى بيان التناسق والانسجام بين موضوعات القرآن، والربط المحكم بين نصوصه.

ولئن فتح الله على سيد بإدراك السر والرابط بين نصوص القرآن ـ بعد فترة زمنية طويلة ـ كما في المثال السابق، فقد وقف مرة حائراً في بيان

---

(1) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ٢: ٨٤ ـ ٨٥.

(2) الظلال ـ الطبعة الأولى ـ ٢: ٨٥ حاشية.

(3) الظلال ١: ٢٣٨ مع ملاحظة الحاشية.

التناسب في آية من القرآن الكريم، ولم يخرج برأي مقبول ولا نتيجة مريحة، فأعلن عجزه ومضى في تفسير ما بعدها!

وهو الموطن الوحيد في الظلال. وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعموا، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين..﴾[1].

والذي استوقفه في الآية هو تركيبها ودلالته، حيث كررت التقوى مع الإيمان والعمل الصالح مرة ومع الإيمان مرة، ومع الإحسان مرة.

اطلع على تعليلات المفسرين، فلم يجد فيها ما تستريح إليه نفسه.. وأثبت في الطبعة الأولى من الظلال تعليلاً لم يرتح إليه، وتراجع عنه في الطبعة المنقحة.. وأحسن تعليل وجده عند إمام المفسرين أبي جعفر ابن جرير الطبري، ولكنه ليس مقنعاً ولا شافياً، ولم يرتح له الارتياح الكامل... وبعد تفكير طويل استمر ما يقارب عشر سنوات أعلن عجزه عن تفسير مقنع شافٍ مريح، لأن الله لم يفتح عليه في ذلك.. فقال «وأنا اللحظة لا أجد في هذا القول [قوله في الطبعة الأولى] ما يريح أيضاً... ولكنه لم يفتح عليّ بشيء آخر.. والله المستعان..»[2].

كان بيان الوحدة الموضوعية في القرآن، وإظهار التناسب في سوره وآياته، قاعدة من قواعد منهجه في التفسير، وأداة من أدواته فيه، وهدفاً من أهدافه منه... وقد نجح في ذلك كله نجاحاً كبيراً، جعله في طليعة المفسرين قديماً وحديثاً...

---

(١) المائدة: ٩٣.

(٢) انظر الظلال ٢: ٩٧٨ ـ ٩٧٩.

المبحث الثالث عشر

«البعد الواقعي للنصوص وعموم دلالتها»

الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان، والقرآن ـ رغم نزوله في زمان خاص ومكان خاص ـ إلا أنه قادر على العمل في كل زمان ومكان. وآياته الكريمة التي نزلت على رسول الله ﷺ ـ والتي أدت مهمتها وأغراضها في جيل الصحابة الفريد مستعدة للعمل في كل وقت، والتأثير في كل بيئة، وأداء مهمتها في كل جيل. ولا غرابة في هذا فإن الله الذي قدَّر لكتابه الاستمرار والحفظ حتى قيام الساعة، قد هيأ له من الأسباب ما يضمن له الاستمرار والفاعلية والتأثير.

والمفسرون متفقون على هذه السمة للقرآن، وهذه الخصيصة المعجزة لنصوصه، وحتى الآيات التي نزلت لأسباب وحوادث معينة حملوها على عموم الألفاظ، واعتبروا تلك الآيات عامة في دلالتها، وتنطبق على الحوادث والأحداث المشابهة لسبب النزول، ما لم تقم قرينة في الآية تقصر الدلالة على ذلك السبب وتمنع من عمومها، وهي نصوص قليلة. ولذلك اتفق المفسرون على قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

ومن المعروف أنه لم يخل قرن في التاريخ الإسلامي من مفسرين لكتاب الله، ولم يخل عصر من عصور المسلمين من علماء فسروا كتاب الله حسب اختصاصاتهم وثقافاتهم، وحاجات عصرهم وانتماءاتهم، ولذلك نجد التفسير متسماً بسمة عصر المفسر وثقافته، من حيث نوع الثقافات ومستواها، وبثقافة المفسر نفسه من حيث لونها وتعمقه فيها. ولذلك فإن من أراد أن

يؤرخ لحالة المسلمين الثقافية والاجتماعية، والاعتقادية والأخلاقية، والفقهية والمذهبية، فإنه يستطيع أن يستخرج الملامح العامة لتلك الحالة في كل عصر من خلال دراسته الفاحصة لتفاسير ذلك العصر! ولا غرابة في ذلك فإن للقرآن مهمة عملية حركية، ولنصوصه صفة الحياة والحيوية، ولدلالاته صفة العموم والاستمرار، وهو من ثم حي فاعل مؤثر، واقعي إيجابي، ينطبق على كل حالة، ويصلح لكل بيئة، ويجد فيه المسلمون ـ على اختلاف ألوان ومستويات ثقافاتهم ـ ما يريدون. فهو كتاب الله الكريم المعجز «لا يشبع منه العلماء، ولا يخلِق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»[1].

وقد لاحظ سيد قطب هذه السمة للقرآن، وهذه المهمة العملية له، وهذه الطبيعة المعجزة لنصوصه، فجعلها قاعدة من قواعد منهجه في التفسير، ومنطلقاً أساسياً له، وهو يفسر آيات كتاب الله.

لم يقصر سيد الآيات على زمن نزولها فقط، ولم يجعل دلالتها خاصة بأقوام مخصوصين أو زمان ومكان محددين. ولكنه اعتبر دلالاتها عامة، ومعانيها شاملة، تنطبق على كل زمان ومكان. كان يحرر تلك النصوص ودلالاتها من قيد الزمان والمكان والتخصيص بهما أو بأحدهما ـ إلا ما ورد مقيداً بذلك خاصاً به ـ وبذلك تكون للنصوص حياة وحيوية، ومهمة عملية حركية واقعية جدية، وتتسع المساحة التي تتحرك عليها، والمجالات التي تشملها، كما يمنحها «بُعداً واقعياً» في انطباقها على الواقع المعاصر الذي نعيشه، ومعالجتها لأحداثه، وتوجيهها لأموره. بل كان حريصاً ـ في الظلال ـ على التعريج على الواقع المعاصر، والنظر فيه بمنظار ـ القرآن ومعالجته على

(١) جزء من حديث رواه الدارمي والترمذي ـ في باب: ما جاء في فضل القرآن ـ عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ. وقال الترمذي هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال وقال القاضي ابن العربي في عارضة الأحوذي: «حديث الحارث لا ينبغي أن يعول عليه». صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ١١: ٣٠ ـ ٣١ طبعة الصاوي.
والحديث ـ وإن كان ضعيفاً من جهة السند ـ معناه صحيح، وينطبق على القرآن. فأوردناه لصحة معناه للاستشهاد لا للاستدلال.

هديه، وبيان ارتباط دلالات الآيات به، وشمولها له، وهذا مما منح الظلال حياة وحيوية، وجعل له مهمة واقعية، وهدفاً حركياً، كما أظهر (بعداً) جديداً للقرآن وإعجازه وهو (الواقعية الحركية) أظهر سمات القرآن الكريم.

كان سيد قطب يلتفت إلى ناحيتين ـ وهو يفسر الآيات ـ تلبيتها لحالات واقعية في المجتمع الإسلامي الأول، أو معالجتها لمشكلات واقعية فيه، ثم عموم دلالتها وانطباقها على الحالات والمشكلات المشابهة، وتحررها من قيد الزمان والمكان. فلما فسر أحد دروس سورة البقرة ـ وهو الذي يضم الآيات: ١٦١ ـ ١٧٤ التفت إلى هاتين الناحيتين فقال: (ومع أن التوجيهات التي وردت في هذا الدرس تعد دستوراً دائماً غير مقيد بزمن ولا بملابسات معينة، إلا أنه لا يفوتنا أن نلمح من ورائه أنه جاء تلبية لحالات واقعة كانت النصوص تواجهها في الجماعة المسلمة يومذاك ـ كما أنها يمكن أن تواجهها في أي مجتمع مسلم فيما بعد ـ)[١].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . ﴾[٢] وذكر سبب نزولها من كيد اليهود وإيقاعهم الفتنة بين المسلمين، أشار إلى عموم دلالة الآية، وتحررها من قيد الزمان والمكان: «على أن مدلول الآية أوسع مدى من هذه الحادثة. فهي تشي بأنه كانت هناك حركة دائبة من اليهود لتمزيق شمل الصف المسلم في المدينة، وإثارة الفتنة والفرقة بكل الوسائل. . وهو يشي بشدة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من كيد اليهود في المدينة، ومن بذرهم لبذور الشقاق والشك والبلبلة باستمرار. . . وهو دأب يهود في كل زمان وهو عملها اليوم وغداً في الصف المسلم، في كل مكان. . »[٣].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ـ غير أولي الضرر ـ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. . . ﴾[٤] أشار

---

(١) الظلال ١ : ٣٠٤.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) الظلال ١ : ٤٤٣ باختصار.
(٤) النساء: ٩٥.

إلى الحالة الواقعية الخاصة التي واجهها هذا النص في المجتمع الإسلامي في المدينة، ثم التفت إلى دلالته فقال: (إن هذا النص كان يواجه هذه الحالة الخاصة، ولكن التعبير القرآني يقرر قاعدة عامة يطلقها من قيود الزمان، وملابسات البيئة، ويجعلها هي القاعدة التي ينظر الله بها إلى المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان. . . قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد وبين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم. .)[1].

وعند حديثه عن تخبط الجاهلية في تشريعاتها في شأن التحليل والتحريم، وعن مواجهة القرآن لها وتفنيده لآرائها ورده عليها، حرر هذا الموقف من قيد الزمان والمكان وعممه على كل الجاهليات فقال: «وإننا لنبخس القرآن قدره، إذا نحن قرآناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة. ومواجهة للواقع المنحرف دائماً، ورده إلى صراط الله المستقيم. . .»[2].

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[3] أورد طرفاً من اختلافات المفسرين السابقين حول مدلول هذه الآية: هل هي خاصة بالصلاة المكتوبة فقط؟ أم أنها خاصة بالصلاة على عمومها مكتوبة وغير مكتوبة؟ وأورد روايات تشهد لهذا الرأي وذاك. ثم عقب على ذلك بترجيحه الذي ينطلق من القاعدة التي نتحدث عنها ـ البعد الواقعي للنصوص وعموم دلالتها ـ فقال: «ونحن لا نرى في أسباب النزول التي وردت ما يخصص الآية بالصلاة المكتوبة وغير المكتوبة ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يخصصه شيء، فالاستماع إلى هذا القرآن والإنصات له ـ حيثما قرىء ـ هو الأليق بجلال هذا القول، وبجلال قائله سبحانه. . .)[4].

---

(١) الظلال: ٧٤ وانظر الظلال في ٢: ٩٨٤ و ٢: ٩٩٠.
(٢) الظلال ٣: ١٢١٩.
(٣) الأعراف: ٢٠٤.
(٤) الظلال ٣: ١٤٢٥.

ولما فسر سورة الممتحنة أورد قصة حاطب بن أبي بلتعة وإرساله رسالته إلى أهل مكة، ووقف وقفة لطيفة استخرج منها دلالات تربوية وحركية وعقيدية. والتفت إلى عموم النص القرآني الذي نزل بسبب الحادثة ـ وهو ما يعنينا هنا ـ فقال: «والحادث متواتر الرواية، أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخاري، ولا نستبعد صحة هذه الرواية. ولكن مضمون النص القرآني ـ كما قلنا ـ أبعد مدى، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذي تواترت به الروايات، بمناسبة وقوع الحادث، على طريقة القرآن. . .»[1].

وكما كان سيد قطب يحرر النص من قيود الزمان والمكان ويعمم دلالته لتشمل كل زمان ومكان، فقد كان مع النص القرآني على عمومه يُدخل فيه كل أفراده التي ينطبق عليها، والتي تندرج ضمن مدلوله، لا يحده بواحد منها، ولا يقصره على بعضها دون البعض الآخر. ولذلك لم يكن يستقصي ذكر كل ما يدخل فيها ولا كل الجزئيات التي تنطبق عليها. وإذا ذكر بعض هذه الجزئيات أو الأفراد فإنما يذكرها من باب التمثيل فقط، وليس من باب الحصر والاستقصاء.

وهو في هذا يتميز عن كثير من المفسرين السابقين، الذين كانوا يوردون بعض من يشملهم النص ضمن مدلول النص، فيفهم القارىء أنه قاصر في دلالته عليها، فإذا ما أورد مفسر آخر بعضاً آخر، يقع القارىء في حيرة بسبب هذا الاختلاف الذي وقعوا فيه. مع أنه اختلاف ظاهري، وهم

---

(١) الظلال ٦: ٣٥٣٩.

وقد ورد في صحيح البخاري بعد روايته لقصة حاطب: «قال عمرو (ابن دينار راوي الحديث) ونزلت فيه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم ﴾ قال لا أدري الآية في الحديث أو قول عمرو. وقال: حدثنا علي (الحميدي) قيل لسفيان (الثوري) في هذا فنزلت: لا تتخذوا عدوي، قال سفيان: هذا في حديث الناس حفظته من عمرو (ابن دينار) ما تركت منه حرفاً، وما أرى أحداً حفظه غيري. .) والثلاثة رواة الحديث، وبهذا يظهر لنا سبب عدم جزم سيد قطب بأن الآيات نزلت في الحادثة، طالما أن الراوي نفسه لم يجزم بها: أنظر البخاري ٦: ١٨٦.

في الحقيقة متفقون، واختلافهم إنما هو «اختلاف تنوع» ـ كما قال ابن تيمية رحمه الله ـ وليس اختلاف تضاد، وكل أقوالهم صحيحة، وكل ما ذكروه يقع تحت مدلول النص، ما دام يدل عليه دلالة صحيحة مقبولة.

الفاسقون الذين ينقضون عهد الله في قوله تعالى: ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾[1] تنوعت أقوال بعض المفسرين السابقين في تعيين عهد الله الذي ينقضونه، فذكر أبو جعفر الطبري ـ على سبيل المثال ـ خمسة أقوال محتملة في تعيين العهد، ورجح واحداً منها واحتج له[2].

بينما هذا العهد عام ـ في رأي سيد ـ يُدخل فيه جميع أفراده، فالأولى أن يبقى على عمومه وأن لا يحدد بأحدها، «لقد جاء السياق هنا بهذا الإجمال، لأن المجال مجال تشخيص طبيعة وتصوير نماذج، لا مجال تسجيل حادثة أو تفصيل واقعة..! إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها، فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق فهو منقوض، «وعهد الله المعقود مع البشر يتمثل في عهود كثيرة: إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي.. وهو عهد الاستخلاف في الأرض الذي أخذه الله على آدم.. وهو عهوده الكثيرة في الرسالات لكل قوم أن يعبدوا الله وحده... وهذه العهود كلها هي التي ينقضها الفاسقون..)[3].

ونلاحظ أن سيد أتى بالنماذج الثلاثة لعهود الله من باب التمثيل لا من باب الاستقصاء أو التحديد.

وكذلك فهم سيد من عهد الله مع بني إسرائيل العموم﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم..﴾[4]إنه يحتمل أن يكون عهد الله لآدم ـ عليه السلام ـ كما يحتمل أن يكون العهد الكوني السابق على العهد مع آدم، وأن يكون العهد الخاص الذي قطعه الله لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وأن يكون العهد الخاص

---

(١) البقرة: ٢٧.

(٢) انظر تفسير الطبري ١: ٤١٠ ـ ٤١٥.

(٣) الظلال ١: ٥١ ـ ٥٢ باختصار.

(٤) البقرة: ٤٠.

الذي أخذه الله على بني إسرائيل عندما رفع فوقهم الطور. «إن هذه العهود جميعها إنْ هي إلا عهد واحد في صميمها. إنه العهد بين الباريء وعباده أن يصفوا قلوبهم له، وأن يسلموا أنفسهم كلها له. . .»[1].

الأمانات التي أمرنا الله أن نردها إلى أهلها عامة، والعدل الذي أمرنا أن نحكم به مطلق. في قوله تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به. . . ﴾[2].

ولذلك يقول سيد قطب (والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى. . الأمانة التي ناط الله بها فطرة الإنسان. . أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واختيار. . فهذه أمانة الفطرة الإنسانية. . .

ومن هذه الأمانة الكبرى، تنبثق سائر الأمانات، التي يأمر الله أن تؤدى: أمانة الشهادة لهذا الدين. . الشهادة له في النفس أولاً بمجاهدتها، والشهادة له بدعوة الناس إليه، والشهادة له بمحاولة إقراره في واقع الأرض. . .

ومن هذه الأمانات: أمانة التعامل مع الناس، ورد أماناتهم إليهم: أمانة المعاملات والودائع المالية. وأمانة النصحية للراعي والرعية. وأمانة القيام على الأطفال الناشئة. وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها. . وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالي الحياة على وجه الإجمال. . . . . فهذه من الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى ويجملها النص هذا الإجمال. .

فأما الحكم بالعدل بين «الناس» فالنص يطلقه هكذا، عدلاً شاملاً بين الناس جميعاً. . . .»[3].

---

(١) الظلال ١: ٦٦ ـ ٦٧ باختصار.

(٢) النساء: ٥٨.

(٣) الظلال ٢: ٦٨٨ ـ ٦٨٩ باختصار.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[1] لم يقصر الحياة في دعوة الرسول - ﷺ - على لون من الحياة أو نوع، ولم يحددها ببعض جزئياتها. ولكنها عامة شاملة مطلقة: «إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة وبكل معاني الحياة. .» وبعد ما سجل دلالتها العامة، ومعناها الشامل ذكر بعض أفرادها للتمثيل. فالحياة في عقيدة الإسلام وفي شريعته، والحياة في منهج الإسلام في الفكر والتصور، والحياة في دعوة الإسلام إلى القوة والعزة والاستعلاء. . . والحياة في الجهاد في سبيل الله. لذلك «فإن هذا الدين منهج حياة كاملة لا مجرد عقيدة مستسرة. منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وتترقى. ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها، وفي كل مجالاتها ودلالاتها. والتعبير القرآني يجمل هذا كله في كلمات قليلة موحية. . .»[2].

ولما تحدث سيد عن الحكمة من تشريع الاستئذان قبل الدخول إلى البيوت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها. . . ﴾[3] بين أنها الحفاظ على حرمة البيوت وأمنها وسكينتها، وحتى لا تنكشف العورات بالمفاجأة والمباغتة. والعورات في رأي سيد عامة كثيرة: «وهي عورات كثيرة، تعني غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة. . إنها ليست عورة البدن وحدها، إنما تضاف إليها عورات الطعام، وعورات اللباس، وعورات الأثاث، التي قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيوء وتجمل وإعداد. وهي عورات المشاعر والحالات النفسية، فكم منا يحب أن لا يراه الناس وهو في حالة ضعف يبكي لانفعال مؤثر، أو يغضب لشأن مثير، أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء. . .»[4].

ونتيجة لما سبق ذكره - من تحريره النصوص من قيود الزمان والمكان، وبيان عموم دلالتها وعدم قصر النص على بعض أفراده بل شموله لها كلها -

---

(1) الأنفال: ٢٤.
(2) الظلال ٣: ١٤٩٤ - ١٤٩٥.
(3) النور: ٢٧.
(4) الظلال ٤: ٢٥٠٨ - ٢٥٠٩.

كان سيد قطب حريصاً على تنزيل النصوص على الواقع المعاصر، وبيان انطباقها عليه، وشمولها له، ومعالجتها له، وبيانها لأحكامه، وأدائها هذا بحيوية معجزة ـ وهذا ناتج كذلك من المهمة العملية الحركية للقرآن ـ لذلك نجد النص القرآني ـ في الظلال ـ يتحرك على مساحة واسعة، ويتحرك في فترة زمنية متطاولة، وله «بعد واقعي» وعمل حركي حيوي.

إن هذا يعتبر من قواعد منهجه في التفسير، لأنه ينطلق من هذا المنطلق «الواقعي» للنصوص وينظر إليها بالمنظار «الواقعي» ويتعامل معها من هذه الزاوية الواقعية، ولهذا نجده يبين لنا أن لها مهمة واقعية. وبعداً واقعياً، ولعل هذا من الأسباب الجوهرية التي جعلت للظلال مكانة ومنزلة مرموقتين في العصر الحاضر، وأكسبته حيوية واقعية لدى الشباب الإسلامي.

والأمثلة على هذا كثيرة جداً في الظلال نكتفي ببعض النماذج للتمثيل:

لما سجل القرآن الكريم الإنكار على بني إسرائيل لأنهم لا يلتزمون بما يدعون الناس إليه ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟ أفلا تعقلون؟.. ﴾[1] نزّل هذا النص على الواقع المعاصر، وجعله شاملاً للذين يتاجرون بالدين من المعاصرين «.. إنه في إيحائه للنفس البشرية ولرجال الدين بصفة خاصة، دائم لا يخص قوماً دون قوم، ولا يعني جيلاً دون جيل.. إن آفة رجال الدين ـ حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة ـ أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه.. إن الكلمة لتنبعث فيه وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق.. عندئذٍ يؤمن الناس...»[2].

وفي تفسيره للآيات الأولى من سورة الأنعام (١ ـ ٣) التي تعرض دليلين على وجود الله وتوحيده سبحانه ـ وهما دليل الخلق ودليل الحياة ـ أشار

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) الظلال ١: ٦٨ باختصار.

إلى كون العرب المشركين لا ينكرون وجود الله لكن يجادلون في توحيده.

ثم انتقل للإشارة إلى الإلحاد المعاصر وسبب نشأته في أوروبا، وأنه لا يقوم على أسس منطقية. ثم عرج على ما تقوم به اليهودية العالمية في استغلالها هذا الإلحاد لتحقيق مطامعها، وتنفيذ مخططاتها على البشرية، وبين أن الإسلام هو الدين الذي استعصى على تشويههم وتحريفهم، وأنهم يئسوا من تحقيق ذلك، ولكنهم بذلوا جهوداً ضخمة، ومحاولات مستمرة لتحويله إلى شعائر ومشاعر لا صلة لها بالحياة الواقعية للمسلمين، والحيلولة دون فهمه والحركة به كما يريد الله، ولهذا يشنون حرباً شعواء لا إنسانية ضد حركات البعث الإسلامي في العالم الإسلامي لسحقها وإبادتها. . . . ولكنهم من شدة مكرهم وحيلهم، لا يحاربون هذه الحركات بأيديهم أو سلاحهم حتى لا يكتب لها النجاح والنصر والتأييد، لكن يحاربونها بأيدي وسلاح قوم من أبناء جلدتها يتكلمون بألسنتها، بسلاح الوطنية والقومية والثورية والحرية، ويهاجمون الأنظمة - التي أقاموها في الخفاء وأمدوها بعوامل البقاء - علناً بوسائل الإعلام حتى تنطلي الخدعة على الجماهير المستغفلة المستغلة المخدوعة، وينصرف الناس هذه المعركة لينشغلوا بقضايا فرعية جانبية.

وهذا التحليل السياسي الرائع، من أروع وأعمق ما كتبه سيد قطب في بيان حقيقة الأنظمة التي أقيمت في ديار المسلمين وارتباطها الخفي الدقيق المتين باليهود، وفي هذا تظهر موهبة من مواهبه الفريدة في التحليل السياسي الصادق المتزن[1].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون.. ﴾[2] - وبعد ما طبق هذا النص على الأمم السالفة - التفت إلى واقع الأمم المعاصرة، ونزَّل النصوص عليها، وكشف لنا أن لها بُعداً واقعياً حيوياً.

---

(١) انظر كلامه الرائع في الظلال ٢: ١٠٣١ - ١٠٣٤.

(٢) الأنعام: ٤٤.

وسجل ما رآه في أمريكا من انطباق الآية على أهلها، وفتح أبواب كل الخيرات والأرزاق هناك بلا حساب، وغرور القوم هناك بهذا الرخاء. كان يرى هذا رأي العين فيذكر هذه الآية ويتوقع سنة الله، ويكاد يرى خطواتها وهي تدب إليهم وهم غافلون.

أما تحقق سنة الله على أمم اليوم الكافرة وتعذيبه لها فهو يتمثل في العذاب النفسي، والشقاء الروحي والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي.. الذي تقاسي منه، والذي يكاد يغطي على كل ترفها ونعيمها.. وما بينها وبين زوالها إلا أن يقوم «الحق» في الأرض، متمثلاً بأمة ومجتمع ونظام وكيان...[1].

وعندما وقف أمام يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ من طلب العزيز له، ورفضه الخروج من السجن إلا بعد التحقيق وإظهار براءته، وكيف قاده استعلاؤه هذا إلى التمكين في الدنيا، التفت إلى كبار الموظفين من المعاصرين الذين «يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام ـ وهم أبرياء مطلقوا السراح ـ فيضعوا النير في أعناقهم، ويتهافتوا على نظرة رضى وكلمة ثناء، وعلى حظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء..» التفت إلى هؤلاء ودعاهم للاستفادة من عزة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ واستعلائه، ليحصلوا على عز وتمكين وكرامة في الدنيا وجنة الله في الآخرة[2].

وأشير ـ في ختام هذا المبحث ـ إلى تطبيق سيد قطب هذه القاعدة على النماذج الإنسانية في القرآن الكريم، حيث حرص على الإشارة إلى انطباقها على النماذج الإنسانية المعاصرة، التي نراها في واقعنا، ونتعامل معها في حياتنا، وكأن الآيات لم تنزل إلا فيها لكشفها وبيانها أمام الناس.

حديث القرآن عن المنافقين في البقرة، وعرضه لنماذجهم، إنما هو ينطبق على كل المنافقين على اختلاف الزمان والمكان، وعلى نماذجهم المكررة في أجيال البشرية جميعاً.. «ومن ثم نميل إلى مواجهة هذه

(١) انظر الظلال ٢: ١٠٩١ ـ ١٠٩٢.
(٢) الظلال ٤: ٢٠٠٥.

النصوص، كما لو كانت مطلقة من مناسبتها التاريخية، موجهة إلى هذا الفريق من المنافقين في كل جيل..»[1].

وقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾[2] مع قوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، والله رؤوف بالعباد﴾[3] يعرضان نموذجين معهودين في حياة الناس، مكرورين يراهما الإنسان في واقع الحياة. النموذج الأول المظلم: نموذج المنافق المرائي، ذلق اللسان، فظ القلب، شرس الطبع، شديد الخصومة، مفسود الفطرة.. والنموذج الثاني الصافي المنير: نموذج المؤمن خالص الإيمان، المتجرد لله، المرْخص لأعراض الحياة[4]..

وقوله: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين..﴾[5] ينطبق على النماذج البشرية ـ الممسوخة ـ المعاصرة كانطباقه على النماذج في فترات التاريخ السابقة، وكما ينطبق على النماذج في المستقبل.

وقد بين سيد انطباقه على المعاصرين، بعرض أدبي شاعري فقال: «وإن الإنسان ليصادف هذا الصنف من الناس بوصفه هذا وسمته وملامحه، فيرى كأنما يتجنب الرشد ويتبع الغي دون جهد منه ودون تفكير ولا تدبير....

وسبحان الله! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجيبة، ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصاً بارزاً حتى ليكاد القارىء

---

(١) الظلال ١: ٤٢.
(٢) البقرة: ٢٠٤.
(٣) البقرة: ٢٠٧.
(٤) الظلال ١: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.
(٥) الأعراف: ١٤٦.

يصيح لتوه: نعم. نعم. أعرف هذا الصنف من الخلق.. إنه فلان!! وإنه للمعنيّ الموصوف بهذه الكلمات!!!»[1].

البعد الواقعي للنصوص وعموم دلالتها، كان قاعدة من قواعد منهج سيد في التفسير، حرر فيه النصوص من قيود الزمان والمكان والأشخاص، وأعطاها دلالة تنطبق على كل زمان ومكان، ونزّلها على الواقع المعاصر، وبيّن انطباقها عليه ومعالجتها له....

---

(١) الظلال ٣: ١٣٧٢.

المبحث الرابع عِشر

بيان حكمة التشريع وتعليل الأحكام

لم يشرع الله لعباده من تشريع إلا وفيه الخير والمصلحة، لأنه يصدر عن حكمة ربانية شاملة، من إله ﴿ عليم حكيم ﴾[1].

وكل الأحكام التي شرعها الإسلام من عبادات ومعاملات وأنظمة وقوانين متضمنة للحكمة، ولا بدّ لنا أن نحاول الوقوف على تلك الحكم، لزيادة اليقين والاطمئنان. . .

وقد ذهب بعضهم إلى عدم جواز بيان الحِكَم في العبادات لأن «الأصل في العبادات التعبد، دون الالتفات إلى المعاني» وهذا صحيح، لكن هذا لا يمنع البحث عن الحكم والمعاني بعد الإسلام والتنفيذ والالتزام بها، فالقاعدة «الجامعة في العبادات أن نقوم بها طاعة لله، ولمحض العبودية، دون توقف على فقه أسرارها وحكمها ومعانيها، وإنْ كنا نؤمن بأن لها معاني وحكماً وأسراراً. .»[2] فبحثنا عن هذه المعاني والحكم والأسرار لا يتوقف عليه الالتزام بأداء العبادات وتطبيقها. . .

انطلق سيد قطب من هذا المنطلق في تفسير آيات التشريع والأحكام، لأن تلك الأحكام - عبادات أو معاملات أو قوانين وأنظمة - كلها إنما شرعت لحكمة، لأنها من إله حكيم، ولا بدّ أن ننظر إليها بهذا المنظار، ولا نتعالى أو نتعالم على الله ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله. . ﴾[3].

---

(١) يوسف: ٦.

(٢) شرح الأصول العشرين: ٣٠ - ٣١.

(٣) البقرة: ١٤٠.

وكانت تلك إحدى قواعد منهجه في التفسير، فقد حرص على الوقوف أمام آيات الأحكام، يعلل ويبين الحِكَم والأسرار والتوجيهات، وأحياناً يذكر أكثر من حكمة للأمر الواحد. . .

وحتى لا يساء فهم منهجه في بيان الحكم، ووقفاته التعليلية، ولا يساء تحويلها وتوجيهها والاستدلال منها، وحتى لا يساء استخدام هذه القاعدة في التعليل والتوجيه، ولا يخرج منها بنتائج خاطئة؛ حتى لا يحصل هذا كان يبين - في أكثر من موطن في الظلال - القواعد المنهجية المقبولة في التعليل وبيان الحكم، ويذكر الضوابط التي تضبط هذا الأمر ليبقى داخل الإطار الإسلامي المقبول.

الأوامر والفرائض في العبادات لا يعلقها سيد بما يظهر لنا من فوائدها، لأن لها مهمة تربوية، لذلك يقول: «إنني لا أميل إلى تعليق الفرائض والتوجيهات الإلٓهية في العبادات - بصفة خاصة - بما يظهر للعين من فوائد حسّية، إذ الحكمة الأصلية فيها هي إعداد هذا الكائن البشري لدوره على الأرض وتهيئته للكمال المقدر له في حياة الآخرة. . .»[1].

ونستطيع - من خلال دراستنا للظلال - أن نستخرج منه منهج سيد قطب في تعليل الأحكام وبيان حكمتها وحكمها، وأن نلاحظ الضوابط التي وضعها لذلك.

وأهم تلك الضوابط هي:

١ - موقف المسلم تجاهها هو التسليم والاطمئنان، والتنفيذ والتطبيق، طالما هي أحكام من الله، ولا بدّ أن يتلقى أوامر الله بالثقة والقبول والتصديق، وينظر لها بميزان قوله تعالى: ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله. . ﴾[2] ومن ثم لا يجوز لمسلم أن يعلق التزامه بها بوقوفه على حكمتها، أو أن يخضعها لمقاييس عقله، أو أن يجعل لعقله - البشري القاصر الجاهل - «سلطة

(١) الظلال: ١٦٧.

(٢) انظر الظلال ٢: ٧٢٢ - ٧٢٣.

الحكم النهائية في أمر الدين كله. ويجعل منه ندا لشرع الله. بل هو المسيطر على شرع الله.».

إن دور العقل المؤمن هو «إدراك الحقيقة الأولى: حقيقة أن هذا الدين من عند الله...» وهي حقيقة ضخمة وللعقل دور عظيم فيها، ومجال واسع، وتكريم له أي تكريم. فإذا ما قام بدوره المأمون هذا أصبح من المنطق العقلي نفسه أن يسلم هذا العقل «بعد ذلك تلقائياً بكل ما ورد في هذا الدين - لا يهم عندئذٍ أن يدرك حكمته الخفية أولاً يدركها، فالحكمة متحققة حتماً ما دام من عند الله، ولا يهم عندئذٍ أن يرى «المصلحة» متحققة فيه في اللحظة الحاضرة، فالمصلحة متحققة حتماً ما دام من عند الله..»[1].

٢ - ويتفرع عن هذا أمر آخر، وهو أن المؤمن لا يعلق إيمانه بأوامر الله والتزامه بها وتطبيقه لها، بوضوح حكمتها وظهورها، وإدراكه لها «بل يلتزم بها أولاً، ثم يحاول بعد ذلك التعليل والتوجيه ليطمئن قلبه فهذه الحكم والتعليلات لا تنشىء إيماناً ولا تُحدِث يقيناً، ولكنها تعمق الإيمان وتُقوي اليقين ﴿قال أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي...﴾

وقد نقلنا قبل قليل قول سيد قطب «إنني لا أميل إلى تعليق الفرائض والتوجيهات الإلَهية في العبادات - بصفة خاصة - بما يظهر للعين من فوائد حسّية..».

ولما تحدث عن الحكمة من تحريم لحم الخنزير أشار إلى اكتشاف العلم الحديث «الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة» في لحمه ودمه وأمعائه، ورد على زعم البعض بأن وسائل الطهو الحديثة كفيلة بالقضاء عليها، بأن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة. فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف

---

(١) الظلال ١: ١٥٦.

بعد عنها؟ أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها[1].

٣ ـ عدم الجزم بأن ما أدركه هو الحكمة المقصودة من الأمر والتشريع، لأن هذا الإدراك ناتج عن العقل البشري القاصر، والعقل ليس حاكماً على النص، ويكون هذا الجزم بالحكمة تألٍّ على الله، وتعليق أوامره بأسباب وعلل قد تكون غير مرادة. ولهذا يقول سيد في بيان الحِكَم من الكف عن الجهاد في الفترة المكية، واضعاً الضوابط قبل بيانها «أما حكمة هذا فلسنا في حل من الجزم بها. لأننا حينئذٍ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض على أوامره أسباباً وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية أو قد تكون، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها...»[2].

٤ ـ عدم تقييد النص بالحكمة التي أدركها، ونفي ما عداها، ـ كما يفعل بعض من يندفعون في تعليل الأحكام ـ فادعاء استقصاء الحكم ادعاء فارغ ومنهج غير سليم، ولكن يقدم ـ بين يدي الحكمة ـ بأن هذا ما أدركه بعقله البشري القاصر، وأنه مجرد احتمال لا جزم وتحديد، وأنه قد يكون هناك حكم أخرى لم يهتد إليها، فهذا هو اللائق بالإنسان الذي يتفق مع احترامه لعقله، وتأدبه مع الله.

«إن بعض الباحثين في حكمة التشريعات والعبادات الإسلامية، يندفعون أحياناً في تعليل هذه الأحكام، بصورة توحي بأنهم استقصوا هذه الحكمة، فلم يعد وراء ما استقصوه شيء! وهذا منهج غير سليم في مواجهة النصوص القرآنية والأحكام التشريعية، ـ ما لم يكن قد نص على حكمتها نصاً ـ.. وأولى أن نقول دائماً: إن هذا ما استطعنا أن نستشرفه من حكمة النص أو الحكم. وأنه قد تكون دائماً هنالك أسرار من الحكمة لم يؤذن لنا في استجلائها.! وبذلك نضع عقلنا البشري ـ في مكانه ـ أمام النصوص

---

(١) الظلال ١ : ١٥٦.
(٢) الظلال ٢ : ٧١٣.

والأحكام الإلهية. بدون إفراط ولا تفريط. . .»[1].

بهذه الضوابط نظر سيد في الأحكام والعبادات، وبين الحكم فيها، وعلى هذا المنهج سار في طريقه معللاً موجهاً، فوقف أمام النصوص القرآنية، وسجل الحكم فيها. . وعرضها على القارىء ليزيد إيمانه ويطمئن قلبه. .

التيمم - مثلاً - ما هي الحكمة منه؟ وتبعاً لذلك ما هي الحكمة من الوضوء والغسل؟ إنها ليست «النظافة» لأن البديل عنهما - وهو التيمم - لا يحقق النظافة، . . . «يبدو أن حكمة الوضوء أو الغسل، ليست هي «مجرد» النظافة وإلا فإن البديل من أحدهما أو من كليهما، لا يحقق هذه الحكمة، فلا بدّ إذن من حكمة أخرى في الوضوء أو الغسل، تكون متحققة كذلك في التيمم. ولا نريد نحن أن نقع في الغلطة نفسها فنجزم! ولكننا نقول فقط: إنها - ربما - كانت هي الاستعداد النفسي للقاء الله بعمل ما، يفصل بين شواغل الحياة اليومية العادية، وبين اللقاء العظيم الكريم. . ومن ثم يقوم التيمم - في هذا الجانب - مكان الغسل أو مكان الوضوء.

ويبقى وراء هذا علم الله الكامل الشامل اللطيف، بدخائل النفوس، ومنحنياتها ودروبها التي لا يعلمها إلا اللطيف الخبير. . ويبقى أن نتعلم شيئاً من الأدب مع الجليل العظيم العلي الكبير. . .»[2].

والقبلة كشرط من شروط الصلاة، ما هي الحكمة من اشتراطها؟ إن لها دلالة تربوية وحركية ودعوية: «إن القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة. فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز. رمز للتميز والاختصاص. تميز التصور وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان»[3]. ولأجل هذه الحكمة يلتفت سيد إلى واقع الأمة المسلمة المعاصر، ليدعوها إلى التميز والتفرد، وأن تعي هذه الحكمة

---

(١) الظلال ٢ : ٦٦٩.

(٢) الظلال ٢ : ٦٧.

(٣) الظلال ١ : ١٢٩.

الدعوية والدلالة الحركية من هذه الجزئية التي تتعلق بشعيرة تعبدية!!.

ولقد كان المسلمون يصلُّون أولاً إلى المسجد الحرام، فصدر التوجيه لهم بالتحول إلى المسجد الأقصى، وبعد ستة عشر شهراً - أو سبعة عشر شهراً - نزل الوحي على رسول الله - ﷺ - بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام. فما هي الحكمة من هذه التحويلات؟

الحكمة منها تربوية وحركية. بين سيد ذلك بقوله: « لقد كان تحويل القبلة أولاً عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها آية في هذا الدرس: ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله... ﴾[1] فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي.. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواعية الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه...

.. حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول - ﷺ - وفي الوقت ذاته، بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلٓهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام. ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هي حقيقة الإسلام...)[2].

والدرس المتعلق بأحكام الأسرة في الإسلام من زواج ومعاشرة وإيلاء وطلاق وعدة ونفقة ومتعة ورضاعة وحضانة - الآيات ٢٢١ - ٢٤٢ من سورة البقرة - وقف سيد قطب يبين الحكم من هذه الأحكام والتشريعات:

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) الظلال ١: ١٢٦ - ١٢٧.

تحريم زواج المسلم بمشركة: «لأنه لا بدّ من توحد القلوب، والتقائها في عقدة لا تحل، والعقيدة الدينية هي أعمق وأشمل ما يعمُر النفوس..»[1] وخالفت الكتابية المشركة في هذا الحكم، فجاز الزواج منها مع الكراهة ـ كما هو الراجح ـ «لأن المسلم والكتابية يلتقيان في أصل العقيدة في الله..»[2] وهي أنها تؤمن بكتاب سماوي يمكن محاكمتها إليه...

أما زواج الكتابي من مسلمة فهو محظور: (لأن الأطفال يدعَوْن لآبائهم بحكم الشريعة الإسلامية. كما أن الزوجة هي التي تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه وأرضه بحكم الواقع..)[3].

ومباشرة الزوجة أثناء الحيض محرمة (لأن المباشرة في تلك العلاقة وسيلة لا غاية، وسيلة لتحقيق هدف أعمق في طبيعة الحياة.. والمباشرة في الحيض قد تحقق اللذة الحيوانية ـ مع ما ينشأ عنها من أذى، ومن أضرار صحية مؤكدة للرجل والمرأة سواء ـ ولكنها لا تحقق الهدف الأسمى، فضلاً على انصراف الفطرة السليمة النظيفة عنها في تلك الفترة[4].

وأما الإيلاء ـ وهو يمين الرجل أن لا يطأ زوجته مطلقاً أو لمدة محدودة ـ فقد وضع الإسلام له أحكاماً: فلم يحرمه «منذ البداية، لأنه قد يكون علاجاً نافعاً في بعض الحالات للزوجة الشامسة المتكبرة المختالة بفتنتها وقدرتها على إغراء الرجل وإذلاله أو إعناته.. كما قد يكون فرصة للتنفيس عن عارض سأم، أو ثورة غضب تعود بعده الحياة أنشط وأقوى..» وهذا العارض أو الثورة قد يوجد أثناء الحياة الزوجية، لأن هناك حالات نفسية واقعة تلم بنفوس بعض الأزواج، بسبب من الأسباب..).

ولكن الإسلام لم يترك الرجل مطلق الإرادة في الإيلاء «لأنه قد يكون باغياً في بعض الحالات.

وكان الحد الأقصى للإيلاء (أربعة أشهر، وهذا التحديد قد يكون

---

(١) الظلال ١: ٢٣٩.
(٢) الظلال ١: ٢٤٠.
(٣) الظلال ١: ٢٤١.
(٤) الظلال ١: ٢٤١.

منظوراً فيه إلى أقصى مدى الاحتمال، كي لا تفسد نفس المرأة تحت ضغط حاجتها الفطرية إلى غير رجلها الهاجر. . .)[1].

والعدة بعد الطلقة الأولى والثانية، وفترة المراجعة فيها لأنه (لا بدّ من فترة معقولة يختبر فيها الزوجان عواطفهما بعد الفرقة فقد يكون في قلوبهما رمق من ود يستعاد، وعواطف تستجاش. . .)[2].

وجعل الله حق المراجعة بيد الزوج (لأنه هو الذي طلق، وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطي حق المراجعة لها هي، فتذهب إليه وترده إلى عصمتها. . .)[3].

وحدد الطلاق بثلاث لأن الطلقة الأولى محك وتجربة، فأما الثانية فهي تجربة أخرى وامتحان أخير، فإن صلحت الحياة بعدها فذاك. وإلا فالطلقة الثالثة دليل على فساد أصيل في حياة الزوجية لا تصلح معه حياة. .)[4].

وأحياناً كان سيد يطيل الوقفة أمام حكَم بعض التشريعات، ويطول نفسه في بيانها، وبخاصة تلك التي كثر حولها الكلام. وطال الجدل في هذا الزمان. مثل تعدد الزوجات. فقد قدم بين يدي بيانه لحكمة تلك الرخصة فيه: (هذه الرخصة (التعدد) ـ مع هذا التحفظ (تركه عند خوف العجز عن العدل) ـ يحسن بيان الحكمة والصلاح فيها. في زمان جعل الناس يتعالمون فيه على ربهم الذي خلقهم، ويدَّعون لأنفسهم بصراً بحياة الإنسان وفطرته ومصلحته فوق بصر خالقهم سبحانه! ويقولون في هذا الأمر وذاك بالهوى والشهوة وبالجهالة والعمى، كأن ملابسات وضرورات جدَّت اليوم، يدركونها هم ويقدرونها ولم تكن في حساب الله ـ سبحانه ـ ولا في تقديره، يوم شرع للناس هذه الشرائع!!)[5] ثم أخذ يبين الحكمة من هذا التشريع بنفَس

---

(١) الظلال ١ : ٢٤٢ ـ ٢٤٥ .

(٢) الظلال ١ : ٢٤٦ .

(٣) الظلال ١ : ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٤) الظلال ١ : ٢٤٨ .

(٥) الظلال ١ : ٥٧٨ .

طويل، وجدل هادىء، وحجج مقبولة، وتسلسل منطقي، وبلغت الصفحات التي خصصها لهذا سبع صفحات!![1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله..﴾[2] وقف يبين عمومية دلالة النص على كل أنواع التفضيل بين المؤمنين: الرجال فيما بينهم، والنساء فيما بينهن، والرجال والنساء فيما بينهم! ويبين ما يصيب الإنسان من مشاعر وأفكار وتصورات خاطئة وممزقة إذا تطلع إلى التفاوت بين الناس. وبهذه المناسبة وقف يبين الحِكَم من التفاوت بين الرجال والنساء في بعض الفروع والجزئيات في الأحوال الشخصية، وفي تقسيم الوظائف بينهما، وهذا التفاوت والتقسيم ناتج عن التكوين الفطري لكل منهما، لأنه بهذا التفاوت والتقسيم يؤدي كل دوره، ويصلح حال الحياة، وتتحقق الخلافة في هذه الأرض فهو «التنوع بين الجنسين، التنوع في الخصائص والتنوع في الوظائف.. وعن طريق تنوع الخصائص وتنوع الوظائف ينشأ تنوع التكاليف، وتنوع الأنصبة، وتنوع المراكز.. لحساب تلك الشركة الكبرى، والمؤسسة العظمى... المسماة بالحياة...»[3] وأخذ يبين الحِكَم في ألوان التفاوت[4].

وكما بين الحكمة في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، بين الحكمة في بعض التكاليف والتوجيهات: ففي مكة كان المسلمون مأمورين بكف الأيدي وعدم القتال فلماذا؟ وما هي أسباب ذلك، وما هي الحكمة منه؟ أطال سيد الوقفة أمامها واستخرج سبع حكم جوهرية منها[5]. كذلك أشار إلى طرف من حكمة الله ـ سبحانه ـ في جعل جزيرة العرب مقراً للرسالة الإسلامية، وقاعدة انطلاق إلى البلاد الأخرى[6].

---

(١) انظر الظلال ١: ٥٧٨ ـ ٥٨٤.
(٢) النساء: ٣٢.
(٣) الظلال ٢: ٦٤٣.
(٤) انظر الظلال ٢: ٦٤٢ ـ ٦٥٢.
(٥) انظر الظلال ٢: ٧١٤ ـ ٧١٥.
(٦) انظر الظلال ٥: ٣١٤٢ ـ ٣١٤٥.

وبوقوف سيد أمام حكم التشريع وبيانها في الظلال ـ وفق الأسس والضوابط المنهجية التي أشرنا اليها أصبح قارىء الظلال علىٰ يقين واطمئنان من تحقق الحكمة في الأوامر والأحكام، يقيناً واطمئناناً يزيد الإيمان في قلبه ويدفعه إلى مزيد من التنفيذ.

البَابُ الثَانيْ

طَريقَة سيّد قطبْ في التفسير

تمهيد

بَيْنَ المنهج وَالطريقة

يخطىء كثير من الباحثين الذين يدرسون نتاج مؤلفين إسلاميين، في شتى مجالات الفكر الإسلامي، حيث يخلطون بين منهج الشخصية في البحث، وبين طريقتها في هذا البحث!! وقد يكون سبب الخطأ هو عدم تمييزهم بين المنهج والطريقة، إذ يعتبرونهما شيئاً واحداً، أو صورتين لحقيقة واحدة.

وأعتقد وجوب تحديد المنهج، وتحديد الطريقة، وتحديد وإيضاح الفرق بينهما، في أية دراسة علمية منهجية لأية شخصية إسلامية في نتاجها الفكري.

وإذا كان التمييز بين المنهج والطريقة واجباً في الدراسات الإسلامية على وجه العموم، فإن هذا التمييز يكون أكثر وجوباً، وأشد أهمية لمن يدرسون نتاج المفسرين في تفاسيرهم للقرآن الكريم. إذ لا بدّ لمن يدرس أي مفسر من أن يقف على منهجه في التفسير، وأن يحدد قواعد ذلك المنهج ومنطلقاته الأساسية، ولا بدّ له من أن يقف على طريقته العامة والتفصيلية في التفسير، وأن يلاحظها في كل مكان من تفسيره.

ومما يؤسف له أن نرى كثيراً من دارسي المفسرين وتفاسيرهم، لا يحددون منهج المفسر بوضوح ولا يبينون طريقته بوضوح، ولا يفرقون ـ في دراستهم ـ بين المنهج والطريقة، فتفقد تلك الدراسة العلميةَ والمنهجيةَ والعمقَ.

نراهم - أحياناً - يتكلمون حول مباحث تدخل في طريقة المفسر في تفسيره، ويوردونها كمباحث لمنهجه في التفسير، أو يخصصون باباً للحديث عن منهج المفسر فإذا ما تصفحت فصوله ومباحثه، تعرفت على طريقته، لكنك لن تخرج بشيء يعرفك على منهجه، أو يبينه لك.

وبين يدي الآن دراسة عن تفسير الإمام الرازي، حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه - هي رسالة الرازي مفسراً للدكتور محسن عبد الحميد - تصلح مثالاً لهذا الخلط، فقد خصص الباب الثاني للحديث عن تفسير الرازي.

الفصل الأول: حدد فيه الصورة العامة للتفسير.

والفصل الثاني: بين فيه مصادر التفسير.

والفصل الثالث: تحدث فيه عن منهج الرازي في التفسير. وجاء عنوانه «منهجه في تفسير الآيات».

وقد شمل هذا الفصل المباحث التالية: اللغة والنحو. القرآن والحديث. أسباب النزول. الإسرائيليات والأخبار. القراءات. المحكم والمتشابه. وأمور أخرى: عرض فيها بعض خصائص تفسير الرازي وطريقته في عرض بعض موضوعات علوم القرآن الأخرى، وطريقته التفصيلية في التفسير، وفي تقسيم كلامه إلى مسائل، وفي الاستنباط والاستدلال والنقاش[1].

إنني أدعو إلى التمييز بين المنهج والطريقة لدى أي مفسر، وإلى تحديد كل منهما بصورة واضحة!

إن المنهج يعني نظرة المفسر إلى القرآن، وصلته به، والزاوية التي يتعامل معه من خلالها، والكيفية التي يخرج بها علومه ومعارفه وكنوزه. ومن ثم يعني المنهج: القواعد الأساسية التي تحكم تفسير المفسر، والمنطلقات الرئيسية التي انطلق منها في تفسيره. ويمكن ملاحظتها في التفسير كله،

---

(١) انظر فهرست «الرازي مفسراً»: ٣٤٥ - ٣٤٦.

حيث يكون كله مظهراً لها، وبذلك يمكن تحديد سمات عامة للتفسير، ورسم إطار عام له.

ولذلك بين عبد العزيز المجدوب - في دراسته عن الرازي - منهج المفسر بأنه «الطابع العام والمنحى الشامل لعمل الرجال. . .»[1].

أما الطريقة فتعني: تطبيق قواعد المنهج عملياً في تفسيره، والتزامه بتلك القواعد وهو يفسر الآيات تفصيلياً، والكيفية التي سار عليها في تفسير الآيات، والشكل الذي عرض به علوم القرآن وموضوعاته، بما يحقق منهجه الذي التزمه، وهدفه الذي حدده.

ويعرف المجدوب الطريقة بأن المراد بها هو: «العمل التفصيلي والتفريعي الذي يتناول به الرجل المسائل واحدة واحدة. .»[1].

ويبين الدكتور عدنان زرزور - في دراسته لطريقة الحاكم الجشمي في التفسير[2] طريقة المفسر بأنها: «خطته فى البحث، أو الشكل الذي اتبعه في تفسير الآية أو الآيات»[3] فهي «لا تعدو أن تكون خطة بحث، أو خطة بحث تتناول بالدرجة الأولى معلومات شكلية وتنظيمية دقيقة، إلى جانب بعض المعلومات في أهم فقرات علوم القرآن. .»[4].

وعلى هذا الأساس، سرت في دراستي هذه عن الظلال. فخصصت الباب الأول للحديث عن منهج سيد قطب في التفسير، عرضت فيه لأربع عشرة قاعدة من قواعد المنهج. وهذا الباب الثاني أخصصه للحديث عن طريقة سيد العامة في التفسير، ثم طريقته التفصيلية فيه، وطريقته في الاستدلال والاستنباط، وطريقته في عرض بعض ما يتصل بعلوم القرآن، وفي عرض بعض موضوعات القرآن. وبالله التوفيق.

---

(١) الرازي من خلال تفسيره للمجدوب: ٦٣ حاشية.

(٢) دراسة الدكتور زرزور «الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن» من أجود الدراسات العلمية التي ميزت المنهج عن الطريقة. أنظر الباب الثالث: «منهج الحاكم في تفسير القرآن» والباب الرابع «طريقة الحاكم في تفسيره».

(٣) الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن: ٣٥٤.

(٤) الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير: ٣٥٥.

الفَصْل الأوَّل

طريقتُهُ العَامَّة في التَّفسِير

المبحث الأول

المراحل التي مر فيها التفسير

سيد قطب من النوع الذي يتفرغ لما يكتب، ويستعد استعداداً خاصاً له ويستقصي أطراف موضوعه وآفاقه، ويجمع له مواهبه وقدراته وثقافاته، ويُعمل فيه عقله وفكره وشعوره وكيانه كله، ومن ثم يكون عمله ناتجاً عن معاناة شعورية بالغة، حيث تنضجه القيم الشعورية ثم تدفعه إلى القيم التعبيرية لتظهره في صورة بليغة موحية! وقد بين في كتابه «النقد الأدبي أصوله ومناهجه» - أثناء حديثه عن «القيم الشعورية والقيم التعبيرية» في العمل الأدبي - المراحل التي يمر فيها العمل الأدبي منذ كان تجربة شعورية ذاتية إلى أن صار عملاً أدبياً[1] . . حيث يقرر أن «العمل الأدبي وحدة مؤلفة من الشعور والتعبير، وهي وحدة ذات مرحلتين متعاقبتين في الوجود بالقياس الشعوري، ولكنهما بالقياس الأدبي متحدثان في ظرف الوجود. .»[2] ولذلك فإن «الانفعال بالتجربة الشعورية يسبق التعبير عنها. . وفي «بعض الحالات يكون هذا الانفعال من التوهج والحرارة والإشراق. بحيث يغمر إحساس الأديب ويجعله في شبه نشوة، أو في نصف غيبوبة!».

---

(١) انظر فصل «القيم الشعورية والقيم التعبيرية في العمل الأدبي» في كتاب النقد الأدبي أصوله ومناهجه.

(٢) النقد الأدبي أصوله ومناهجه: ١٩.

«وقد يُتم الشاعر عمله في هذه الحالات الفذة ـ ثم يراجعه، فيعجب لنفسه كيف واتته القدرة على صوغ هذه العبارات! وقد يقف أمام بعضها معجباً متعجباً كما لو كان يشهدها أول مرة. لأنه لم يتنبه لها كل التنبه في أول مرة. . ».

ولا ينفرد الشعر المنظوم بهذه الحالة وحده، فقد توجد في القصة، بل في البحث حين يرتفع إلى المستوى الشعري[1]. .

كذلك كان سيد قطب علمياً ومنهجياً في بحوثه وأعماله، النقدية والأدبية والإسلامية[2]. فجاءت أبحاثه متصفة بالعلمية والمنهجية والصدق والشمول.

وقد سلك نفس الطريق وهو يكتب «الظلال» فجاء عملاً متصفاً بتلك الصفات. عاشه بشعوره وإحساسه قبل أن يصوغه بكلامه، بل قد مرت عليه ـ في بعض الأحيان ـ حالات من الانفعال والتوهج والحرارة والإشراق، والشاعرية والحيوية لا توصف، وكأنه كان «في شبه نشوة، أو في نصف غيبوبة» على حد قوله.

وقد أشار إلى تلك الحالات بقوله: وقد عانيت حالات من هذا النوع كثيرة، وأنا أكتب «التصوير الفني في القرآن» وكذلك وأنا أكتب «في ظلال القرآن» في بعض الأحيان. . .[3].

وكأنه كان يعود إلى عمله «فيعجب لنفسه كيف واتته القدرة على صوغ هذه العبارات، وقد يقف أمام بعضها معجباً متعجباً كما لو كان يشهدها أول مرة. لأنه لم يتنبه لها كل التنبه في أول مرة. . » على حسب قوله أيضاً.

لسيد قطب طريقة فريدة في تفسير القرآن، لم يسلكها مفسر قبله، ناتجة عن منهجه الذي التزمه في الظلال، والذي من أبرز قواعده ـ مما

---

(١) المرجع السابق: ٣٦.

(٢) انظر فصل «مواهب سيد قطب» من كتابنا «سيد قطب الشهيد الحي».

(٣) النقد الأدبي أصوله ومناهجه: ٣٧.

يخص هذا الفصل ـ «دخول عالم القرآن دون مقررات سابقة» و «المحافظة على جو النص القرآني» و «استبعاد المطولات التي تحجب نور القرآن» و «الوحدة الموضوعية للقرآن»[1].

هذه الطريقة مرحلية، تقوم على مراحل متناسقة متتابعة. وقد أشار الدكتور عدنان زرزور إلى مرحلتين منها، وأشار عباس خضر إلى مرحلة أخرى. وسوف نوضح هذه المراحل ـ وغيرها ـ في هذا المبحث إن شاء الله.

المرحلة الأولى: وهي استعداده الخاص للتفسير، والتلقي عن القرآن مقرراته وحقائقه وإيحاءاته، وهو استعداد مادي ومعنوي، بدني وروحي، حيث كان قبل الشروع في التفسير يتوضأ ثم يقوم للصلاة، ثم يقرأ في صلاته الآيات التي ينوي تفسيرها.

المرحلة الثانية: هي قراءته السورة التي ينوي تفسيرها عدة مرات حتى يهتدي إلى موضوعها الرئيسي.

المرحلة الثالثة: العكوف على تفسير السورة أو المقطع بأقل قدر ممكن من الجلسات.

المرحلة الرابعة: النظر في المصادر من كتب التفسير وغيرها. للاستدراك أو التوضيح أو الاستشهاد أو الترجيح أو التوثيق أو غير ذلك.

يقول عباس خضر ـ في مجلة الثقافة ـ مبيناً المرحلة الأولى: «وقد أكبرت سيد قطب أو أكبرت ذكراه كل الإكبار لما سمعت أيضاً من صديق قال: إن سيد قطب حدثه بأنه قبل أن يكتب شيئاً في ظلال القرآن، يقف للصلاة بين يدي الله، ويتلو ما سيتعرض للكتابة عنه من آيات الكتاب، يتلوها بتذوق وإمعان، ويتشبع بما توحي إليه من المعاني والخوالج. ثم يكتب..»[2].

وهذا الفعل من سيد يحمل عدة دلالات على صلته بالله عز وجل،

(١) انظر حديثنا عن هذه المباحث ـ وغيرها ـ في فصل «من قواعد منهجه في التفسير» في الباب السابق.

(٢) مجلة الثقافة، المجلد الثامن. السنة الرابعة. عدد: ٤٧ أغسطس ١٩٧٧ صفحة: ٥٠.

ونظرته إلى كتاب الله الكريم، وأدبه مع الله وكتابه، واستحضاره الجو الروحي الإيماني، واستعداده بكل كيانه لتلقي إيحاءات القرآن. وإضفاء البعد الإيماني والشفافية الوجدانية على كلامه في التفسير... وهذا يذكرنا بصنيع أسلافنا العلماء في دراساتهم للقرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ - كما فعل الإمام البخاري رحمه الله أثناء جمعه الحديث النبوي الصحيح.

أما المرحلة الثانية فيقول عنها الدكتور عدنان زرزور: «قراءته للسورة القرآنية كاملة عدة مرات، وربما عاود قراءتها والنظر فيها يوماً بعد يوم حتى يهتدي - رحمه الله - إلى موضوعها الرئيسي ومحورها العام الذي تدور حوله سائر موضوعاتها الفرعية الأخرى..»[1].

كان يكيِّف نفسه وما حوله، ليعيش في جو القرآن، ويستعلي على مصاعبه وآلامه، ويأنس بالقرآن، ويُخضع الظواهر القاسية في الزنزانة والمستشفى ليتلقي من القرآن.

ففي الزنزانة كان يصاحب كتاب الله الكريم، ويعيش معه، ويقرؤه باستمرار، بهدف الوقوف على الوحدة الموضوعية لكل سورة من سوره.

وقد أخبرنا شريكه في الزنزانة - مصطفى العالم - بطرف من ذلك، حيث كان سيد «يجوب الزنزانة كل يوم يذرعها قارئاً لسورة من كتاب الله بصوت عذب رخيم، ومعه قلمه يدوِّن كل ما يخطر له من خواطر وأفكار على هامش المصحف، وهو فرح مسرور بما يجول في خاطره من معانٍ جديدة..»[2].

أما المرحلة الثالثة وهي الخاصة بالصياغة، التي تلت مرحلة الفهم والتلقي، والانفعال والتوهج، وهي مهمة «القيم الشعورية». فالآن تأتي مهمة «القيم التعبيرية» لتعرض على الناس ما استوعبه في المرحلة السابقة وما تلقاه وفهمه، في صورة موحية مؤثرة، حتى لا يبقى ما أحسّه خاصاً به، وحتى يقدم للقراء أفكاره وآراءه وخواطره.

---

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٣٢ - ٤٣٣.
(٢) سيد قطب الشهيد الحي: ١٤٨.

ويقول الدكتور زرزور عن هذه المرحلة: «حتى إذا اهتدى إلى ذلك (موضوع السورة الرئيسي ومحورها العام) وفتح الله عليه به، عكف على تفسيرها بأقل قدر ممكن من الجلسات، ولو أمكنه أن يفعل ذلك في مقام واحد لفعل.. ويتبع في تفسيره - بطبيعة الحال - ما تهديه إليه ثقافته وفهمه وشفافية روحه وحسّه اللطيف المرهف.. إلى آخر العناصر الأخرى...»[1].

وتأتي المرحلة الرابعة - والأخيرة - للاستدراك أو التوثيق، أو الترجيح أو الاستشهاد... والتي يقول عنها الدكتور زرزور[2]: «هي النظر في كتب التفسير، يستدرك بها سبباً من أسباب النزول، أو يوضح من خلالها مسألة من مسائل الفقه، أو يستشهد منها بحديث أو رواية صحيحة وردت في تفسير بعض الآيات - وربما مال إلى ترجيح رواية على أخرى مساوية أو مقاربة لها في درجة الصحة، من خلال آفاق النص ونظمه، أو لارتباطه الأوثق ببعض مواقف السيرة وحياة النبي ﷺ..»[3].

وبانتهاء هذه المراحل الأربعة يكون سيد قد انتهى من تفسير السورة أو المقطع، ونكون قد صحبناه منذ أن كان خاطرة في شعوره إلى أن صيغ بأسلوبه.

وهذه المراحل تطلعنا على حالة سيد الإيمانية قبل الشروع بالتفسير، وعلى التجائه إلى الله يطلب منه العون والتوفيق، ثم دخوله عالم القرآن دون مقررات سابقة، ودون التأثر المسبق بأي لون من ألوان التفسير، وحرصه على بيان الوحدة الموضوعية للسورة قبل أن يقدم على تفسيرها. وعكوفه على كتابة المعاني والخواطر والإيحاءات وهو يعيش في ظلال الآيات، في حالة انفعال وتوهج وإشراق. أما رجوعه إلى المصادر في المرحلة الأخيرة فلحرصه

---

(١) علوم القرآن لزرزور: ٤٣٣.

(٢) قسمهما الدكتور عدنان زرزور إلى مرحلتين. وتابعناه على تقسيمه عند الحديث عن «مصادر الظلال» في كتابنا «مدخل إلى ظلال القرآن» فهما من جهة المصادر مرحلتان: كتابته أولاً، ثم توثيقه ثانياً. أما من جهة الطريقة في التفسير، فإنهما تتفرعان إلى أربع مراحل: وقوفه بين يدي القرآن. ثم حياته في ظلال الآيات. ثم صياغة خواطره وأفكاره. ثم التوثيق العلمي لها.

(٣) علوم القرآن: ٤٣٣.

على عدم الخروج على الروايات الصحيحة في التفسير بالمأثور[1].

وهو في عودته - في المرحلة الرابعة - إلى المراجع للاستدراك أو التوثيق. لم يغير أو يعدل كثيراً من كلامه الذي كتبه قبل النظر فيها، مما يوحي بأصالة وصحة وموضوعية معظم أفكاره، لاستمدادها من النص القرآني مباشرة.

ولذلك يقول الدكتور زرزور: «وأذكر - والله أعلم - أن هذه الإضافات والتوضيحات قلما بنى عليها. تعديله أو إلغاءه لتفسير بعض الآيات، على النحو الذي سبق له تدوينه وكتابته..»[2].

ولئن كان عباس خضر قد أخبرنا بالمصدر الذي أخذ منه روايته، وهو صديق لعباس ولسيد - لم يشأ أن يذكر اسمه - حدثه سيد شخصياً بذلك، فإن الدكتور عدنان زرزور لم يبخل علينا بتعيين الشخص الموثوق الذي أخبره بذلك يقول: (وقد سمعت هاتين النقطتين أو المرحلتين من المفكر والداعية الإسلامي الكبير الأستاذ محمد، الشهيد الحي، شقيق الشهيد الذي ذهب إلى لقاء ربه...)[3].

وبهذه المراحل يتجلى لنا أن القرآن الكريم هو المرجع الرئيسي والمصدر المباشر الذي تلقى منه سيد قطب أفكاره وآراءه، أما المصادر والموارد فهي ثانوية وتكميلية للتوثيق والاستدلال. وبهذا يظهر لنا أن لسيد طريقة فريدة في التفسير يختلف فيها عن غيره من المفسرين الذين يجعلون المراجع مصدراً رئيسياً، يقبلون عليها أولاً ثم يدخلون عالم القرآن، وهم خاضعون لفهم أصحابها، متأثرون به.

---

(١) علوم القرآن: ٤٣٣.

(٢) المرجع السابق: ٤٣٣.

(٣) مقالة الدكتور عدنان زرزور «مدخل إلى ظلال القرآن» في مجلة حضارة الإسلام. السنة العشرون، العدد الأول ربيع الأول ١٣٩٩ - شباط ١٩٧٩ صفحة: ٣٤.

المبحث الثاني

تعريفه بالسور وتقسيمها إلى دروس ومقاطع

وقف سيد قطب أمام سور القرآن وقفة طويلة، ونظر في آياتها نظرة متأنية وتعامل معها على أساس نظرته الشاملة للقرآن الكريم، وهو أنه «كل متناسق متناسب معجز، تجمع سوره وحدة موضوعية بارزة، وتجمع آيات كل سورة وحدة موضوعية بارزة أيضاً.

وقد كانت «الوحدة الموضوعية للقرآن» قاعدة من قواعده الأساسية في التفسير، تحدثنا عنها في الباب السابق من هذا الكتاب[1].

وبينا هناك أن الوحدة الموضوعية للقرآن ـ كما عرضها سيد ـ أجزاء متناسقة، سار فيها سيد بمراحل متدرجة وخطوات متوازنة. حيث قسم حديثه عنها خمسة أقسام:

١ ـ التناسب بين سور القرآن الكريم.
٢ ـ التناسب بين دروس السورة.
٣ ـ التناسب بين مقاطع الدرس الواحد.
٤ ـ التناسب بين آيات المقطع الواحد.
٥ ـ التناسب بين كلمات الآية الواحدة[1].

ولذلك ـ ومن أجل عرض الوحدة الموضوعية للقرآن ـ كان سيد يقسم السورة إلى عدة دروس متكاملة، متعاونة لتحقيق غرض السورة العام ومرتبطة

---

(١) انظر المبحث الثاني عشر من الفصل الثالث من الباب السابق.

مع موضوعها الأساسي، ثم يقسم الدرس إلى مقاطع جزئية، كل مقطع كأنه وحدة بذاته، ولكنه مترابط مع المقاطع الأخرى التي يضمها الدرس.

أما آيات المقطع، فإن الآية هي الوحدة الجزئية للمقطع، ولا بدّ من التناسب بين جملها وكلماتها من ناحية، وارتباطها بغيرها من الآيات من ناحية أخرى، لتؤدي الغرض المراد للمقطع. .

وبهذا البيان تبدو كل سورة وحدة موضوعية متكاملة، وتبرز شخصيتها المتفردة.

تناول سيد تفسير السور حسب ترتيبها في القرآن الكريم، وهو في هذا يتفق مع معظم المفسرين، وقد كان يريد أن يفسرها حسب زمان النزول ـ كما فعل في كتاب «مشاهد القيامة في القرآن». وكما فعل محمد عزة دروزة في تفسيره ـ لأنه يعتقد أن هذا ـ لو كان ممكناً ـ لكان أكثر قيمة «ومساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها. .».

ولكنه عدل عن هذه الطريقة، لأن قلة اليقين في ترتيب الآيات والسور حسب زمان النزول «تجعل الأمر شاقاً، كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية ظنية، وليست نهائية يقينية. . وقد تترتب على هذه نتائج أخرى خطيرة. . .»[1].

وهو في تفسيره للسور سلك طريقة تختلف في الطبعة المنقحة للظلال عنها في طبعته الأولى، ويعنينا هنا اختلاف الطريقتين في التعريف بالسور وتقسيمها إلى مقاطع.

فهو في الطبعة الأولى يدخل في التفسير التفصيلي للسورة مباشرة، ولا يعرِّف بالسورة إلا تعريفاً موجزاً جداً لا يتعدى بضعة أسطر، وإن زاد ـ في السور الأولى ـ فلا يتجاوز صفحة أو صفحتين.

أما في المنقحة فإنه يعرِّف بالسورة ـ في تقديمه لها بين يدي تفسيره

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٤٢٩ مع ملاحظة الحاشية بين طبعتي الظلال.

التفصيلي ـ تعريفاً شاملاً لمختلف الجوانب: تعريف تاريخي وموضوعي وفني وبياني وتربوي وحركي ـ وغير ذلك.

كذلك اختلفت طريقته في تقسيم السور إلى دروس ومقاطع، فهي في الطبعة الأولى أكثر منها في المنقحة، وهي غير معرّف بها في الأولى أيضاً بعكس المنقحة، وقد وضحنا هذا وضربنا الأمثلة عليه عند حديثنا عن أهم الفروق بي الطبعتين[1].

لقد عاش سيد في ظلال القرآن قبل أن يفسره، وأنس بالتعامل الحي مع سور القرآن قبل أن يفسرها، عاش معها حياة سعيدة باركت عمره وزكته، وتلقى إيحاءاتها ودلالاتها وظلالها، فسرها بعد طول صحبته لها، وطول ألفته لها، وعندما يصاحب السورة، كانت تأخذه في رحلة، رحلة في عوالم ومشاهد، ورؤى وحقائق، وتقريرات وموحيات، وغوص في أعماق النفوس، واستجلاء لمشاهد الوجود. . .

وبعد طول التعامل معها وجد أنها أصدقاء. . كلها صديق، وكلها حبيب وكلها ممتع، وعند كل منها ألواناً طريفة جديدة من الاهتمامات والإيقاعات والمؤثرات، والمذاق والظل والجو[2]. . .

وساعدته هذه المعايشة والمصاحبة والألفة والصداقة مع كل سورة، على التعرف عليها، وعلى ملاحظة شخصيتها وسماتها وخصائصها، والوقوف على الخيط الدقيق المعجز الذي يجمع آياتها، ويربط بين موضوعاتها، وإدراك التناسق والانسجام فيها.

ولذلك يعلنها صراحة: «إن لكل سورة من سور القرآن شخصية مميزة! شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو كان يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس! ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها. ويجعل

---

(١) انظر الفرقان الثاني والثالث من «الفروق المنهجية. في كتابنا «مدخل إلى ظلال القرآن».
(٢) انظر الظلال ٣: ١٢٤٣.

سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو. ولها إيقاع موسيقي خاص - إذا تغير في أثناء السياق فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة. . وهذا طابع عام في سور القرآن جميعا[1].

ونتيجة لحرص سيد قطب على أن يُشرك قارىء الظلال معه في هذه النتيجة التي خرج بها. فإنه يضع أمامه تعريفاً عاماً بالسورة، ويدعوه إلى أن يتمعن في هذا التعريف - أو التقديم - قبل الشروع بقراءة تفسير الآيات، ليقف على شخصيتها وموضوعها وملامحها وأهدافها. ويخرج قارىء الظلال فعلاً - بعد قراءته التعريف والتقديم - بنفس النتيجة، وتكون السورة مكشوفة أمامه وما عليه إلا أن يأخذ هذا المفتاح الذي وضعه سيد بين يديه، ويفتح به كنوز آياتها المختلفة.

وتعريف سيد بالسور يصلح أن يكون تفسيراً إجمالياً موجزاً، يعطي القارىء المتعجل صورة عامة شاملة عن السورة، ويعرفه على موضوعها وشخصيتها.

وقد حاول بعض اللاحقين لسيد أن يقلدوه في التعريف بالسور، وأن يبينوا الوحدة الموضوعية للسورة ومقاصدها. فجاء كلامهم - رغم أن معظمه مأخوذ من الظلال دون إشارة إليه - دون مستوى كلام سيد بدرجات[2].

ويعتبر سيد متميزاً بين المفسرين في هذا التعريف، وتعتبر طريقته متفردة عن طرق المفسرين أيضاً، ويعتبر هو مبدعاً في هذه الطريقة.

يتمتع سيد في تعريفه بالسور بنَفَس طويل، وقلم سيال، وأسلوب بليغ. فتعريفه بسورة البقرة استغرق ثماني صفحات، وآل عمران إحدى عشرة صفحة، والنساء سبع عشرة صفحة، والمائدة ثماني صفحات، والأنعام خمسا وعشرين صفحة، والأعراف عشر صفحات، والأنفال أربعين

(١) الظلال ١ : ٢٧ - ٢٨.

(٢) انظر - على سبيل المثال - كتاب «أهداف كل سورة ومقاصدها» لعبد الله شحاته وإيجاز البيان في مقاصد سور القرآن لمحمد علي الصابوني.

صفحة!!!! والتوبة تسع عشرة صفحة... وهكذا[1].

وقد أشرنا إلى خلاصة تعريفه بسور البقرة وآل عمران والنساء والأنعام في مباحث سابقة من هذا البحث، فلا نعيده منعاً للتكرار، وسنختار سوراً أخرى كنماذج.

سوف نختار تعريفه بسورة «المائدة» كمثال لتعريفه بالسور المدنية في الطبعة المنقحة:

أشار في مقدمة التعريف إلى المهمة العملية الحركية للقرآن الكريم، وهدفه الأساسي، وسورة المائدة تلتقي بموضوعاتها المختلفة على تحقيق هدف القرآن الأصيل، وهو «إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع، على أساس عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد.. الأصل فيه إفراد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وتلقّي مناهج حياتها وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده».

وأهم موضوعات السورة - التي يربط بينها تحقيق هذا الهدف -: بناء التصور الاعتقادي وتوضيحه، وتخليصه من أساطير الوثنية. وانحرافات أهل الكتاب وتحريفاتهم، وتبصير الجماعة المسلمة بحقيقة ذاتها، وحقيقة دورها، وطبيعة طريقها. وأحكام الشعائر التعبدية، والتشريعات الاجتماعية، والتشريعات الدولية. وتشريعات الحلال والحرام في المآكل والمشارب والمناكح... «كل ذلك حزمة واحدة في السورة الواحدة، يمثل معنى الدين كما أراده الله، وكما فهمه المسلمون..»[2].

ويبرز في السورة أصلان كبيران، بروزاً واضحاً مقرراً، منصوصاً عليهما نصاً:

الأصل الأول: بيان معنى «الدين» وأن الإقرار به كله «هو الإيمان» وأن الحكم به كله هو «الإسلام».

---

(١) انظر الظلال على التوالي ١: ٢٧ - ٣٥ و ٣٤٨ - ٣٥٩ و ٥٥٤ - ٥٧١ و ٢: ٨٢٥ - ٨٣٣ و ١٠٠٤ - ١٠٢٩ و ٣: ١٢٤٣ - ١٢٥٣ و ١٤٢٩ - ١٤٦٩ و ١٥٦٤ - ١٥٨٣.

(٢) الظلال ٣: ٨٢٥.

الأصل الثاني: تصحيح التصور الاعتقادي الذي يقوم عليه الأصل الأول[1].

وبعد ما اكتشف فيها هذين الأصلين الكبيرين راح يستدل على كلامه بآيات السورة، أو ما فهمه من تلك الآيات، كيف تلتقي تلك الآيات والموضوعات على تحقيق الأصلين الكبيرين[2].

ويخرج من هذا العرض السريع إلى نتيجة قاطعة تحددها السورة بدروسها وآياتها: «إله واحد. وخالق واحد. ومالك واحد. وإذن فحاكم واحد. ومشرع واحد. ومتصرف واحد.. وإذن فشريعة واحدة. ومنهج واحد. وقانون واحد. وإذن فطاعة واتباع وحكم بما أنزل الله، فهو إيمان وإسلام. أو معصية وخروج وحكم بغير ما أنزل الله، فهو كفر وظلم وفسوق.. وهذا هو الدين..»[3].

وعلى هذا المعنى، وعلى هذه النتيجة «يتكىء سياق السورة ونصوصها الواضحة الصريحة»[4].

وبعد ما أوضح الأصلين الكبيرين في السورة، واستدل لهما. وسجل دلالة ذلك، بين أمراً آخر يبرز في السورة بوضوح، ويجمع آياتها برباطه، ويتناسق مع الأصلين السابقين. ذلك الأمر هو «شأن هذه الأمة المسلمة، دورها الحقيقي في هذه الأرض، وموقفها تجاه أعدائها، وكشف هؤلاء الأعداء، وكيدهم لهذه الأمة ولهذا الدين، وبيان ما هم عليه من الضلال والانحراف في عقيدتهم، وما هم عليه كذلك من العداء للجماعة المسلمة وإجماع الكيد لها.. إنها المعركة التي يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة..»[5].

إن كتاب هذه الأمة هو كتاب الله الأخير للبشر، وهو المصدق لما سبقه

---

(١) الظلال ٣: ٨٢٥ - ٨٢٦.
(٢) الظلال ٣: ٨٢٦ - ٨٢٨.
(٣) الظلال ٣: ٨٢٨.
(٤) الظلال ٣: ٨٢٩.
(٥) الظلال ٣: ٨٢٩.

من الكتب والمهيمن عليها. ومن ثم دور هذه الأمة هو الوصاية على البشرية بالحق والعدل، ومعها الدستور الذي تقيم بـه العدل في الحيـاة. ومن مقتضيات هذه الحقيقة ألا تتولى الأمة المسلمة من يكفـرون بدينهـا أو يستهزئون به. لأنها لا تتولى إلا الله ورسوله والمؤمنين. إنها أمة بعقيدتها لا بـجنسها أو أرضها أو موروثاتها. فالعقيدة هي وحدها آصرة التجمع. «أما أعداء هذه الأمة فهم أعداء الهدى، وأعداء منهج الله الصحيح دائماً، وهم لا يريدون رؤية الحق، ولا ترك العداء المستحكم في قلوبهم لهذا الحق من قبل ومن بعد. وعلى الأمة المسلمة أن تعرفهم على حقيقتهم من تاريخهم القـديم مع رسـل الله، ومن موقفهم الجـديد منهـا ومن رسولهـا ودينهـا القويم. . . »[1].

وكعادته في التعريف في السور يورد الآيات من السورة التي تمثل لهذه الحقيقة وتوضحها وتبرزها[2].

وبعد أن يعرف بالسورة تعريفاً موضوعياً وحركياً، يسلك سيد طريقاً جديداً في التعريف بها وهو التعريف التاريخي، وبيان الملابسات التاريخية المصاحبة لنزولها. فبما أن السورة تعالج موقفاً حاضراً في حياة الجماعة المسلمة في المدينة «ففي أية فترة تاريخية من حياة الجماعة المسلمة في المدينة تنزلت هذه السورة؟.

أشار إلى الرواية التي تقول بأن سورة المائدة نزلت بعد سورة الفتح، أي بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، ولكنه استبعد هذه الرواية بعد مراجعته الموضوعية للسورة مع أحداث السيرة. ومن أدلته في استبعاد تلك الرواية:

١ ـ إن هناك آيات في السورة كانت معروفة للمسلمين قبيل غزوة بدر، وهي التي تتحدث عن موقف بني إسرائيل من موسى ـ عليه السلام ـ عندما أمرهم بدخول الأرض المقدسة، فأجابه جبنهم ﴿إنا لن ندخلها أبداً ما

---

(١) الظلال ٣: ٨٣٠.

(٢) الظلال ٣: ٨٢٩ ـ ٨٣٠.

داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾[1].

وهي الإجابة التي أشار إليها ونقضها سعد بن معاذ ـ أو المقداد بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وهو يشير على رسول الله ـ ﷺ ـ: «والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن: إذهب أنت وربك فقاتلا، ! إنا معكما مقاتلون».

٢ ـ توحي المراجعة الموضوعية للسورة بأنه كان لليهود ـ وقت نزول السورة ـ «قوة ونفوذ وعمل في المدينة، وفي الصف المسلم، مما اقتضى هذه الحملة لكشف موقفهم وإبطال كيدهم. وهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بني قريظة عقب غزوة خيبر، وقد تطهرت الأرض من القبائل اليهودية الثلاث القوية: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة . . ».

ولذلك خرج سيد بنتيجة راجحة، وهي أن «سورة المائدة» لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء في إحدى الروايات. «إذ ترجح لديه» أن مطالع السورة وبعض مقاطعها هي التي نزلت بعد سورة الفتح، بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك[2].

وبعدما انتهى سيد من التعريف بالسورة، والتقديم العام المجمل لها، سجل الطابع العام لها، الذي تبدو منه شخصية السورة متميزة متفردة: «والطابع البارز لهذه السورة هو طابع التقرير والحسم في التعبير. . سواء في ذلك الأحكام الشرعية التي تقتضي التقرير والحسم في القرآن كله، أو المبادىء والتوجيهات، التي قد تتخذ في غير هذه السورة صوراً أخرى، ولكنها في هذه السورة تقرر في حسم وصرامة في أسلوب التقرير الدقيق، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة. . من بدئها إلى منتهاها[3]. .

ويلاحظ في هذا التعريف ـ الذي اخترناه كمثال ـ الجهد والمعاناة

(١) المائدة: ٢٤.
(٢) الظلال ٣: ٨٣٢.
(٣) الظلال ٣: ٨٣٣.

الذي كان يبذله سيد في التعريف التاريخي بالسورة، والإلمام بالملابسات العامة لنزول السورة وجو وزمان النزول، ومدى الحاجة في مجتمع المدينة لتلك النصوص، وإطلاعه على روايات السابقين في النزول، وآراؤه وترجيحاته الخاصة، واستدلاله على ذلك بنصوص السورة وأحداث السيرة. ويبدو بهذا أكثر علمية ومنهجية وسلفية، لحرصه على الاعتماد على إيحاءات وتقريرات الآيات، وعدم الخروج على الروايات الصحيحة المتفقة مع تلك الآيات. .

كما يلاحظ جهده في التعريف الموضوعي والحركي بالسورة، وتقديمه العام المجمل لها، وعمق نظرته الفاحصة في آياتها، وموهبته «النقدية» التي تلاحظ الخيط الدقيق «الخفي» الذي يربط آياتها وموضوعاتها، و «المفتاح» العام لشخصيتها، الذي يقود إلى انسجامها وتناسقها وكنوزها.

إننا لو تناولنا تعريفه بالسور المكية القصار، فإنه لا يخرج عن طريقته العامة في التعريف بالسور. فسورة المدثر ـ مثلاً ـ عرَّف بها من عدة جوانب، فجاء تعريفه بعدة اتجاهات: تعريف تاريخي، وتعريف موضوعي، وتعريف حركي، وتعريف فني[1].

ويطيب لسيد ـ أحياناً ـ أن يعقد مقارنات بين سورتين، وهو يعرِّف بإحداهما، مثال ذلك تلك المقارنات التي أجراها بين سورتي الحاقة والمعارج، وهو يعرف بالثانية. وتعريفه بالسورتين يسير بنفس الخطوات: فهو تاريخي وموضوعي وحركي وفني[2].

الموضوع الأساسي لسورة المعارج هو «حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء، وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين. .»[3].

وبما أن حقيقة الآخرة هي الموضوع الأساسي لسورة الحاقة ـ التي

---

(١) الظلال ٦: ٣٧٥١ ـ ٣٧٥٤.
(٢) انظر الظلال ٦: ٣٦٧٤ ـ ٣٦٧٧ وقارنه مع ٣٦٩٢ ـ ٣٦٩٥.
(٣) الظلال ٦: ٣٦٩٢.

تسبقها في ترتيب المصحف ـ ولكن المعارج ليست صورة مكررة للحاقة، ولكنها تتمتع بشخصية متميزة متفردة، وطابع خاص، وطريقة خاصة. فهي تعالج حقيقة الآخرة «بطريقة أخرى، وتعرض لها من زاوية جديدة، وصور وظلال جديدة..».

ولتوضيح هذه الحقيقة والاستدلال لها، يعقد سيد مقارنات بين طريقة لكل من السورتين في معالجة هذا الموضوع العام الموحد، ويستدل لكلامه بسياق كل سورة ونصوصها:

«في سورة الحاقة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب في هذا اليوم ممثلَيْن في حركات عنيفة في مشاهد الكون الهائلة... وفي الجلال المهيب في ذلك المشهد المرهوب...».

«كذلك كان الهول والرعب يتمثلان في مشاهد العذاب...».

«فأما هنا في هذه السورة فالهول يتجلى في ملامح النفوس وسماتها وخطواتها وخوالجها، أكثر مما يتجلى في مشاهد الكون وحركاته. حتى المشاهد الكونية يكاد الهول فيها يكون نفسياً! وهو على كل حال ليس أبرز ما في الموقف من أهوال إنما الهول مستكن في النفس يتجلى مداه في ما يحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة... وجهنم هنا «نفْس» ذات مشاعر وذات وعي، تشارك مشاركة الأحياء في سمة الهول الحي.. والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسي أكثر منه حسياً»[1].

«فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف في سورة المعارج عنها في سورة الحاقة. باختلاف طابعي السورتين في عمومه. مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورتان في هذه المشاهد..»[2].

ثم قارن بين السورتين من حيث الحقائق التي تعرضانها. فسورة الحاقة كان الاتجاه الرئيسي فيها إلى «تقرير حقيقة الجد الصارم في شأن العقيدة.

---

(١) الظلال ٦: ٣٦٩٢ باختصار.

(٢) الظلال ٦: ٣٦٩٣ باختصار.

ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى في السورة، كحقيقة أخذ المكذبين أخذاً صارماً في الأرض، وأخذ كل من يبدل في العقيدة بلا تسامح..

فأما الاتجاه الرئيسي في سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء، وموازين هذا الجزاء. فحقيقة الآخرة هي الحقيقة الرئيسية فيها.. ومن ثم كانت الحقائق الأخرى في السورة كلها متصلة اتصالاً مباشراً بحقيقة الآخرة فيها».

وانسحبت مقارناته بين السورتين إلى مقارنة فنية أيضاً وهي الخاصة بالإيقاع الموسيقي، والتنوع الإيقاعي، والفاصلة القرآنية لكل منهما: «فقد كان التنوع الإيقاعي في الحاقة ناشئاً من تغير القافية في السياق من فقرة لفقرة. وفق المعنى والجو فيه. فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقاً، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها. والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيباً...»[1].

استمرت طريقة سيد قطب في التعريف بالسور، لم يغيرها حتى في السور الأخيرة التي فسرها قبيل اعتقاله الأخير.

يتضح هذا من تعريفه بسورة الحجر ـ آخر سورة فسرها في الطبعة المنقحة ـ فإنه لم يخرج عن طريقته في التعريف بالسور.

حيث عرّف بها تعريفاً تاريخياً، من خلال زمان نزولها، والملابسات والأحوال والظروف والحاجات التي صاحبت نزولها وأشار في تعريفه إلى «المفتاح الحركي» للتعامل مع القرآن ومنهجه وتفسيره.

ثم الموضوع الأساسي للسورة، والمحور الأول الذي تدور حوله جولاتها وهو: «إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصيلة للتكذيب، وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين..».

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٦٩٤ ـ ٣٦٩٥.

ثم أجرى مقارنة سريعة بين سورة الحجر وسورة الأعراف، لأن جو الحجر يذكِّر بجو الأعراف، والتشابه بينهما حاصل في البدء والسياق.. مع اختلاف في الطعم والمذاق.. «فالمحور في السورتين واحد، ولكن شخصية كل منهما متميزة وإيقاعهما يتشابه ولا يتماثل، على عادة القرآن الكريم في تناوله لموضوعاته الموحدة».

ثم قسم السورة إلى «خمس جولات، أو خمسة مقاطع، يتضمن كل منها موضوعاً أو مجالاً..»[1].

وكما كانت طريقة سيد في التعريف بالسور فريدة متميزة، فقد كان تقسيمه السورة إلى دروس ومقاطع أو جولات وموجات فريداً متميزاً أيضاً. وكما يدل تعريفه بالسورة على موهبته النقدية في إدراك الخيوط الدقيقة التي تجمع بين آياتها، وثقافته العريضة في ملابسات نزولها، فكذلك يدل تقسيمه الرائع على موهبته الفنية، وحسّه النقدي، ونظرته الموضوعية..

لم يتقيد سيد بتقسيم السابقين القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، لأن ذلك التقسيم كان يعتمد الأساس الحسابي الإحصائي، ويتعارض مع التقسيم الموضوعي للسور، أما سيد الذي يحرص على بيان الوحدة الموضوعية والتناسق الفني، فما كان له أن يجاريهم في تقسيمهم. ولذلك يقول - في الطبعة الأولى -: «ولقد سرت في هذا العمل الجديد على أساس عرض كل مجموعة من الآيات التي يربط بينها سبب خاص، ويظللها ظل خاص، في صورة درس قرآني. وقد تكون هذه الآيات «ربعاً» من القرآن أو أقل أو أكثر. لم أتقيد بهذا على وجه الدقة..»[2].

بل إنه أحياناً لم يتقيد بتجزئة السابقين لأجزاء القرآن، وبخاصة عندما يقطعون - بتجزئتهم - سياق القصة القرآنية، ويقسمونها قسمين يتبع كل قسم جزءاً.

---

(١) انظر التعريف بالسورة كاملاً في الظلال ٤: ٢١٢١ - ٢١٢٤.

(٢) الظلال - الطبعة الأولى - ١: ٧.

فقصة شعيب ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف، قسمت حسب التجزئة الحسابية إلى قسمين: الآيات الثلاث الأولى منها ينتهي بها الجزء الثامن، والآيات الستة الأخيرة في بداية الجزء التاسع، لكنها في الظلال وحدة واحدة تتبع الدرس الخاص بموكب الإيمان وأعلامه وعوالمه. ولذلك يقول سيد في ملاحظة له عند نهاية الآية ٨٧ من سورة الأعراف: «إلى هنا ينتهي الجزء الثامن. ولكننا تابعنا السياق لإتمام قصة شعيب إلى نهايتها في الجزء التاسع. . »[(١)].

كذلك كان أحياناً يخرج على الأجزاء حسب تجزئة السابقين، إذا كانت هذه التجزئة تقطع السياق في السورة وتتعارض مع وحدتها الموضوعية. كما فعل في تفسير سورة الفرقان كلها في الجزء التاسع عشر. وقال في ملاحظة في نهاية الجزء الثامن عشر: «ينتهي هذا الجزء بالربع الأول من سورة الفرقان. ولكن لأن الفرقان وحدة ذات موضوع واحد آثرت الوقوف بالجزء الثامن عشر هنا، لتعرض الفرقان كاملة في الجزء التاسع عشر بإذن الله»[(٢)].

وأحياناً يخالف السابقين في أسباب النزول في تصنيف الآيات حسبها. لأنه يصنفها على أسس موضوعية متناسقة. كما في تقسيمه سورة آل عمران إلى دروس ومقاطع. فالدرس الذي يضم الآيات الخاصة بغزوة أُحد، عند سيد يضم تسعا وخمسين آية (من ١٢١ ـ ١٧٩) بينما عند السابقين الآيات النازلة في غزوة أحد ستون آية (حيث يضمون إليها آية ١٨٠ آل عمران) ولكن سيد ألحق آية (١٨٠) في الدرس التالي بخصوص بعض أفاعيل وأقاويل اليهود ضد المسلمين. وقال: «هنالك رواية أن الآية الأولى في هذا الدرس وهي تمام ستين آية نزلت في غزوة أُحد ولكننا نرى أنها ألصق بهذا الدرس فألحقناها به. . »[(٣)].

وتقسيمه السورة إلى دروس يقوم على أسس موضوعية ومنهجية، بحيث

---

(١) الظلال ٣: ١٣٠٢ حاشية. وانظر ملاحظة مشابهة في تفسير سورة النحل الظلال ٥: ٢٦٤٦.

(٢) الظلال ٤: ٢٥٣٧ حاشية. وانظر ملاحظة أخرى متشابهة في نهاية تفسير سورة ص. الظلال ٥: ٣٠٢٩ حاشية.

(٣) الظلال ١: ٥٣٤ حاشية.

تشكل كل مجموعة آيات «وحدة» متناسقة متكاملة، متناسقة فيما بينها، ومتناسقة مع الدروس ـ أو الوحدات ـ الأخرى في السورة لتحقيق الوحدة الموضوعية العامة للسورة.

وهدفه من هذا التقسيم هو «تصنيف» السورة موضوعياً، وعرض مجموعة الآيات التي تتناول موضوعاً واحداً أو أحكاماً متقاربة معاً.

فالآيات ١٧٨ ـ ١٨٨ من سورة البقرة تعتبر درساً واحداً يتضمن «جانباً من التنظيمات الاجتماعية للمجتمع المسلم» و«جانباً من العبادات المفروضة». . هذه وتلك مجموعة متجاورة في قطاع واحد من قطاعات السورة. وهذه وتلك مشدودة برباط واحد إلى تقوى الله وخشيته، حيث يتكرر ذكر التقوى في التعقيب على التنظيمات الاجتماعية والتكاليف التعبدية سواء بسواء. . . وحيث تجيء كلها عقب آية البر التي استوعبت قواعد التصور الإيماني وقواعد السلوك العملي. .»[1].

بيَّن موضوع الدرس، والرابط الذي يربط آيات التنظيمات الاجتماعية وآيات العبادات معاً. وهو كونها كلها عبادة، والتقوى مطلوبة فيهما. كما بيَّن الربط بينه وبين الدرس السابق، والتقاؤهما على تحقيق التناسق في سورة البقرة.

والدرس التالي الذي يضم الآيات ١٨٩ ـ ٢٠٣ «استطراد في بيان فرائض هذه الأمة وتكاليفها، ونظم حياتها، وأحكام شريعتها فيما بينها، وشريعتها مع غيرها من الأمم. .»[2] ويلاحظ رابط التقوى يربط بين جميع التوجيهات ويجعل منها عبادة لله سبحانه وتعالى. .

والآيات من ٢٢١ ـ ٢٤٢ تشكل درساً خاصاً، يعرض جانباً من دستور الأسرة في الإسلام التي يقوم عليها النظام الاجتماعي الإسلامي[3].

---

(١) الظلال ١ : ١٦٣ .

(٢) الظلال ١ : ١٧٨ .

(٣) الظلال ١ : ٢٣٢ ـ ٢٣٤ .

والدرس الذي يليه (الآيات من ٢٤٣ ـ ٢٥٢) يعرض تجربتين من تجارب الأمم وضمها إلى ذخيرة الأمة المسلمة من التجارب[١].

ولو ألقينا نظرة على دروس سورة المائدة، فإننا نقف على موهبته «النقدية» ونظرته «الموضوعية» في التقسيم الفني والموضوعي للدروس. وقد اخترنا سورة المائدة كمثال، لأننا مثلنا بها في تعريفه بالسور، وبذلك تبدو السورة وحدة موضوعية بدروسها المتناسقة، وواضحة من خلال التعريف بها والتقديم لها.

قسم سيد سورة المائدة إلى ثماني دروس متناسقة:

الدرس الأول: الآيات من ١ ـ ١١ يقرر مجموعة من الأحكام الشرعية من الشعائر والشرائع والتوجيهات: منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد. ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام في فترة الإحرام وفي المسجد الحرام. ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من الطعام ومن النكاح. ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة، ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه[٢].

الدرس الثاني: الآيات ١٢ ـ ٢٦ خاص باستعراض مواقف أهل الكتاب من مواثيقهم، واستعراض ما حل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق. ليكون تذكرة للجماعة المسلمة، وليكشف عن سنّة الله التي لا تتخلف، وليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم[٣].

الدرس الثالث: الآيات من ٢٧ ـ ٤٠ يبين بعض الأحكام التشريعية الأساسية في الحياة البشرية، وهي المتعلقة بحماية النفس والحياة والمال والنظام العام في المجتمع المسلم. وقدم لهذه الأحكام بقصة «ابني آدم» التي تكشف عن طبيعة الجريمة وبواعثها في النفس البشرية[٤].

الدرس الرابع: الآيات من ٤١ ـ ٥٠ وهو يتناول قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية، والمنهج الإسلامي، ونظام الحكم والحياة في الإسلام:

---

(١) الظلال ١: ٢٧٠.

(٢) الظلال ٢: ٨٢٧.

(٣) الظلال ٢: ٨٥٦.

(٤) الظلال ٢: ٨٧٢ ـ ٨٧٣.

إنها قضية «الحكم والشريعة والتقاضي» ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان[١].

الدرس الخامس: الآيات من ٥١ ـ ٦٦ يعرض للمعركة بين الجماعة المسلمة وأعدائها، من خلال الإشارة إلى الأحداث وحالات وملابسات ومواقف لليهود وللمنافقين في المدينة ضد المجتمع الإسلامي هناك. ويكشف طبيعة هؤلاء الأعداء وبواعثهم في المعركة المستمرة التي يحرص القرآن على بيان حقيقتها وطبيعتها[٢].

الدرس السادس: الآيات من ٦٧ ـ ٨٦ في بيان حال أهل الكتاب، وكشف الانحراف فيما يعتقدون وكشف السوء فيما يصنعون، كما يقرر نوع العلاقة بينهم وبين الرسول ـ ﷺ ـ والجماعة المسلمة، والواجب في التعامل معهم. مع تقرير حقائق أساسية ضخمة في أصول التصور الاعتقادي وأصول النشاط الحركي للجماعة المسلمة، تجاه المعتقدات المنحرفة وتجاه المنحرفين[٣].

الدرس السابع: الآيات من ٨٧ ـ ١٠٨ يتناول قضية واحدة ـ على تعدد الموضوعات التي يتعرض لها ـ ويدور كله حول محور واحد.. إنه يتناول قضية التشريع فيجعلها هي قضية الألوهية.. الله هو الذي يحرم ويحلل. والله هو الذي يحظر ويبيح.. والله هو الذي ينهي ويأمر.. ثم تتساوى المسائل كلها عند هذه القاعدة..»[٤].

والدرس الثامن:ـ الأخير ـ الآيات من ١٠٩ ـ ١٢٠ يقرر حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ـ كما هي في التصور الإسلامي ـ من خلال تصحيح عقيدة النصارى، وتقويم ما دخل عليها عندهم من انحرافات[٥]..

ومن ثم تأتي الآية الأخيرة في السورة ﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير.. ﴾[٦] لتكون ختاماً يتناسق مع موضوع

---

(١) الظلال ٨٨٧ ـ ٨٨٨.
(٢) الظلال ٢: ٩٠٧ ـ ٩٠٨.
(٣) الظلال ٢: ٩٣٧ وانظر: ٩٥٩.
(٤) الظلال ٢: ٩٦٩.
(٥) الظلال ٢: ٩٩٦.
(٦) المائدة: ١٢٠.

الدرس الأخير من السورة، لتقرر تفرد الله ـ سبحانه ـ بالعلم والألـوهية، والملك والقدرة، وينيب إليه جميع الرسل ـ بمن فيهم عيسى بن مريم ـ عليهم الصلاة والسلام، عباداً طائعين.

وكذلك تكون هذه الآية الأخيرة ختاماً يتناسق مع سورة المائدة التي تتحدث عن الدين، لأن الله هو المالك والذي يحكم فيطاع[1]..

معظم السور كان سيد يقسمها إلى دروس، لكن بعض السور كان يخالف هذه الطريقة في التقسيم.

فسورة الأنعام قسمها إلى موجات وقال: «ووفق طبيعة السورة سنعرضها موجة موجة ـ لا درساً درساً كما تعودنا ذلك في السور المدنية ـ فهذه الطريقة في العرض أدنى إلى طبيعة السورة، وإلى تحقيق التناسق بينها وبين ظلالها كذلك»

قسّم الأنعام إلى موجات، لأن طبيعتها الفنية تشبه مجرى النهر بموجاته المتلاحقة، وظلالها تتناسق مع هذا المجرى. وتأخذ من يعيش مع السورة «الروعة الباهرة» في كل موجة من موجاتها.

لنقرأ لسيد وهو يقرر هذا بشاعرية ملحوظة حيث يقول: «وهي (الأنعام) تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال، مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة، ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها، حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها، متشابكة معها، في المجرى المتصل المتدفق!

وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة، تبلغ حد «الروعة الباهرة» ـ التي وصفنا ـ مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد ـ كما سنبين ـ وتأخذ على النفس أقطارها بالروعة الباهرة، وبالحيوية الدافقة، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي، وبالتجمع والاحتشاد

---

(١) انظر الظلال ٢: ١٠٠٢ ـ ١٠٠٣.
(٢) الظلال ٢: ١٠٢٩.

ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة!»[1].

وسورة يوسف ـ عليه السلام ـ لم يقسمها إلى دروس أو موجات، وإنما قسمها إلى «حلقات» نظراً لطبيعتها القصصية الفنية ـ لأنها تخصصت بذكر قصة يوسف عليه السلام ـ وقد بلغت حلقاتها خمس حلقات، سبقتها مقدمة، وختمت بخاتمة من التعقيبات اللازمة[2].

وسورة الحجر قسمها إلى خمس جولات «أو خمسة مقاطع، يتضمن كل منها موضوعاً أو مجالاً . .»[3].

وسورة الكهف قسمها ألى خمسة أشواط متتابعة.

الشوط الأول: عن قصة أصحاب الكهف.

والشوط الثاني: توجيهات للرسول - ﷺ - في ظلال قصة أصحاب الكهف وقصة الجنتين.

والشوط الثالث: مشاهد من يوم القيامة.

والشوط الرابع: قصة موسى ـ عليه السلام مع العبد الصالح.

والشوط الخامس: قصة ذي القرنين.

ثم الختام للأشواط: تبشير للمؤمنين وإنذار للكافرين[4].

وسورة الحج قسمها على أساس تقسيم سورة الكهف، وجاءت في أربعة أشواط متتابعة متناسقة[5]. وبمثل هذا العدد جاءت أشـواط سورة «المؤمنون»[6]. أما سورة النور فقد جاءت في خمسة أشواط[7]. .

أما سورة الشعراء فقد سلك طريقة أخرى في تقسيمها. حيث قسمها

---

(١) الظلال ٢ : ١٠١٦.

(٢) انظر الظلال ٤ : ١٩٧٠ و ١٩٧٨ و ١٩٨٧ و ٢٠٠٤ و ٢٠٢٤ و ٢٠٣١.

(٣) الظلال ٤ : ٢١٢٣.

(٤) الظلال ٤ : ٢٢٥٩.

(٥) الظلال ٤ : ٢٤٠٧.

(٦) الظلال ٤ : ٢٤٥٢.

(٧) الظلال ٤ : ٢٤٨٦ ـ ٢٤٨٧.

إلى فقرات! وذلك بسبب طبيعتها المتميزة: «والسورة كلها شوط واحد ـ مقدمتها وقصصها وتعقيبها ـ في هذا المضمار. لذلك نقسمها إلى فقرات أو جولات بحسب ترتيبها»(١).

وسورة سبأ لها طبيعة متميزة، وهي من الممكن أن تكون شوطاً واحداً، ولكن ـ بالكاد ـ أمكن تقسيمها إلى خمسة أشواط: «ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في تلك المجالات، وتحت تلك المؤثرات في جولات قصيرة متلاحقة متماسكة، يمكن تقسيمها إلى خمسة أشواط، لتيسير عرضها وشرحها. وإلا فإنه ليس بينها فواصل تحددها تحديداً دقيقاً.. وهذا هو طابع السورة الذي يميزها..»(٢).

وإذا كان تقسيم سورة سبأ ممكناً فإن سورة فاطر التي تليها «يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات. فهي كلها موضوع واحد»(٣). ولكن سيد تغلب على هذه الصعوبة، واختار «تقسيمها إلى ستة مقاطع متجانسة المعاني لتيسير تناولها وإلا فهي شوط واحد متصل الحلقات والإيقاعات من بدئها إلى نهايتها..»(٤).

أما سورة الزمر فقد اعترف سيد بأنه يصعب تقسيمها إلى دروس، ومع ذلك وعد أنه سيحاول استعراضها في جولات ـ وهكذا فعل ـ فقال: «والسورة تعالج الموضوع الواحد الرئيسي فيها في جولات قصيرة متتابعة ـ تكاد كل جولة منها تختم بمشهد من مشاهد القيامة، أو ظل من ظلالها، وسنحاول أن نستعرض هذه الجولات المتتابعة كما وردت في السياق. إذ أنه يصعب تقسيم السورة إلى دروس كبيرة. وكل مجموعة قليلة من آياتها تصلح حلقة تعرض في موضعها. ومجموع هذه الحلقات يتناول حقيقة واحدة. حقيقة التوحيد الكبيرة..»(٥).

---

(١) الظلال ٥: ٢٥٨٤.
(٢) الظلال ٥: ٢٨٩٠.
(٣) الظلال ٥: ٢٩١٨.
(٤) الظلال ٥: ٢٩٢٠.
(٥) الظلال ٥: ٣٠٣٥.

ومجموع الجولات ـ أو الحلقات أو المقاطع ـ التي قسم السورة إليها ثمانية. أطولها الجولة السادسة (الآيات من ٣٦ ـ ٥٢).

التعريف بالسورة والتقديم لها، وإعطاء خلاصة مجملة لها، طريقة التزمها سيد في الطبعة المنقحة.. وتقسيم هذه السورة إلى دروس ومقاطع موضوعية متناسبة طريقة موحدة لسيد في الطبعة المنقحة أيضاً.. وبعد ذلك يشرع في التفسير التفصيلي للآيات التي حواها الدرس أو المقطع.

المبحث الثالث

«التفسير التفصيلي للآيات»

عرفنا أن سيد قطب كان يعرّف بالسورة ويقدم لتفسيرها التفصيلي ببيان أغراضها وأهدافها، والوحدة الموضوعية فيها، وتحديد ملامح شخصيتها وخطوطها الرئيسية... ثم يقسمها بعد ذلك إلى دروس ومقاطع متناسبة متكاملة... تكوّن أجزاء في كيان السورة المتناسب المعجز..

التعريف بالدرس والربط بين مقاطعه:

وعندما يشرع في التفسير المفصل لآيات الدرس فإنه يعرّف به ويبيّن موضوعه الرئيسي، والخيط الدقيق الذي يجمع آياته.. ثم يبين أبرز ما تدل عليه تلك الآيات وقد يقسمها إلى مقاطع جزئية، ويحدد موضوع كل واحد منها وارتباطه بموضوع الدرس العام..

فالدرس العاشر من دروس سورة البقرة يحوي عشر آيات: الآيات من ١٧٨ ـ ١٨٨، وقد عرّف سيد به وحدد موضوعه قبل تفسيره لآياته.. فأخبرنا بأنه يتضمن «جانباً من التنظيمات الاجتماعية للمجتمع المسلم الذي كان ينشأ في المدينة نشأته الأولى، كما يتضمن جانباً من العبادات المفروضة.. هذه وتلك مجموعة متجاورة في قطاع واحد من قطاعات السورة. وهذه وتلك مشدودة برباط واحد إلى تقوى الله وخشيته، حيث يتكرر ذكر التقوى في التعقيب على التنظيمات الاجتماعية والتكاليف التعبدية سواء بسواء.. وحيث تجيء كلها عقب آية البر التي استوعبت قواعد التصور الإيماني وقواعد

السلوك العملي في نهاية الدرس السابق. . »[١].

أما مقاطع الدرس الجزئية، وموضوعاته التفصيلية، فإنها تتحدث عن «القصاص في القتلى وتشريعاته. . وفيه حديث عن الوصية عند الموت. . ثم حديث عن فريضة الصيام وشريعة الدعاء وشريعة الاعتكاف. . وفي النهاية حديث عن التقاضي في الأموال. . »[٢].

ولا يبخل سيد علينا ببيان رابط آخر بين تنظيماته الاجتماعية وتكاليفه التعبدية. . وهذا الرابط ناتج عن حقيقة هذا الدين. . . (إنه وحدة لا تتجزأ. . تنظيماته الاجتماعية، وقواعده التشريعية، وشعائره التعبدية. . . كلها منبثقة من العقيدة فيه، وكلها نابعة من التصور الكلي الذي تنشئه هذه العقيدة، وكلها مشدودة برباط واحد إلى الله، وكلها تنتهي إلى غاية واحدة هي العبادة. . .)[٣] ولذلك يعتبر هذا الدرس بهذا الاعتبار نموذجاً واضحاً للترابط المطلق في هذا الدين. . .

وبعد ذلك يقسم سيد الدرس إلى ستة مقاطع جزئية، تتحدث عن: القصاص والوصية والصيام والدعاء والاعتكاف، والتقاضي في الأموال. . على التوالي.

بدأ يفسر آيات القصاص، ولما فرغ منها وأتى للمقطع الثاني ـ آيات الوصية ـ أشار إلى أن المناسبة بين الموضوعين ظاهرة، والرابط بين المقطعين حاضر. ولم يذكره لوضوحه (. . ثم يجيء تشريع الوصية عند الموت. . والمناسبة في جوها وجو آيات القصاص حاضرة. . .)[٤].

وبعدما فسر آيات الصيام ـ في المقطع الثالث ـ ربط بينها وبين آيات الدعاء في المقطع الرابع. . حيث تمثل تلك الآيات (العوض الكامل الحبيب المرغوب عن مشقة الصوم، والجزاء المعجل على الاستجابة لله، نجد ذلك العوض وهذا الجزاء في القرب من الله، وفي استجابته للدعاء. .)[٥].

---

(١) الظلال ١: ١٦٣.
(٢) الظلال ١: ١٦٤.
(٣) الظلال ١: ١٦٤.
(٤) الظلال ١: ١٦٦.
(٥) الظلال ١: ١٧٢ ـ ٧١٧٣

أما مناسبة إيراد حكم التقاضي في الأموال مع أحكام الصيام والاعتكاف والربط الذي يربط المقطع الأخير في هذا الدرس بما سبقه، فبينه سيد بقوله: (وفي ظل الصوم، والامتناع عن المأكل والمشرب، يرد تحذير من نوع آخر من الأكل: أكل أموال الناس بالباطل عن طريق التقاضي بشأنها أمام الحكام اعتماداً على المغالطة في القرائن والأسانيد.. ويجيء هذا التحذير عقب ذكر حدود الله والدعوة إلى تقواه، ليظللها جو الخوف الرادع عن حرمات الله...)[1].

كما وقف في نهاية تفسيره لآيات الدرس ومقاطعه، يعلن نتيجة عامة، وحقيقة بارزة..)وهكذا يربط الأمر في التقاضي وفي الأموال بتقوى الله. كما ربط في القصاص، وفي الوصية، وفي الصيام.. فكلها قطاعات متناسقة في جسم المنهج الإلّهي المتكامل... ومن ثم يصبح المنهج الإلّهي وحدة واحدة.. لا تتجزأ ولا تتفرق..)[2].

أما الدرس الحادي عشر من دروس سورة البقرة، والذي يضم الآيات من ١٨٩ ـ ٢٠٣ فإن سيد ربطه بالدرس العاشر. فقال: (هذا الدرس ـ كسابقه ـ استطراد في بيان فرائض هذه الأمة، وتكاليفها، ونظم حياتها، وأحكام شريعتها فيما بينها، وشريعتها مع غيرها من الأمم حولها..)[3].

وحدد في عبارته السابقة الموضوع الأساسي للدرس الذي تندرج تحته الموضوعات التفصيلية، وتتناسق معه المقاطع الجزئية.. إن هذا الدرس يتضمن (بياناً عن الأهلة ـ جمع هلال ـ كما يتضمن تصحيحاً لعادة جاهلية، وهي إتيان البيوت من ظهورها بدلاً من أبوابها في مناسبات معينة، ثم بياناً عن أحكام القتال عامة، وأحكام القتال في الأشهر الحرم، وعند المسجد الحرام خاصة. وفي النهاية بياناً لشعائر الحج والعمرة كما أقرها الإسلام).

ويجمع سيد بين موضوعات هذا الدرس وأحكامه، كما جمع بين

---

(١) الظلال ١ : ١٧٦ .

(٢) الظلال ١ : ١٧٧ .

(٣) الظلال ١ : ١٧٨ .

أحكام الدرس السابق.. (وهكذا نرى هنا ـ كما رأينا في الدرس السابق ـ أحكاماً تتعلق بالتصور والاعتقاد، وأحكاماً تتعلق بالشعائر التعبدية. وأحكاماً تتعلق بالقتال.. كلها تتجمع في نطاق واحد، وكلها يعقب عليها تعقيبات تذكر بالله وتقواه..)[1].

استوقفت سيد الآية الأولى في هذا الدرس، باعتبارها تتحدث عن موضوعين يبدوان ـ للوهلة الأولى ـ غير مترابطين. وهي قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة، قل: هي مواقيت للناس والحج.. وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون.. ﴾[2].

وقد بين سيد الرابط بين شطري الآية بقوله: (والارتباط بين شطري الآية يبدو أنه هو المناسبة بين أن الأهلة هي مواقيت للناس والحج، وبين عادة جاهلية خاصة بالحج هي التي يشير إليها شطر الآية الثاني.. وهي دخولهم بيوتهم ـ بعد الحج ـ من ظهورها وليس من أبوابها..)[3].

وعندما وصل إلى تفسير المقطع الأخير في هذا الدرس، وهو الخاص بأحكام الحج والعمرة، ربط بينه وبين المقاطع التي سبقته بقوله: (وبعد ذلك يجيء الحديث عن الحج والعمرة وشعائرهما. والتسلسل في السياق واضح بين الحديث عن الأهلة ـ وأنها مواقيت للناس والحج ـ والحديث عن القتال في الأشهر الحرم وعن المسجد الحرام. والحديث عن الحج والعمرة وشعائرها في نهاية الدرس نفسه..)[4].

تسجيل دلالات الدرس:

وقبل أن نخرج من هذا الميدان، في تعريف سيد بالدرس وتقسيمه إلى مقاطع جزئية والربط بينها أولاً، ثم بينها وبين موضوع الدرس نفسه ثانياً، نقرر بأن سيد لم يكن ليفوته استخلاص الدلالات، وتسجيل الدروس والعبر،

---

(١) الظلال ١: ١٧٨.
(٢) البقرة: ١٨٩.
(٣) الظلال ١: ١٨٤.
(٤) الظلال ١: ١٩٢.

والتعرض للإيحاءات والتوجيهات التي تظهر في الدرس وتبدو من خلال نصوصه، وأكثر ما يهمه الدلالات والإيحاءات التربوية والحركية منها. . .

أما متى يسجل ذلك، فليس له طريقة محددة إذ أنه أحياناً يوردها قبل الشروع في التفسير المفصل لآيات الدرس. . وأحياناً يؤخرها إلى ما بعد الانتهاء من ذلك التفسير:

الدلالات قبل التفسير التفصيلي:

ففي تفسيره للدرس الذي ضم الآيات من: **٢٤٣ ـ ٢٥٢** من سورة البقرة مهد لتفسيره التفصيلي لآياته بالإشارة إلى المهمة العملية الحركية للقرآن الكريم، وهدفه التربوي الحركي، وهو الذي تلتقي على تحقيقه كل موضوعات القرآن وعلومه وأساليبه. . . ومن ثم يدعونا إلى استصحاب هذا ونحن نتلو آياته أو نفسرها لندرك السر في ذلك، ونتلقى إيحاءاته. ونستخرج دلالاته.

ثم أشار إلى أن هذا الدرس عرض تجربتين من تجارب الأمم السابقة، وضمهما إلى ذخيرة الأمة المسلمة من التجارب. . الأولى تجربة يشير إليها إشارة سريعة موجزة تحقق الهدف المراد من عرضها. والثانية تجربة في حياة بني إسرائيل تمثل مشهداً من مشاهد قصتهم بعد نبيهم موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهي المعروفة بقصة «طالوت»[1].

وبعد ذلك وقف وقفة يسيرة ليشير إلى أهم الدروس والدلالات، والحقائق والإيحاءات التي تستخرج منها. مهد لها بقوله: (ومن خلال هذه التجربة ـ كما يعرضها السياق القرآني الموحي ـ تبرز جملة حقائق، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل، فضلاً على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين. .)[2].

وبعد أن عرض عبرة كلية أساسية، وأربع عظات جزئية ـ تحمل الكثير

(١) انظر الظلال ١: ٢٦٠ ـ ٢٦٢.
(٢) الظلال ١: ٢٦٢.

من الدلالات التربوية والحركية والجهادية والتنظيمية -[1] ختمها بقوله: (ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة. فالنصوص القرآنية - كما علمتنا التجربة - تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف، على قدر مقسوم. . .

فنخلص إذن من هذا العرض العام إلى تفصيل النصوص. . .)[2].

والآيات ١٣٥ - ١٤٧ من سورة النساء اعتبرها (حلقة من سلسلة التربية المنهجية) التي تولتها يد الرعاية الإلٓهية لإخراج الأمة المسلمة[3] فبعد ما عرّف بالدرس وموضوعه ومقاطعه. سجل - قبل التفسير التفصيلي لآياته - أربع دلالات وحقائق تربوية وحركية أساسية[4].

ونفس الطريقة سلكها في تفسير الدرس الذي يضم الآيات ١٣٦ - ١٥٣ من سورة الأنعام حيث قال: «وقبل أن نمضي في مواجهة النصوص تفصيلاً، نحب أن نعيش في ظلال السياق القرآني بجملته. . لنرى محتوياته على وجه الإجمال. . ولنرى دلالته وإيحاءاته كذلك.»[5].

وكذلك فعل في تفسير الدرس الذي ضم الآيات ٥٩ - ٩٣ من سورة الأعراف والخاص بعرض موكب الإيمان من خلال قصص أنبياء الله: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - حيث قال - بعد تعريفه بالدرس ومقاطعه (وفي وقفتنا أمام المشهد الكلي الرائع نلمح جملة معالم نلخصها هنا قبل مواجهة النصوص. . .)[6].

الدلالات بعد التفسير التفصيلي:

نكتفي بهذه النماذج لإيراد سيد الدلالات والحقائق والعبر قبل شروعه

---

(١) انظر الظلال ١: ٢٦٢ - ٢٦٣.
(٢) الظلال ١: ٢٦٣.
(٣) الظلال ٢: ٧٧٥.
(٤) انظر الظلال ٢: ٧٧٥.
(٥) الظلال ٣: ١٢١٤.
(٦) الظلال ٣: ١٣٠٤ وانظر الدلالات ١٣٠٤ - ١٣٠٧.

في التفسير التفصيلي لآيات الدرس، لننتقل إلى الصورة المقابلة، وهي إيراده هذه الدروس والدلالات والحقائق بعد الانتهاء من التفسير التفصيلي للآيات، حيث تكون بمثابة تلخيص لذلك التفسير، وخاتمة شاملة لنتائج التفسير، وملخصة لموضوع الآيات.

فلما فسر الدرس الذي يضم الآيات ١٢١ ـ ١٧٩ من سورة آل عمران والذي يتحدث عن غزوة أحد، وقف يستخلص دلالاتها، ويلخص أهم العبر منها، بدأها بقوله: (وبعد.. فقد تمخضت المعركة والتعقيب القرآني عليها عن حقائق ضخمة منوعة، يصعب إحصاؤها ثم إيفاؤها حقها من البسط والعرض في هذا السياق من الظلال، فنكتفي بالإشارة إلى أشملها وأبرزها، ليقاس عليه سائر ما في الغزوة كما عرضها القرآن الكريم من مواضع للعبر والاستدلال..)[١].

وكانت الحقائق التي أوردها ـ وتوسع في الحديث عنها ـ ستة[٢].

ولما فسر الدرس ـ أطلق عليه اسم (موجة) ـ القصير الذي يضم الآيات ٣٣ ـ ٣٩ من سورة الأنعام وقف يستخلص العبر والدلالات منه (والآن بعد الانتهاء من استعراض هذه الموجة من السياق، نقف وقفة قصيرة لاستخلاص عبرة التوجيه فيها لكافة أصحاب الدعوة إلى هذا الدين في كل جيل.. فإنه يرسم منهجاً للدعوة إلى هذا الدين، لا يتقيد بالزمان والمكان. ونحن لا نملك هنا أن نفصل كل جوانب هذا المنهج، فنقف منه إذن عند معالم الطريق..)[٣].

ويبدو أن هذه الطريقة هي التي ارتآها، واستقر رأيه الأخير عليها، في أيامه الأخيرة وهو يفسر القرآن الكريم. حيث نلاحظ أنه في تفسيره للسور الأخيرة التي وصل إليها في الطبعة المنقحة ـ سور هود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر ـ يؤجل وقفته في التعقيب على الآيات وتلخيص عبرها،

---

(١) الظلال ١: ٥٢٦.

(٢) انظر الظلال ١: ٥٢٦ ـ ٥٣٣.

(٣) الظلال ٢: ١٠٨١ وانظر وقفته الهامة ١٠٨١ ـ ١٠٨٥.

واستخلاص دروسها ودلالاتها، إلى حين انتهائه من التفسير التفصيلي لها.

فلما انتهى من تفسير الآيات التي تعرض حلقات من قصة نوح في سورة هود، وقف يبين العبر والعظات والدلالات المأخوذة من القصة[(١)]. وكذلك فعل في تفسيره لقصة هود في السورة[(٢)] وقصة صالح ـ عليه السلام[(٣)] ـ وكذلك فعل في وقفته التعقيبية على سورة هود كاملة التي لاحظ فيها خط العقيدة الذي يرتكز إليه هذا الدين كله.. ومحور العقيدة الذي يدور عليه المنهج الرباني لحياة البشرية جملة وتفصيلاً.. فكان في وقفته تلك يهدف إلى الإلمام به وربط أجزاء السورة به، واستخلاص الحقائق والدلالات من ذلك[(٤)].

طريقته في تفسير المقطع:

بعد ما يهتدي سيد ـ بتوفيق الله ـ إلى الدرس الذي يضم عدة آيات، ويهتدي إلى موضوعه الأساسي، ويعرف به، ويظهر الوحدة الموضوعية فيه، والتناسب في مقاطعه، ويسجل دلالاته وحقائقه ودروسه، بعد هذا يقسمه إلى مقاطع جزئية متناسبة. ويبين موضوع المقطع ويربطه مع الدرس الذي هو جزء منه، ثم يبين الرابط لآياته التي يضمها، ثم يشرع بالتفسير التفصيلي لآياته، وأحياناً يقف في نهاية تفسير المقطع ـ وقبل الانتقال إلى المقطع الذي يليه ـ ليسجل أهم الدلالات والدروس التي تستخلص منه.

الدرس الذي يضم الآيات ٥٨ ـ ٧٠ من سورة النساء، قسمه سيد قطب إلى خمسة مقاطع متناسبة مترابطة فيما بينها أولاً، ثم مع الدرس على وجه العموم.

---

(١) انظر الظلال ٤: ١٨٨٠ ـ ١٨٩٤.
(٢) انظر الظلال ٤: ١٩٠١ ـ ١٩٠٦.
(٣) انظر الظلال ٤: ١٩٠٩ ـ ١٩١٠.
(٤) انظر الظلال ٤: ١٩٣٤ ـ ١٩٤٨. وانظر وقفاته في التعقيب على سورة الرعد ٤: ٢٠٦٦ ـ ٢٠٧٦، وتعقيبه على الشطر الأول من سورة إبراهيم ٤: ٢٠٩٨ ـ ٢١٠٣، وتعقيبه على سورة إبراهيم ٤: ٢١١٤ ـ ٢١١٦، وتعقيبه على قصةآدم في سورة الحجر ٤: ٢١٤٢ ـ ٢١٤٥.

المقطع الأول: الآية رقم: ٥٨ وهي تحدد تكاليف الجماعة المسلمة: أداء الأمانات، والحكم بالعدل.

المقطع الثاني: الآية رقم: ٥٩ وهي تحدد المقياس للأمانة والعدل، والمنهج في تصورهما وتحديدهما وتنفيذهما.

المقطع الثالث: الآيات من: ٦٠ ـ ٦٥. تلتفت إلى الذين ينحرفون عن واجب الجماعة المسلمة.

المقطع الرابع: الآيات من: ٦٦ ـ ٦٨. تبين اليسر في هذا المنهج، وكونه ضمن قدرة النفس البشرية.

المقطع الخامس: الآيتان: ٦٩ ـ ٧٠ تعرضان صورة وضيئة لمن يلتزم هذا المنهج، ونهاية سعيدة له في صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة.. وحسن أولئك رفيقاً[١].

ولو أخذنا تفسيره للمقطع الثالث ـ باعتباره أطول مقاطع الدرس ـ كمثال على طريقته، فإننا سنجد فيه مصداق ما نقول.

فهو يربط بينه وبين المقطع الثاني فيقول: (وحين ينتهي السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية، في شرط الإيمان وحد الإسلام (وهو قاعدة «الحاكمية» وقصرها على الله وحده) وفي النظام الأساسي للأمة المسلمة، وفي منهج تشريعها وأصوله... يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة..).

أما موضوع هذا المقطع الذي يجمع كل آياته، فهو الإنكار على الذين «ينحرفون عن هذه القاعدة (الحاكمية الإلّهية) ثم يزعمون ـ بعد ذلك ـ أنهم مؤمنون وهم ينقضون شرط الإيمان وحد الإسلام. إذ يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله»[٢].

وآيات المقطع هي: ﴿ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل

---

(١) انظر الظلال ٢: ٦٨٥ ـ ٦٨٨ و ٦٩٠ و ٦٩٣، و ٦٩٧، و ٦٩٩ على التوالي.
(٢) انظر الظلال ٢: ٦٩٣.

إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ وقد أُمروا أن يكفروا به ـ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً. فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، ثم جاؤوك، يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً. أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم، وعظهم، وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً. وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله. ولو أنهم ـ إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك، فاستغفروا الله، واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله تواباً رحيماً. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليما. . ﴾[1].

ويلخص موضوعات المقطع مظهراً ما بينها من ترابط، وما فيها من تناسق بقوله: (يلتفت إليهم ليعجب من أمرهم ويستنكر. وليُحذرهم وأمثالهم من إرادة الشيطان بهم الضلال. ويصف حالهم حين يُدعَوْن إلى ما أنزل الله وإلى الرسول فيصدون، ويعتبر هذا الصدود نفاقاً. كما اعتبر إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت خروجاً من الإيمان ـ بل وعدم دخول فيه ابتداء ـ كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة في اتباع هذه الخطة المستنكرة، حين تجر عليهم الوبال والنكال. . ومع هذا كله فهو يوجه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى النصح لهم وموعظتهم. . ويختم المقطع كله ببيان ما أراده الله ـ سبحانه ـ من إرسال الرسل. . وهو أن يطاعوا. . ثم بنص صريح جازم في شرط الإيمان وحد الإسلام مرة أخرى. .)[2].

وقبل أن يبدأ في التفسير التفصيلي لآيات المقطع، يحاول أن يصور الجو العام لنزولها، وأن يحدد الفترة الزمنية لذلك النزول، وحالة الجماعة المسلمة في المدينة في ذلك الوقت، (إن هذا التصوير لهذه المجموعة التي تصفها النصوص، يوحي بأن هذا كان في أوائل العهد بالهجرة. يوم كان

---

(١) النساء: ٦٠ ـ ٦٥.

(٢) الظلال ٢: ٦٩٣.

للنفاق صولة، وكان لليهود - الذين يتبادلون التعاون مع المنافقين - قوة.«.)[1].

كما يحاول أن يعين الفريق المقصود بهذا المقطع، فهم (قد يكونون جماعة من المنافقين - كما صرح بوصفهم في الآية الثانية من هذه المجموعة، وقد يكونون جماعة من اليهود - الذين كانوا يُدْعَوْن - حين تجدُّ لهم أقضية مع بعضهم البعض أو أهل المدينة - إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها.....) ويرجح الاحتمال الأول، ولا ينسى أن يذكر أسباب ترجيحه..

ثم يشرع في التفسير التفصيلي لآيات المقطع[1].

وفيما يلي نموذج آخر لطريقته في تفسير المقطع، نأخذه من تفسيره لسورة المائدة هذه المرة.

الدرس الذي يضم الآيات: ٦٧ - ٨١ من سورة المائدة. عرّف به على طريقته التي أسلفنا الحديث عنها. ثم قسمه إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: الآيات: ٦٧ - ٦٩: فيها تكليف الرسول - ﷺ - يتبليغ الدين كاملاً، ومصارحة أهل الكتاب أنهم «ليسوا على شيء» ما داموا على حالهم..

المقطع الثاني: الآيتان: ٧٠ - ٧١ تبين حقيقة اليهود في تاريخهم، وأنهم فعلاً «ليسوا على شيء» كما قرر المقطع الأول.

المقطع الثالث: الآيات: ٧٢ - ٧٧ تبين حقيقة النصارى وأنهم كذلك (ليسوا على شيء).

المقطع الرابع: الآيات: ٧٨ - ٨١ تقرير من أنبياء بني إسرائيل عن الكفار من بني إسرائيل أنهم «ليسوا على شيء»، ومن ثم لعنهم، وبيان أسباب استحقاقهم اللعنة، واستمرار حالهم الذي حقت به عليهم اللعنة حتى أدركوا رسول الله - ﷺ - فاختاروا الكفر وموالاة الكافرين.

---

(١) انظر الظلال ٢: ٦٩٤ - ٦٩٧.

إذا ما ألفينا نظرة على طريقته في تفسير هذه المقاطع، وجدنا أنه لما فسر المقطع الأول عرّف بموضوعه ثم أورد الآيات التي يضمها. ثم أخذ يفسرها تفصيلياً، - إلا الآية الأخيرة منه رقم (٦٩) - حيث وقف يسجل أهم الحقائق والدلالات التي تؤخذ منها، من مصارحة أهل الكتاب بالحق، ومعنى التبليغ وأهميته وأثره، ودلالة هذا للدعاة، والتفريق بين أسلوب تبليغ الدعوة وبين الحقائق التي تبلغ به، لأن عدم التفريق بينهما أوقع بعض المسلمين في غلو أو تفريط[١]. .

ثم تناول الآية الأخيرة في المقطع باعتبارها تتضمن (البيان الأخير عن «الدين» الذي يلتقي عليه المتفرقون في الملل والنحل فيما غبر من التاريخ. .)[٢].

كذلك فعل في المقطع الثاني، حيث ذكر موضوعه، ثم أورد الآيات التي يضمها، ثم فسر تلك الآيات تفصيلياً[٣].

والمقطع الثالث عرّف بموضوعه، وربطه بموضوع الدرس ثم بموضوع السورة، ثم أورد الآيات التي يضمها، ثم فسر الآيات تفسيراً تفصيلياً[٤].

وقبل أن ينتقل للمقطع الرابع، وقف يستخلص أهم الحقائق من المقطع. وكانت حقائق ثلاثة ألم بها في إجمال:

الأولى: هي حقيقة الجهد الكبير الذي يبذله المنهج الإسلامي، لتصحيح التصور الاعتقادي، وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة، وهذا يوحي بأهمية هذا التصور وهذا التصحيح.

الثانية: تصريح القرآن بكفر النصارى، لقولهم: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة. وأنه لا يجوز لمسلم أن يخالف هذا التصريح القرآني القاطع.

الثالثة: وهي تترتب على الحقيقتين السابقتين، فانطلاقا من أهمية

---

(١) انظر الظلال ٢: ٩٣٧ - ٩٤١.

(٢) الظلال ٢: ٩٤١.

(٣) انظر الظلال ٢: ٩٤٢ - ٩٤٣.

(٤) انظر الظلال ٢: ٩٤٣ - ٩٤٦.

التصور الاعتقادي الصحيح الذي عليه المسلمون، ونظراً لكفر أهل الكتاب، فإنه لا يمكن أن يقوم ولاء أو تناصر أو اتفاق بين المسلمين وأهل الكتاب. لأن كل شيء في الحياة يقوم أولاً على أساس العقيدة[1].

أما المقطع الرابع من الدرس، فإنه بين موضوعه ثم أورد الآيات التي يضمها، ثم شرع يفسر تلك الآيات تفصيلياً[2]، ثم وقف في آخر التفسير يستخلص الدلالات والحقائق التي تؤخذ منه. وكانت ثلاث حقائق أيضاً.

الأولى: أن أهل الكتاب جميعاً ـ إلا من آمن بحمد ـ ﷺ ـ غير مؤمنين بالله. لأنهم لم يؤمنوا برسوله الأخير، وليس بعد قول الله ـ سبحانه ـ قول.

الثانية: أن أهل الكتاب مدعوون إلى الدخول في دين الله، على لسان محمد ـ ﷺ ـ، إن أرادوا أن يكونوا مؤمنين بالله.

الثالثة: إذا رفضوا هذا الإسلام فلا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين في شأن من الشؤون، وهذا لا يعني إكراههم على الدخول في الإسلام. ولا يحرمهم من حقوقهم التي قررها الإسلام، ولا يمنع من الإحسان إليهم في العشرة والسلوك..

(هذا هو الإسلام في وضوحه ونصاعته. وفي بره وسماحته.. والله يقول الحق. وهو يهدي السبيل..)[3].

تتضح لنا ـ من خلال هذين النموذجين ـ طريقة سيد قطب في تفسير المقطع الذي بين يديه. فهو يذكر موضوعه، ويبين الصلة بين موضوعاته الجزئية، وارتباطه مع ما سبقه من مقاطع، ثم يورد الآيات التي يضمها ـ ثم يفسرها تفصيلياً، وأحياناً يستخلص بعد ذلك دلالاته وحقائقه.

وهو عندما يسجل آيات المقطع، يسلك طريقة فريدة في كتابتها، حيث يستخدم الفواصل والنقط وعلامات الترقيم التي تسهل على القارىء معرفة

---

(١) انظر الظلال ٢: ٩٤٦ ـ ٩٤٧.
(٢) انظر الظلال ٢: ٩٤٧ ـ ٩٥٢.
(٣) انظر الظلال ٢: ٩٥٢ ـ ٩٥٣.

جزئيات ذلك المقطع وأساليب عرض الآيات، وما فيها من تقرير أو التفات أو تعجب أو استفهام أو غير ذلك.

أنظر إلى كتابته لهذه الآيات التي تكوّن المقطع الثالث من الدرس الذي عرضناه في المثال السابق، ولاحظ استخدام سيد لعلامات الترقيم في كتابتها..

قال الله عز وجل: ﴿لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم. إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار.. لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم. أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟ والله غفور رحيم. ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنى يؤفكون. قل: أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟ والله هو السميع العليم؟ قل: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل.. ﴾[1].

وعندما ينتقل من مقطع إلى آخر، فغالباً ما يضع علامة فارقة تفصل بين تفسيره للمقطعين، وهي تتكون من ثلاثة نجوم متفرقة.

طريقته في تفسير الآية:

بعد ما بينا طريقته في تفسير المقطع، نتحدث عن المرحلة الأخيرة في طريقته العامة في التفسير التفصيلي، وهي طريقته في تفسير الآية الطويلة، أو مجموعة الآيات القصيرة، ذات الموضوع الواحد، باعتبارها آخر مرحلة في التقسيم الموضوعي للسورة، وأصغر وحدة من وحدات السورة الموضوعية.

وأبادر فأقول: إن سيد ليس له طريقة موحدة في تفسير الآية، سلكها

(١) المائدة: ٧٢ ـ ٧٧.

في تفسير الآيات كلها، فبين أيدينا في الظلال عدة طرق سلكها سيد في التفسير:

الآية الأولى من سورة النساء اعتبرها سيد جزءاً من درس ضم الآيات من ١ - ١٤. كما اعتبرها مقطعاً قائماً بذاته. فلننظر طريقته في تفسيرها.

أورد الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[1].

ثم ذكر موضوعها، وقسمها إلى أجزاء: يا أيها الناس/ اتقوا ربكم/ الذي خلقكم/ من نفس واحدة/ وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء/.

وكل جزء من الآية يمثل حقيقة كبيرة جداً، وعميقة جداً، وثقيلة جداً. وهي حقائق فطرية بسيطة، ولكن «الناس» يغفلون عنها أحياناً.

«وإن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى»:

ووقف يسجل أهم الدلالات والحقائق التي نأخذها من الآية:

أولاً: إنها ابتداء تذكِّر «الناس» بمصدرهم الذي صدروا عنه، وتردهم إلى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم ﴾.

ثانياً: توحي الآية بأن البشرية تتصل في رحم واحدة، وتلتقي في وشيجة واحدة، وتنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد: «الذي خلقكم من نفس واحدة».

ثالثاً: وتوحي الآية بأنه من هذه النفس الواحدة، خلق زوجها، وهي ذات قيمة كبيرة في النظرة إلى المرأة.. (وخلق منها زوجها).

رابعاً: وتوحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة، وهي التي

(١) النساء: ١.

لها الرعاية في النظام الإسلامي، والمقام الأول في النظام الاجتماعي الإسلامي: (وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء).

خامساً: النظرة الفاحصة إلى التنوع في خصائص الأفراد واستعداداتهم - بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة - على المدى الطويل للحياة البشرية، إذ تتنوع الأفراد في الأشكال، والسمات والملامح، والطباع والأمزجة والأخلاق والمشاعر والاستعدادات والاهتمامات والوظائف... وفي كل شيء. هذه النظرة تشي بالقدرة المبدعة على غير مثال، وبها يتعمق الإيمان في قلب الناظر، ويعيش الفاعلية الإيجابية لقدرة الله وإرادته وحكمته وتدبيره. «والتأمل في الناس على هذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زاداً من الأنس والمتاع، فوق زاد الإيمان والتقوى..»[1].

وبعد تقرير تلك الحقائق انتقل إلى القسم الثاني من الآية وهو قوله تعالى: ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ حيث استوقفه الأمر بتقوى الأرحام الذي يلقي (ظلاله الشعورية في النفس، ثم لا يكاد الإنسان يجد ما يشرح به تلك الظلال!)، واعتبر هذا القسم ختاماً متناسباً مع موضوعها وربطاً للحياة بالعقيدة، والشعور الحي برقابة الله - سبحانه - وأثر هذا في معايشة الحقائق السابقة في واقع الحياة[2]..

وهذه طريقة أخرى له في تفسير آية أخرى من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ﴾[3].

حيث قسمها إلى قسمين:

القسم الأول: ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ﴾ واعتبر أن هذا القرآن يحمل برهانه للناس من رب الناس. إنه كلام الله المعجز، وشتان بينه وبين كلام البشر. وهذا ظاهر في مبناه وفي فحواه، وهذه قضية واضحة

---

(١) انظر تفصيل هذه الحقائق في الظلال ١: ٥٧٣ - ٥٧٥.

(٢) انظر الظلال ١: ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٣) النساء: ١٧٤.

يدركها العرب كلهم، حتى يدركها من لا يعرفون شيئاً من العربية أحياناً.

وللاستدلال على هذه الدعوى، يورد سيد قطب موجزاً لحادثة له مع المرأة اليوغوسلافية، عندما تأثرت لآيات القرآن التي تلاها سيد في خطبة وصلاة الجمعة على ظهر الباخرة.. ويورد دليلاً آخر على ذلك وهي حادثة جرت لرسول الله - ﷺ - مع مجموعة من زعماء قريش، وسماعهم سراً قراءة الرسول - عليه السلام - عدة ليالٍ. ونلاحظ هنا أنه أشار إلى هذه الحادثة بإيجاز في صلب التفسير، وذكر الخبر من سيرة ابن هشام كاملاً في حاشية الصفحة.

والقسم الثاني: ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبينا ﴾ أشار في تفسيره له إلى أهم آفاق هذا النور القرآني الهادي، وأهم آثاره في تصورات ومشاعر وحياة الإنسان، وبعد هذه الإشارة، أعلن أنه عاجز عن تصوير حقيقة هذا النور بألفاظه، ودعا القراء إلى مشاركته هذه الحقيقة بتذوقها إذ لا بدّ من المكابدة والمعاناة، والتذوق والتجربة المباشرة[1].

وهذا مثال ثالث تظهر فيه طريقة أخرى: وذلك عندما فسر قوله تعالى - من سورة الأنعام -: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين.. ﴾[2].

فقد ذكر موضوع هذه الآية، ثم ذكر سبب نزولها بأسلوبه هو، ثم أورد نص الحديث في ذلك الذي رواه مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - ثم أشار إلى العبرة من هذا الحادث[3].

أما آية (٧٠) من سورة الأنعام فقد سلك في تفسيرها طريقة أخرى. إذ أورد نص الآية وهو قوله تعالى: ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم

(١) انظر الظلال ٢: ٨٢١ - ٨٢٢.
(٢) الأنعام: ٥٢.
(٣) انظر الظلال ٢: ١٠٩٩ - ١٠٠.

الحياة الدنيا، وذكِّر به أن تُبسل نفس بما كسبت، ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذْ منها. أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾[1].

ثم وقف مباشرة أمام دلالات وحقائق الآية، وكان يلتفت إلى الواقعية في تلك الدلالات ويركز على الدعوية منها، ويحرص على تعميم دلالتها لتشمل كل مسلم ـ رغم أن الخطاب موجه لرسول الله ﷺ ـ كما تشمل كل من اتخذ دينه لعباً ولهواً، سواء كان مشركاً أو منافقاً أو غير ذلك في أي زمان أو مكان.

ولما تحدث عن حدود مجالسة الظالمين الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، ـ كدلالة تؤخذ من الآية ـ نقل كلاماً حرفياً للقرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» رد القرطبي فيه على الشيعة الذين أجازوا التقية لأئمتهم، ثم اعتمد سيد كلام القرطبي وتبناه، وبعد ذلك نقل أقوالاً مأثورة عن بعض علماء المسلمين في هجر صاحب البدعة أوردها القرطبي أيضاً في تفسيره.

وإذا كان كلامهم في صاحب البدعة، فما الحكم في كفار هذه الأيام؟ لقد عمم سيد كلام السابقين في المبتدع ليشمل الكافر الذي يجب هجره، وتحرم مجالسته ـ إلا بنية الدعوة[2] ـ.

صور من تفسيره للآيات:

إننا عندما نمعن النظر في طريقة سيد في التفسير، ونقلب صفحات الظلال فإننا سنرى سيد يستخدم الأساليب التالية:

أحياناً يفسر المقطع من الآية، ثم يورده ولا يعقب عليه بشيء، بل ينتقل للمقطع الذي يليه. فعل هذا في تفسيره جزءاً من الآية رقم (٢٥٨) من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه

---

(١) الأنعام: ٧٠.
(٢) انظر الظلال ٢: ١١٢٨ ـ ١١٣٠.

الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت. . ﴾[1].

فقولة الطاغية: «أنا أحيي وأميت» فسرها سيد، وبيَّن مقصد إبراهيم بقوله: «ربي الذي يحيي ويميت» وسذاجة وعجرفة الطاغية ومقصده من قوله: «أنا أحيي وأميت» ثم أورد هذا المقطع من الآية وانتقل بعد ذلك إلى المقطع التالي[2].

وكذلك فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده؟ أفلا تعقلون؟ ﴾[3].

وأحياناً يفسر الآية، وبعد انتهائه منها يقف وقفة أمام جزء منها لما فيه من دلالة خاصة يريد سيد التأكيد عليها، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ قل: يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء. وما الله بغافل عما تعملون ﴾[4].

فبعد أن انتهى من تفسير الآية، وقف أمام الجزء الأخير منها فقال: «ولا بدّ من وقفة أمام وصفه تعالى لهؤلاء القوم بقوله:﴿لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا؟﴾إنها لفتة ذات مغزى كبير. . .»[5].

وكذلك فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[6]. فقد استوقفه القسم الأخير من الآية، وبعد ما فرغ من تفسيرها، قال: «ونقف من هذه اللفتة «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة، ونختار منها ثلاثاً على سبيل الاختصار الذي لا

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) انظر الظلال ١: ٢٩٨.

(٣) آل عمران: ٦٥ أنظر تفسيرها في الظلال ١: ٤١١.

(٤) آل عمران: ٩٩.

(٥) انظر الظلال ١: ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٦) النساء: ١٦٥.

يخرج بنا عن الظلال[٢]. وهذه الإيحاءات الثلاثة المختصرة ملأت من الظلال سبع صفحات!! .

ونفس الطريقة كانت في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.. ﴾[٣] حيث فسر الآية في حوالي ثلاث صفحات[٤]، بينما استغرقت وقفته أمام الغيب ومفاتحه أكثر من سبع صفحات..»[٥].

وأحياناً يورد النص، ثم يذكر موضوعه، ثم يعمم دلالته، ثم يورد أقوالاً مأثورة في تحديد سبب نزوله، أو تفسيره. كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض.. للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن.. واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليماً.. ﴾[٦].

فالآية تقرر أن هناك بعض أنواع التفضيل بين المؤمنين، وبخاصة بين الرجال والنساء، وتوجه المسلمين لطلب ما عند الله، والسؤال من فضله. وقد عمم سيد دلالة هذا النص على كل ألوان التفضيل والتفاضل بين المسلمين، ولم يقصره على التفاضل بين الرجال والنساء في الأنصبة خاصة. فهذا الجانب ـ على أهميته ـ لا ينفي عموم النص مع خصوص السبب. حيث نزلت الآية تجيب على بعض التساؤلات حول التفاوت بين الرجال والنساء في الجهاد والميراث.

وقد روت التفاسير المأثورة روايات تحمل الآية على معنى خاص في

---

(١) الظلال: ٨٠٦.
(٢) انظر الظلال ٢: ٨٠٦ ـ ٨١٢.
(٣) الأنعام: ٥٩.
(٤) انظر الظلال ٢: ١١١١ ـ ١١١٣.
(٥) انظر الظلال ٢: ١١١٣ ـ ١١٢١.
(٦) النساء: ٣٢.

التفاوت بين الرجال والنساء، وروايات أخرى تعمم مدلولها لتشمل كل صور التفاضل بين المسلمين. وقد أورد سيد نماذج لهذه الروايات وتلك. فأورد روايتين عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ في سبب النزول الخاص الذي أشرنا إليه. ورواية ثالثة عن السدي، وأشار إلى رواية رابعة عن قتادة وكلها تحمل الآية على المعنى الخاص في التفاوت بين الرجال والنساء.

ثم أورد رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تعمم حكم الآية على كل تفاضل بين المسلمين. وتنهي عن أي تمنّ لرجل أو امرأة ما فضل به عليه رجل آخر أو امرأة أخرى.. وأشار إلى ثلاث روايات أخرى لكل من: الحسن وابن سيرين وعطاء والضحاك، فيها ذلك التعميم.

ثم وقف وقفة يتحدث فيها عن التنوع بين الجنسين في الخصائص والوظائف، وعن طريق هذا التنوع ينشأ تنوع آخر في التكاليف والمراكز والأنصبة. وهذه هي الحياة، فمن العبث تصوير الأمر والموقف كما لو كان معركة حادة بين الجنسين في المجتمع الإسلامي والتشريع الإسلامي..

وحتى يزيل الغشاوة عن أعين المخدوعين والمخدوعات في هذه الأيام شرع يبين الحِكَم من التفاوت بين الرجال والنساء ـ انطلاقاً من منهجه في «بيان حكم التشريع وتعليل الأحكام» ـ في بعض مظاهر التشريع، وهي: الجهاد والميراث ويقارن في هذا بين التشريع الرباني الحكيم والتشريع الجاهلي القاصر[1].

وأحياناً يطلعنا على طريقة له في تفسير بعض الآيات، ولكنها ليست مطردة ـ كما لاحظنا من الأمثلة السابقة ـ فعندما فسر قوله تعالى: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه.. إن كنتم بآياته مؤمنين..﴾[2] فسره من ناحيتين: الناحية الفقهية ببيان الأحكام التي تقررها، ومن الناحية الاعتقادية، وارتباط الأحكام الفقهية بشأن الذبائح بالعقيدة والتصور الاعتقادي. وقدم الناحية الاعتقادية بقوله: (وقبل أن ندخل في تفصيل هذه الأحكام من الناحية الفقهية

---

(١) انظر الظلال ٢: ٦٤٢ ـ ٦٤٦.

(٢) الأنعام: ١١٨.

يهمنا أن نبرز المبادىء الاعتقادية التي تقررها)[1].

وأحياناً يورد فقرات من كلامه هو، سبق له إيراده في الظلال، لكونه ألصق بموضوع الآية، فلما فسر قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولـون من المهاجرين والأنصار. والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهـار خالـدين فيها أبـدا، ذلك الفـوز العظيم﴾[2]. اعتبر هذه المجموعات الثلاث تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي بعد الفتح، ثم أورد أقوالاً في تعيين المقصود بكل مجموعة منها ورجح ما يراه مناسباً.

ثم نقل فقرات كاملة له عن مراحل بناء المجتمع الإسلامي، أوردها في بداية تفسيره لسورة التوبة، مهد لها بقوله: (ولعله يحسن أن نعيد هنا فقرات مما سبق أن فصلناه في الجزء العاشر عن مراحل بناء المجتمع المسلم وتكوّن طبقاته الإيمانية، يكون حاضراً بين يدي قارىء هذا الجزء، خيراً من إحالته إلى الجزء السابق، لتكون هذه الحقيقة قريبة منه يتتبع على ضوئها ذلك التصنيف النهائي للمجتمع في الآيات التي نواجهها هنا)[3].

وقد أطال في نقله لفقراته حيث بلغ النقل أكثر من صفحتين[4]. .

وأحياناً ينقل كلاماً لغيره أثناء تفسيره للآية، يراه ضرورياً لتوضيح معناها، وتوسيع مدلولها، والاستشهاد في هذا بكلام أهل الاختصاص لزيادة اليقين والإيمان. كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ الذي له ملك السموات والأرض، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾[5] حيث أورد كلاماً علمياً من كتاب (العلم يدعو للإيمان)

---

(١) الظلال ٣: ١١٩٦ وانظر الظلال ١١٩٦ ـ ١١٩٩.
(٢) التوبة: ١٠٠.
(٣) الظلال ٣: ١٧٠٣.
(٤) انظر الظلال ٣: ١٧٠٣ ـ ١٧٠٥.
(٥) الفرقان: ٢.

يبين بعض مظاهر التقدير الإلهي في الخلق والتدبير الإلهي في الكون. الذي يكشف عنه العلم المزيد...)[1].

وأحياناً يقرر أن تفسير الآية يحتاج إلى التوسع في عرض بعض الموضوعات التي تتصل به، ولكنها حاجة ثانوية وليست أساسية، ولذلك لم يتوسع في ذلك، لأن هذا ليس ميدانه «الظلال»، وهو لا يريد أن يُخرج الظلال عن طبيعته.

فلما فسر قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة، فمستقر ومستودع. قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾[2] أشار إلى ما تقرره هذه الآية في شأن الحياة منذ أن كانت النفس البشرية في المستودع ـ وهو صلب الرجل ـ إلى أن انتقلت إلى المستقر ـ وهو رحم المرأة ـ ثم خرجت إلى الحياة الواقعية.. والنمو والانتشار في الحياة، والتكاثر والتنوع إلى ما لا يكاد يحصى.

وإدراك صنع الله في هذه النفس الواحدة يحتاج إلى فقه وبصيرة (فالفقه ضروري لإدراك صنع الله في هذه النفس الواحدة التي تنبثق منها النماذج والأنماط. ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار، وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكور والإناث ـ في عالم الإنسان ـ لتتم عملية التزواج التي قدر الله أن تكون هي وسيلة الاخصاب والإكثار. ووسيلة تنشئة الأطفال في ظروف تحفظ «إنسانيتهم» وتجعلهم أكفاء للحياة الإنسانية.

ولا نملك هنا في الظلال أن نبعد في عرض هذه المسألة بكل تفصيلاتها، لجلاء هذه الموافقات ـ فهي في حاجة إلى بحث متخصص ـ)[3].

---

(١) انظر الظلال ٥: ٢٥٤٨ ـ ٢٥٥٠.

(٢) الأنعام: ٩٨.

(٣) الظلال ٢: ١١٥٩ ـ ١١٦٠.

وأحياناً يثور في ذهنه تساؤل، فيجيب عليه أثناء تفسير الآية، أو يتوقع أن يثور هذا التساؤل في نفس القارىء، ولذلك يسعفه بالإجابة عليه، وفعلا كانت ترد على الذهن بعض الإشكالات، أو تثور بعض التساؤلات، عندما تقرأ بعض النصوص، وعندما تطلع على الظلال تجد الإجابة المقنعة على هذا. وهذا الأمر فيه من الحيوة ما فيه، والمفسر الذي يسعف القارىء، ويجيبه على تساؤلاته التي تثور في ذهنه يكون قريباً من روح القارىء ونفسه، كما يكون صاحب بديهة حاضرة، وفراسة نافذة، وحضور دائم أثناء التفسير.

لما فسر قوله تعالى: ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضلتكم على العالمين. ﴾[1] ثار في ذهنه تساؤل ـ وقد يثور في ذهن أي قارىء للآية ـ وهو: كيف فضل الله بني إسرائيل على العالمين، مع أنه فضل الأمة المسلمة على العاملين ـ بنص القرآن ـ؟ ولذلك يجيب سيد على هذا التساؤل، ويزيل هذا الاشكال بقوله: (وتفضيل الله لبني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد، وحق عليهم الوعيد. . .)[2].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفا ﴾[3] ورد على خاطره تساؤل ـ يرد على خواطر البعض ـ كيف التخفيف في أحكام الإسلام ـ التي تنظم العلاقات بين الجنسين، مع ما في ظاهر هذه الأحكام من جهد ومشقة؟ وفي إجابته على هذا التساؤل: اعتبر أن هذا هو التيسير والتخفيف لأنه يراعي فطرة الإنسان وطاقته، وحاجاته الحقيقية، وإطلاق كل طاقاته البانية. ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال.

---

(١) البقرة: ٤٧.

(٢) الظلال ١: ٦٩.

(٣) النساء: ٢٨.

أما الفوضى في العلاقات بين الجنسين، وإطلاق الشهوات من كل قيد، وتحري اللذة في كل تصرف. فإن هذا هو المشقة والجهد والمعاناة والخراب والدمار. . (إن هذه كلها تبدو يسراً وراحة وانطلاقاً. ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة. وعقابيلها في حياة المجتمع - بل في حياة كل فرد - عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة. والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي «تحررت» من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة، يكفي لإلقاء الرعب في القلوب لو كانت هنالك قلوب)[1].

وللتدليل على صحة كلامه ينقل معلومات عن المجتمعات الجاهلية المعاصرة، والأثر المدمر الذي تركه - وما يزال يتركه - فيها هذا الانحراف وقد استغرقت نقولاته أكثر من خمس صفحات[2].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[3]. أجاب على تساؤل قد يثور: كيف يبسط الله رزقه لمن يكفر به؟ وكيف يقدر رزقه - أي يضيقه ويقبضه - على من يطيعه أحياناً؟ وهل بسط الرزق دليل محبة الله لشخص أو رضاه عنه؟ وهل قبض الرزق وتضييقه علامة على غضب الله على شخص ومقته له؟ وكانت إجابته على ذلك وافية شافية[4]. .

وأحياناً يذكر قولين محتملين في تفسير بعض كلمات الآية - وقليلاً ما يفعل ذلك - ولا يطيل الوقفة أمامهما، بل يتجاوز ذلك لتسجيل إيحاءات ودلالات النص.

ما هو المقصود بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل في قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل. . ﴾[5] يحتمل

---

(١) الظلال ٢: ٦٣٢.
(٢) انظر الظلال ٢: ٦٣٢ - ٦٣٧.
(٣) سبأ: ٣٦.
(٤) انظر الظلال ٥: ٢٩١٠ - ٢٩١١.
(٥) آل عمران: ٢٧.

ذلك احتمالين، يوردهما سيد ثم يتابع تفسيره: «وسواء كان معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو: أخذ هذا من ذاك وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول. أو كان هو دخول هذا في هذا عند دبيب الظلمة ودبيب الضياء في الأمساء والأصباح.. سواء كان هذا أو ذاك فإن القلب يكاد يبصر يد الله وهي تحرك الأفلاك، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة..»[1].

ما هو القرح الذي أصاب المسلمين والمشركين معاً في قوله تعالى - في التعقيب على غزوة أُحد - ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله.. ﴾[2] وفي أي الغزوات مسّ القرح كلا من الفريقين؟ أورد سيد احتمالين في تخصيص تلك الغزوة: «وذكر القرح الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرح مثله، قد يكون إشارة إلى غزوة بدر. وقد مس القرح فيها المشركين، وسلم المسلمون. وقد يكون إشارة إلى غزوة أُحد. وقد انتصر المسلمون في أول الأمر، حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون..»[3].

من هم المشركون المعنيون بقوله تعالى: ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى.. ﴾[4].. «الأقرب أن يكونوا هم المشركين الذين كان الحديث عنهم في أول السورة (وهم مشركو قريش). فهم الذين ينطبق عليهم هذا التبجح في الوقوف للدعوة الإسلامية، التبجح الذي يعبر عنه بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول - ﷺ - وإن كان هناك احتمال آخر وهو أن يكون الحديث عاماً لكل من يقف هذا الموقف، يشمل اليهود في المدينة ويشمل المنافقين، على سبيل التهديد لهم... ولكن الاحتمال الأول أقرب..»[5].

وقد يقف ليرجح أحد الاحتمالين اللذين أوردهما، كما في تفسير قوله تعالى - في خطاب موسى - عليه السلام - لبني إسرائيل - ﴿ اهبطوا مصراً فإن

(١) الظلال ٢: ٣٨٤.
(٢) آل عمران: ١٤٠.
(٣) الظلال ١: ٤٨٠.
(٤) محمد: ٣٢.
(٥) الظلال ٦: ٣٣٠٠.

لكم ما سألتم. . ﴾[1] فما هي مصر المقصودة؟ إنها إما أن تعني أية مدينة «بمعنى أن ما يطلبونه هين زهيد (من البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل) لا يستحق الدعاء، فهو موفور في أي مصر من الأمصار، فاهبطوا أية مدينة فإنكم واجدوه فيها. . ».

وأما أن يقصد مصر «القطر المعروف. . » بمعنى عودوا إذن إلى مصر التي أخرجتم منها. . عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة إلى حياتكم الخانعة الذليلة. . حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء! ودعوا الأمور الكبار التي ندبتم لها. . ويكون هذا من موسى ـ عليه السلام ـ تأنيباً لهم وتوبيخاً[2].

لكن أيهما أرجح عند سيد؟

إنه الاحتمال الثاني. قال: «وأنا أرجح التأويل الذي استبعده بعض المفسرين، أرجحه بسبب ما أعقبه في السياق من قوله تعالى: ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله. . ﴾[3]. فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب من الله، لم يكن ـ من الناحية التاريخية ـ في هذه المرحلة من تاريخهم، إنما كان فيما بعد، بعد وقوع ما ذكرته الآية في ختامها﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾[4].

وقد وقع هذا منهم متأخراً بعد عهد موسى بأجيال. إنما عجل السياق

---

(١) البقرة: ٦١.

(٢) الظلال ١: ٧٤ وقد بيَّن الآلوسي في «روح المعاني» أن مصر هنا مصروفة قال: «وأسماء المواضع قد تعتبر من حيث المكانية فتذكَّر، وقد تعتبر من حيث الأرضية فتؤنث، فهو ـ إن جُعل عاماً ـ فاما باعتبار كونه بلدة (أي إقليم مصر) فالصرف مع العلمية والتأنيث لسكون الوسط (كنوح وإبراهيم: لأن الثلاثي ساكن الوسط لا يمنع من الصرف، وإن كان علماً مؤنثاً أو أعجمياً (أنظر ضياء السالك إلى أوضح المسالك ٣: ٣٧١ ـ ٣٧٢) وإما باعتبار كونه بلداً (غير معين) فالصرف على بابه». : روح المعاني ١: ٢٧٥.

(٣) البقرة: ٦١.

(٤) البقرة: ٦١.

بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا، لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء، فناسب أن يكون قول موسى لهم «اهبطوا مصرا» هو تذكير لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه، ثم هفوة نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذل والهوان»[١].

ولا أريد أن أناقش سيد في ترجيحه هنا، لأن المجال مجال عرض لطريقته في التفسير، ولكنني أريد أن أقول بأن سيد لم يبخل علينا ببيان أسباب ترجيحه، حيث اعتمد على السياق، وانطلق في ترجيحه من مراعاة التناسب والربط بين جزئيات الآية، والتناسق الفني في صياغتها.

وإذا ما فسر آية وتوسع في الحديث عن موضوعها، ووردت فيما بعد آية تتناول الموضوع نفسه من زاوية أخرى وبطريقة أخرى، فإنه لا يكرر نفس الحديث السابق، وإنما يتناوله تناولاً سريعاً ويحيل على تفسيره السابق، وهذا كثير في الظلال نكتفي للتدليل عليه بهذه النماذج.

في تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة.. ﴾[٢] لم يتوسع في الحديث عن تحريم الربا وكشف ضرره لأنه كانت له وقفة مطولة عند تفسير آيات سابقة: ولذلك قال: «ولقد سبق الحديث عن الربا والنظام الربوي بالتفصيل في الجزء الثالث من هذه الظلال فلا نكرر الحديث عنه هنا. ولكن نقف عند الأضعاف المضاعفة..»[٣].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب.. ﴾[٤] (قال: «ولقد سبق في هذا الجزء حديث عن التوبة في ظلال قوله تعالى - في سورة آل عمران - ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم.. ﴾[٥] وهو بجملته يصح نقله هنا! ولكن التعبير في هذه السورة يستهدف غرضاً آخر.. يستهدف بيان طبيعة التوبة وحقيقتها..»[٦].

---

(١) الظلال ١ : ٧٥.
(٢) آل عمران: ١٣١.
(٣) الظلال ١ : ٤٧٣.
(٤) النساء: ١٧.
(٥) آل عمران: ١٣٥.
(٦) الظلال ١ : ٦٠٣.

ولما فسر قوله تعالى: ﴿والمحصنات من النسـاء ـ إلا ما ملكت أيمانكم﴾[1] وجاء دور الحديث عن ملك اليمين وعن الرق عموماً قال: «ولقد سبق لنا في الجزء الثاني من هذه الظلال بيان موقف الإسلام من مسألة الرق بجملتها. كذلك ورد بيان آخر عند تفسير قوله تعالى: ﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق، فإما مَنًّا بعد وإمـا فداء، حتى تضـع الحرب أوزارها﴾[2] في سورة محمد، في الجزء السادس والعشرين، فيرجع إليهما في مواضعهما. . »[3].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والمنخنقة، والموقوذة، والمتردية والنطيحة، وما أكل السبع إلا ما ذكيتم، وما ذبح على النصب. . ﴾[4] لم يتحدث عن بيان الحكمة من تحريم المحرمات الثلاث الأولى من الآية: «سبق بيان حكمها، وتعليل هذا الحكم في حدود ما يصل إليه العلم البشري بحكمة التشريع الإلهي، عند استعراض آية سورة البقرة الخاصة بهذه المحرمات (ص ١٥٦ ـ ١٥٧) من الجزء الثاني من الظلال. . »[5] أما المحرمات الأخرى التي وردت في هذه الآية فقد كان لسيد وقفة بيَّن فيها الحكمة من تحريمها.

وأحياناً تكون إحالاته على الكتب المتخصصة، لأن الظلال ليس ميداناً لذلك الموضوع، وأغلب ما تكون هذه الإحالات عند تعرضه للموضوعات الفقهية.

فعندما تحدث عن المحرمات ـ في المثال السابق ـ اكتفى ببيان

---

(١) النساء: ٢٤.

(٢) محمد: ٤.

(٣) الظلال ٢: ٦٢٢. وهذه الإحالة من سيد في تفسيره لسورة من أوائل القرآن، على تفسيره لسورة من الأجزاء الأخيرة للقرآن. تذكرنا بإحالات الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب» التي هي مثل هذه الإحالة، مما يجعلنا نرجح أن يكون الرازي فسر القرآن مرتين ـ مثل سيد قطب ـ وفي المرة الثانية والمنقحة ـ لم يتمكن من إتمامها. مما جعل البعض يعتقد أن الرازي مات قبل إتمام تفسيره. ولكن باستصحاب طريقة سيد قطب هنا ـ يترجح ما قلناه!!!.

(٤) المائدة: ٣٠.

(٥) الظلال ٢: ٨٤٠.

الحكمة من تحريمها، أما تناولها من زاوية فقهية، والأقوال والاختلافات فيها فقال فيه: «التفصيل يطلب في كتب الفقه المختصة»(١).

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما، جزاء بما كسبا نكالا من الله.. ﴾(٢) ووصل إلى بيان الشبهات التي تدرأ الحد، أشار إلى اختلاف الفقهاء فيما يعتبر شبهة منها، وذكر خلاصة رأي كل من الأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة في ذلك. ثم قال: «ولا نملك أن نمضي في تفصيل اختلافات الفقهاء في هذا المجال، فتطلب في كتب الفقه، وحسبنا هذه الأمثلة للدلالة على سماحة الإسلام، وحرصه على ألا يأخذ الناس بالشبهات..»(٣).

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه، وللرسول، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل.. ﴾(٤) أشار إشارات سريعة إلى أهم الخلافات الفقهية في موضوع الغنائم، وحول كيفية تقسيم الخمس الأخير، وأصحاب أخماسه التي أشارت إليها الآية. ثم قال: «ونحن - على طريقتنا في هذه الظلال - لا ندخل في هذه التفريعات الفقهية التي يحسن أن تطلب في مباحثها الخاصة..»(٥).

.. وأخيراً، وفي نهاية هذا المبحث عن طريقة سيد قطب في التفسير التفصيلي للآيات، أحب أن أشير إلى أن سيد كان يعيش في ظلال الآية، ويتفاعل معها بكل كيانه، ويفتح لها كل منافذ نفسه، ويتلقى بكل مشاعره ظلالها وإيحاءاتها ومعانيها، ويملأ نفسه منها... ثم يكتب تفسيرها وهو في هذه الحالة من الإشباع والتأثر والانفعال والتوهج والإشراق.. ويعرض ما يجده بأسلوبه السلس المؤثر، وتتولى القيم التعبيرية ترجمة بعض ما تحسّه القيم الشعورية عنده...

---

(١) الظلال ٢: ٨٤٠.
(٢) المائدة: ٣٨.
(٣) الظلال ٢: ٨٨٤.
(٤) الأنفال: ٤١.
(٥) الظلال ٣: ١٥١٨.

وأكتفي بإيراد هذا المثال الذي أطلعنا فيه سيد على حالته وتأثره وانفعاله وهو يفسر آيات القرآن الكريم.

فلما فسر قوله تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً، فيوحي بإذنه ما يشاء.. ﴾[1].

وقف وقفة تساءل فيها عن كيفية اتصال السماء بالأرض، وكيف يتصل الوحي بالرسول البشر؟ وكيف يتلقى الرسول البشر كلام الله الأزلي الأبدي؟ وكيف؟ وكيف؟

ويجيب نفسه: «مالك تسأل عن كيف؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا في حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية؟! لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة. وصار لها وجود هو الذي تملك أن تدركه من وجود.

ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزول! إن النبوة هذه أمر عظيم حقاً. وإن لحظة التلقي هذه لعظيمة حقاً. تلقيٍّ الذات الإنسانية الوحي من الذات العلوية... أخي الذي تقرأ هذه الكلمات، أأنت معي في هذا التصور؟ أأنت تحاول أن تتصور؟! هذا الوحي الصادر من هناك. أأقول: هناك؟! كلا. إنه ليس هناك «هناك»! الصادر من غير مكان ولا زمان. ولا حيز ولا حد ولا جهة ولا ظرف. الصادر من المطلق، النهائي، الأزلي، الأبدي، الصادر من الله ذي الجلال إلى الإنسان.. إنسان مهما يكن رسولاً نبياً، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود.. هذا الوحي. هذا الاتصال العجيب المعجز. الذي لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق.. أخي الذي تقرأ هذه الكلمات. هل تحسّ ما أحسّ من وراء هذه العبارات المتقطعة التي أحاول أن أنقل بها ما يخالج كياني كله؟ إنني لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كياني كله من الروعة والرجفة، وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم العجيب الخارق في طبيعته والخارق في صورته، الذي حدث مرات ومرات. وأحسّ بحدوثه أناس رأوا مظاهره رأي العين، على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ..»[2].

---

(1) الشورى: ٥١.

(2) الظلال ٥: ٣٣١٧.

بهذا أرجو أن أكون قد أوضحت طريقة سيد قطب في التفسير التفصيلي للآيات. ابتداء من تقسيم السورة إلى دروس متناسبة، والربط بين هذه الدروس، ثم تقسيم الدرس الواحد إلى مقاطع متناسبة كذلك. وتسجيل دلالات وحقائق المقطع: إما قبل تفسير المقطع المفصل، وإما بعد الانتهاء من تفسيره. ثم تفسير الآية: الذي لم يكن له طريقة موحدة في تفسيرها. إذ تنوعت طرقه في ذلك التفسير ـ كما أوضحت ذلك من خلال النماذج التي أوردتها ـ.

الفصل الثاني

سيد قطب والطريقة المثلى في التفسير

المبحث الأول

تفسير القرآن بالقرآن

كثر نظر العلماء في كتاب الله الكريم، وتعددت أساليبهم في تفسير آياته، وتنوعت مدارسهم التي ينتمون إليها، وطالت تفاسيرهم أو قصرت أو توسطت ـ حسب هدف ومنهج كل منهم ـ ولكن المحققين من العلماء بينوا لنا الطريقة المثلى في تفسير القرآن، والنموذج الأمثل الذي يجب أن يحتذى.

لقد رسموا للمفسر ـ أي مفسر ـ الخطوات المتدرجة التي عليه أن يسير عليها، والمراحل المنهجية التي لا يجوز له مخالفتها. . وهذا ما أورده معظم من كتبوا في «علوم القرآن».

ونورد فيما يلي قول الإمام بدر الدين الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن» في بيان هذه الطريقة المثلى في التفسير:

قال: ـ تحت عنوان «أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن» ـ (أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فقد فُصِّل في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فإنه قد بُسط في آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنّة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال تعالى: ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه، وهدى ورحمة لقوم

يؤمنون ﴾(١) ولهذا قال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»(٢). يعني السنّة، فإن لم يوجد في السنة يرجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرآن، ولما أعطاهم الله من الفهم العجيب، فإن لم يوجد ذلك يرجع إلى النظر والاستنباط ـ بالشرط السابق ـ)(٣).

الخطوات التي يجب على المفسر أن يسلكها ـ حسب الطريقة المثلى في التفسير ـ إذن، هي: ـ

١ ـ أن يفسر القرآن بالقرآن.
٢ ـ أن يفسر القرآن بالسنّة.
٣ ـ أن يرجع إلى أقوال الصحابة.
٤ ـ أن ينظر هو في الآيات ويتدبر فيها ويستنبط منها.

وفي ذلك يقول الزركشي في البرهان ـ أيضاً (والحق أن علم التفسير منه ما يتوقف على النقل، كسبب النزول، والنسخ، وتعيين المبهم، وتبيين المجمل. ومنه ما لا يتوقف، ويكفي في تحصيله التفقه على الوجه المعتبر..)(٤).

ويطيب لي أن أورد ـ بهذه المناسبة ـ كلاماً رائعاً للإمام الشهيد حسن البنا، في بيان الطريقة المثلى للتفسير ـ ولكن بعبارات أخرى ـ إذ أجاب سائلاً عن أفضل التفاسير وأقرب طرق الفهم لكتاب الله «قلبك! فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى. وأقرب طرق الفهم أن يقرأ القارىء بتدبر وخشوع، وأن يستلهم الرشد والسداد، ويجمع

---

(١) النحل: ٦٤.

(٢) جزء من حديث ـ صحيح ـ رواه أبو داود: باب لزوم السنّة، عن المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ أنظر جامع الأصول لابن الأثير ١: ٢٨١ مع ملاحظة الحاشية.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢: ١٧٥ ـ ١٧٦ وانظر المسائل المتعلقة بموضوعنا هذا في البرهان ٢: ١٥٦ ـ ١٧٥.

(٤) البرهان ٢: ١٧١، وانظر كلام الزركشي ـ الرائع ـ في بيان الحجب والموانع التي تحجب المفسر عن كتاب الله. وبيان الطريق الذي يفتح الله به عليه منها في فصل «أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر» ٢: ١٨٠ ـ ١٨١.

شوارد فكره حين التلاوة، وأن يلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة، ويعني بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة، فسيجد في ذلك أكبر العون على الفهم الصحيح السليم.. إذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دق عليه، أو تركيب خفي أمامه معناه، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله. فهي مساعدات على الفهم.. والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوءه في صميم القلب..)[١].

والآن، وبعد بيان الطريقة المثلى في التفسير، نريد أن ننظر في الظلال هل تحققت فيه هذه الطريقة! وهل راعاها سيد قطب وهو يفسر آيات كتاب الله!

إن الناظر في الظلال ـ نظرة فاحصة شاملة ـ يجد أن الظلال قد تحققت فيه هذه الطريقة وأن سيد كان يتبع أحسن طرق التفسير: فكثيراً ما كان يفسر القرآن بالقرآن، وكثيراً ما كان يفسر القرآن بالحديث، وكثيراً ما كان يستصحب الملابسات التاريخية ويعيش جو النزول، وينظر في الآيات من خلال استحضاره أحداث السيرة النبوية، وتفاعل الصحابة مع القرآن وتطبيقهم له. وقد تحدثنا عن بعض هذه الأمور، في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الكتاب[٢].

وسنقدم فيما يلي أمثلة من الظلال على تحقق الطريقة المثلى فيه:

تفسير القرآن بالقرآن:

كان سيد قطب يفسر القرآن بالقرآن، ويجمع ـ في ذهنه أو في الظلال ـ الآيات المتشابهة في الموضوع الواحد. ويخرج بدلالة موحدة منها كلها. لأن

---

(١) مقدمات تفسير القرآن لحسن البنا: ٣٠ وأشير ـ بهذه المناسبة ـ إلى كتاب (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله) لعبد الرحمن الميداني وانظر ـ إن شئت ـ كتابنا «مفاتيح للتعامل مع القرآن».

(٢) انظر مباحث (الإلمام بالملابسات التاريخية لنزول القرآن) و(بيان تعامل الصحابة مع القرآن) و(الاستشهاد للنص بالواقع التاريخي) في الفصل المشار إليه أعلاه.

القرآن متفق غير مختلف، ولا تعارض بين نصوصه، وإن كان تعارض فهو موهوم سرعان ما يتلاشى بالجمع بين النصوص والنظر فيها، وكثيراً ما كان سيد يقف لينكر على البعض نظرتهم «التجزيئية» للنصوص، أو الأخذ بنص واحد وترك ما يماثله من النصوص الأخرى، لأنهم بعملهم هذا لا يفسرون القرآن بالقرآن أولاً، ويُجزِّئون نصوصه ويفرقونها ثانياً، ويخرجون بنتائج وأحكام تخالف توجيهات وحقائق القرآن ثالثاً.

أخذ على رجال الفرق السابقة من المسلمين جملة مآخذ قادتهم إلى أخطاء خطيرة في الفكر الإسلامي، ومن أهم هذه المآخذ ـ المتناسبة مع موضوعنا هنا ـ أن نظرتهم إلى نصوص القرآن ـ بخصوص الجبر والاختيار، وإرادة العبد ومشيئته وكسبه ـ كانت تجزيئية، فأعملوا بعض النصوص دون بعض، ولم يفسروا القرآن بالقرآن، ولم يجمعوا بين الآيات المتشابهة، ولذلك قال بعضهم بالجبر وبعضهم بالاختيار[1]. قال بعضهم إن الإنسان مخير مطلقاً، وله مشيئة طليقة، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ كلا إنه تذكرة، فمن شاء ذكره.. ﴾[2] وقد رد عليهم سيد استدلالهم هذا لأن (أخذ هذا الإطلاق، والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار، فهو اقتطاع لجانب من تصور كلي وحقيقة مطلقة، والتحيز بها في درب ضيق مغلق لا ينتهي إلى قول مريح. لأنها لم تجيء في السياق القرآني لمثل هذا التحيز في الدرب الضيق المغلق!)[3].

أما سيد فقد هداه الله إلى النظر في النصوص بشأن الهدى والضلال مجتمعة ولذلك خرج من مجموعها بدلالة مقبولة مرضية. وقد أرانا الطريق التي سلكها حتى خرج بهذه الدلالة فقال ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾[4] (ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً

---

(١) انظر رده عليهم في الظلال ٢: ١٠٦٥ ـ ١٠٦٦.

(٢) المدثر: ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) الظلال ٦: ٣٧٦٤.

(٤) الأعراف: ١٧٨.

يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون عن الفرق الإسلامية، والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً)[1].

بينما أصحاب الفرق الإسلامية أخذوا هـذه النصوص فـرادى وفق أهوائهم ووضعوها في مواجهة بعضها البعض. يقول سيد ـ بعد تقريـره الحقيقة بشأن الهدى والضلال ـ (وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج والجدل. .)[2].

وفي معرض بيانه لحقيقة موقف أهل الكتاب ـ قديماً وحديثاً ـ من الأمة المسلمة، الذي تقرره آيات القرآن الكريم، وضع يده على مكمن الخطر الذي تنطلق منه دعوات الخادعين والمخدوعين في هذه المسألة. وهي عدم تفسيرهم القرآن بالقرآن، وتجزئتهم المتعمدة لآياته الكريمة.

(إن هؤلاء يجتزئون فيما يقولون ويكتبون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب، وأن يتسامحوا معهم في المعيشة والسلوك ويغفلون التحذيرات الحاسمة عن موالاتهم، والتقريرات الواعية عن بواعثهم، والتعليمات الصريحة عن خطة الحركة الإسلامية وخطة التنظيم التي تحرم التناصر والموالاة.

إن هؤلاء ممن يجعلون القرآن عضين، يجزئونه ويمزقونه، فيأخذون منه ما يشاؤن ـ مما يوافق دعوتهم الغافلة الساذجة على فرض بـراءتها ـ ويدَعون منه، ما لا يتفق مع اتجاههم الغافل أو المريب!)[3].

كان سيد قطب حريصاً على تفسير القرآن بالقرآن وعلى استصحاب الآيات المتشابهة بموضوعها، وعلى النظر فيها مجتمعة، وعلى استخراج

(١) الظلال ٣: ١٤٠٠.
(٢) الظلال ٣: ١٤٠٠.
(٣) الظلال ٢: ٩٢٥.

دلالاتها مجتمعة. والأمثلة على هذا كثيرة جداً في الظلال، نكتفي منها بهذه النماذج:

في تفسير قوله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن.. ﴾[1] تقرير بأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ابتلاه الله بكلمات من (الأوامر والتكاليف، فأتمهن وفاء وقضاء.. وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فتتحقق شهادته الجليلة: ﴿ وإبراهيم الذي وفّى ﴾[2].. وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم.. مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عز وجل..)[3].

ولما فسر قوله تعالى ـ في سورة النساء ـ: ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب: إن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذا مثلهم.. ﴾[4].

قال: (والذي تحيل إليه الآية هنا مما سبق تنزيله في الكتاب، هو قوله تعالى في سورة الأنعام ـ وهي مكية[5] ـ ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره.. ﴾[6].

ولما فسر قوله تعالى ـ في سورة المائدة ـ: ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم، رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾[7] وقف أمام عبارة في الآية وهي (وكلمته ألقاها إلى مريم) وحتى لا يخطىء في تفسيرها، فسرها بآية كريمة أخرى فقال: (وأقرب تفسير لهذه العبارة، أنه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن: إنه﴿ كن فيكون ﴾[8] فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب..).

أما عبارة (وروح منه) في الآية فقد استحضر سيد آيات أخرى عن خلق

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) النجم: ٣٧.

(٣) الظلال ١: ١١٢.

(٤) النساء: ١٤٠.

(٥) الظلال ٢: ٧٨١.

(٦) الأنعام: ٦٨.

(٧) النساء: ١٧١.

(٨) النحل: ٤٠.

عيسى ومن قبله آدم ـ عليهما السلام ـ تقرر أنهما خلقا من روح الله : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[1] وكذلك قال في قصة عيسى : ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾[2]. . .

فالأمر له سابقة. . والروح هنا هو الروح هناك. . ولم يقل أحد من أهل الكتاب ـ وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة من روح الله ـ إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى، مع تشابه الحال ـ من حيث قضية الروح والنفخة، ومن حيث الخلقة كذلك، بل إن آدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق مع وجود أم. . وكذلك قال الله ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم : خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون. . ﴾[3].

ويبدو في هذه الفقرة من الظلال كيف أن سيد أورد أربع آيات من القرآن الكريم، فسر بها آية من هذا الكتاب المعجز، واستدل منها ما يريد من الأدلة المنهجية، واستخرج منها الحقائق اليقينية، وأبطل بها آراء باطلة. وهي من أوضح الأمثلة على تفسيره القرآن بالقرآن.

وفي تفسيره للقصص القرآني ـ الموضوع الذي يغري المفسرين بالإقبال على الإسرائيليات ـ كان يفسر القرآن بالقرآن، لتوضيح بعض أحداثه، والوقوف على بعض حوادثه. .

فلما فسر قوله تعالى ـ من سورة الأعراف ـ: ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلًا لميقاتنا. فلما أخذتهم الرجفة قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي. . ﴾[4] احتاج أن يستعين بآية أخرى تبين سبب الرجفة التي أصابت القوم المختارين، لأن هذه الآية لا تبين سببها، ولذلك قال: (لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا. ذلك أنهم ـ كما ورد في السورة الأخرى طلبوا إلى

---

(١) ص: ٧١ ـ ٧٢.

(٢) الأنبياء: ٩١.

(٣) آل عمران: ٥٩ والفقرة من الظلال ٢ : ٨١٧.

(٤) الأعراف: ١٥٥.

موسى أن يروا الله جهرة، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض في الألواح).

وزاد الأمر إيضاحاً في الحاشية حيث قال: (لم ينص هنا على سبب الرجفة ولكن جاء في مثل هذا الموضع من القصة في سورة البقرة: ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون.. ﴾[1] والظاهر من السياق أنها هي هي. وليست حادثة أخرى في تاريخ بني إسرائيل مع موسى..)[2].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة.. ﴾[3] أورد احتمالين في السؤات التي بدت لهما: (والظاهر أنها السؤات الحسية، فبدت لهما وكانت عنهما مستورة، وأنها مواضع العفة في جسديهما. ويرجح ذلك أنهما أخذا يسترانهما بورق الجنة يشبكانه ليستر هذه المواضع..) وقد يكون اللباس الذي نزعه الشيطان ليس لباساً مادياً، إنما هو شعور ساتر، قد يكون هو شعور البراءة والطهارة والصلة بالله.)[4] واستدل للاحتمال الأول بآيات من كتاب الله، فقال: «وقد جاء في موضع آخر عن إبليس ﴿ ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾[5] وجاء: ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما.. ﴾[6].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى. قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. فاخرج إني لك من الناصحين.. ﴾[7]

---

(١) البقرة: ٥٥ ـ ٥٦.
(٢) الظلال ٣: ١٣٧٦.
(٣) طه: ١٢١.
(٤) الظلال ٥: ٢٣٥٤.
(٥) الأعراف: ٢٠.
(٦) الأعراف: ٢٧ وهو لم يرجح أحد الاحتمالين في الطبعة الأولى في الظلال عندما فسر الآية من سورة طه، حيث قال: (وعلى أية حال فهي مجرد فروض كما أسلفنا لا نؤكدها ولا نرجح واحداً منها، ٥: ٢٣٥٤ ـ ٢٣٥٥. ولكنه في الطبعة المنقحة عندما فسر الآيات التي استدل بها من سورة الأعراف ـ جزم بأنها سؤات حسية. فقال: (وسنعلم من السياق أنها سؤات حسّية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية ٣: ١٢٦٨ وانظر ٣: ١٢٧٩).
(٧) القصص: ٢٠.

استعان بآية أخرى في تعيين هذا الرجل فقال: (الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة غافر..)[1].

ما معنى تسيير الجبال في قوله تعالى: ﴿ وإذا الجبال سُيرت.. ﴾[2]. أورد آيات أخرى توضح ذلك فقال: (وتسيير الجبال قد يكون معناه: نسفها وبسها وتذريتها في الهواء، كما جاء في سورة أخرى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾[3] ﴿ وبست الجبال بساً، فكانت هباء منبثا.. ﴾[4] ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا.. ﴾[5] فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها. وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض، والذي يقول عنه القرآن ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾[6]. وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل..»[7].

(١) الظلال ٥: ٢٦٨٥.
(٢) التكوير: ٣.
(٣) طه: ١٠٥.
(٤) الواقعة: ٥ ـ ٦.
(٥) النبأ: ٢٠.
(٦) الزلزلة: ١.
(٧) الظلال ٦: ٣٨٣٨.

المبحث الثاني

«الظلال والتفسير الموضوعي»

ومما يتصل بحديثنا - عن تفسير القرآن بالقرآن في الظلال - الإشارة إلى «التفسير الموضوعي» في الظلال. فقد وجدنا أثناء نظراتنا المتكررة الفاحصة للظلال، مواطن فيه، طالت وقفة سيد قطب فيها، وكان يستحضر الآيات الأخرى المشابهة للآية أو الآيات التي يفسرها، ويفسر تلك الآيات المتشابهة، ويستخرج حقائقها ودلالاتها..

إن هذه الوقفات تصلح أمثلة للتفسير الموضوعي في الظلال - فضلاً عن اعتبارها من باب تفسير القرآن بالقرآن -.

والتفسير الموضوعي انتشر في العصر الحديث على أيدي باحثين إسلاميين، جمعوا فيه الآيات المتعلقة بموضوع واحد، وفسروها معاً، وانطلقوا من خلالها إلى عرض مبادىء الإسلام وأحكامه وتصوراته ومناهجه، ويصح أن تعتبر دراساتهم دراسات قرآنية - بهذا الاعتبار -.

والتفات سيد في الظلال إلى التفسير الموضوعي، ووجود ذلك التفسير فيه - بالإضافة إلى غيره - يزيد في قيمة الظلال، ويضيف سمة إلى سماته، ومزية إلى مزاياه!!.

ووقفات سيد التي ذكرناها، وجمعه لتلك الآيات، وحديثه عنها، أحياناً يكون موجزاً وقصيراً لايصح أن يعتبر ضمن التفسير الموضوعي، وأحياناً يكون أطول قليلاً بحيث يعتبر نواة للتفسير الموضوعي وأحياناً يكون طويلاً وشاملاً بحيث يكون تفسيراً موضوعياً قائماً بذاته.

أما النوع الأول القصير الذي يجب أن يعتبر من باب تفسير القرآن بالقرآن فسنكتفي بالتمثيل له بمثال واحد:

وقف سيد أمام دخول إبليس ضمن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم. وناقش هذه القضية في معظم المواطن التي أشارت إلى عدم سجوده مع توجه أمر الله له:

كان يتساءل: هل إبليس من الملائكة؟ وإذا كان منهم فكيف يعصي أمر الله؟ وإذا لم يكن منهم فكيف شمله خطابهم؟ وإذا لم يكن منهم فمن أي جنس هو؟.

أجاب على هذه الأسئلة إجابات متفاوتة في عدة مواطن ـ كلما تكررت قصة آدم مع إبليس ـ ونكتفي برأيه في تفسير تلك القصة من سورة الحجر:

(وإبليس خلق آخر غير الملائكة، فهو من نار وهم من نور. وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وهو أبى وعصى. فليس هو من الملائكة بيقين. أما الاستثناء هنا ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس. . ﴾[1] فليس على وجهه. إنما هو كما تقول: حضر بنو فلان إلا أحمد. وليس منهم. إنما هو معهم في كل مكان أو ملابسة. وأما أن الأمر المذكور للملائكة: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾[2] فكيف شمل إبليس؟ فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده، وقد ذكر صريحاً في سورة الأعراف﴿ قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟ ﴾[3] وأسلوب القرآن يكتفي بالدلالة اللاحقة في كثير من المواضع. فقول الله له: ﴿ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك؟﴾قاطع في أن الأمر قد صدر له. وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة. فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم في ملابسة ما. وقد يصدر إليه منفرداً ولا يذكر تهويناً لشأنه، وإظهاراً للملائكة في الموقف. ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة. وهذا ما نختاره)[4].

---

(١) الحجر: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) الحجر: ٢٨.

(٣) الأعراف: ١٢.

(٤) الظلال ٤: ٢١٤٠ ـ ٢١٤١.

أما النوع الثاني من وقفات سيد، الذي توسع فيه قليلاً، والذي يصنف ضمن التفسير الموضوعي، فالأمثلة عليه كثيرة في الظلال، نكتفي منها بهذه النماذج:

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين، فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات، فاعلموا أن الله عزيز حكيم.. ﴾[1] وقف وقفة مطولة أمام (السلام في الإسلام) مظاهره وآفاقه، وحقيقته وآثاره وأهميته، واستشهد لذلك بآيات من القرآن وأحاديث لرسول الله - ﷺ -.

السلم في الآية هو الإسلام، وهي دعوة للمؤمنين للاستسلام المطلق بكلياتهم لله. والمسلم حين يستجيب لهذه الدعوة (يدخل في عالم كله سلم وكله سلام. عالم كله ثقة واطمئنان، وكله رضى واستقرار. لا حيرة ولا قلق، ولا شرود ولا ضلال.. سلام مع النفس والضمير، سلام مع العقل والمنطق، سلام مع الناس والأحياء. سلام مع الوجود كله ومع كل موجود. سلام يرف في حنايا السريرة. وسلام يظلل الحياة والمجتمع، سلام في الأرض، وسلام في السماء..)[2].

ثم أخذ يتحدث عن السلام في التصور الاعتقادي الإسلامي، السلام الذي توحي به صفات الله - سبحانه - والسلام في صحة تصور العلاقة بين الله والمؤمن. والسلام في نظرة المسلم إلى الكون وما فيه. والسلام من الاعتقاد بالآخرة. والسلام من معرفته بوظيفته. والسلام من تصوره للقضاء والقدر. ثم تحدث عن السلام في التكاليف الشرعية. وانتقل بعد ذلك للسلام في المجتمع الإسلامي الذي ينشأ عن المنهج الرباني، بعرض مظاهر وآفاق وألوان هذا السلام على مستوى الأفراد والجماعة، وعلى مستوى المناهج والقيم والمبادىء والأسس.

وكان في كلامه يستشهد بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث للرسول -

---

(١) البقرة: ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) الظلال ١: ٢٠٧.

ﷺ -. وحتى تتضح هذه الحقيقة ويتعمق إدراك المرء للسلام في الإسلام، ويدرك سمو الإسلام في ذلك - (وبضدها تتميز الأشياء) - عرض مظاهر للحيرة والقلق والشقاء والتمزق الذي تعيشه المجتمعات الجاهلية، بسبب عدم استجابتها لدعوة الله إلى السلام[1].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك! ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً، وللبسنا عليهم ما يلبسون. ﴾[2].

وقف يتحدث عن (حقيقة الملائكة في التصور الإسلامي) وعن الملائكة في التصور الجاهلي، وأورد في حديثه آيات شتى من القرآن الكريم، تتحدث عن الملائكة: حقيقتهم ووظائفهم وصلتهم بالإنسان. وتصور المشركين لهم وأوهامهم حولهم.

عن طلب المشركين إنزال ملك مع الرسول - ﷺ - أورد آيات أخرى من سورة الإسراء تسجل اقتراحهم بصياغة أخرى. ثم استخرج دلالات من هذه الاقتراحات.

وعن أضاليل وجهالات المشركين في تصوراتهم للملائكة، أورد آيات من سورة النجم، واستخرج أيضاً دلالات من ذلك.

وعن (حقيقة الملائكة في التصور الإسلامي) اعتبرهم من مقومات التصور الإسلامي، باعتبارهم جزءاً من عالم الغيب، وأن الإيمان بهم ركن من أركان الإيمان.

فهم خلق من خلق الله مجبولون على الطاعة ويقومون بأعمال منها: أنهم يحملون عرش الرحمن، وهم خزنة الجنة وخزنة النار.

وهم يتعاملون مع أهل الأرض في صور شتى: فهم يحفظونهم بأمر الله، وهم يبلغون وحي الله إلى رسله الكرام. وهم يتنزلون على المؤمنين

---

(١) انظر الظلال ١: ٢٠٦ - ٢١٢.
(٢) الأنعام: ٨ - ٩.

بالتثبيت والمدد والتأييد. وهم يستغفرون للمؤمنين. وهم يبشرون المؤمنين بالجنة، ويستقبلونهم بالبشرى في الآخرة، ويسلمون عليهم في الجنة.

وهم يستقبلون الكافرين في جهنم بالتأنيب والوعيد. ويقاتلونهم في الدنيا ويستلون أرواحهم في تعذيب ومهانة.

ولهم شأن مع البشر منذ نشأة أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ وما جرى بينهم وبينه في الجنة. وغير ذلك من أعمالهم ووظائفهم وصفاتهم.

وكان يستشهد لكل ما يقول بآيات القرآن الكريم، التي تقرر ذلك بعبارات صريحة(١).

ومن روائع وقفاته التي تصلح أن تكون تفسيراً موضوعياً حديثه عن «أهل الكتاب وعلاقتهم مع الأمة المسلمة» من خلال آيات القرآن الكريم. وذلك أثناء تفسيره المقطع الذي يحدد العلاقة بين الأمة المسلمة وبين أهل الكتاب في سورة التوبة (الآيات من ٢٩ ـ ٣٥).

وقد قال في بداية وقفته (وهذا التعديل الأخير في قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب، لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية. ثم لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي ومراحله المتعددة، ووسائله المتجددة المكافئة للواقع البشري المتغير من الناحية الأخرى)(٢).

وقد استخرج سيد سبع حقائق من نصوص المقطع تقرر حقيقة ما عليه أهل الكتاب من كفر وباطل. ونتيجة لذلك قُررت الأحكام النهائية بينهم وبين الأمة المسلمة.

وقرر سيد أن هذا التقرير لحقيقة ما عليه أهل الكتاب ليس مفاجئاً ولا جديداً، فكثير من الآيات ـ المكية والمدنية ـ السابقة قررت هذا. وللتدليل على هذا أورد عدة آيات تقرر ذلك:

---

(١) انظر كلامه بطوله في الظلال ٢: ١٠٤٠ ـ ١٠٤٥.

(٢) الظلال ٣: ١٦٢٠.

أورد طائفة من الآيات المكية تثني على أفراد من أهل الكتاب دخلوا في الإسلام في مكة. ثم أورد طائفة من الآيات المدنية تثني على أفراد منهم دخلوا في الإسلام في المدينة. وبعد ذلك أورد مجموعة من الآيات المكية تقرر حقيقة ما عليه أهل الكتاب. وأنهم كفار بالله سبحانه وتعالى. (أما القرآن المدني فقد تضمن الكلمة الأخيرة في حقيقة ما عليه أهل الكتاب، كما حكى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق في حرب هذا الدين وأهله، في قطاعات طويلة من سور البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة. وغيرها. قبل أن يقرر الكلمة النهائية في أمرهم كله في سورة التوبة. وسنكتفي هنا بنماذج محدودة من هذه التقريرات القرآنية الكثيرة)[١].

وبعد أن أورد تلك النماذج قرر أن التعديل ليس في حقيقة ما عليه أهل الكتاب، ولكنه في أحكام التعامل معهم الذي كان يتمشى مع النمو المرحلي الحركي الإسلامي في مكة والمدينة، ولذلك أورد آيات من سور مكية ومدنية تأمر المسلمين بالمعاملة الحسنة مع أهل الكتاب، وفتح باب الجدال بالتي هي أحسن إلى أن جاءت الآيات التي تقرر الأحكام النهائية في التعامل معهم.

وبعد ذلك أخذ في (استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم، سواء من الناحية الموضوعية الثابتة، أو من ناحية المواقف التاريخية الواقعة..)[٢].

وقد دلنا على المنهج الثابت الذي يفيدنا في هذا، ويعطينا النتائج اليقينية القاطعة، فقال: «إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها:

أولاً: في تقريرات الله ـ سبحانه ـ عنها. باعتبار أن هذه هي الحقيقة النهائية التي لا يأتيها الباطل..

وثانياً: في المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات الله سبحانه..)[١].

---

(١) الظلال ٣: ١٦٢٣.

(٢) الظلال ٣: ١٦٢٥.

وكان هو أول من طبق هذا المنهج، لذلك أورد طائفة من الآيات حوت هذه التقريرات الربانية. عرضها بدون تعليق لأنها (من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق)[1] ـ على حد قوله ـ.

وقد أوضحت تلك الآيات الهدف النهائي الثابت لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين. ثم جاء الواقع التاريخي للعلاقات بين أهل الكتاب والمسلمين يصدق هذا الهدف النهائي، وهذه التقريرات القاطعة.

وأوضح ما يكون ذلك في الواقع التاريخي بين المسلمين واليهود: (فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم ومكرهم وكيدهم وحربهم. وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذي واجههم الإسلام في المدينة حتى اللحظة الحاضرة.

وليست هذه الظلال مجالاً لعرض هذا التاريخ الطويل. ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التي شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ..).

وكان يستشهد ـ وهو يعرض مواقف اليهود ـ بآيات القرآن الكريم ـ وبخاصة في استقبالهم الرسول ـ ﷺ ـ والدين الذي جاء به بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن.. (وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القرآن الكريم. وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحزاب والتوبة وغيرها تضمنت من هذا الكثير).

ولمزيد من التفصيل في ذلك أحال على مقدمات سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في الطبعة المنقحة من الظلال[2].

وما أن ينتهي القارىء من قراءة هذا التفسير الموضوعي ـ بصفحاته العشر ـ حتى يكون على اطلاع وافٍ على حقيقة أهل الكتاب، ويقين كامل بأنهم ليسوا على شيء، وتصميم ثابت على مفاصلتهم، واستعداد دائم

---

(١) الظلال ٣: ١٦٢٧.

(٢) انظر الظلال ٣: ١٦٢١ - ١٦٣١.

لمواجهتهم وإبطال دسائسهم ومحاربتهم. . لأن سيد أوضح له كل هذا من خلال التقريرات القرآنية الصريحة والواقع التاريخي الثابت. .

وأما النوع الثالث من وقفاته أمام الآيات، وتفسيره الموضوعي لها ـ والذي يعتبر تفسيراً موضوعياً قائماً بذاته، وبحثاً شاملاً يصلح أن يكون في رسالة مستقلة فأوضح النماذج عليه، بيان سيد (للجهاد في سبيل الله) في تقديمه لسورة الأنفال من الطبعة المنقحة من الظلال.

حيث بين فيه حقيقة الجهاد في الإسلام، وميادينه وأساليبه، وبواعثه ومبرراته، ومراحله التي مر بها في حياة الرسول ـ ﷺ ـ والمرحلة النهائية التي استقر عليها. وصحح في هذه الوقفة تصورات وأفكاراً لمسلمين معاصرين بشأنه، ورد على شبهات الأعداء والمشككين حوله، وعرض الجهاد بصورته القرآنية الواضحة، وناقش الكثير من الأمور حول حقيقة الجهاد وطبيعته، ومبرراته وبواعثه، وأهدافه وغايته، وكان يستدل لما يقول بآيات القرآن الكريم، ويستشهد بسيرة الرسول ـ ﷺ ـ وينقل كلاماً له ولأبي الأعلى المودودي ولابن قيم الجوزية[1].

---

(1) انظر كلام سيد بطوله في الظلال ٣: ١٤٣١ ـ ١٤٥٢ وللوقوف على نماذج أخرى من التفسير الموضوعي أنظر: «الربا وأحكامه» الظلال ١: ٣١٨ ـ ٣٣٣ و«أحوال العرب قبل الإسلام» الظلال ١: ٥٠٧ ـ ٥١٢ وتعدد الزوجات: الظلال ١: ٥٧٧ ـ ٥٨٤ ومنهج البحث العلمي: الظلال ٢: ٩٨٥ ـ ٩٨٨ والغيب في التصور الإسلامي: الظلال ٢: ١١١٣ ـ ١١٢١ ومظاهر النقاء والخلخة في المجتمع الإسلامي الأول: الظلال ٣: ١٥٧٣ ـ ١٥٧٠. وآصرة العقيدة: الظلال ٤: ١٨٨٥ ـ ١٨٩٢.

المبحث الثالث

«تفسير القرآن بالحديث»

وإذا ما وصلنا إلى المرحلة الثانية التي يجب أن يعمل بها المفسر - حسب الطريقة المثلى في التفسير - وهي تفسير القرآن بالحديث. فإننا نجد أن سيد قد التزم بهذه الطريقة، فكثيراً ما كان يتجه نحو الحديث النبوي ليفسر الآية أو الآيات به، وأحياناً لا يكتفي بإيراد حديث واحد، فيورد حديثين، أو ثلاثة، أو أكثر، وغالباً ما يُخرج هذه الأحاديث بذكر من رواها.

والآن إلى الظلال لنورد منه أمثلة لما نقول:

لما فسر قوله تعالى: ﴿وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾[(١)] وأثناء حديثه عن الإحسان ومرتبته - الذي تدعو إليه الآية - أورد حديثاً لرسول الله - ﷺ - كتفسير لها فقال: (ومرتبة الإحسان هي عليا المراتب في الإسلام. وهي كما قال رسول الله - ﷺ -: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٢)] ثم خرج هذا الحديث في الحاشية بأنه في الصحيحين من حديث الإيمان . .)[(٣)].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى،

---

(١) البقرة: ١٩٥.

(٢) حديث رواه مسلم والترمذي والنسائي في الإيمان، وأبو داود في السنة. انظر جامع الأصول لابن الأثير ١: ٢٠٨ - ٢١١ مع ملاحظة حاشية: ٢١١.

(٣) الظلال ١: ١٩٢.

وقوموا لله قانتين.. ﴾[1] أراد أن يحدد المقصود بالصلاة الوسطى، وكان اعتماده في تحديدها على حديث صحيح لرسول الله ـ ﷺ ـ: «أما الصلاة الوسطى فالأرجح من مجموع الروايات أنها صلاة العصر، لقوله ـ ﷺ ـ يوم الأحزاب: (شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً)[2] وخرَّج الحديث في الحاشية بأنه أخرجه مسلم[3].

وأورد حديثاً لرسول الله ـ ﷺ ـ روته السيدة عائشة رضي الله عنها، يصور خوف الرسول ـ ﷺ ـ من أن يزيغ قلبه، لذلك يدعو الله أن يثبت قلبه على دينه، ويكثر من هذا الدعاء ـ وهو من هو في منزلته عند الله ـ سبحانه. وكان إيراده لهذا الحديث ـ الذي لم يخرجه هذه المرة ـ كتفسير لدعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.. ﴾[4].

وأحياناً لا يكتفي بإيراد حديث واحد، بل يورد عدة أحاديث توضح سبب النزول، أو معنى الآية. ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً.. ﴾[5] أورد أربعة أحاديث: روايتين عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ عند أحمد والترمذي في سؤاله للرسول ﷺ وخوفه من هذه الآية، وجواب الرسول عليه السلام. ورواية أخرى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عند الطبري وابن أبي حاتم. واعتبارها هذه الآية أشد وأخوف آية في كتاب الله، وإقرار الرسول عليه الصلاة والسلام ـ لها وتفسيره للآية. ثم أورد رواية رابعة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ رواها مسلم والترمذي والنسائي تصور خوف الصحابة من هذه الآية، وتطمين الرسول ـ ﷺ ـ لهم بتفسيرها تفسيراً يوضح

---

(1) البقرة: ٢٣٨.

(2) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة كما رواه ابن ماجه وأحمد والبيهقي والطبري انظر جامع الأصول ٢: ٤٩ ـ ٥٠ مع ملاحظة الحاشية.

(3) الظلال ١: ٢٥٨.

(4) آل عمران: ٨. انظر الظلال ١: ٣٧١.

(5) النساء: ١٢٣.

معناها، وحمل المجازاة على ما يصيبهم في الدنيا من نكبات ومشقات ومكروه[1].

وقد كان سيد حريصاً على أن يلتفت إلى الأحاديث النبوية، وعلى تفسير القرآن بها، وبخاصة في الغيبيات سواء في التصور الاعتقادي أو في قصص السابقين، فإن وجد الحديث الصحيح فسر به الآية. وإن لم يجده، أو كان غير صحيح توقف، لأن الغيبيات في أمور العقيدة لا مجال للعقل في الخوض فيها وفي طبيعتها وكنهها وماهيتها، والغيبيات في القصص القرآني لا تؤخذ عن الإسرائيليات وإلا كانت الخرافات والأساطير والأضاليل.

فلما فسر آية الكرسي وقف عند قوله تعالى فيها: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما..﴾[2] فأورد ما فيه من تعبير تصويري، وأن الكرسي يستخدم أحياناً في معنى الملك، والقرآن يتجه إلى رسم صور للمعاني تجسمها للحسّ، فتكون فيه أعمق وأوقع وأحسّ.

أما حقيقة الكرسي، وما هو المراد بها، فقد استبعد الجدال الذي دار حولها، واتجه إلى الحديث لعله يجد حديثاً ـ صحيحاً ـ في ذلك فلم يجد، ولذلك توقف في هذا:

(ولا حاجة بنا إلى كل ما ثار من الجدل حول مثل هذه التعبيرات في القرآن، إذا نحن فقهنا طريقة القرآن التعبيرية، ولم نستعر من تلك الفلسفات الأجنبية الغربية التي أفسدت علينا كثيراً من بساطة القرآن ووضوحه..

ويحسن أن أضيف هنا أنني لم أعثر على أحاديث صحيحة في شأن الكرسي والعرش تفسر وتحدد المراد مما ورد منها في القرآن. ومن ثم أوثر ألا أخوض في شأنها بأكثر من هذا البيان...)[3].

أما قصص السابقين، وبحثه عن الحديث الصحيح الذي يفسر به ما

---

(١) الظلال ٢ : ٧٦٣.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) الظلال ١ : ٢٩٠.

ورد بشأنها في القرآن الكريم، وعدم مجاوزته إلى الإسرائيليات والأساطير، فأوضح مثال لذلك موقفه من (ابنيْ آدم) في المائدة ومن (فتنة سليمان) عليه الصلاة والسلام في سورة (ص).

ففي المائدة بعد ما أورد الآيات التي تعرض نبأ ﴿ابني آدم بالحق، إذ قربا قربانا فتُقُبل من أحدهما، ولم يُتَقبل من الآخر.. ﴾[1] لم يطلب تفصيل القصة في الروايات المأخوذة عن بني إسرائيل بخصوص زمان أو مكان أو أشخاص أو أسماء القصة، واتجه نحو الحديث، فلم يجد حديثاً صحيحاً يحدد ذلك... ولذلك أبقى القصة مجملة، وتعامل معها على هذا الأساس، واستخرج دلالاتها وإيحاءاتها...

(ولا يحدد السياق السرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة.. وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن (قابيل وهابيل) وأنهما إبنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع على أختين لهما... فإننا نؤْثر أن نستبقي الفصة ـ كما وردت ـ مجملة بدون تحديد. لأن هذه الروايات كلها موضع شك في أنها مأخوذة عن أهل الكتاب ـ والقصة واردة في العهد القديم محددة فيها الأسماء والزمان والمكان على النحو الذي تذكره هذه الروايات ـ والحديث الوحيد الصحيح الوارد عن هذا النبأ لم يرد فيه تفصيل...

وهو من رواية ابن مسعود قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل) رواه الإمام أحمد في مسنده... وأخرجه الجماعة ـ سوى أبي داود ـ من طرق عن الأعمش[2]..

وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن الحادث وقع في فترة من طفولة

---

(١) المائدة: ٢٧ ـ ٣١.

(٢) رواه البخاري في الديات والأنبياء والاعتصام، ومسلم في القسامة. والترمذي في العلم، والنسائي في تحريم الدم. انظر جامع الأصول لابن الأثير ١٠: ٢٠٩ ـ ٢١٠ مع ملاحظة الحاشية.

الإنسان، وأنه كان أول حادث عدواني متعمد، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث. . .

وبقاء القصة مجملة ـ كما وردت في سياقها القرآني ـ يؤدي الغرض من عرضها، ويؤدي الإيحاءات كاملة، ولا تضيف التفصيلات شيئا إلى هذه الأهداف الأساسية. . لذلك نقف نحن عند النص العام لا نخصصه ولا نفصله. . .[(١)].

ويبدو لنا من هذه الفقرة من كلام سيد، كيف أنه جمع بين دلالة آيات القرآن في عرضه للقصة وبين دلالة الحديث، وذلك من قوله (وأنه كان أول حادث عدواني متعمد) الذي أخذه من الحديث (لأنه كان أول من سن القتل). وقوله: (وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث). الذي أخذه من الآية التي تقرر فعل الغراب في تعليم القاتل كيفية دفن القتيل.

وأما فتنة سليمان عليه السلام، وموقفه من الصافنات الجياد، وقصة الجسد الذي ألقي على كرسيه، والذي تشير إليه آيات من سورة (ص)[(٣)] فقد بحث سيد عن حديث صحيح صريح في تحديد ذلك، فلم يجد، ووجد حديثاً صحيحاً غير صريح فأورده، ولم يلتفت إلى الروايات الكثيرة ـ التي أثبتها المفسرون في تفاسيرهم ـ في تحديد ذلك، لأنها مأخوذة عن بني إسرائيل، أو ليس لها سند صحيح. (والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد ـ وهي الخيل الكريمة ـ وعن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان. كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما. فهي إما إسرائيليات منكرة، وإما تأويلات لا سند لها. ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوراً يطمئن إليه قلبي، فأصوره وأحكيه. ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسيرهما وتصويرهما سوى حديث صحيح. صحيح في ذاته. ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة. . وبعد أن يورد نص الحديث ـ الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله

---

(١) الظلال ٢: ٨٧٥.

(٢) ص: ٣٠ ـ ٤٠.

عنه ـ عن مولود لسليمان عليه السلام ناقص جاء في صورة شق رجل ـ أعلن أنه من الجائز أن تكون هي الفتنة له، وأن يكون المولود الشق هو هذا الجسد (ولكن هذا مجرد احتمال) ثم يورد رواية عن قصة سليمان ـ عليه السلام ـ مع الخيل الصافنات الجياد ويعقب على ذلك بقوله: (وكلتا الروايتين لا دليل عليها، ويصعب الجزم بشيء عنها) ولذلك يصرح برأيه في هذا الموضوع بقوله: (ومن ثم لا يستطيع متثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن)[1].

من هذه الأمثلة التي أوردناها، يتبين لنا كيف أن سيد كان يرجع إلى أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ يفسر بها نصوص القرآن الكريم، ويعتمد عليها في بيان أسباب النزول، وفي تبيين المجمل من القرآن، وفي معرفة حقائق وحوادث عن عالم الغيب، لا مجال لمعرفتها إلا بالأحاديث، فإن لم يجد فيها ما يريد يتوقف ولا يخوض فيها بعقله، أو يعتمد على أساطير وأباطيل.

---

(١) الظلال ٥: ٣٠٢٠.

المبحث الرابع

«تفسير الآية بـالقرآن والحديث معاً»

والآن نأتي إلى لون جديد من ألوان طريقة سيد في الاعتماد على النصوص في التفسير، اتباعاً منه للطريقة المثلى في التفسير. فقد عرضنا نماذج على تفسيره القرآن بـالقرآن وعرضنا نماذج أخرى على تفسير القرآن بالحديث.

وفي هذا المبحث سنرى كيف جمع سيد بين الخطوتين السابقتين، حيث كان يفسر الآية - أو الآيات - بالقرآن وبالحديث معاً، وبذلك جمع بين وسيلتين ثابتتين صادقتين في تفسير كلام الله سبحانه وتعالى . . .

والآن إلى عرض بعض الأمثلة من الظلال:

فسر الظلم في قوله تعالى: ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾[1] بالشرك، واستعان في ذلك بالقرآن والحديث: (والظلم كثيراً ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك بوصفه أظلم الظلم وأقبحه. وفي القرآن: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[2]. . وفي الصحيحين عن ابن مسعود: أنه قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. .)[3].

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع. يزيد في الخلق ما

(١) آل عمران: ١٤٠.
(٢) لقمان: ١٣.
(٣) الظلال ١: ٤٨٢.

يشاء.. ﴾[1] وجد في هذه الآية وصفاً للملائكة يختص بهيئتهم ـ وهذه أول مرة يذكر فيها وصف لهيئتهم في القرآن ـ لذلك اتجه إلى الآيات الأخرى، لعله يجد فيها وصفاً لهيئتهم ـ قبل سورة فاطر أو بعدها ـ فلم يجد، إذ كل الآيات التي تحدثت عنهم فيها وصف من حيث طبيعة الملائكة أو أعمالهم ووظائفهم.. فاتجه إلى حديث رسول الله ﷺ لعله يصف أشكالهم أو هيئاتهم، فوجد حديثاً ـ صحيحاً ـ يصرح فيه بأنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ في صورته مرتين، وله ستمائة جناح.. وهذا الحديث كذلك لا يحدد شكلاً ولا هيئة. لذلك لم يخض في هذا الأمر الغيبي بعقله، لأن النصوص مطلقة لا تحدده. فنحن لا نعرف (كيف هم ولا كيف أجنحتهم هذه. ولا نملك إلا الوقوف عند هذا الوصف، دون تصور معين له. فكل تصور قد يخطىء. ولم يرد إلينا وصف محدد للشكل والهيئة من طريق معتمد..) ولذلك يحيل على علم الله وحده في هذه الغيبيات، فهو الذي يعلم ـ وحده ـ من خلق، وهو اللطيف الخبير...

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم﴾[2]. اعتمد على القرآن والحديث في تفسير الآية الثانية. حيث ذكرت صفتين مذمومتين لهذا الموصوف المذموم:

فهو هماز: يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم. وقد أورد آيتين تنهيان عن الهمز واللمز، آية من سورة الحجرات، وأخرى من سورة الهمزة.

وهو مشاء بنميم: يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد قلوبهم، ويقطع صلاتهم، ويذهب بموداتهم.. وقد أورد أربعة أحاديث لرسول الله ـ ﷺ ـ ينهى فيها عن النميمة كخلق ذميم مهين، ويحذر منها، ويبين عاقبتها من عذاب في القبر، وعذاب في نار جهنم يوم القيامة[3]..

---

(١) فاطر: ١.

(٢) القلم: ١٠ ـ ١١.

(٣) الظلال ٦: ٣٦٦٢ ـ ٣٦٦٣.

لقد كان سيد علمياً ومنهجياً في رجوعه إلى القرآن الكريم وحديث رسول الله - ﷺ - الصحيح، يفسر بهما آيات كتاب الله - وبخاصة في قضايا الغيب وأموره - لأنه يعلم أنهما المصدران اليقينيان المأمونان، وأن ما سواهما من كلام البشر وخرافاتهم وأساطيرهم ما هو إلا تيه وضلال. وقد أبان لنا عن قاعدة له منهجية مطردة في الظلال، في عودته إلى هذين المصدرين فقط، وذلك في تفسيره لقوله تعالى - بشأن قوم فرعون مع موسى عليه السلام -: ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون.. ﴾[1].

حيث قال: (فأما كيف وقعت هذه الآيات، فليس لنا وراء النص القرآني شيء، ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله - ﷺ - عنها شيئاً. ونحن على طريقتنا في هذه الظلال نقف عند حدود النص القرآني في مثل هذه المواضع. لا سبيل لنا إلى شيء منها إلا من طريق الكتاب أو السنة الصحيحة. وذلك تحرزا من الإسرائيليات والأقوال والروايات التي لا أصل لها..)[2].

---

(١) الأعراف: ١٣٥

(٢) الظلال ٣: ١٣٥٨ - ١٣٥٩.

المبحث الخامس

«تفسير القرآن بحياة الصحابة»

مر معنا في «الظلال نقلة بعيدة في التفسير كيف أن مفهوم التفسير عند سيد قطب، زمن الرسول - ﷺ - وأصحابه، لم يكن قاصراً على أحاديث الرسول - عليه السلام - في التفسير، ولا على الروايات المأثورة عن أصحابه فيه. وإنما توسع التفسير عنده ليشمل كل حياة الرسول - ﷺ - العامة والخاصة، وكل سيرته العملية، وحركته الجهادية، ومهمته التربوية، وكذلك شمل التفسير حياة الصحابة وحركتهم بالقرآن وتفاعلهم معه، ومدى التقدم الإيماني الذي وصلوه وهم يربون على يدي الرسول - ﷺ - بالقرآن. وملامح المجتمع الإسلامي الذي عاشوه، ومظاهر النقاء والخلخلة فيه، والجو العام الذي نزلت فيه الآيات الكريمة[1].

ولذلك كان من سمات الظلال المميزة له (بيان تعامل الصحابة مع القرآن) و«الإلمام بالملابسات التاريخية لنزول القرآن) و(الاستشهاد للنص بالواقع التاريخي).

ويهمنا هنا في هذا الفصل أن نبين أن سيد قطب - في هذ المرحلة من الطريقة المثلى في التفسير - لم يكن يفسر القرآن بأقوال الصحابة فقط - كما فعل مفسرون سابقون - وإنما توسع في هذا ليدخل حياتهم كلها وتفاعلهم مع القرآن كله كتفسير عملي للقرآن - باعتبارهم جيلاً قرآنياً فريداً، تمثلوا القرآن

---

(١) انظر «الظلال نقلة بعيدة في التفسير» في كتاب «مدخل إلى ظلال القرآن».

عملياً، وتخرجوا به على يدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وباعتبارهم تلقوا نصوص القـرآن للتنفيذ.

والأمثلة على هذا كثيرة في الظلال، اكتفي منها بهذا المثال الدال: فلما فسر قوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[1] وبعدما فسر الآية بكلام من عنده، التفت إلى حياة الصحابة وأورد منها ثلاثة آثار تدل على مدى تفاعلهم بالقرآن، وتحرجهم من أن يقصروا في تعاليمه وأحكامه. حيث ظنوا أن الظلم في هذه الآية هو الظلم العادي المعروف ـ وهو تجاوز الحد ـ والمسلم منهم قد يقع في ذلك فلا أمن له. ولكن الرسول ـ ﷺ ـ أخبرهم بأن الظلم هنا هو الشرك. وقد قال قبل إيراده للآثار الثلاثة: (وقبل أن نغادر هذه الفقرة نحب أن نستمتع بنفحة من نفحات الحياة في عصر صحابة رسول الله ـ ﷺ، وهذا القرآن يتنزل عليهم غضاً، وتشربه نفوسهم، وتعيش به وله، وتتعامل به وتتعايش بمدلولاتـه وإيحاءاته ومقتضياته، في جد وفي وعي وفي التزام عجيب. تأخذنا روعته وتبهرنا جديته، وندرك منه كيف كان هذا الرهط الفريد من الناس، وكيف صنع الله بهذا الرهط ما صنع من الخوارق، في ربع قرن من الزمان)[2].

وللوقوف على مزيد من الأمثلة على هذا، نحيل على مباحث (الإلمام بالملابسات التاريخية لنزول القرآن) (وبيان تعامل الصحابة مـع القرآن) و (الاستشهاد للنص بالواقع التاريخي) في الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الكتاب.

والآن ـ وفي ختام هذا الفصل ـ يتبين لنا كيف أن سيد قطب اتبع في تفسيره الطريقة المثلى في التفسير، وسلك أحسن طرق التفسير، ففسر القرآن بالقرآن أولاً، وفسره بالحديث الصحيح، وفسره بهما معاً، وفسره بحياة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

---

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) الظلال ٢: ١١٤٢ ـ ١١٤٣.

الفَصْل الثَالِث

طَرِيقَـةُ سَيِّد قُطْب
في الاسْتِنباط وَالاسْتِدْلال وَالنِّقاش

المبحث الأول

طريقته في الاستنباط

لسيد قطب طريقة خاصة في الاستدلال والاستنباط، حيث استطاع بها أن يستنبط من نصوص القرآن دلالاتها ومغازيها، وأن يسجل إيحاءاتها وظلالها. والأفكار والآراء التي استوحاها من نصوص القرآن كثيرة جداً في الظلال، وبعضها محل استغراب من بعض المسلمين المعاصرين، وبعضها الآخر موضع خلاف. وبعضها موضع استنكار واستهجان من قبل المتنفذين وأتباعهم. ولذلك لا بدّ أن يعرض الأدلة المقنعة، وأن يستدل لآرائه واستنتاجاته في هذه القضايا والمسائل والمشكلات المعاصرة، ولا بدّ من أن يناقش الآخرين في أفكارهم ليفندها ويبطلها، ولا بدّ من أن يبين حقيقة أتباع السلاطين، ويكشف خلفيتهم ويسجل بواعثهم.

وقد فعل هذا كله في الظلال، بقوة وجرأة وشجاعة وجدارة، ووقف أمام الآيات يستنبط منها، ويسجل لها حقائقها وإيحاءاتها، ويستخرج منها دلالاتها ومغازيها. وأحب أن أقرر ـ في بداية هذا الفصل ـ أن سيد كان منهجياً وعلمياً وموضوعياً في وقفته أمام الآيات، وفي استخراجه لحكمها وأسرارها، واستنباطه لدلالاتها ومغازيها. وذلك أنه «دخل عالم القرآن دون مقررات سابقة» وكانت هذه قاعدة أساسية لتعامله مع القرآن، ومنطلقا رئيسياً انطلق منه في حياته في ظلال القرآن وتفسيره. وإدراك هذه القاعدة ضروري

لكل من يريد أن يتعرف على منهج سيد قطب في التفسير والوقوف على طريقته في الاستنباط والاستدلال.

وقد خصصنا لهذه القاعدة مبحثاً من مباحث منهج سيد قطب في التفسير وهو مبحث «دخوله عالم القرآن دون مقررات سابقة» في الفصل الثالث من الباب السابق من هذا الكتاب. حيث بيَّنا هذه القاعدة ومثلنا لها بأمثلة من الظلال. فنحيل إلى ما كتبناه هناك.

ولكننا نكتفي هنا بإثبات عبارات صريحة لسيد توضح هذا: «إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة. لا مقررات عامة... ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص، بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا. فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية، ومنها نكوِّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعاً فإذا قررتْ لنا أمراً فهو المقرر كما قررتْه..)[1].

ولذلك يقرر لنا قاعدته المنهجية في التفسير في كتابه «خصائص التصور الإسلامي» بعبارات صريحة ذات دلالة. فيقول: (ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم، ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً. لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية - من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته - نحاكم إليها نصوصه، أو نستلهم معاني هذه النصوص وفق تلك المقررات السابقة.

لقد جاء النص القرآني - ابتداء - لينشىء المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر وأن تقوم عليها حياتهم[2].

طريقته في الاستنباط:

والآن - وبعد تقرير هذه القاعدة في تعامل سيد مع النصوص والتي

---

(١) الظلال ٦: ٣٩٧٩ وأذكِّر بأن هذه القاعدة قررها وهو ينقد منهج مدرسة محمد عبده في التفسير.

(٢) خصائص التصور الإسلامي: ١٦ - ١٧.

تبين طريقته في الاستنباط - فلنتجه إلى الظلال لنورد الأمثلة على ذلك:

في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء.. وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم.. ﴾[1] استخرج كليتين من كليات التصور الإسلامي. وهما: وحدة الخالق لكل الخلائق. ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة والإنسان)[2].

لفت نظره دعوة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وابنه إسماعيل - عليه السلام - وهما يبنيان البيت إذ قالا: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.. ﴾[3] فجاءت الآية التي تقرر بعثة محمد - ﷺ - تعيد دعوة إبراهيم السابقة، وتذكر كلماتها في قوله تعالى: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة.. ﴾[4] فاستلهم هذا، واستنبط منه أن الله يذكّر المسلمين (أن بعثة هذا الرسول فيهم ووجودهم هم أنفسهم مسلمين، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم. وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مستحدثاً إنما هو قديم، وأن قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم...)[5].

هناك ظاهرة من حياة الصحابة الكرام، أشارت إليها نصوص القرآن الكريم، وهي ظاهرة توجيههم الأسئلة لرسول الله - ﷺ - للوقوف على حكم الشرع في بعض المسائل: فسألوه عن الأهلة، وسألوه ماذا ينفقون، وسألوه عن القتال في الشهر الحرام، وسألوه عن الخمر والميسر، وسألوه عن المحيض... إلى غير ذلك من الأمثلة التي أوردتها الآيات وورد فيها الجواب عليها.

وقف سيد أمام هذه الظاهرة واستخرج أهم دلالاتها:

---

(1) البقرة: ٢١ - ٢٢.
(2) انظر الظلال ١: ٤٧.
(3) البقرة: ١٢٩.
(4) البقرة: ١٥١.
(5) الظلال ١: ١٣٨.

١ ـ هي دليل على تفتح وحيوية ونمو في صور الحياة وعلاقاتها، حيث برزت (الجماعية) في المجتمع الإسلامي.
٢ ـ هي دليل على يقظة الحسّ الديني، وتغلغل العقيدة الجديدة وسيطرتها على النفوس..
٣ ـ هي دليل على عنف وجدية المعركة النظرية بين المسلمين وأعدائهم، حيث يستخدمون كل أسلحة التشكيك والشبهات. فبرزت الأسئلة والاستفهامات. وتولى القرآن الإجابة عليها كمظهر لحضوره الدائم في المعركة[1].

قوله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً.. ﴾[2] له دلالات تستنبط منها من زاويتين:

الزاوية الأولى: ورود هذه الكلمات ضمن آية موضوعها التحليل والتحريم لبعض الذبائح، وفي سياق سورة المائدة. ولقد سجل سيد أهم الدلالات التي تؤخذ منها ـ من هذه الزاوية: ـ

١ ـ إن شريعة الله كل لا يتجزأ.
٢ ـ أن رفض شيء من هذه الشريعة معناه الصريح رفض ألوهية الله.

الزاوية الثانية: استعراض ما تحمله من حقائق كبيرة وتوجيهات عميقة ومقتضيات وتكاليف..

١ ـ دلالات إكمال هذا الدين.
٢ ـ دلالات إتمام نعمة الله على المؤمنين بإكماله ومظاهر ذلك.
٣ ـ واجب الأمة المسلمة تجاه ذلك كله[3].

وقف سيد يستخرج دلالات وتقريرات الآية الكريمة: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول

---

(١) انظر الظلال ١: ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٢) المائدة: ٣.
(٣) انظر هذا في الظلال ٢: ٨٤١ ـ ٨٤٦.

غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه. فذرهم وما يفترون.. ﴾[1] وسجل أهمها في الظلال وفيما يلي إشارة لها:

١ ـ إن الذين يعادون الأنبياء وأتباعهم ـ إلى قيام الساعة ـ هم شياطين!!
٢ ـ إن هؤلاء الشياطين لا يعادون جند الحق لقوة ذاتية فيهم، لأنهم في قبضة الله ـ سبحانه ـ.
٣ ـ إن لله حكمة خاصة في ترك هؤلاء الشياطين يتشيطنون، لابتلاء عباده وتمحيصهم.
٤ ـ هـوان الشياطين، وهـوان كيدهم وأذاهم على المؤمنين، لأنهم يفعلون ذلك بقدر الله.
٥ ـ إن الله قدر لهم ذلك، لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، لأنهم هم وحدهم الذين ينخدعون بزخارف الشياطين وشيطنتهم[2]..

استنبط دلالة من دعاء نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالمغفرة، الذي ورد في الآية الكريمة: ﴿ رب اغفر لي ولوالدي.. ﴾[3] فقال: (ودعاؤه لوالديه... هو بر النبوة بالوالدَيْن المؤمنَيْن ـ كما نفهم من هذا الدعاء ـ ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين، كما جاء في سورة هود..)[4].

وهو استنباط لطيف، يدل على بصيرة نافذة، ومنهجية صائبة، وبخاصة بيانه وجه الاستنباط، واستصحابه موقفاً آخر لنوح ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم.

من الأمثلة التي أوردناها تظهر لنا طريقة سيد في الاستنباط، حيث أنه (يدخل عالم القرآن دون مقررات سابقة)، ويتلقى من النصوص إيحاءاتها ودلالاتها، ثم هو (يستبعد المطولات التي تحجب عنه نور القرآن) و (يحرص

---

(١) الأنعام: ١١٢.
(٢) انظر الظلال ٣: ١١٨٩ ـ ١١٩١.
(٣) نوح: ٢٨.
(٤) الظلال ٦: ٣٧١٧.

على البقاء في جو النص) و(يسجل دلالات في النص وإيحاءاته وظلاله) ويعتقد أن (النصوص غنية بدلالاتها)[1].

وكان يعتقد أن القرآن لا يفتح كنوزه إلا لمن يعيش في ظلاله، ويتحرك به، ويستصحب ملابسات نزوله، ولذلك كان يعيش هذا.. ثم يتلو النص ويتمعن فيه ويعيش معانيه، ويتلقى دلالاته وإيحاءاته، وينفعل به.. وبعد ذلك يسجل ما يخرج به من استنباط وإيحاءات وحقائق وتوجيهات.. ويحرص على أن تكون الآية تدل عليها أو توحي بها، وأن يبين وجه هذه الدلالة.

وهو في استنباطاته يسير مع الآية، ويتلقى دلالاتها بالتسليم والقبول، ويثق بهذه الدلالات ثقة مطلقة «فما تقرره فهو المقرر كما قررْته» على حسب قوله.

(١) قواعد تحدثنا عنها في الفصل الثالث من الباب السابق.

المبحث الثاني

«طريقته في الاستدلال»

هو في استدلاله ـ كما في استنباطه ـ في صلته بالقرآن وتعامله معه ونظرته إليه، ومنهجه في تلقِّي معانيه ودلالاته وحقائقه.

كان يسجل استدلاله، ثم يبين وجه استخراجه من الآية، ثم يستدل له من الآية نفسها، أو من نصوص القرآن الأخرى.. وأحياناً يستدل له بأحاديث لرسول الله ـ ﷺ ـ أو أقوال للصحابة.. وأحياناً يلجأ إلى مفسرين سابقين ليستدل بأقوالهم..

ذهب سيد إلى أن سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يحكم كل الانس ولا كل الجن ولا كل الطير، فتكون (من) للتبعيض في قوله تعالى: ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهو يوزعون ﴾[1] فحكم سليمان ـ عليه السلام ـ كان لطائفة من الاس، وطائفة من الجن، وطائفة من الطير. وقد بين لنا أدلته النقلية والعقلية على ذلك:

أما بالنسبة للانس، فإنه (لم يكن كل أهل الأرض من الانس جنداً لسليمان ـ إذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات..)[2] وهذا دليل تاريخي.

أما دليله على أن سليمان ـ عليه السلام ـ لم يحكم كل الجن، فهو

(١) النمل: ١٧.

(٢) انظر الظلال ٥: ٢٦٣٥.

إبليس وجنوده وذريته من الجن الذين يوسوسون في صدور الناس. . (وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان. وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره، وهو نبي يدعو إلى الهدى. .)[1].

أما دليله على حكم سليمان ـ عليه السلام ـ لطائفة من الطير فهو (أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد. ولو كانت جميع الطيور مسخرة له، محشورة في موكبه ـ ومنها جميع الهداهد ـ ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد، فضلاً على بلايين الطير. ولما قال: مالي لا أرى الهدهد؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته. .)[2].

نظر في قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . ﴾[3] فوجد أن الآية تدل على أنه (لا بدّ من جماعة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا بدّ من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. .).

ودلنا على وجه دلالة الآية على ذلك بقوله: (والذي يقرر أنه لا بدّ من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته. فهناك (دعوة) إلى الخير. ولكن هناك (أمر) بالمعروف. وهناك (نهي) عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان، فإن الأمر والنهي) لا يقوم بهما إلا ذو سلطان. .)[4].

وهو نظرٌ في الآية حكيم، وتحليل لكلماتها بديع، ومن ثم الخروج بأدلة تدل عليها فعلاً.

وقف أمام قوله تعالى: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو. . ﴾[5] وأراد أن يستخرج دلالاتها، وأن يستدل لهذه الدلالات:

---

(١) انظر الظلال ٥: ٢٦٣٦.
(٢) انظر الظلال ٥: ٢٦٣٦.
(٣) آل عمران: ١٠٤.
(٤) الظلال ١: ٤٤٤.
(٥) التوبة: ٣١.

قبل أن يبين الدلالات أورد بعض الروايات الصحيحة التي تضمنت تفسير رسول الله ـ ﷺ ـ للآية، فسرت كيفية اتخاذهم للأحبار والرهبان أرباباً، وذلك أنهم أطاعوهم فيما شرعوه لهم من تحليل الحرام وتحريم الحلال، واتبعوهم في ذلك.

وأتْبعها بذكر أقوال بعض المفسرين في توضيح ذلك أيضاً، وكانوا من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، وقبل أن يسجل دلالات الآية قال: (ومن النص القرآني الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله ـ ﷺ ـ وهو فصل الخطاب ـ ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين، تخلص لنا حقائق في العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار. .

وأهم الدلالات التي أشار إليها هي:

١ ـ إن العبادة هي الاتباع في الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله ـ ﷺ ـ.

٢ ـ إن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوهم واتبعوهم، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاداً وقدموا إليه الشعائر في العبادة.

٣ ـ إن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده، ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته ولا تقديم الشعائر التعبدية له. .)[1].

وأحياناً يستدل من النص الذي أمامه: حسبما توصل إليه نظره واجتهاده، وبعد ذلك يترجح لديه رأي جديد، ويخرج بدلالة جديدة، فيلغي استدلاله السابق، ويتراجع عنه كتابة ـ بعلمية وتواضع ـ.

قوله تعالى ـ: أثناء تشريع الطلاق وبيان أحكامه ـ: ﴿ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً، ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة. . ﴾[2].

---

(١) الظلال ٣: ١٦٤٢ وانظر تفسير الآية كاملاً: ١٦٤١ ـ ١٦٤٣.

(٢) البقرة: ٢٢٨.

هل الدرجة التي أُعطيت للرجال على النساء هنا مطلقة عامة تشمل كل العلاقات بينهما. أم إنها خاصة مقيدة بالطلاق، بل بالمراجعة على وجه الخصوص؟.

مال سيد في السابق إلى أنها مطلقة. وتراجع عن ذلك ـ كتابة ـ في الطبعة المنقحة حيث رجح أنها مقيدة: (أحسب أنها مقيدة في هذا السياق بحق الرجال في ردهن إلى عصمتهم في فترة العدة، وقد جعل هذا الحق في يد الرجل، لأنه هو الذي طلق، وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطى حق المراجعة لها هي! فتذهب إليه وترده إلى عصمتها! فهو حق تفرضه طبيعة الموقف وهي درجة مقيدة في هذا الموضع، وليست مطلقة الدلالة كما يفهمها الكثيرون، ويستشهدون بها في غير موضعها..) وهنا أعلن تراجعه عن رأيه السابق في الحاشية بقوله: (وما أبرىء نفسي، فقد وقعت في هذا التأويل الذي أرجح عدم صحته، في بعض ما كتبت.)[1].

كذلك وقف أمام حلقة من قصة موسى عليه السلام ـ وهي ذهابه إلى (مدين) وعمله عند الشيخ الكبير الصالح هناك، فمن هو هذا الرجل؟ هل هو شعيب ـ عليه السلام ـ؟ أم هو رجل آخر من ذرية قومه المؤمنين؟

عندما فسر هذه الحلقة من القصة في سورة النمل، رجح أن الرجل هو شعيب ـ عليه السلام ـ والدليل على ذلك هو سياق القرآن، إذ يورد قصة موسى بعد قصة شعيب ـ كما في سور الأعراف وهود ـ: (ليس هناك نص مقطوع به على أن شعيباً كان هو الشيخ الكبير الذي خدمه موسى وتزوج إحدى ابنتيه. ولكن هو الأرجح نظراً لورود قصة موسى بعد شعيب في كل سرد تاريخي للقصتين في القرآن مما يوحي بأنهما كانا متعاصرين أو متواليين..)[2].

وبعد فترة قصيرة من هذا الاستدلال، وفي تفسيره سورة القصص التالية لسورة النمل، ترجح لسيد أن الرجل ليس هو شعيباً، وإنما هو شخص

(١) الظلال ١: ٢٤٦ ـ ٢٤٧ مع ملاحظة الحاشية.

(٢) الظلال ٥: ٢٦٢٨ حاشية.

آخر ـ قد يكون ابن أخي شعيب ـ ولذلك قال: (سبق أن قلت مرة في الظلال: إن هذا الرجل هو شعيب، وقلت مرة: إنه قد يكون النبي شعيباً أولا يكون.. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو، وإنما هو شيخ آخر من مدين..).

وأدلته الجديدة التي بنى عليها ترجيحه عقلية: (والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير. وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به. فلو كان هو شعيب ـ النبي ـ بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بنتيْ نبيهم الشيخ الكبير.. فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل! يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره. ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات...)[1].

من الأمثلة التي أوردناها يظهر لنا أن سيد يعتمد على النقل ـ كما في آية التوبة ـ وعلى السياق القرآني ـ كما في بيان الدرجة التي للرجال على النساء وعلى تحديد صاحب موسى في مدين ـ وعلى النظر والاستنباط ـ كما في تراجعه عن تحديد صاحب موسى عليه السلام ـ.

---

(١) الظلال ٥: ٢٦٨٧ حاشية.

المبحث الثالث

«طريقته في النقاش»

تتصف طريقة سيد قطب في النقاش بالأمانة العلمية، في إيراده الأدلة والشواهد التي تشهد لرأيه. كما تتصف بالمنهجية في اعتماده على النصوص والنظر فيها، والسلفية في رجوعه إلى الكتاب وحقائقه وتقريراته، والسنّة النبوية وسيرة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتطبيق الصحابة الكرام لنصوص القرآن خلال حياتهم الذي يمثل فهمهم العملي له. واستدلاله كذلك بفهم الثقات من علماء السلف والمفسرين.. وهو (يوظف) في نقاشه الأدلة الأخرى ـ بالإضافة لما سبق ـ من أسباب النزول والنحو والبلاغة.. وذلك كله إلى جانب فهمه وإدراكه ونظره وملاحظته...

ويلاحظ أنه لم يكثر ـ في نقاشه ـ من الاستدلال بأقوال العلماء السابقين ـ كما فعل غيره من مفسرين سابقين ـ. كما يلاحظ أنه كان ينطلق من (الواقعية الجدية) في معالجة المسائل والقضايا الحية الحيوية التي يحتاجها المسلمون المعاصرون، ولذلك تجاوز مختلف القضايا النظرية أو التاريخية التي شغلت مفسرين سابقين، وسودت بها صفحات عديدة من كتب التفسير، وذلك مثل الخلافات الاعتقادية بين مختلف الفرق الإسلامية، أو الاختلافات الفقهية بين مختلف المذاهب الفقهية، أو الخلافات الدائرة بين بعض السابقين حول القصص القرآني ومبهمات القرآن أو الأحداث الغيبية.. أو الآراء المختلفة حول مسائل النحو والبلاغة والأدب والبيان.. وغير ذلك.

كما يلاحظ أن سيد كان متصفاً بالتواضع في نقاشه، من حيث عدم

اعتداده برأيه، أو تراجعه ـ كتابة ـ عن بعض ترجيحاته. أو اعتباره كلامه «فتوحات» من الله عز وجل. .

كما يلاحظ أن سيد كان في نقاشه «عفيف اللسان» «نزيه القلم» أديباً خلوقاً حتى وهو يرد على الأفكار الباطلة، أو يناقش المبطلين. . فكان همه إبطال الفكرة المنحرفة بالأدب والخلق. . حتى عندما يشتد في النقاش لا يخرج عن هذه الصفة فهو تعلو نبرته، وتبرز حدته، وقد يقسو في كلامه. . لكنه في كل ذلك تراه عفيفاً نزيهاً خلوقاً أميناً. وتظهر مزية هذا الأمر ووجوب الاتصاف بهذه الأخلاق عند الاطلاع على أساليب النقاش وألفاظه وكيفيته، في تفاسير الفرق والمذاهب المختلفة ـ كتفاسير الزمخشري وأبي حيان على سبيل المثال ـ.

ناقش بعض المفسرين عندما ذهبوا إلى أن آية القصاص في البقرة ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى: الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى. . ﴾[1] منسوخة بـآية القصاص في المائدة ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بـالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص. . ﴾[2].

فقد أورد رواية مأثورة لابن كثير في سبب نزول الآيتين. وبعد ذلك أورد رأيه هو في أنه لا تعارض بين الآيتين، ومن ثم لا داعي للقول بالنسخ ـ طالما أن الرواية بالنسخ لم ترد في الصحيح. كل آية منهما لها موضع غير موضع الأخرى، ومجال غير مجال الأخرى: (آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد معين على فرد معين، أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين كذلك. فيؤخذ الجاني ما دام القتل عمداً. . فأما الآية التي نحن بصددها (في البقرة) فمجالها مجال الاعتداء الجماعي. . . . فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك، والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك.

---

(١) البقرة: ١٧٨.

(٢) المائدة: ٤٥.

وإذا صح هذا النظر لا يكون هناك نسخ لهذه الآية، ولا تعارض في آيات القصاص. .)[1].

وفي تفسيره للآية التي تقرر حكم وعقوبة القتل الخطأ ـ وهي قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً. ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ـ إلا أن يَصَّدَّقوا ـ فإن كان من قوم عدو لكم ـ وهو مؤمن ـ فتحرير رقبة مؤمنة. وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسَلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة. . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين. . ﴾[2].

ناقش المفسرين الذين ذهبوا إلى أن الحالة الثالثة من حالات القتل الخطأ ـ وهي أن يكون القتيل من قوم معاهدين ـ عامة تبين حكم كل قتيل سواء كان مؤمناً أم كافراً معاهداً. فتوجب الآية لأهله الدية، كما توجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

ناقش رأيهم هذا، واعتبر الآية خاصة بالقتيل المؤمن في حالاته الثلاث، ولا تنص على القتيل الكافر المعاهد من قوم معاهدين: (ولكن الذي يظهر لنا أن الكلام ابتداء منصب على قتل المؤمن (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ). ثم بيان للحالات المتنوعة التي يكون القتيل فيها مؤمناً. وإذا كان قد نص في الحالة الثانية فقال: (وإن كان من قوم عدو لكم ـ وهو مؤمن ـ) فقد كان هذا الاحتراز مرة أخرى بسبب ملابسة أنه من قوم عدو. ويؤيد هذا الفهم النص على تحرير رقبة مؤمنة في هذه الحالة الثالثة. مما يوحي بأن القتيل مؤمن فأعتقت رقبة مؤمنة تعويضاً عنه. وإلا لكفى عتق رقبة إطلاقاً دون شرط الإيمان. .).

---

(١) الظلال ١: ١٦٥. ونلاحظ أن سيد ليس مبتدعاً في هذا القول، بل هو متبع لعلماء سابقين منهم الشعبي والسدي والحسن البصري وغيرهم. كما نقل ذلك مكي بن أبي طالب القيسي ورجحه وقال به. أنظر الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه للقيسي بتحقيق أستاذنا الدكتور أحمد فرحات: ١١٥ ـ ١١٧.

(٢) النساء: ٩٢.

نلاحظ من هذه الفقرة كيف أن سيد استخرج من الآية ثلاثة أدلة على أنها خاصة في القتيل المؤمن:

١ ـ أن الكلام في أولها منصب على قتل المؤمن.
٢ ـ النص على كون القتيل مؤمناً أيضاً في الحالة الثانية.
٣ ـ النص على تحرير الرقبة المؤمنة، ليوحي اشتراط إيمانها إيمان القتيل.

لكن ما الحكم فيما لو كان القتيل كافراً معاهداً من قوم معاهدين؟ الواجب هنا هو الدية إلى أهله فقط. ونأخذ هذا الحكم من سيرة الرسول ـ ﷺ ـ.

وفي هذا يقول سيد (وقد ورد أن النبي ـ ﷺ ـ ودى بعض القتلى من المعاهدين: ولكن لم يرد عتق رقاب مؤمنة بعددهم. مما يدل على أن الواجب في هذه الحالة هو الدية. وأن هذا ثبت بعمل رسول الله ـ ﷺ ـ لا بهذه الآية..)[١].

وواضح من العبارة الأخيرة حرص سيد على دقة الاستشهاد وسلامته من الطعن، وعلى أن يكون الدليل صالحاً للاستدلال على المطلوب، وأن يبين وجه الاستدلال منه. وهذه مسألة هامة لمن يطلب المنهجية ويتحرى التوثيق العلمي الرصين.

ونضيف إلى المثالين السابقين هذا المثال، لتتضح طريقته في النقاش:

ذهب بعض السابقين إلى أنه لا يجوز المسلم المحدث أن يمس المصحف أو يحمله! واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون ﴾[٢].

ولكن الآية لا تدل على ذلك عند سيد قطب: (فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به. فهذا نفي لهذا الزعم. فالشيطان لا يمس هذا الكتاب

---

(١) الظلال ٢: ٧٣٦.
(٢) الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.

المكنون في علم الله وحفظه. إنما تنزل به الملائكة المطهرون.. وهذا الوجه هو أظهر الوجوه في معنى (لا يمسه إلا المطهرون).. فـ (لا) هنا نافية لوقوع الفعل. وليست ناهية. وفي الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس والمؤمن والكافر، فلا يتحقق النفي على هذا الوجه. إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابسة. ملابسة قولهم: تنزلت به الشياطين. ونفي هذا الزعم إذ لا يمسه في كتابه السماوي المكنون إلا المطهرون..).

(ومما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾[1].. لا تنزيل من الشياطين! الآية لا تدل على حرمة مسّ المصحف للمحدث! ولكن هل هناك أحاديث تنهي عن ذلك؟ يتابع سيد نقض أدلة من يرى حرمة ذلك - إذ أنه لا يرى ذلك - وهو في هذا مجرد ناقل عن ابن كثير: (وقد روي حديثان يقرران معنى آخر. وهو أن لا يمس القرآن إلا طاهر: ولكن قال ابن كثير عنهما: وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره. ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به. وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص. وفي إسناد كل منهما نظر والله أعلم..)[2].

فها هو يناقش المعارضين في أدلتهم - نقاشاً علمياً منهجياً - الآية ليست في موطن النزاع، والأحاديث لا ترقى إلى مرتبة الصحة ليصح الاستدلال بها.

أما أدلته هو فهي مراعاة سياق الآية، مع الآيات التي قبلها والتي بعدها. - وملاحظة هذا الأمر واجب محتم لكل من أراد أن يستدل بالآيات - واستعان بالنحو والبلاغة لاستدلاله. ففرق بعيد بين دلالة (لا) الناهية التي تحرم، و(لا) النافية التي تقرر حقيقة. وبناء على كون (لا) هنا نافية - وهذا مسلَّم به من قبل الجميع - فلا يجوز حمل كلمة (المطهرين) على المسلمين، وإلا وقع التناقض بين دلالة الآية - على هذا الرأي - وبين

(١) الواقعة: ٨٠.
(٢) الظلال ٦: ٣٤٧١.

الواقع، حيث يمس المصحف غير المؤمنين، فلا بدّ من صرف الكلمة إلى الملائكة، من باب تطبيق الآية، وعدم نقض دلالتها بالواقع المتفق على وجوده.

ولكن يمكن أن يقال: إن النفي قد يراد به النهي. وذلك كقوله تعالى: ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ (البقرة: ١٩٧). ولكن مما يشهد لرأي سيد أن (المطهرون) هم الملائكة دون غيرهم من الناس. ولو كان المراد بها الناس لقال: المتطهرون. لأن الطهارة تكتسب اكتساباً بالنسبة للناس وليس كذلك بالنسبة للملائكة. ولم يعرف في اللغة (مطهر) بدل من (متطهر).

العلمية والمنهجية، والحرص على دقة وصحة الاستدلال. مع عرض الأدلة المقنعة، ومناقشة القضايا والمسائل المعاصرة، كل ذلك مع العفة والنزاهة والأدب والأخلاق.. هذه هي طريقة سيد قطب في النقاش أثناء التفسير!!.

المبحث الرابع

«سيد قطب والمفسرون السابقون»

ومما يتصل بطريقة سيد قطب في الاستنباط والاستدلال والنقاش، بيان صلته بالمفسرين السابقين، ونظرته إليهم، وموقفه منهم، وتعامله معهم، خلال الظلال... فقد كان يرجع إليهم أحياناً، ليستشهد بأقوالهم. أو يطلع على أدلتهم، كما يقف أحياناً ليناقشهم ويعقب عليهم، ويرجح أقوال بعضهم..

وفي الظلال مواطن كثيرة لهذه الأمور التي تبين صلته بالمفسرين السابقين. وقد أشرنا إلى بعض ذلك عندما تحدثنا عن (موارد الظلال) وبينا التفاسير التي رجع إليها، والمفسرين الذين أخذ عنهم...

ويهمنا في هذا المبحث أن نبين كيفية تعامله معهم، وصلته بهم، ونقاشه لهم... ونحب أن نقرر ـ قبل إيراد الأمثلة من الظلال ـ أن سيد كان يتصف أثناء أخذه عنهم أو نقاشه لهم أو تعقيبه عليهم، بالصفات التي أشرنا إليها في المبحث السابق، عند بيان طريقته في النقاش.. من العلمية والمنهجية والأمانة والسلفية والتواضع والأخلاقية، والتقدير لهم والاحترام..

وملاحظة هذه الصفات، واستصحابها أثناء البحث، ضروري للوقوف على نظرة سيد لهم، وصحتها ومنهجيتها.. فأحياناً يقع اللاحقون ـ من المفسرين ـ في السابقين ويتناولونهم بعباراتهم، وينتقصون من أقدارهم، ويتهمونهم في علمهم أو بواعثهم أو عقيدتهم.. ويظنون أنهم بعملهم هذا

يرتقون إلى المرتبة العالية والمنزلة السامية.. وما هكذا تُسلك الطريق، ولا تُبلغ المنازل!!

وما هكذا فعل سيد قطب، بل كان يعود إليهم، وينظر في أقوالهم.. وأحياناً كان يعتمد رأي بعضهم ويتبناه ويورده في الظلال، وأحياناً كان يقارن بين أقوالهم ويعتمد بعضها، وأحياناً كانت تعجبه أدلة بعضهم فيوردها، وأحياناً كان ينتقد مناهج بعضهم ويسجل الأخطاء المنهجية فيها، ويبين أساس خطئهم. وأحياناً كان يسمى بعضهم ويتعقبه ويبطل رأيه.... ولكن بمنهجية وعلمية وتواضع وعفة ونزاهة..

والآن إلى الظلال لنورد أمثلة لهذه الحالات..

من الأمثلة على اعتماده أقوال بعضهم وتبنيها وإيرادها في الظلال:

في تفسير قوله تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾[1].

استوقفته كلمة (ما سكن) هل هو من السكون أو من السكنى.. اطلع على بعض التفاسير، فوجد أصحابها مختلفين في ذلك. فاعتمد رأي الزمخشري في كشافه أنه من السكنى. اعتبره أقرب الأقوال إلى معنى الآية وأسلوب القرآن وقال: (وهذا هو التأويل الذي نطمئن إليه في الآيتين من بين شتى التأويلات..)[2].

ورجع إلى تفسير المنار، واعتمد تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا فيه حول مكانة عزير عند اليهود، واعتقاد بعض طوائفهم أنه ابن الله، الذي بينه قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود: عزير ابن الله..﴾[3] وقبل أن ينقل خلاصة كلامه قال: (وقد أورد المرحوم الشيخ رشيد رضا في الجزء العاشر من تفسير المنار خلاصة مفيدة عن مكانة عزراً عند اليهود، وعلق عليها تعليقاً مفيداً، ننقل منه هنا فقرات تفيدنا في بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالاً..)[4].

---

(١) الأنعام: ١٣.

(٢) انظر الظلال ٢: ١٠٥٣.

(٣) التوبة: ٣٠.

(٤) الظلال ٣: ١٦٣٦.

ولما فسر قوله تعالى: ﴿ ووالد وما ولد ﴾[1] أعجبته لفتة للشيخ محمد عبده، عن التوالد في الكائنات الحية في الكون، فتبناها وأوردها في الظلال، وقال (وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في هذا الموضع من تفسيره للسورة في (جزء عم) لفتة لطيفة تتسق في روحها مع روح هذه الظلال فنستعيرها منه هنا. . .)[2].

وإذا ما اختلف مفسران ـ أو أكثر ـ في تفسير آية، وفي تحديد المراد بها، فإن سيد ينظر في أقوالهما وأدلتهما، ويرجح ـ رأي أحدهما ويعتمده. . .

فقد اختلف المفسران ابن جرير الطبري وابن كثير أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ واذكر ربك في نفسك ضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال. . ﴾[3].

فاعتبر ابن جرير الطبري أن المراد بالآية أمر السامع للقرآن في حال استماعه أن يسمعه على هذه الصفة: (تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول).

واعتبر ابن كثير أن المراد بالآية الحض على كثرة الذكر من العباد ـ مطلقاً ـ بالغدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين. وأورد أدلته من أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ ومن مناسبة نزول الآية. وقد رجح رأي ابن كثير في هذه المسألة[4].

واختلف المفسرون في تحديد المقصودين بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم. . ﴾[5] وتضاربت الروايات في ذلك.

---

(١) البلد: ٣.

(٢) الظلال ٦: ٣٩٠٩١.

(٣) الأعراف: ٢٠٥.

(٤) انظر الظلال ٣: ١٤٢٦ ـ ١٤٢٧.

(٥) التوبة: ٤.

فرجح مجموعة من أهل التفسير من السابقين والمعاصرين أن المقصود بذلك هم (بنو خزيمة بن عامر من بني بكر من كنانة وهما: بنو ضمرة وبنو مدلج).

وهذان الحيان - بنو ضمرة وبنو مدلج - هما المقصودان أيضاً بالاستثناء بالآية التالية ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. إن الله يحب المتقين ﴾[1] كما قال بذلك مجموعة من المفسرين منهم الشيخ رشيد رضا من المعاصرين. بينما ذهبت مجموعة أخرى من المفسرين - منهم محمد عزة دروزة من المعاصرين - إلى أن المقصودين بالاستثناء في الآية الثانية طائفة أخرى غير المذكورة في الاستثناء في الآية الأولى..

وقد رجح سيد الرأي الأول الذي رجحه رشيد رضا، على الرأي الثاني الذي رجحه محمد عزة دروزة[2].

كذلك اختلف المفسرون في تفسير آية الدخان ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين.. ﴾[3] فقال بعضهم إنه دخان يوم القيامة، وأن هذا من علامات الساعة الكبرى. وقال بعضهم: بل هو قد وقع فعلاً في الفترة المكية من الدعوة الإسلامية، وأن الله كشفه عن قريش بدعاء الرسول - ﷺ -.

وقد قال سيد قطب في ذلك: (فنذكر هنا ملخص القولين وأسانيدهما. ثم نعقب بما فتح الله به، ونحسبه صواباً إن شاء الله..)[4].

وبعد أن أورد الروايات وأسانيدها ونسبها إلى أصحابها القائلين بها - واعتمد في ذلك اعتماداً شبه كامل على ابن كثير وتحقيقاته[5] - رجح قول ابن كثير في ذلك (ونحن نختار قول ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة، وقول ابن كثير في تفسيره. فهو تهديد له نظائره الكثيرة في القرآن الكريم..)[6].

---

(١) التوبة: ٧.
(٢) انظر الظلال ٣: ١٦٠٠.
(٣) الدخان: ١٠.
(٤) الظلال ٦: ٣٢١٠.
(٥) انظر الظلال ٦: ٣٢١٠ - ٣٢١٢.
(٦) الظلال ٦: ٣٢١٣.

أحياناً يرفض أقوال بعضهم دون أن يتبنى قولاً لأحد منهم، ودون أن يسمي صاحبه، ودون أن يذكر خلافات وأدلة للأقوال فيها:

فقد اختلف المفسرون في تحديد طائفة: الصابئين في قوله تعالى: ﴿ إن الذين آمنوا، والذين هادوا، والنصارى، والصابئين - من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً - فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.. ﴾[1].

هل هم الموحدون العرب قبل البعثة؟ أم هم عبدة النجوم في بلاد العراق؟ أم هم قوم آخرون؟ رجح سيد القول الأول على القول الثاني: (والصابئون: الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى، ملة إبراهيم، واعتزلوا عبادة قومهم دون أن تكون لهم دعوة فيهم.. فقال عنهم المشركون: إنهم صبأوا - أي مالوا عن دين آبائهم - كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك. ومن ثم سموا الصابئة. وهذا القول أرجح من القول بأنهم عبدة النجوم كما جاء في بعض التفاسير)[2].

وأحياناً يطلع على أقوال المفسرين في المسألة فلا يعتمد قولاً منها، فيتجاوزها كلها - بأدب وعفة وتواضع - ويسجل رأيه ويستدل له.

فقد اختلفت أقوال المفسرين في ترتيب آيات التحدي في القرآن الكريم واطلع سيد على هذه الأقوال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أم يقولون افتراه؟ قل: فأتوا بعشر سور مثله مفتريات. وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.. ﴾[3].

أورد قول المفسرين القدامى (إن التحدي كان على الترتيب: بالقرآن

---

(١) البقرة: ٦٢.

(٢) الظلال ١ : ٧٥. وممن يرى هذا الرأي من العلماء السابقين الإمام ابن تيمية في عدد من كتبه مثل (الفتاوى).

(٣) هود: ١٣.

كله، ثم بعشر سور، ثم بسورة واحدة). ورد على هذا الرأي بأن «هذا الترتيب ليس عليه دليل. بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور (وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود. والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز..).

ثم أورد رأي الشيخ رشيد رضا في سر التحدي بعشر سور، حيث قال ـ: «وبعد أن أجهد نفسه طويلاً رحمة الله عليه ـ إن المقصود بالتحدي هنا (في هود) هو القصص القرآني، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشراً. فتحداهم بعشر.»[1].

وقد تجاوز القولين ـ للقدامي ولرشيد رضا ـ ولم يرجح أياً من الرأيين. وسجل رأيه هو الذي خرج به بعد النظر في الآيات وفي السياق القرآني وفي ملابسات التحدي في مكة وفي المدينة:

(ونحسب ـ والله أعلم ـ أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد. وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة. فيقول مرة: أتوا بمثل هذا القرآن. أو ائتوا بسورة، أو بعشر سور. ودون ترتيب زمني. لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن. كله أو بعضه أو سورة منه على السواء. فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره. والعجز كان عن النوع لا عن المقدار. وعندئذٍ يستوى الكل والبعض والسورة. ولا يلزم ترتيب، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة. فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن. ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن..)[2].

---

(١) انظر الظلال ٤ : ١٨٦١.

(٢) الظلال ٤ : ١٨٦١ ـ ١٨٦٢ وانظر مثالاً آخر أيضاً. رد فيه على المفسرين القدامى وعلى رشيد

ونلاحظ من هذا أن سيد كان حريصاً على الدليل الصحيح في المسألة، ويرفض الترتيب التحكمي، والدليل الذي لايصح، فإذا كان الأمر غير وارد بالنصوص، فإن العقل عاجز عن الخوض فيه - باعتباره من غيب الماضي كأحداث وملابسات وقعت في مكة قبل الهجرة -.

ويقف أحياناً ليناقش أدلة المفسرين التي أوردوها، ويبطلها ويستدل بأدلة جديدة. فقد أورد بعضهم أن كعب الأحبار - اليهودي اليمني - أسلم لما سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا، مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت.. ﴾[1] وذلك قبل أن يصل رسول الله - ﷺ - حيث دخل عليه مسلماً.

وقد أبطل سيد هذا من الناحية التاريخية فقال: (المشهور أن كعباً أسلم في أيام عمر بن الخطاب، وهناك رواية أخرى أخرجها ابن جرير عن إسلامه أيام عمر لعلها الأوثق. وهي تبني إسلامه كذلك على سماعه لهذه الآية..)[2].

كذلك فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة.. ﴾[3] حيث نقل رواية في سبب نزول الآية أوردها ابن كثير في تفسيره. في أن الآية - وآيات قبلها من سورة الأنعام - نزلت ترد على طلب الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن من رسول الله - ﷺ - أن يجعل لهما مجلساً خاصاً لا يجلس فيه معهم المستضعفون من المسلمين من أمثال بلال وصهيب وخباب وعمار...

ثم عقب ابن كثير على الرواية واستبعدها، وقد رد سيد تعقيب ابن كثير

رضا، وخرج برأي له واستشهد له بقول الزمخشري. وذلك في تفسيره الهم من يوسف - عليه السلام - ومن امرأة العزيز. في الظلال ٤ : ١٩٨١ - ١٩٨٢.

(١) النساء: ٤٧.

(٢) الظلال ٢ : ٦٧٧ مع ملاحظة الحاشية.

(٣) الأنعام: ٥٤.

واستبعده ومال إلى قبول الرواية. قال: (عقب ابن كثير في تفسيره على هذا الحديث قال: وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر.. ولم أجد لهذا التعقيب وجهاً. فإن قولهما هذا إنما كان قبل إسلامهما قطعاً. فهما لا يقولان ما قالا وهما مسلمان! ومن ثم لا تعارض بين هذه الرواية وبين أن إسلامهما كان بعد الهجرة بدهر. فهما أعرضا عن الإسلام يومها حيث لم يستجب لقولهما..)[1].

فنلاحظ هنا كيف أن اعتماد سيد على ابن كثير كثيراً في الظلال، وفي نقل الروايات المأثورة بخاصة، لم يمنعه من أن يرد بعض الآراء لابن كثير لأنه ترجح لديه غيرها. وهذا من منهجيته العلمية.

وهذا يدل ـ بالإضافة لما سبق ـ على أن سيد لم يكن في نقله عن المفسرين كحاطب ليل، يأخذ ما فيها بدون نظر أو تمحيص. ولكنه كان ناقلاً على بصيرة، ويعرض أقوالهم ورواياتهم على موازين النقد الصحيحة، مراعياً سياق القرآن وحقائقه وتقريراته.. وفي الأمثلة السابقة مصداق لهذا.

ونضيف إليها هذا المثال الذي يمثل طريقته في النقل من الإمام محمد بن جرير الطبري ـ رائد التفسير بالمأثور عند مؤلفي علوم القرآن ـ فقد اعتمد سيد روايته لمن قام بالتبليغ وطريقة التبليغ، وظروف الإعلان في الآيات الأولى من سورة التوبة وتبليغها على الحجيج في مكة في العام التاسع من الهجرة.

وقدم لنقله كلام ابن جرير بهذه العبارة: (وقد وردت روايات متعددة في ظروف هذا الإعلان، وطريقة التبليغ به، ومن قام بالتبليغ. أصحها وأقربها إلى طبائع الأشياء، وأكثرها تناسقاً مع واقع الجماعة المسلمة يومذاك، ما قرره ابن جرير وهو يستعرض هذه الروايات. ونقتطف هنا من تعليقاته ما يمثل رؤيتنا لحقيقة الواقعة، مغفلين ما لا نوافقه عليه من كلامه،

---

(١) الظلال ٢: ١١٠٢.

وما تناقض فيه بعض قوله مع بعض، إذ كنا لا نناقش الروايات المتعددة ولا نناقش تعليقات الطبري. ولكن نثبت ما نرجح أنه حقيقة ما حدث من مراجعة ما ورد وتحقيقه..)[1].

وواضح من هذا النص الذي نقلناه نظرة سيد إلى الإمام الطبري، وثقته به وبمنهجه في النقل بصورة عامة. وهذا لا يعني اتفاقه معه في تفاصيل ذلك المنهج. كما يتضح لنا اطلاع سيد على الروايات الأخرى وعلى الكتب الأخرى، وبحثه عن الروايات الموضوعية الصحيحة القريبة إلى طبائع الأشياء، والمتناسقة مع واقع الجماعة المسلمة يومذاك.

وثقة سيد بالإمام الطبري: وتبنية لرأيه واعتماده لتحقيقاته ـ بصورة عامة ـ واضح في الظلال من خلال الأمثلة التي أوردناها، بل بلغ من ذلك أن قدم قول الطبري على قول له نفسه في الطبعة الأولى من الظلال، واعتبره أحسن الأقوال في المسألة، وإن كان ليس هو القول المطلوب، ولا الحاصل على القبول التام منه!!!

كان ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا.. والله يحب المحسنين..﴾[2] حيث استوقفه تكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح، ومرة مع الإيمان، ومرة مع الإحسان.. وقال في ذلك قولاً في الطبعة الأولى من الظلال، لم يجده شافياً، فاتجه إلى تفاسير المفسرين لعله يجد فيها تعليلاً جيداً، ولم يجد ما يصبو إليه إلا عند الإمام الطبري.... (وأحسن ما قرأت ـ وإن كان لا يبلغ من حسّي مبلغ الارتياح ـ هو ما قاله ابن جرير الطبري). فأورده مكان كلامه هو في الطبعة الأولى[3]..

هذه نظرة سيد قطب إلى المفسرين السابقين، وهي نظرة ود واحترام

(١) الظلال ٣: ١٥٩٧.

(٢) المائدة: ٩٣.

(٣) انظر الظلال ٢: ٩٧٨ - ٩٧٩.

وتقدير، وهذه صلته بهم وهي صلة محبة واخاء. يختار رأياً لأحدهم، أو يرجح رأياً ضد آخر، أو يضرب عن كل الآراء ويثبت رأيه هو، ولكن بعلمية ومنهجية وتواضع وأدب وعفة ونـزاهة... ويبحث عن الأدلـة الصحيحة المنهجية، ويقارن بين الروايات والآراء ويختار المناسب منها، وله وسائل للاختيار وأسباب للترجيح.



الفَصْلُ الرَّابِع

طَرِيقَتُهُ في عَرْض
بَعْض مَوضُوعَاتِ عُلُوم القُرآن

المبحث الأول

ترتيب القرآن

رأي سيد قطب في ترتيب القـرآن يتفق مع رأي جمهور العلماء من المفسرين والباحثين في علوم القرآن.

ترتيب الآيات في السورة ليس على أساس زمان النزول ولا مكانه، وإنما هو ترتيب توقيفي، أُمر به رسول الله ـ ﷺ ـ ومن ثم أَمر الصحابة بذلك، فالتزموا بأمره في كتابتهم القرآن وجمعه.

أما ترتيب السور في المصحف فلم أجد له نصاً في الظلال بخصوصه، وإنْ كان قارىء الظلال يستطيع أن يستخلص رأي سيد فيه وهو أنه كذلك توقيفي حيث التزم الصحابة توجيه الرسول ـ ﷺ ـ في ذلك عندما جمعوا القرآن، ورتبوا سوره في المصحف زمن أبي بكر الصديق، ثم زمن عثمان ـ رضي الله عنهما ـ.

وقد تابع سيد جمهور المفسرين في تفسيرهم سور القرآن، إذ أنه تناول هذه السور حسب ترتيبها في المصحف، وليس حسب نزولها التاريخي. مع أنه كان يتمنى لو يستطيع عرض هذه السور حسب نزولها في الظلال، وقد كانت له تجربة سابقة في ذلك، حيث عرض السور في كتابه «مشاهد القيامة في القرآن» حسب النزول، ويبدو أنه اقتنع باستحالة الجزم بالترتيب على هذا

الأساس، وبخطورة الآراء التي قد تنتج عن ذلك، وبمخالفة ذلك لاتفاق المسلمين منذ زمن عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى العصر الحديث. على تناول القرآن وتفسيره على الترتيب الذي أجمع عليه الصحابة زمن عثمان، والذي عليه المصاحف في القديم والحديث. وفي ذلك يقول في تقديمه لسورة الأنفال: (إن الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء ـ اللهم من ناحية أن هذا قرآن مكي وهذا قرآن مدني على وجه الإجمال، على ما في هذا من خلافات قليلة ـ فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة، فيكاد يكون متعذراً. ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئاً مستيقناً ـ إلا في آيات معدودات تتوافر بشأنها الروايات، أو تقطع بشأنها بعض ارويايات..).

ومن ذلك يقرر سيد أهمية هذا الترتيب ـ لو أن الصحابة نقلوه وأثبتوه ـ لما له من أثر ودلالة حركية تربوية ومنهجية «وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة، ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها، فإن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقاً، كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية ظنية، وليست نهائية قطعية..).

ونتيجة لذلك فقد آثر أن يفسر السور في الظلال حسب ترتيبها في المصحف العثماني، مع محاولة الإلمام بالملابسات التاريخية لنزول السورة أو الآيات، كبديل جزئي عن التتبع وفق الترتيب الزمني لها. إذ أن ما لا يدرك كله لا يترك جله.. «لذلك آثرت في هذه الظلال أن أعرض القرآن الكريم بترتيب سوره في المصحف العثماني، مع محاولة الإلمام بالملابسات التاريخية لكل سوره ـ على وجه الإجمال والترجيح ـ والاستئناس بهذا في إيضاح الجو والملابسات المحيطة بالنص ـ على وجه الاحتمال والترجيح أيضاً...»[1].

ترتيب السور في القرآن توقيفي، على الرغم من نزول آيات السور في

---

(1) الظلال ٣: ١٤٢٩.

فترة زمنية طويلة، ولمناسبات وأسباب وملابسات شتى، فنزول الآيات شيء، وترتيبها في السورة شيء آخر.. ويعرض سيد ـ وهو يتحدث عن هذا الأمر ـ الأدلة التي تدل على ذلك، ويبين وجه الاستدلال منها.. (فأما تجميع آيات كل سورة في السورة، وترتيب هذه الآيات، فهو توقيفي موحى به. روى الترمذي ـ بإسناده ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، وقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ـ ﷺ ـ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وخشيت أنها منها، وقبض رسول ـ ﷺ ـ ولم يبين لنا أنها منها. فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطوال[1]..

---

(١) حديث رواه أحمد بن حنبل في المسند قال (حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد، حدثنا عوف، حدثنا يزيد يعني الفارسي (قال عبد الله بن أحمد: قال أبي أحمد بن حنبل: وحدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن يزيد قال: قال لنا ابن عباس: قلت لعثمان بن عفان...
قال عنه المحقق أحمد شاكر: في إسناده نظر كثير، بل هو عندي ضعيف جداً، بل حديث لا أصل له، يدور إسناده في كل رواياته على (يزيد الفارسي) الذي رواه عن ابن عباس، تفرد به عنه عوف بن أبي جميلة، وهو ثقة. فقد رواه أبو داود ١: ٢٨٧ ـ ٢٨٨ والترمذي ٤: ١١٣ وقال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس..
ويزيد الفارسي هذا اختلف فيه: أهو يزيد بن هرمز أم غيره. قال البخاري في التاريخ الكبير: قال لي علي: قال عبد الرحمن: يزيد الفارسي هو ابن هرمز؟ قال فذكرته ليحيى فلم يعرفه. قال: وكان يكون مع الأمراء.
فهذا يزيد الفارسي الذي انفرد برواية هذا الحديث، يكاد يكون مجهولاً، حتى شبه على مثل ابن مهدي وأحمد والبخاري أن يكون هو ابن هرمز أو غيره، ويذكره البخاري في الضعفاء.
فلا يقبل منه مثل هذا لحديث ينفرد به وفيه تشكيك في معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعي، قراءة وسماعاً وكتابة في المصاحف، وفيه تشكيك في إثبات البسملة في أوائل

فهذه الرواية تبين أن ترتيب الآيات في كل سورة كان بتوقيف من رسول الله - ﷺ -، وقد روى الشيخان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي - ﷺ - أجود الناس بالخير وكان أجودما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل. وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي - ﷺ - القرآن، وفي رواية: فيدارسه القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة[1] ومن الثابت أن رسول الله - ﷺ - قد قرأ القرآن كله على جبريل - عليه السلام - كما أن جبريل قد قرأه عليه.. ومعنى هذا أنهما قرآه مرتبة آياته في سورة[2]...

ولئن لم يسلم له دليله الأول - الحديث الذي رواه الترمذي - بسبب عدم صحته، فإن دليله الثاني يكفيه إذ أنه صحيح أولاً، ويدل على المدعى ثانياً.

ترتيب السور في المصحف ليس على أساس النزول، إذن لا يعني وجود سورتين متواليتين في المصحف نزولهما متتابعتين، بل بينهما فترة زمنية متطاولة. وأصدق مثال على ذلك سورتا (الفيل) و(قريش) وفي ذلك يقول سيد في خاتمة تفسير سورة قريش: (وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوِّها. وإن كانت سورة مستقلة مبدؤة بالبسملة. والروايات تذكر أنه يفصل بين سورة الفيل وسورة قريش تسع سور. ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب..)[3].

وما يقوله بعض العلماء السابقين في ترتيب سور القرآن حسب نزولها ليس يقينياً، فإنهم يرتبون السور حسب نزولها.. ومن أوائل من فعل ذلك

السور، كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه، وحاشاه من ذلك. فلا علينا إذا قلنا «إنه حديث لا أصل له» تطبيقاً للقواعد الصحيحة التي لا خلاف فيها بين أئمة الحديث.

المسند ١: ٣٢٩ - ٣٣٠ باختصار. وانظر الكلام كاملاً في المسند ١: ٣٢٩ - ٣٣١ و٣٧٦.

(١) انظر صحيح البخاري: باب بدء الوحي ١: ٦ - ٧ طبعة محمد علي صبيح.

(٢) الظلال ١: ٢٧ وانظره أيضاً في ٣: ١٥٨٣.

(٣) الظلال ٦: ٣٩٨٣.

الإمام محمد بن شهاب الزهري في كتابه «تنزيل القرآن»[1]. ولما طبع المصحف في المطبعة الأميرية ببولاق ـ مصر أشاروا ـ في التعريف بالسور ـ إلى ترتيبها حسب النزول، فالفاتحة نزلت بعد المدثر، وآل عمران بعد الأنفال، والنساء بعد الممتحنة، والمائدة بعد الفتح، والأنعام بعد الحجر في مكة.. وهكذا، واعتمدوا في هذا الترتيب على الكتب المتخصصة بذلك[2]. واعتمدت على هذا الترتيب بعض الطبعات التالية للمصحف الشريف. وقد كانت نسخة من هذا المصحف أمام سيد قطب وهو يفسر القرآن الكريم[3]. وعنه كان يأخذ ترتيب السور غالباً، ومع ذلك كان يخالفهم في ترتيب السور، أو في بيان مكيتها ومدنيتها، هي أو بعض آياتها...

قرر سيد في تعريفه بسورة الأنعام أن ترتيب السور المذكور ليس يقينياً، كما أنه لا يشمل آيات السورة كلها، وإذا قبل هذا الترتيب من باب الترقيم فلا يشمل كل آيات السورة غالباً... وفي ذلك يقول: (وليس في الروايات ما يعين تاريخ نزول السورة، وليس في موضوعها كذلك ما يحدد زمن نزولها من العهد المكي... وهي حسب الترتيب الراجح لسور القرآن تجيء بعد سورة الحجر، وتكون هي السورة الخامسة والخمسين.. ولكننا ـ كما بيَّنا من قبل في التعريف بسورة البقرة ـ ـ لا نستطيع بمثل هذه المعلومات أن نجزم بشيء عن تاريخ محدد لنزول السور. فالمعول عليه عندهم ـ في الغالب ـ في ترتيب السور على هذا النحو هو تاريخ نزول أوائلها ـ لا جملتها ـ وقد تكون هناك أجزاء من سورة متقدمة نزلت بعد أجزاء من سورة متأخرة، إذ المعوّل في الترتيب على أوائل السورة...

أما في سورة الأنعام فقد نزلت كلها جملة. ولكننا لا نملك تحديد تاريخ نزولها. غير أننا نرجح أنها كانت بعد السنوات الأولى من الرسالة.. ربما الخامسة أو السادسة. ولا نعتمد في هذا الترجيح على أكثر من رقم

---

(١) نشره الدكتور صلاح الدين المنجد مع رسالتين أخريين لابن تيمية وابن الأبار في سلسلة «رسائل ونصوص» رقم (٣) عن دار الكتاب الجديد ـ عام: ١٩٦٣.

(٢) المصحف الشريف ـ طبعة الشمرلي. التعريف بالمصحف في نهايته: ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

(٣) انظر الظلال ٢: ١٠٢١.

الترتيب. ثم على سعة الموضوعات التي تناولتها، والتوسع في عرضها على هذا النحو. .)[1].

لا جزم في ترتيب السور حسب نزولها، ولكنه الترجيح بالوسائل المختلفة التي لا تعطي أحكاماً يقينية، بل أحكاماً راجحة فقط. ثم هذا الترتيب قد لا يشمل كل آيات السورة. .

وقد وقف سيد وقفات أمام ترتيب الآيات في السور، وملاحظة أوقات نزولها المتفاوتة وكان معظم تلك الوقفات في تفسيره للسور المدنية الطويلة. إذ أن السورة المدنية ضمت آيات نزلت في أزمان متباعدة، وقد يكون بينها عدة سنوات تصل ما يقارب أحياناً العشر!!

ففي سورة البقرة «آيات من أواخر ما نزل من القرآن كآيات الربا، في حين أن مقدماتها كانت من أول ما نزل من القرآن في المدينة»[2] وعلى هذا تكون تلك السورة قد ظلت «مفتوحة» ما يقارب عشر سنوات، وتضاف إليها آيات متفاوتة في النزول، بناءً على أوامر رسول الله ـ ﷺ ـ. وسورة النساء كذلك: (فمنها ما نزل بعد سورة الممتحنة في السنة السادسة، وفي السنة الثامنة كذلك. ولكن منها الكثير نزل في أوائل العهد بالهجرة والمنتظر ـ على كل حال ـ أن يكون نزول آيات هذه السورة قد امتد من بعد غزوة أُحد في السنة الثالثة الهجرية إلى ما بعد السنة الثامنة، حين نزلت مقدمة سورة الممتحنة)[3].

وسورة التوبة، رغم أنها من أواخر ما نزل من القرآن ـ كما تقول الروايات ـ فإنها لم تنزل دفعة واحدة. وفي وقفة سيد قطب أمام السورة لترجيح زمان نزولها، استعان بوسائل تاريخية وموضوعية، وبذل في هذا جهداً ملحوظاً. قال: (ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية، ومراجعة ما جاء في الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته، ومراجعة

---

(١) الظلال ٢ : ١٠٢٠ .

(٢) الظلال ١ : ٢٧ .

(٣) الظلال ١ : ٥٥٤ .

أحداث السيرة النبوية كذلك.. يتبين أن السورة بجملتها نزلت في العام التاسع من الهجرة، ولكنها لم تنزل دفعة واحدة.. ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التي نزلت فيها مقاطع السورة في العام التاسع، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل.. المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب من هذا العام. والمرحلة الثانية كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها. والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها. أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها فقد نزلت متأخرة في نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج..)[1].

وسيد قطب لا يسلم دائماً بأقوال السابقين في ترتيب السور، أو في زمان نزولها أو آياتها، بل يراجع هذه الأقوال والروايات، ويتجاوزها لينظر في السورة نفسها، ويستعين بوسائله في محاولة الخروج برأي راجح في ذلك، ومن أهم هذه الوسائل: استصحاب الملابسات التاريخية، وأحداث السورة، والنظرة الموضوعية في السورة وسياقها...

فسورة المائدة ورد (في روايات كثيرة أنها نزلت بعد سورة الفتح.. وسورة الفتح معروف أنها نزلت في الحديبية في العام السادس من الهجرة.. وفي بعض هذه الروايات أنها نزلت مرة واحدة، فيما عدا الآية الثالثة التي فيها (اليوم أكملت لكم دينكم..) فإنها نزلت في حجة الوداع في السنة العاشرة..).

ولكن هذه الروايات غير معتمدة عند سيد، وله وسائله التي أطْلعَنا عليها في ترجيح غيرها.. (ولكن المراجعة الموضوعية للسورة، مع أحداث السيرة في غزوة بدر، تقطع بأن الآيات الخاصة بموقف بني إسرائيل مع موسى - عليه السلام - من دخول الأرض المقدسة، كانت معروفة للمسلمين قبل غزوة بدر في السنة الثانية الهجرية.. وقد وردت إشارة إليها على لسان سعد بن معاذ الأنصاري - رضي الله عنه - في رواية، وعلى لسان المقداد بن

---

(١) الظلال ٣: ١٥٦٤ - ١٥٦٥.

عمرو في رواية، وهو يقول لرسول الله ـ ﷺ ـ (إذن والله لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. .).

واستدلال سيد بهذه الحادثة استدلال حكيم، ناتج عن استصحاب أحداث السيرة، وحسن استخدام لها، واستدلال منها لمسائل وقضايا في التفسير. كما تدل على حضور ذهني وثقافي دائم، وحسن استخراج للأدلة منها وتوظيف للمعلومات التي فيها. .

هذا عن استدلاله بأحداث السيرة. أما نظرته الموضوعية لموضوعات السورة وسياقها، وتوظيفه ذلك في ترجيح زمان نزولها، فهو قوله: (أما المراجعة الموضوعية فتصور الموقف بأنه كانت لليهود ـ في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآيات الخاصة بهم ـ قوة ونفوذ وعمل في المدينة، وفي الصف المسلم، مما اقتضى هذه الحملة لكشف موقفهم وإبطال كيدهم. وهذه القوة وهذا النفوذ كانا قد تضاءلا بعد وقعة بني قريظة، عقب غزوة الخندق. .).

ونتيجة لذلك يخبرنا سيد بما ترجح لديه في زمان نزول السورة: (ومن هذه الملاحظات يترجح لدينا أن مطالع السورة وبعض مقاطعها هي التي نزلت بعد سورة الفتح، بينما نزلت مقاطع منها قبل ذلك، كما أن الآية التي فيها قول الله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ لا بدّ أن تكون قد نزلت بعد ذلك. فقد كانت آخر ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال. وأن السورة لم تنزل كلها مرة واحدة كما جاء في إحدى الروايات. .)[1].

ورغم أن آيات السورة لم تكن تنزل متوالية تواليها في المصحف العثماني الآن ـ وهذا في غالب السور ـ فإن السورة تبدو وحدة متناسقة، يظاهر بعضها بعضاً وكان سيد يهدف إلى بيان تناسقها وتناسبها، والحكمة من ترتيبها في الظلال، فكان بيان «الوحدة الموضوعية» من قواعد منهجه في التفسير. وكان من طريقته العامة في التفسير «التعريف بالسورة وتقسيمها إلى

---

(١) الظلال ٢: ٨٣٢.

دروس ومقاطع» وحرص على بيان هذا أيضاً أثناء «تفسيره التفصيلي للآيات» كما بينا في في المباحث المشار إليها فيما سبق.

وفي هذا المجال يقول: (إن السور لم تكن تنزل جملة إلا نادراً. وإن الآيات الواردة فيها لم تكن تنزل متوالية تواليها في المصحف. ولكن ترتيب هذه الآيات في السورة ترتيب توقيفي. فلا بدّ من حكمة ترتيبها على هذا النسق، وقد كشفت لنا جوانب من هذه الحكمة حتى الآن في السور التي عرضناها (سورة الحجر في الطبعة المنقحة) في تماسك بنيان السور، واتحاد الجو والظلال في كل سورة. والعلم بعد ذلك لله. إنما هو اجتهاد. والله الموفق إلى الصواب..)[1].

---

(١) الظلال ٤ : ٢١٤٦. ومزية هذا النص الأخير أنه من أواخر ما كتبه سيد في الظلال. ولذلك يمثل رأيه النهائي في ترتيب القرآن وفي دلالته على مصدره وإعجازه وتناسقه..

المبحث الثاني

المكي والمدني

سيد قطب يتفق مع العلماء في تقسيم القرآن إلى قسمين: مكي ومدني. وهو كذلك يتفق مع جمهور العلماء في اعتبار الهجرة حداً فاصلاً بين المكي والمدني، فما قبل الهجرة مكي سواء نزل في مكة أو ضواحيها أو غير ذلك، وما بعد الهجرة مدني سواء نزل في المدينة أو في ضواحيها أو في غير ذلك، كتبوك والحديبية وحتى مكة نفسها بعد الفتح كسورة النصر..

ولم أجد له نصاً في الظلال على هذا التفريق الزمني بين المكي والمدني، ولكن يفهم هذا من عرضه للمكي والمدني..

فعن تركيز القرآن المكي على العقيدة باعتبارها قضيته الكبرى، يقول: (وهكذا انقضت ثلاثة عشر عاماً كاملة في تقرير هذه القضية الكبرى..)[1] والفترة المكية من السيرة النبوية ثلاثة عشر عاماً تلتها الهجرة مباشرة.

وعن بقاء سورة البقرة «مفتوحة» طيلة العهد المدني، تضاف إليها الآيات بتوجيه الرسول - ﷺ - يقول: «إن منها ما نزل في أوائل العهد بالمدينة، ومنها ما نزل في أواخر هذا العهد، وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات...»[2].

وسورة التوبة ينص سيد على أنها كلها مدنية[3].. رغم أن فيها آيات

(١) الظلال ٢: ١٠٠٤.
(٢) الظلال ٣: ١٤٢٩.
(٣) انظر الظلال ٣: ١٥٦٤.

تتحدث عن غزوة تبوك، وآيات أخرى تنزلت بعد غزوة حنين التي وقعت بعد فتح مكة.

وسورة النصر ينص سيد على أنها مدنية مع أنها نزلت في مكة أثناء فتحها[1]..

ولسيد وقفات مطولة في بيان موضوعات القرآن المكي والقرآن المدني، والسر في ذلك. وكان يستخرج من اختصاص كل واحد بموضوعه دلالات على منهج القرآن في الحركة والتربية والتوجيه، وعلى منهجه في عرض العقيدة وبيان دورها وأهميتها وأثرها، وعلى منهجه في التشريع وسن الأحكام.

القرآن المكي موضوعه الأساسي واحد، عرضه بمختلف الأساليب والمؤثرات والموحيات.. وله قضية واحدة كبرى بقي يركز عليها باستمرار.. حتى إذا استقرت انتقل إلى التشريع والتوجيه.. هذا الموضوع الأساسي هو العقيدة، وهذه القضية الكبرى هي العقيدة.. واقتصار القرآن على العقيدة بصورة رئيسية يدل على «طبيعة القرآن المكي» ومنهج القرآن في التربية والحركة والتوجيه..

وقد أدرك سيد (طبيعة القرآن المكي) حق الإدراك ووظف هذا في بيان المهمة العملية الحركية للقرآن، والحديث عن منهجه في التربية والحركة، وصلاحية هذا للناس في كل زمان ومكان، وبخاصة المسلمون الذين يعيشون في العصر الحاضر، ووقف يقرر في الظلال هذه الحقائق بعبارات محددة، ليلتزمها المعاصرون، وبخاصة الدعاة والمربون والموجهون منهم...

كان ذلك في تقديمه لسورة الأنعام ـ أول سورة مكية في ترتيب المصحف العثماني ـ حيث طال تقديمه لها وبلغ خمسة وعشرين صفحة من القطع الكبير، خصص معظم الحديث لطبيعة القرآن المكي.. ونظراً لأهمية هذا الموضوع، وانطلاقاً من «بعده» الحركي التربوي، فقد خصص له فصلاً

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٩٩٤.

من فصول «معالم في الطريق» - الكتاب ذو الغرض التربوي الحركي - وهو فصل «طبيعة المنهج القرآني» الذي استخرجه من وقفته معرفاً بسورة الأنعام في الظلال.

يقول في بداية ذلك التعريف موضحاً موضوع القرآن المكي: (هذه السورة مكية.. من القرآن المكي.. القرآن الذي ظل يتنزل على رسول الله - ﷺ - ثلاثة عشر عاماً كاملة، يحدثه فيها عن قضية واحدة، قضية واحدة لا تتغير. ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر. ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى...

لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية في هذا الدين الجديد «قضية العقيدة» ممثلة في قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة[1]..

وبعد أن أشار إلى أهمية العقيدة للإنسان أينما كان دعا «أصحاب الدعوة إلى دين الله وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة»[2] إلى الوقوف (طويلاً أمام هذه الظاهرة الكبيرة.. ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاماً.. لتقرير هذه العقيدة، ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها..)[3].

ومن أجل مساعدة هؤلاء الدعاة في وقفتهم، ومن أجل عرض خلاصة وقفته هو عليهم. سجل لهم تلك الخلاصة، وقرر أهم الدلالات والإيحاءات وركز على الواجب تجاه ذلك..

أشار إلى أن البداية بالعقيدة لم تكن هي أيسر السبل إلى قلوب العرب فقد كان من الممكن - على سبيل الفرض والاحتمال - أن يبدأ الرسول - عليه

---

(١) الظلال ٢: ١٠٠٤.
(٢) الظلال ٢: ١٠٠٥.
(٣) الظلال ٢: ١٠٠٥.

الصـلاة والسـلام ـ ببـدايـات أخـرى، حسب الافتـراض والاختيـار البشري. . . . . . بيَّنها وبيَّن مبرراتها ثم ردها بالتفصيل: البداية بالدعوة إلى التحرر السياسي والوحدة العربية. البداية بالإصلاح الاجتماعي. أو البداية بالإصلاح الأخلاقي.

إن الله ـ العليم الحكيم ـ كان يعلم أن ليس هذا هو الطريق فما كان المنهج الرباني والدين الإلٓهي «ليخلص لله، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية، أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد: لا إله إلا الله. . .)[1].

كذلك دعا الدعاة إلى دين الله للوقوف وقفة واعية عند تناول القرآن (قضية الاعتقاد وحدها، دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والشرائع التي تنظم معاملاتها. .)[1] وقد ساعد الدعاة بأن سجل لهم أهم الدلالات الاعتقادية والمنهجية والتربوية والحركية لذلك. .

ثم تحدث عن طريقة القرآن المكي في عرض العقيدة، ودلالة تلك الطريقة على طبيعة هذا الدين. ووجوب اتباع هذه الطريقة القرآنية من قبل جميع الدعاة والكتاب والمؤلفين في أي زمان ومكان. . كما بين دلالة تلك الطريقة الحركية والتربوية والمنهجية أيضاً. إن الله ـ سبحانه ـ (كان يريد بناء الجماعة وبناء الحركة وبناء العقيدة في وقت واحد. كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة، وأن يبني العقيدة بـالجماعة والحركة! . .) «وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك بالقياس إلى طبيعة هذا الدين وغايته، وطريقة تركيبه الذاتي. .)[1].

ولذلك يعلن هذه الحقيقة بعبارات واضحة محددة: «يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيداً، أنه كما أن هذا الدين دين رباني، فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك، متوافٍ مع طبيعته، وأنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل. . .»[2] وبناء على ذلك فإن «التصور الاعتقادي

(١) الظلال ٢: ١٠٠٩.
(٢) الظلال ٢: ١٠١٣.

يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلاً صحيحاً وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي»[1]:

هذه الحقائق والمعاني والدلالات أدركها سيد من وقفته المطولة أمام «طبيعة القرآن المكي» وموضوعه وطريقته، بل إنه يخبرنا أن القرآن المكي - بمنهجه وطريقته - يعبر عن طبيعة هذا الدين عموماً: «هذه هي طبيعة هذا الدين - كما تستخلص من منهج القرآن المكي - ولا بدّ أن نعرف طبيعته هذه . . »[2].

وفي ختام تعريفه بطبيعة القرآن المكي، أخبرنا أنه انطلق من بيان طبيعته لبيان طبيعة المنهج القرآن عموماً، ومنهجه هو في الدعوة والحركة المستمد من المنهج القرآني: «هذه هي كلمتي الأخيرة وأنني لأرجو أن أكون بهذا البيان لطبيعة القرآن المكي، ولطبيعة المنهج الرباني المتمثل فيه، قد بلغت، وأن يعرف أصحاب الدعوة الإسلامية طبيعة منهجهم ويثقوا به، ويطمئنوا إليه ويعلموا أن ما عندهم هو الخير، وأنهم هم الأعلون. . . . »[3].

وفي موضع آخر من الظلال - وهو التعريف بسورة يونس - يقف سيد ليبين خصائص القرآن المكي، وما يتفق به مع القرآن عموماً، وما يتميز به في جوه ومذاقه وموضوعه. وهي فقرة ذات قيمة خاصة في هذا المبحث، فآثرنا إثباتها فيه:

«والقرآن المكي، رغم أنه قرآن من القرآن، يشترك مع سائره في خصائصه القرآنية العامة، وفي تفرده من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب، في الموضوع وفي الأداء سواء. . إلا أن له مع ذلك جوه الخاص ومذاقه المعين، الذي يعينه موضوعه الأساسي (وهو باختصار: حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما، وتعريف الناس بربهم

---

(١) الظلال ٢ : ١٠١٤.

(٢) الظلال ٢ : ١٠١٣.

(٣) الظلال ٢ : ١٠١٥ وانظر الموضوع كاملاً في الظلال ٢ : ١٠٠٤ - ١٠١٥ وقارنه مع فصل «طبيعة المنهج القرآني» في المعالم.

الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه، وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء: ورد الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته..) كما يعنيه أسلوب العرض في هذا الموضوع..»[1].

ومع تركيز القرآن المكي على العقيدة، بحيث تكون هي ـ وحقائقها ـ موضوعه الأساسي، فإنه كان ـ أحياناً ـ يلتفت إلى موضوعات اجتماعية، موجودة في المجتمع المكي، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ ويل للمطففين. الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾[2]. فما هو السر في ذلك؟ «التصدي لشأن المطففين بهذا الأسلوب في سورة مكية أمر يلفت النظر... وذلك لأن مسألة التطفيف في الكيل والميزان والمعاملات بصفة عامة مسألة اجتماعية أخلاقية.. ومن ثم فإن التصدي لهذا الأمر في هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه وهو يشي بعدة دلالات متنوعة، تكمن وراء هذه الآيات القصار...».

وأهم هذه الدلالات التي تحدث عنها سيد:

١ ـ إن حالة التطفيف كانت حالة صارخة تمثل ظلماً اجتماعياً خطيراً يزاوله الكبراء في مكة. ولذلك لا بدّ أن يعرج الإسلام عليها ويعالجها ـ وهو يركز على العقيدة ـ.

٢ ـ إن التفات القرآن المكي إلى هذه الجزئية الأخلاقية الاجتماعية، في أيامه الأولى في مكة: «تشي بطبيعة هذا الدين، وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العملية...»[3].

هذا عن موضوع القرآن المكي، أما القرآن المدني ـ الذي تنزل على مجتمع إسلامي قائم بالفعل على أساس التصور الاعتقادي ـ فإنه يعني بالتشريعات والمناهج والنظم والأحكام، ولكنه لا يعرضها هكذا ـ مجردة

---

(١) الظلال ٣: ١٧٤٥.

(٢) سورة المطففين: ١ ـ ٣.

(٣) انظر الظلال ٦: ٣٨٥٥ ـ ٣٨٥٦.

مجزأة منفصلة عن الأصل - ولكنه يعرضها مع عرض جوانب من أسس التصور الاعتقادي أيضاً، ويربطها به، ويتناولها من خلالها.

فسورة المائدة - كمثال للقرآن المدني - تصلح مثالاً لطبيعة القرآن المدني وموضوعه: فقد «تضمن سياق السورة أحكاماً شرعية منوعة: منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد. ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام في فترة الإحرام وفي المسجد الحرام. ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح. ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة. ومنها ما يتعلق بالقضاء وإقامة العدل فيه. ومنها ما يتعلق بالحدود في السرقة وفي الخروج على الجماعة المسلمة. ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام. ومنها ما يتعلق بالكفارات في قتل الصيد مع الإحرام وفي اليمين. ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت. ومنها ما يتعلق بالبَحِيرة والسائبة والوصيلة والحامي من الأنعام. ومنها ما يتعلق بشريعة القصاص في التوراة مما جعله الله كذلك شريعة للمسلمين... وهكذا تلتقي الشرائع بالشعائر في سياق السورة بلا حاجز ولا فاصل...

وإلى جوار هذه الأحكام الشرعية المنوعة يجيء الأمر بالطاعة والتقيد بما شرعه وما أمر به، والنهي عن التحليل والتحريم إلا بإذنه، ويجيء النص على أن هذا هو الدين الذي ارتضاه الله للأمة المؤمنة[1]...

وهذا الأمر - ربط الأحكام والتشريعات بالعقيدة وانطلاقها منها - نجده في القرآن المدني، على اختلاف سوره، ونظرة واحدة لطريقة القرآن - المدني - في عرض التشريعات تدل على هذه الحقيقة.

وكذلك نجد القرآن المدني يتحدث عن مسائل وقضايا في التصور الاعتقادي، كان قد تحدث عنها في مكة. كصفات الله - سبحانه وتعالى - التي قررت بعضها آية الكرسي المدنية: ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم. لا تأخذه سنة ولا نوم. له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع

---

(١) الظلال ٢ : ٨٢٧.

عنده إلا بإذنه. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم. ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.. ﴾[1].

وفي التعليق على هذا، وبيان دلالاته المنهجية يقول سيد: وكل صفة من هذه الصفات تتضمن قاعدة من قواعد التصور الإسلامي الكلية. ومع أن القرآن المكي في عمومه كان يدور على بناء هذا التصور، فإننا نلتقي في القرآن المدني كذلك في مناسبات شتى بهذا الموضوع الأصيل الهام الذي يقوم على أساسه المنهج الإسلامي كله. ولا يستقيم هذا المنهج في الحسّ إلا أن يستقيم ذلك الأساس، ويتضح، ويتحول إلى حقائق مسلمة في النفس، ترتكن إلى الوضوح واليقين[2]...

وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول في تركيز القرآن المدني على العقيدة ومسائلها ومباحثها: إن العقيدة أمر أساسي لا بدّ من استمرار ملاحظته والتذكير به، وإنها «درس لا يمضي عنه إلى غيره، ولكن يمضي به إلى غيره...».

لم يتابع سيد قطب بعض علماء القرآن في تعيين المكي والمدني من سور القرآن، كما لم يتفق معهم على مكية بعض الآيات في السورة أو مدنيتها. وقد كانت له معهم وقفات ناقشهم في ذلك وأبطل أقوالهم، واستدل لرأيه بأدلة تاريخية أو موضوعية..

والمصحف الذي كان بين يديه أثناء التفسير ـ وهو المصحف الأميري ـ كان يبيِّن فيه السورة مكية أو مدنية، ويثبت ما قيل من آيات مدنية في سور مكية أو العكس، وأخذ هذا عن الكتب المختصة بهذا الأمر. ولكن سيد لم يتابع اللجنة المشرفة على طبع المصحف على هذا كله..

فسورة الرعد ـ مثلاً ـ ورد في المصحف الأميري أنها مدنية وأنها نزلت

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) الظلال ١: ٢٨٦.

بعد سورة محمد. ولكنها عند سيد مكية: «السورة مكية بخلاف ما ورد في المصحف الأميري وبعض المصاحف - اعتماداً على بعض الروايات - أنها مدنية.. ومكية السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة إدائها أو في جوها العام، الذي لا يخطىء تنسمه من يعيش فترة في ظلال القرآن[1]..

الجزء الثامن والعشرون من القرآن الكريم كله مدني في رأي سيد، والجزء التاسع والعشرون كله مكي في رأيه أيضاً، خلافاً لبعض علماء القرآن في بعض سور الجزأين وآياتهما..)[2].

وسورة التغابن ورد في بعض الروايات أنها مكية، وورد في روايات أخرى أنها مدنية، وقد تشكك سيد في تصنيفها في أول الأمر، بل كاد أن يصنفها في السور المكية (وكدت أميل إلى اعتبارها مكية تأثراً بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها. ولكني أبقيت اعتبارها مدنية - مع الرأي الراجح فيها - لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطاباً للكفار بعد الهجرة، سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة. كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة، وإيضاح التصور الإسلامي بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي.. والله أعلم)[3].

هذه سور تمكن سيد من ترجيح مكيتها أو مدنيتها. ولكن هناك بعض السور تضاربت الروايات في تصنيفها، واطلع سيد على الروايات فلم يتمكن من ترجيح إحداها، ونظر في سياقها فلم يسعفه بترجيح، إذ يصدق على السور المدنية والمكية. فلم يجزم بشيء ولم يتمكن من تصنيفها.

من هذه السور: سورة البينة (هذه السورة معدودة في المصحف وفي

---

(١) الظلال ٤: ٢٠٣٩ حاشية. وسورة الرحمن مدنية عند غيره، مكية عنده للأسباب ذاتها: ٦: ٣٤٤٣.

(٢) الظلال ٦: ٣٦٢٨.

(٣) الظلال ٦: ٣٥٨٣.

أكثر الروايات أنها مدنية وقد وردت بعض الروايات بمكيتها. ومع رجحان مدنيتها من ناحية الرواية ومن ناحية أسلوب التعبير التقريري، فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده..)[1].

ومنها سورة الماعون: فهي (مكية في بعض الروايات، ومكية مدنية في بعضها الآخر (الثلاث الآيات الأولى مكية والباقيات مدنية) وهذه الأخيرة هي الأرجح. وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة، ذات اتجاه واحد. لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة، مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مدنية كلها.. ولكن قبول الروايات القائلة بأنها مكية مدنية لا يمتنع، لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة في المدينة، وإلحاقها بالآيات الثلاث الأولى لمناسبة التشابه والاتصال في الموضوع...)[2].

أما عن مناقشته للسابقين في مكية أو مدنية آيات معينة من السور، ففي الظلال مواطن عديدة لذلك. سورة الأنعام كلها مكية ترجيحاً من سيد للروايات التي تشير إلى نزولها كلها دفعة واحدة، ومن ثم رد الروايات التي جعلت بعض آياتها مدنية وبخاصة آية (٩١) التي تتحدث عن أهل الكتاب وآية (١٤١) التي تتحدث عن الزروع والثمار. أما الآية الأولى فقد رجح سيد قراءة متواترة غير قراءة حفص تكون بها مكية. والآية الثانية رجح مكيتها من خلال السياق. لأن السياق بدونها ينقطع ما قبلها فيه عما بعدها في المعنى وفي العبارة، مما يجعل الآيات كلها موضوعاً واحداً، ونزلت في وقت واحد[3].

ونلاحظ أن سيد استخدم عدة أدلة لترجيحه مكية الآيات المختلف عليها. فمنها التاريخي المتمثل في الروايات في نزول السورة، ومنها الموضوعي المتمثل بوحدة الموضوع الذي تتناوله الآيات، ومنها البياني المتمثل في وحدة السياق، وفي سياق السورة عموماً، ومنها القراءات الخاصة

---

(١) الظلال ٦: ٣٩٤٧.

(٢) الظلال ٦: ٣٩٨٤.

(٣) انظر رأي سيد في الظلال وترجيحه وأدلته ٢: ١٠٢٠ ـ ١٠٢٢.

بالآية الأولى. وقد التفت إلى أدلتهم على مدنية الآيات فأبطلها، ووجه الآيات توجيهاً يتفق مع مكيتها..

كذلك رجح أن آيات سورة الأنفال كلها مدنية، ورد على ترجيح بعضهم أن الآية رقم (٣٠) منها مكية لأنها تتحدث عن حادث الهجرة، مصورة مكر المشركين في دار الندوة بالرسول - ﷺ - ليلة الهجرة. وأبطل استدلالهم بأسباب النزول، إذ يثبتون حواراً بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبين عمه أبي طالب ليلة الهجرة، بأن أبا طالب توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين! واستدل على مدنية الآية برواية مأثورة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - تنص على أن الآية نزلت على الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعد قدومه المدينة[1].

فأدلته في الاستدلال لترجيحه تاريخية وموضوعية وبيانية، ومناقشته لهم تاريخية وموضوعية كذلك.

وفي تعريفه بسورة هود رجح أنها كلها مكية، ورد على بعضهم في اعتبار بعض آياتها مدنية وهي (١٢، ١٧، ١١٤): «ذلك أن مراجعة هذه الآيات في سياق السورة تلهم أنها تجيء في موضوعها من السياق، بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادىء ذي بدء. فضلاً عن أن موضوعاتها التي تقررها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة[2]..

وإذا كان ترجيحه في النص السابق على أساس وحدة السياق والموضوع، فإن ترجيحه آية في سورة الحجر كان على أساس نزول القرآن، وترتيب نزوله. فقد قال بعض المفسرين إن المقصود بالسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾[3] هي السور السبع الطوال. أما تلك الآية فهي مكية لأن هذا ما يلهمه سياق السورة، ويكون المقصود بالسبع المثاني فيها سورة الفاتحة وآياتها السبع المثاني التي تثنى - أي تكرر - في كل ركعة في الصلاة[4]...

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٤٣٠ - ١٤٣١.
(٢) انظر الظلال ٤: ١٨٣٩ - ١٨٤٠.
(٣) الحجر: ٨٧.
(٤) انظر الظلال ٤: ٢١٥٣ حاشية.

القرآن منه المكي ومنه المدني، ولكل طبيعته وموضوعه، ولذلـك دلالات منهجية مختلفة، راعاها سيد وبينها، وهو قد يتفق مع السابقين في مكية أو مدنية بعض السور والآيات، وقد يخالفهم، وإذا خالفهم فله أدلته لترجيحه التاريخية والموضوعية والبيانية، وهو عندما يناقشهم يفند أدلتهم بالوسائل التاريخية والموضوعية أيضاً. . .

المبحث الثالث

أسباب النزول

لسيد قطب اهتمام خاص بأسباب النزول أكثر من ذكرها في الظلال كثرة ملحوظة، وحرص على ذكر أكثر من رواية ـ أحياناً ـ للسبب الواحد، كما أن له تخريجاً لهذه الروايات ـ أحياناً ـ، ومناقشة للسابقين في هذه الأسباب، ووقفات أمامها لتسجيل دلالاتها وعبرها.

ولا غرابة في صنيع سيد هذا، لأن من شروط صحة التفسير أن يطلع المفسر على أسباب النزول، وأن يتعامل مع النصوص القرآنية من خلالها، وسيد حريص على العلمية والمنهجية في التفسير، ولذلك تحقق في ظلاله هذا الشرط على أتم صورة وأوفاها.

وأنني أستغرب جداً «تعريض» بعض من يتصدون لتقويم وتقييم التفاسير بالظلال، ولمزهم لصاحبه بأنه ليس فيه شيء من أسباب النزول أو غيره من مباحث علوم القرآن، ومن ثم لا يصلح أن يعتبر تفسيراً.. ألم يقرؤا في الظلال ويقفوا على أسباب النزول فيه؟ ألم يطلعوا على تحليل سيد لهذه الأسباب ودلالاتها؟.

وسيد ـ في إيراده لأسباب النزول ـ لا يقصر الآية على السبب الخاص الذي نزلت فيه، بل يعمم دلالتها وحقائقها وأحكامها لتشمل مختلف الحالات المشابهة على اختلاف الزمان والمكان. وهو في هذا يتفق مع جمهور علماء القرآن، الذين قعَّدوا القاعدة العامة في أسباب النزول، وهي (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

كان يذكر هذه القاعدة، ويطبقها على الآيات، ومع ذلك كان يلاحظ الحالات الخاصة أو الأسباب الخاصة التي نزلت فيها. وكان يعتبر أن هذا التوفيق في نصوص القرآن مظهر من مظاهر إعجازه:

«ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم كان يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة.. وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب».. ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل في كل جيل وفي كل بيئة كما أسلفنا. وفي هذا تكمن المعجزة..»[1].

ويظهر لنا من خلال النص السابق كيف أن سيد - في نظرته في أسباب النزول - كان يوسع هذه النظرة لتشمل الملابسات التاريخية لنزول الآيات وجو النزول وزمانه، أو حالة الجماعة المسلمة وقت النزول، وحالة الجماعة المسلمة وقت النزول، وواقع المجتمع الجاهلي والمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت.

وأحياناً نرى سيد قطب ينص على هذه القاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» ثم يورد بعض الروايات في تعيين ذلك السبب. ثم يعمم حكم الآيات وحقائقها لتشمل كل الحالات المشابهة.. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم. ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون.. ﴾[2] قرر القاعدة العامة وذكر هدفه من ذكر الروايات في سبب نزولها بقوله: «وتذكر بعض الروايات أن هاتين الآيتين والآية التي بعدها - الخاصة بحكم الأيمان - قد نزلت في حادث خاص في حياة المسلمين على عهد رسول الله - ﷺ - ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن كان السبب يزيد المعنى وضوحاً ودقة.»[3] وواضح من عبارته

---

(١) الظلال ١: ٥٥٧.

(٢) المائدة: ٨٧ - ٨٨.

(٣) الظلال ٢: ٩٧٠.

الأخيرة نظرته إلى سبب النزول، وهدفه من إيراده في الظلال، لأنه يزيد المعنى وضوحاً ودقة.

ثم أورد ثلاث روايات في تحديد سبب نزول تلك الآيات:

الأولى: عند الطبري،

والثانية: في الصحيحين.

والثالثة: رواها الترمذي.

ولما فسر الآية الأخرى التي تبين حكم الأيْمان، وكفارة اليمين أشار إلى عموم أحكامها للحالات المشابهة، انطلاقاً من القاعدة المعروفة. ثم ذكر الرواية في سبب نزولها.

ثم نظر في دلالة الآيات الثلاث مجتمعة. دلالة السبب الخاص «فأما من ناحية خصوص السبب» فإن الله يبين أن ما أحله الله فهو الطيب، وما حرمه فهو الخبيث. وأن ليس للإنسان أن يختار لنفسه غير ما اختاره الله[1]..

ودلالة عموم اللفظ وخصوص السبب ـ بعد هذا ـ لا تقيد عموم النص. وهذا العموم يتعلق بقضية الألوهية والتشريع ـ كما أسلفنا ـ وهي قضية لا تقتصر على الحلال والحرام في المآكل والمشارب والمناكح. إنما هو أمر حق التشريع لأي شأن من شؤون الحياة..).

ويبين لنا السبب الذي دفعه إلى تعميم الحكم لا ليشمل عموم اللفظ الحكم للحلال والحرام في المآكل والمشارب والمناكح فقط، بل ليدل على «الحاكمية» الأمر الأساسي في هذا الدين، «نحن نكرر هذا المعنى ونؤكده لأن طول عزلة الإسلام عن أن يحكم الحياة ـ كما هو شأنه وحقيقته ـ قد جعل معاني العبارة تتقلص ظلالها عن مدى الحقيقة التي تعنيها في القرآن الكريم وفي هذا الدين...».

فهو في تعميمه هذا لم يكن مبالغاً في الحكم والنظرة والاستدلال،

---

(١) الظلال ٢: ٩٧٢.

ولكنه مساير لمدى النصوص القرآنية، وملاحظ للجدية في هذا الدين: «وهذا هو مدى النصوص القرآنية. . وهو المدى اللائق بجدية هذا الدين، وجدية هذا القرآن، وجدية معنى الألوهية ومعنى الإيمان. .»[1].

أسباب النزول - في - رأي سيد -: «ليست قطعية الثبوت»[2] لأنها وردت بروايات ظنية في كتب التفسير والحديث وعلوم القرآن.

وحتى لو صحت نسبة السبب إلى الصحابي - وهو الطريق الوحيد لتعيين سبب النزول - فإن كلام ذلك الصحابي في سبب النزول ليس قطعياً أيضاً، لأنه إما أن يقصد أن هذه الآية نزلت في ذلك السبب، وإما أن يقصد أن يستشهد لحالة ما بآية قرآنية، ويقول: «نزلت هذه الآية في كذا» ولا يعني أنها نزلت على قلب رسول الله - ﷺ - بعد تلك الحادثة أو الحالة، ولكنه يعني أن الآية تدل على حكم تلك الحادثة أو يستشهد بها على تلك الحالة.

«ومسألة نزول آية بعينها في مسألة بعينها ليست قطعية في هذا. فكثيراً ما يكون الذي وقع هو الاستشهاد بالآية على حادثة بعينها. فيروى أنها نزلت فيها. أو تكون الآية منطبقة على الحادثة فيقال كذلك: إنها نزلت فيها. . .»[3].

وهذه لفتة بديعة من سيد، في نظرته إلى أسباب النزول، وفي اعتماده أقوال الصحابة في ذلك، التي إما أن تكون رواية لأسباب النزول فيؤخذ بها في تحديد سبب النزول، وإما أن تكون استشهاداً بالآية على تلك الحادثة، فتكون من باب التفسير والاستشهاد لا من باب تحديد السبب، وبهذه النظرة المنهجية لأقوال الصحابة في أسباب النزول نستطيع أن نوفق بين أقوالهم - من باب الاستشهاد - في أسباب النزول، وفي مخالفة هذه الأقوال للواقع التاريخي. . .

وقد فرق علماء القرآن بين الحالتين. يقول الزركشي في ذلك «وقد

(١) الظلال ٢: ٩٧٢ وانظر الموضوع بطوله في الظلال ٢: ٩٧٠ - ٩٧٢.
(٢) الظلال ١: ٢٧.
(٣) الظلال ١: ٥٤٢.

عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها. . وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من باب المرفوع المسند. .. وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند وكذلك مسلم وغيره، وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال وبالتأويل، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع. . »[1].

وكمثال على دور هذه النظرة البديعة من سيد في التوفيق بين أقوال الصحابة في سبب النزول وبين الواقع التاريخي، التوفيق الذي قام به في تفسير قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقْتلونَ . . ﴾[2].

فقد أورد الرواية التي أوردتها كتب التفسير وأسباب النزول عن محمد ابن كعب القرظي قال: قال عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لرسول الله - ﷺ - يعني ليلة العقبة - اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل[3]. . وهذه الرواية يقرها سيد ويعتمدها إلى هذا الحد. ولكن الراوي أعلن أنه نزلت بهذه المناسبة الآية رقم (١١١) من سورة التوبة التي هي موضوع البحث. ولكن سيد رفض هذا التحديد، وجَعْلَ حادثة بيعة العقبة التي جرت قبل الهجرة سبباً لنزول آية من أواخر القرآن المدني، نزلت بعد الهجرة بحوالي عشر سنوات. . . وقد سكت السابقون في كتبهم عن هذا التعارض. ولكنه غير مسكوت عنه عند سيد. ولذلك قال في الحاشية: (وفي الرواية: فنزلت «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» ونحن نستبعد أن تكون الآية نزلت يومذاك.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١: ٣١ - ٣٢.

(٢) التوبة: ١١١.

(٣) الظلال ٣: ١٧١٧.

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال. وهذه آية مدنية قطعاً. ولكنها تتفق مع مضمون تلك البيعة العام. . .)[1].

وسيد في تعامله مع أسباب النزول وإيرادها في الظلال، أحياناً يذكر رواية واحدة في ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله. والله رؤوف بالعباد ﴾[2] إذ نزلت في هجرة صهيب بن سنان الرومي ـ رضي الله عنه ـ تاركاً أمواله لأهل مكة، واستقبال الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً: «ربح البيع صهيب».

ومع إيراده الرواية في تحديد هذا السبب، أشار إلى أنها قد تكون نزلت فيه، وقد تكون منطبقة عليه، ولها دلالتها العامة لكل الحالات المشابهة[3].

وأحياناً يورد روايتين في ذلك السبب، كما في قوله تعالى: ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها. ولكن البر من اتقى. وأْتوا البيوت من أبوابها ﴾[4]. فورد أنها نزلت ترد على عادة الأنصار ـ قبل إسلامهم ـ في عودتهم إلى بيوتهم من السفر عامة أو في الحج بصفة خاصة. وقد أورد سيد الروايتين ورجح الثانية، إذ هي في الصحيحين ومتناسبة مع السياق[5].

وأحياناً يورد ثلاث روايات في سبب النزول كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. . ﴾[6] وكل واحدة من هذه الروايات تحدد حادثة للمنافقين في استهزائهم برسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمين الصادقين معه عند ذهابهم إلى غزوة تبوك، ولما سألوا أجابوا بأنهم كانوا يخوضون ويلعبون[7].

وفي تفسير آية أخرى ﴿ يحلفون بالله ماقالوا. ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم. وهموا بما لم ينالوا[8] ﴾. أورد ثلاث روايات تحدد سبب

(1) الظلال ٣: ١٧١٧.
(2) البقرة: ٢٠٧.
(3) انظر الظلال ١: ٢٠٦.
(4) البقرة: ١٨٩.
(5) انظر الظلال ١: ١٨٤.
(6) التوبة: ٦٥.
(7) انظر الظلال ٣: ١٦٧٢.
(8) التوبة: ٧٤.

النزول، وكل رواية تشير إلى حادثة معينة للمنافقين ـ عند خروجهم إلى غزوة تبوك ـ في محاولتهم إيقاع الفرقة في الصف الإسلامي وإساءتهم للرسول ـ ﷺ ـ ولكن هذه الروايات وإن انسجمت مع بداية الآية، فإنها لا تنسجم مع نهايتها لذلك استبعدها سيد، وأورد الرواية الرابعة المنسجمة مع جزأي الآية؛ «ولكن هذه الروايات لا تنسجم مع عبارة «وهموا بما لم ينالوا» وهذه تضافر الروايات على أن المعنيّ بها ما أراده جماعة من المنافقين في أثناء العودة من الغزوة، من قتل رسول الله ـ ﷺ ـ غيلة وهو عائد من تبوك فنختار إحداها. .»[1] فأوردها واعتمدها[2].

وأحياناً يورد أربع روايات في أسباب النزول. كما في تفسير قوله تعالى: ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات، فإن أُعطوا منها رضوا، وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾[3] ولم يعتمد رواية من الأربع. إذ يحتمل أن تكون أي واحدة منها هي التي حدثت، وهي المعنيّ بها بسبب النزول، وأشار إلى ذلك ـ بعد إيراد الروايات بقوله: «وعلى أية حال فالنص القرآني يقرر أن القولة قولة فريق من المنافقين. .»[4].

وهو في ذكره لأسباب النزول، غالباً ما يخرِّج الروايات التي يوردها، وينسبها إلى الكتب التي أوردتها، كما في النماذج التي أوردناها، وكما في تفسير قوله تعالى: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾[5] حيث أخذ روايتين من الطبري وابن مردويه، وأتبعهما بذكر حديثين عند البخاري وعند مسلم[6].

وقليلاً ما يشير إلى هذه الروايات دون نقل حرفي لها، فتكون إشارته تلميحاً إلى السبب، وهي غير منسوبة للكتب التي أوردتْها كما في تفسير قوله

---

(١) الظلال ٣: ١٦٧٧.
(٢) انظر الظلال ٣: ١٦٧٧ ـ ١٦٧٨.
(٣) التوبة: ٥٨.
(٤) انظر الظلال ٣: ١٦٦٧ ـ ١٦٦٨.
(٥) النساء: ٦٩.
(٦) انظر الظلال ٢: ٦٩٩ ـ ٧٠٠.

تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا. . ﴾[1].

ونادراً ما «يرق» ذكره لسبب النزول حتى تكون إشارة سريعة جداً، كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أُذُن. قل أُذُن خير لكم. . ﴾[2] فالمنافقون يقولون هذا بعضهم لبعض تطميناً لأنفسهم، أن يكشف النبي - ﷺ - حقيقة أمرهم. أو يقولون هذا طعناً على النبي عليه السلام في تصديقه للمؤمنين. ويعلق سيد على هذا بقوله: (وقد وردت الروايات بهذا وذلك في سبب نزول الآية. وكلاهما يدخل في عمومها. وكلاهما يقع من المنافقين. .)[3].

وأحياناً يذكر سبب النزول في الحاشية، كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه، يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ﴾[4] حيث أشار في الحاشية إلى ما قيل من سبب نزولها أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط، وإساءته لرسول الله - ﷺ - في مكة[5].

وأحياناً يستخلص لنا سبب النزول من عدة مصادر ويورد خلاصتها كلها، كما في قصة سرقة طعمة بن أبيرق - أو «بشير بن أبيرق» - درع رفاعة بن النعمان الأنصاري، وإخفائها في بيت اليهودي «زيد بن السمين» وبعد أن أورد خلاصتها - دون تحديد اسم المراجع التي أخذ منها - التفت إلى دلالاتها وعبرها وحقائقها ومعالجة القرآن لها[6].

وسيد عندما يورد سبب النزول، لا يورده كهدف وغاية - كما فعل البعض من السابقين - ولكنه يجعله وسيلة إلى غاية أخرى، ويورده لغرض آخر يريد تحقيقه. فقد مر معنا في أول هذا المبحث قوله: (إن السبب يزيد المعنى وضوحاً ودقة)[7].

---

(١) البقرة: ١٠٤ وانظر الظلال ١: ١٠٠ - ١٠١.
(٢) التوبة: ٦١.
(٣) الظلال ٣: ١٦٧٠ - ١٦٧١.
(٤) الفرقان: ٢٧ - ٢٨.
(٥) انظر الظلال ٥: ٢٥٦١.
(٦) انظر الظلال ٢: ٧٥١ - ٧٥٣.
(٧) الظلال ٢: ٩٧٠.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون. ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه.. ﴾[1] وقبل إيراده أسباب النزول بين هذا الغرض بقوله: (وقد وردت الروايات بسبب لنزول هذه الآية ابتداء، لا بأس من ذكره، لاستحضار حقيقة الحياة التي كان القرآن يواجهها، وحقيقة الجهد الذي بذله لتهذيب النفوس، ورفعها إلى مستواه...)[2].

وإذا ما تضاربت الروايات في أسباب النزول، فإن سيد يقف أمامها، ويرجح إحداها، وله وسائل في ذلك الترجيح. فأحياناً يكون سبب الترجيح تربوياً حركياً.. كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.. ﴾[3] حيث قال: (هناك عدة روايات عن سبب نزول هذه الآية، أقربها إلى المنطق النفسي المستفاد من طبيعة التصور الذي أنشأه الإسلام في نفوس المجموعة السابقة إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار.. الرواية التي تقول..) ثم أورد الرواية التي تصور تحرج الأنصار من السعي بين الصفا والمروة بعد إسلامهم، لأنهم كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية، أما وقد أسلموا فقد شكوا في كل أعمالهم قبل الإسلام، وتوقفوا فيها حتى بينها الله[4]..

وأحياناً ينظر فيها من ناحية السند، فيرجح أصحها سنداً، كما فعل في تفسير قوله تعالى موصياً الإنسان بوالديه: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما. وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾[5]. إذ أشار إلى أن بعض الروايات تحدد أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - مع أمه. وبعضها الآخر يحدد أنها نزلت في سعد بن مالك. وعندما

(١) البقرة: ٢٦٧.
(٢) انظر الظلال ١: ٣١١.
(٣) البقرة: ١٥٨.
(٤) انظر الظلال ١: ١٤٨ - ١٤٩.
(٥) لقمان: ٧٥.

أراد أن يرجح قال: (والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص وهو الأرجح)[1].

وأحياناً لا يكون ترجيحه لأصح الروايات، بل لأقربها مع الواقع التاريخي كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين؟ والله أركسهم بما كسبوا.. ﴾[2] فمن هم المنافقون المقصودون بذلك؟ أورد رواية عند البخاري ومسلم وأحمد في أنهم عبد الله بن أُبَيّ وجماعته، والآيات تشير إلى فعلته يوم أحد وانسحابه مع جماعته من منتصف الطريق. وأورد رواية أخرى عند ابن أبي حاتم عن ابن عباس وبعض التابعين في أنهم كانوا قوماً من النفعيين بين مكة والمدينة ساروا مع المسلمين والمشركين. وبعد أن ذكر الروايتين قال: (ومع أن الرواية الأولى أوثق من ناحية السند والإخراج إلا أننا نرجح مضمون الرواية الثانية. بالاستناد إلى الواقع التاريخي..)[3] وحتى لا يكون ترجيحه مستغرباً بيَّن أدلته المنهجية والموضوعية والتاريخية لذلك الترجيح[4]..

وأحياناً لا يستطيع ترجيح إحدى الروايات في سبب النزول، فيتركها كلها على اعتبارها ممكنة، كما فعل في بيان السبب الذي حرّم الرسول - ﷺ - من أجله بعض ما أحل الله له - الذي تشير إليه الآية الأولى من سورة التحريم - فعند البخاري أنه عسل شربه الرسول - عليه السلام - وعند النسائي وابن إسحاق والطبري أنه وطء جاريته مارية، وقد عقب على الروايتين بقوله: (وكلا الروايتين يمكن أن يكون هو الذي وقع. وربما كانت الثانية أقرب إلى جو النصوص، وإلى ما أعقب الحادث من غضب.. ولكن الرواية الأولى أقوى إسناداً. وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع. والله أعلم أي ذلك كان)[5].

---

(1) الظلال ٥: ٢٧٨٩، وفات سيد هنا أن لا تعارض بين الرواتين لأن سعد بن مالك هو نفسه سعد بن أبي وقاص!. أنظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٢: ٣٣.

(2) النساء: ٨٨.

(3) الظلال ٢: ٧٢٩.

(4) انظر الظلال ٢: ٧٢٩ - ٧٣٠.

(5) انظر الظلال ٦: ٣٦١٤ - ٣٦١٥.

هذا عن سبب النزول في الظلال، وبه يظهر حرص سيد على إيراده، كوسيلة إلى غاية تربوية وحركية، وعلى تعميم النص على الحالات المشابهة. وهو في إيراده يسلك عدة طرق، وفي ترجيحه يستخدم عدة مرجحات..

المبحث الرابع

القراءات

لم يكن من أهداف سيد قطب في الظلال بيان القراءات وأصحابها وكيفياتها، وتوجيهها نحوياً وبيانياً وتفسيرياً، كما فعل بعض المفسرين في تفاسيرهم. ولذلك لم يكثر سيد من بيان القراءات في الظلال ولم يقف أمامها إلا قليلاً جداً.

وأعتقد أنه بإيراده لها في هذا القليل، كان يجعلها وسيلة إلى تحقيق أهدافه من التفسير، وتوسيع مدلول النص، واستخراج حقائقه ودلالاته، وترجيح معنى من المعاني أو رأي من الآراء أو قول من الأقوال. شأنه في هذا كشأنه في مختلف مباحث علوم القرآن التي طرقها في الظلال.

وهو في إشاراته ـ القليلة ـ إلى القراءات لا يشير إلا إلى قراءتين في الكلمة أوالعبارة، وأحياناً يوردهما بدون ترجيح لأحداهما على الأخرى، على اعتبار كل منهما وارداً محتملاً. وأحياناً يرجح إحداهما، وقد تكون الراجحة عنده قراءة حفص ـ المتنشرة في بلاد مصر والشام والمشرق ـ وقد تكون الراجحة قراءة غيره. وهو في ترجيحه يستخدم عدة وسائل منها: السياق ووحدته وتناسقه، ومنها زيادة الدلالة النحوية أو البلاغية، ومنها الإضافة المعنوية أو البيانية أو التصويرية للقراءة الراجحة.. ولا يفوته عند إيراد القراءات توجيهها، وبيان معنى كل واحدة، وتناسقها مع السياق.

والآن إلى الظلال لنورد منه أمثلة على ما ذكرنا:

في قوله تعالى: ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾[1] قراءتان:

قراءة حفص: «أن يَغُل «ببناء الفعل للمعلوم». فيكون النفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل. وليس نفياً لحله أو جوازه فطبيعة النبي العادلة العفيفة لا يتأتّى أن يقع منها الغلول ابتداء...».

وقراءة الحسن البصري: (أن يُغَل) على بناء الفعل لغير الفاعل. أي لا يجوز أن يُخان. ولا أن يُخفي عنه أتباعه شيئاً.. فيكون نهياً عن خيانة النبي في شيء، وهو يتمشى مع عجز الآية. وهي قراءة الحسن البصري[2]..

فمن توجيه سيد للقراءتين أظهر لنا أن الأولى نفي لإمكان الغلول من قبل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ والقراءة الثانية نهي للصحابة عن الغلول. ولم يرجح أياً منهما على اعتبارهما واردتين.

وفي قوله تعالى: ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾[3] قراءتان أوردهما سيد بدون ترجيح فقال: (ففي هذه القراءة (محصِنين) بصيغة اسم الفاعل. وفي قراءة أخرى: (محصَنين) بصيغة اسم المفعول. وكلا المعنيين يتحقق في هذه الصورة النظيفة القويمة العفيفة، وهو إحصان للبيت والأسرة والأطفال..)[4].

وفي قوله تعالى: ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾[5] يعني عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قراءتان.

الأولى: قراءة حفص (وإنه لعِلْم للساعة بتسكين اللام). بمعنى أنه يُعْلِم بقرب مجيئها.

والثانية: (وإنه لعَلَم للساعة) بفتح العين واللام: بمعنى أمارة وعلامة. وبعد بيانه معنى كل قراءة لم يرجح أياً منهما، بل قال: (وكلاهما قريب من قريب)[6].

---

(1) آل عمران: ١٦١.
(2) الظلال ١: ٥٠٤.
(3) النساء: ٢٤.
(4) الظلال ٢: ٦٢٥.
(5) الزخرف: ٦١.
(6) الظلال ٥: ٣١٩٨.

وتصديقاً للقراءتين أورد حديثين صحيحين عن رسول الله - ﷺ - تقرر نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض قبيل قيام الساعة[1].

وأحياناً يقف أمام القراءات، فيورد قراءتين، ويرجح إحداهما ويبين أسباب الترجيح. فقد تكون هي الراجحة لمعنى بلاغي بديع: كما في قوله تعالى: ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم ﴾[2].

ففي (وكلمة الله هي العليا) قراءتان:

الأولى: بالنصب عطفاً على «كلمة الذين كفروا».

والثانية: الرفع على أنها مبتدأ. وقد رجح سيد قراءة الرفع بقوله: (ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى. لأنها تعطي معنى التقرير. فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلا، بدون تصيير متعلق بحادثة معينة)[3]. ومعلوم أن قراءة الرفع هي قراءة حفص.

وكما رجح قراءة حفص السابقة للسبب البلاغي الذي أشار إليه. فقد رجح قراءة حفص في موضع آخر من الظلال، وأثناء تفسيره لآية من سورة التوبة نفسها، والمرجح في هذه المرة أمر تصويري. كان ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾[4].

إذ في كلمة (اثاقلتم) قراءتان:

الأولى: قراءة حفص بالأدغام والتشديد «اثاقلتم».

الثانية: قراءة (تثاقلتم).

وقد رجح سيد قراءة حفص بقوله: (هذه قراءة حفص وهي أبلغ تصويراً من القراءات التي ورد فيها «تثاقلتم» لأنها تصور «ثقلة الأرض،

---

(1) انظر الظلال ٥: ٣١٩٨ - ٣١٩٩.

(2) التوبة: ٤٠.

(3) الظلال ٣: ١٦٥٦.

(4) التوبة: ٣٨.

ومطامع الأرض، وتصورات الأرض.. ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع.. ثقلة الدعة والراحة والاستقرار... ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب.. ثقلة اللحم والدم والتراب.... والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه «اثاقلتم» وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل.. ويلقيها بمعنى ألفاظه: «إثاقلتم» إلى الأرض».. وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل، وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق..)[1].

وإذا كانت قراءة حفص هي الراجحة في المثال السابق لمعنى تصويري، فإنها في مثال آخر ليست راجحة لسبب بلاغي نحوي ففي قوله تعالى: ﴿ وقالوا: مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخرياً؟ أم زاغت عنهم الأبصار[2]﴾ ففي جملة «اتخذناهم سخرياً» قراءتان:

الأولى: قراءة حفص بجعلها جملة استفهامية.

والثانية: تكون بها جملة خبرية.

وقد رجح سيد القراءة الثانية بقوله: «هناك قراءة لا تجعل جملة «اتخذناهم سخرياً» استفهامية ولكن إخبارية. وقد اخترنا هذه القراءة لأن المعنى على أساسها أدق وأوضح. وتكون «اتخذناهم» سخرياً تكملة للجملة قبلها، ووصفاً لرجالاً[3].

ولئن لم يرجح سيد قراءة حفص ولا غيرها في المثال الذي أوردناه قبل قليل عن كون عيسى ـ عليه السلام ـ عِلْم للساعة أو عَلَم لها. فإن قراءة حفص مرجوحة في آية أخرى تتحدث عن عيسى عليه السلام، إذ رجح

---

(١) الظلال ٣: ١٦٥٥ مع ملاحظة الحاشية. وانظر مثالاً آخر في الظلال رجح قراءة حفص للمعنى التصويري ٢: ١٢٠٣.

(٢) ص: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) الظلال ٥: ٣٠٢٤ حاشية وانظر كتاب «إملاء ما من به الرحمن» للعكبري ٢: ٢١٣.

القراءة الأخرى لأنها هي التي تتفق مع رأيه ـ الجديد في الطبعة المنقحة عن نزول عيسى عليه السلام ـ: .

كان ذلك في قوله تعالى: ﴿ وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾[1] حيث اختلف السلف في مدلول الآية باختلافهم في عائد الضمير في (موته) فقال جماعة: إنه يعود على عيسى ـ عليه السلام ـ فما من كتابي إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام، قبل موته الحقيقي عندما ينزل قبيل الساعة. وقال جماعة: إنه يعود على الكتابي حيث يتبين له الحق وهو في سكرات الموت، فيؤمن بعيسى أنه عبد الله ورسوله، ولكن في الوقت الذي لا ينفعه هذا الإيمان. .

فما هو الراجح عند سيد؟ الراجح هو الرأي الثاني، الذي تدل له قراءة حفص، وفي ذلك يقول: «ونحن أميل إلى هذا القول الثاني، الذي ترشح له قراءة» أُبيّ: «إلا ليؤمنن به قبل موتهم». . فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير، وأنه أهل الكتاب. . وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن اليهود الذين كفروا بعيسى ـ عليه السلام ـ وما زالوا على كفرهم به، وقالوا: إنهم قتلوه وصلبوه، ما من أحد منهم يدركه الموت، حتى تكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح، فيرى أن عيسى حق، ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حين لا ينفعه إيمان. .)[2].

وإذا كنا لسنا مع سيد قطب في ترجيحه هذا، ولا نوافقه على هذا التأويل، ولا نتابعه على رأيه حول معنى وفاة عيسى عليه السلام ـ ولنا وقفات مع سيد نسجل ملاحظاتنا على الظلال[3] ـ فإننا نقرر أن سيد في ترجيحه لإحدى القراءتين كان يوجه هذه القراءة، ويبين معنى الآية على أساسها.

وفي نقاشه مع السابقين حول مكية سورة الأنعام بكل آياتها، كان يرد على ما قاله بعضهم حول مدنية بعض آياتها. . واستعان بقراءة ـ لغير حفص ـ في قراءتها.

---

(١) النساء: ١٥٩.

(٢) الظلال ٢: ٨٠٣.

(٣) انظر كتابنا «في ظلال القرآن في الميزان».

تلك الآية هي قوله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، قل: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ـ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ـ وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم. قل: الله ثم ذرهم في خضوهم يلعبون ﴾[١].

فقال بعضهم إن هذه الآية مدنية لأن فيها خطاباً لليهود (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) ولم يكن لليهود وجود في مكة. وهذه القراءة للآية هي قراءة حفص.

ولكن سيد في رده على هؤلاء رجح قراءة غير حفص فقال: «وهناك قراءة «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً».. فهي على هذه القراءة خبر عن اليهود وليست خطاباً لهم. وسياق الآية كله عن المشركين. وقد رجح ابن جرير هذه الرواية واستحسن هذه القراءة...»[٢] وأعلن سيد أنه مع ابن جرير الطبري في ترجيحه بقوله: (ونحن نختار ما اختاره ابن جرير)[٣].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾[٤]. رجح قراءة غير حفص (ملِكَين) بكسر اللام، لأنها يعضدها النص الآخر في سورة طه (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[٥] ولأن إبليس أغراهما بالملك الخالد والعمر الخالد «وهما أقوى شهوتين في الإنسان». فهي من ثم «أكثر اتفاقاً مع النص القرآني الآخر، ومع اتجاه الكيد الشيطاني وفق شهوات الإنسان الأصيلة..»[٦].

---

(١) الأنعام: ٩١.
(٢) انظر الظلال ٢: ١٠٢١.
(٣) انظر الظلال ٢: ١١٤٦.
(٤) الأعراف: ٢٠.
(٥) طه: ١٢٠.
(٦) انظر الظلال ٣: ١٢٦٩.

الناسخ والمنسوخ

قارىء الظلال بتمعن لا يستطيع أن يستخرج منه رأياً خاصاً لسيد في النسخ، ولا كلاماً واضحاً صريحاً محدداً حوله.

فأحياناً يرى سيد يقول بالنسخ نظرياً، وأحياناً يثبته في بعض الآيات، لكنه غالباً لا يراه في الآيات التي قالوا عنها إنها ناسخة أو منسوخة، فيعتبره من باب التخصيص، أو المرحلية في الأحكام. ولولا المواطن القليلة التي قال فيها بالنسخ، لجزمنا أن سيد مع منكري النسخ، الذين يعتبرونه تخصيصاً في الآيات التي أثبته جمهور العلماء فيها. ولكن طالما أثبته في هذه المواطن ـ النادرة ـ فلا ندخله في سلك المنكرين للنسخ، ولكننا ـ بسبب رفِضه النسخ في معظم الآيات التي فيها نسخ عند جمهور العلماء ـ لا نستطيع أن نجعله مع الجمهور في إثباتهم للنسخ أيضاً، وبهذا يظهر لنا: أن له فهماً خاصاً للنسخ..

حتى الآية التي استدل بها الجمهور على النسخ، لا نستطيع أن نكوّن من تفسير سيد لها رأياً خاصاً له في النسخ نفياً أو إثباتاً.

ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها، نأتِ بخير منها أو مثلها..﴾[1] سجل كلاماً قبل البدء بتفسيرها أثبت فيه النسخ، وذلك قوله: (وكانت الحملة ـ كما أسلفنا ـ تتعلق بنسخ بعض الأوامر والتكاليف

---

(١) البقرة: ١٠٦.

وبخاصة عند تحويل القبلة إلى الكعبة، الأمر الذي أبطل حجتهم على المسلمين. .)[1].

وبعد قليل أطلق على تغيير الأحكام لفظاً جديداً هو «تعديل بعض الأوامر والتشريعات والتكاليف، وذلك إلى جانب «النسخ» فيقول: (فإن القرآن يبين هنا بياناً حاسماً في شأن النسخ والتعديل، وفي القضاء على تلك الشبهات التي أثارتها يهود. . .).

وأضاف إلى ذلك قوله: «فالتعديل الجزئي وفق مقتضيات الأحوال ـ في فترة الرسالة ـ هو لصالح البشرية، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها. والله خالق الناس، ومرسل الرسل. ومنزل الآيات، هو الذي يقدر هذا. فإذا نسخ آية ألقاها في عالم النسيان ـ سواء كانت آية بمعنى علامة وخارقة تجيء لمناسبة حاضرة، وتطوى كالمعجزات المادية التي جاء بها الرسل ـ فإنه يأتي بخير منها أو مثلها. ولا يعجزه شيء، وهو مالك كل شيء)[2].

فهذه الفقرة قد يفهم منها أنه يقول ـ نظرياً هنا ـ بالنسخ، وقد يفهم منها أيضاً أنه يقول بالتعديل الجزئي (لبعض الأوامر والتشريعات والتكاليف التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة. وأحوالها المتطورة) ـ على حسب قوله ـ أي المرحلية في الأحكام، وتغيرها ـ في فترة الرسالة ـ بأمر من الله، والإتيان بحكم جديد يتوافق مع الحالة الجديدة. . .

وطالما تحتمل العبارة هذين الاحتمالين فلا نستطيع الاستدلال بها على قوله بالنسخ، ولا على نفيه له، ولذلك نجاوزها إلى الأمثلة العملية، لنعرف أمثلة ـ نادرة ـ لقوله بالنسخ، وأمثلة لنفيه له.

من الأمثلة على قوله بالنسخ ـ وإن لم يطلق عليه فيها اسم النسخ ـ الآيات التي تحدد عقوبة الزنا واللواط في سورة النساء: ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن

---

(١) الظلال ١: ١٠١.
(٢) الظلال ١: ١٠٢.

في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما... ﴾[1].

فقد نسخت عقوبة الزناة، حيث نزلت سورة النور، وفيها حد الزنا مائة جلدة لغير المحصن، كما رجم رسول الله - ﷺ - زناة محصنين وفي ذلك يقول سيد: «فتغير الحكم كما ورد في سورة النور، وفي حديث رسول الله - ﷺ -» [2].

أما عقوبة اللواط، فقد نسخت بحديث رسول الله - ﷺ - الذي يأمر بقتل الفاعل والمفعول به. وقرر سيد هذا بقوله: (وقد عدلت هذه العقوبة كذلك - فيما بعد -)[3].

ونشير إلى كلمتي سيد (فتغير الحكم) و(قد عدلت) بدل أن يعبر بالنسخ، عملياً، ولكنه لا يريد أن يطلق عليه اسم النسخ.

وفي تفسيره للآية التي أوجبت الصدقة لمن يريد مخاطبة الرسول - ﷺ - أطلق على النسخ لفظاً ثالثاً: وهو (الرفع).

فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة. ذلك خير لكم وأطهر. فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم. أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله.. ﴾[4].

قال في نسخ الآية الثانية لحكم الآية الأولى: ولكن الأمر شق على المسلمين وعلم الله ذلك منهم. وكان الأمر قد أدى غايته، وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها فخفف الله عنهم، ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب..)[5].

---

(١) النساء: ١٥ - ١٦.

(٢) الظلال ١: ٥٩٩.

(٣) الظلال ١: ٦٠٠ وانظر تفسيره للآيات التي تقرر حد الزنا في سورة النور، لم يطلق عليها لفظ «النسخ» مع أنه يقول به عملياً. الظلال ٥: ٢٤٨٧.

(٤) المجادلة: ١٢ - ١٣.

(٥) الظلال ٦: ٣٥١٢.

ولئن لم يصرح بذكر النسخ في الأمثلة السابقة، فأمامنا مثال أخر في الظلال قال فيه بالنسخ وبالتخصيص، بأن حمل كل واحد على حالة ليشمل بعض الأفراد. وذلك في تفسيره لآيات الصوم.

فقوله تعالى: ﴿ وأَنْ تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[1] مرحلة على إيجاب الصوم على المقيم الصحيح. وليست نسخاً لأول الآية ﴿ وعلى الذين يطيقونه فديه طعام مسكين، فمن تطوع خيراً فهو خير له ﴾[1] وفي ذلك يقول سيد: (وعلى أية حال فقد كان هذا التوجيه «وأن تصوموا خير لكم» تمهيداً لرفع هذه الرخصة عن الصحيح المقيم وإيجاب الصوم إطلاقاً. كما جاء فيما بعد. ولقد بقيت للشيخ الكبير الذي يجهده الصوم ولا ترجى له حالة يكون فيها قادراً على القضاء..).

أما عن النسخ في آيات الصوم فإن قوله تعالى: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾[2] ناسخ لحكم الآية السابقة في حق الصحيح المقيم، إذ أوجبت عليه الصيام بشهوده الشهر.

وفي ذلك يورد سيد قول ابن عباس - رضي الله عنهما - (نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفاني، إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر). ويعلق على قول ابن عباس قائلاً: (فالنسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بالآية الآتية «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»)[3].

والآن، وبعد إيرادنا الأمثلة أثبت فيها النسخ - وإن لم يصرح به - وهي قليلة جداً في الظلال. نتجه إلى القسم الثاني الذي يصرح فيه بعدم النسخ، عند تناوله للناسخ والمنسوخ، وهذا كثير في الظلال - نكتفي منه ببعض الأمثلة الدالة:

لما فسر آيات القصاص في سورة البقرة، رد على السابقين الذين قالوا إن آية القصاص في المائدة ناسخة لآية القصاص في البقرة. وقد أعمل سيد

(١) البقرة: ١٨٤.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) انظر الظلال ١: ١٧١.

الآيتين لأن لكل منهما مجالاً غير مجال الأخرى: فآية المائدة مجالها الاعتداء الفردي من فرد معين على فرد معين. أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين.. أما آية البقرة فمجالها الاعتداء «الجماعي حيث تعتدي أسرة على أسرة، أو قبيلة على قبيلة، أو جماعة على جماعة: وإذا صح هذا النظر لا يكون هناك نسخ للآية، ولا تعارض في آيات القصاص»(١).

وفي حديثه عن عدة المتوفى عنها زوجها خالف الجمهور الذين يرون أن قوله تعالى: ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾(٢) تقرر عدة المتوفى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشرة أيام، لذلك هي ناسخة لقوله تعالى: ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج ﴾(٣) لأن عدتها فيها حول كامل..

ولكن لا نسخ عند سيد إذ كل آية تعرض جانباً من الموضوع فآية الحول «تقرر حق المتوفى عنها زوجها في وصية منه تسمح لها بالبقاء في بيته والعيش من ماله مدة حول كامل، لا تخرج ولا تتزوج إن رأت من مشاعرها أو من الملابسات المحيطة بها ما يدعوها إلى البقاء.. وذلك مع حريتها في أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشر ليالٍ كالذي قررته آية سابقة، فالعدة فريضة عليها، والبقاء حولاً حق لها.. وبعضهم يرى أن هذه الآية منسوخة بتلك، ولا ضرورة لافتراض النسخ، لاختلاف الجهة كما رأينا. فهذه تقرر حقاً لها إن شاءت استعملته. وتلك تقرر حقاً عليها لا مفر منه»(٤).

وآية المواريث في سورة النساء ليست ناسخة لقوله تعالى: ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا.. ﴾(٥) لأنها تقرر حقاً للمحجوبين من أولي القربى عندما يحضرون قسمة المال. وفي هذا يقول سيد: (ونحن لا نرى فيها دليلاً للنسخ، ونرى

---

(١) انظر الظلال ١: ١٦٥.
(٢) البقرة: ٢٣٤.
(٣) البقرة: ٢٤٠.
(٤) الظلال ١: ٢٥٩.
(٥) النساء: ٨.

أنها محكمة وواجبة في مثل هذه الحالات التي ذكرنا. معتمدين على إطلاق النص من جهة، وعلى الاتجاه الإسلامي العام في التكافل من جهة أخرى.. وهي شيء آخر غير أنصبة الورثة المحددة في الآيات التالية على كل حال...)[٣].

أما رأي سيد في آيات الجهاد، فهو معروف، إذ أنه خالف السابقين الذين اعتبروا أحكام الجهاد في سورة التوبة ناسخة لكل المراحل السابقة، أما عنده فإن تلك المراحل السابقة ليست منسوخة، ولذلك قال بالمرحلية في أحكام الجهاد[٤]..

هذه خلاصة نظرة سيد قطب إلى الناسخ والمنسوخ، وخلاصة فهمه للنسخ، ويتضح من الأمثلة التي أوردناها أنه لا يرى النسخ في معظم الآيات التي اعتبرها السابقون ناسخة أو منسوخة، وإذا ما قال بالنسخ ـ أحياناً ـ فإنه يختار له تعابير أخرى مثل: التغيير والتعديل والرفع.

إنه يضيق ساحة النسخ إلى أضيق مجال، ولا يثبته إلا في نماذج يسيرة.

(١) الظلال ١ : ٥٨٨.

(٢) انظر الظلال ٣ : ١٥٨٠.

المبحث السادس

مبهمات القرآن

المبهمات هي أسماء الأشخاص أو الأقوام أو الأماكن أو الأشياء، في قصص السابقين. والتي أغفلها القرآن فلم يبينها، لأنه كان يهدف إلى التوجيه وبيان العبرة، وهذا يتحقق بسرده للحادثة أو القصة، وذكر الاسم لا يضيف شيئاً على هذه الهدف. ولذلك فلم يكن من طريقة القرآن تحديد هذه المبهمات.

فإذا ما وقفنا على السياق القرآني في عرض الأحداث السابقة فعلينا الاكتفاء بعرض القرآن لها، ومن ثم ترك المبهم فيها على إبهامه ـ إلا إذا بينه حديث صحيح لرسول الله ﷺ ـ فإذا حاولنا بيان هذا المبهم فإننا سنقع في الخرافات والأساطير والإسرائيليات. وسنخرج بأقوال لا دليل عليها ولا صحة لها. لأن قصص السابقين من غيب الماضي، وطريقنا للبحث في أمور الغيب اما آية صريحة أو حديث صحيح. فإن لم نجد فيهما بياناً فيجب أن نتوقف عن البحث: احتراماً لنصوص القرآن الجدية. ولمنهج البحث العلمي، وتسليماً منا بالمجال الذي تستطيع عقولنا ومعارفنا العمل فيه، وحرصاً على ألا نقفو ما ليس لنا به علم. وحفظاً لأدوات البحث التي منحنا الله إياها، واهتماماً بأوقاتنا وأفكارنا أن لا تذهب سدى أو تسير في تيه...

وفي المبهمات يقول السيوطي في (الاتقان) «اعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض لا مجال للرأي فيه) وأضيفُ إلى قوله محدداً النقل المحض، بقصره على المصدرين اليقينيين الموثوقين أمامنا وهما: الآية

الصريحة والحديث الصحيح. فلا يقبل قول أحد من السابقين ـ مهما كان ـ باستثناء رسول الله ـ ﷺ وحده ـ في بيان المبهم وتحديده ما لم يبين لنا مصدره الذي أخذ منه، ودليله الذي اعتمد عليه. فإن كان أحد المصدرين الموثوقين قبلناه وإلا رددنا هذا البيان مع تقديرنا لصاحبه..

ويا ليت السابقين من المفسرين التزموا هذه الخطة المنهجية في تعاملهم مع المبهمات في القرآن.. حيث رأينا كثيراً من كتب التفسير تورد أقوالاً ونقاشات واختلافات في تحديد المبهمات، وتسوَّد صفحات كثيرة فيها بذلك معتمدة على الإسرائيليات أو الروايات غير الموثوقة في كتب المأثور. بل إن بعضهم أفرد هذه المبهمات بكتب خاصة، حاول فيها بيان المبهمات اعتماداً على هذه المصادر والروايات غير الموثوقة. ومن هذه المؤلفات: (التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام). لأبي القاسم السهيلي، واستدرك عليه تلميذه محمد بن عساكر بكتابه «التكميل والإتمام للتعريف والإعلام» وجمع بين الكتابين القاضي بدر الدين بن جماعة في كتابه «التبيان في مبهمات القرآن» ثم جاء السيوطي وألف كتابه «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» ـ رغم أنه يعترف بأن طريق معرفة المبهمات هو النقل المحض فقط ـ.

وكتاب السيوطي هو المطبوع في نهاية حاشية الجمل على تفسير الجلال«[1].

هذه نظرة بعض السابقين إلى المبهمات. أما سيد قطب فكانت له نظرة خاصة في المبهمات، ورأي خاص فيها، ناتج عن منهجه في تفسير القرآن، ومنطلقاته الأساسية فيه.. مثل «المحافظة على جو النص القرآني» و«استبعاد المطولات التي تحجب نور القرآن» ولذلك اتسم تعامله مع هذه المبهمات «بالواقعية الجدية» و«المنهجية السلفية» ولذلك جاء حديثه عنها في الظلال علمياً منهجياً، وموقفه منها موضوعياً..

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢: ١٤٥.

(٢) انظر حاشية الجمل على الجلالين. الجزء الرابع: ٥٣٤ ـ ٦٣١ الهوامش.

المبهمات عند سيد من أمور الغيب ـ وهي كذلك ـ وتعامله معها كتعامله مع أمور الغيب في القرآن، عن طريق النصوص فقط الآية الصريحة أو الحديث الصحيح. واعتراف بعجز العقل البشري عن البحث فيها، لأنها ليست من مجاله، لأنه لم يزوده الله بوسائل لذلك.

ففي تفسيره لقصة آدم ـ عليه السلام ـ مع الملائكة في الجنة وتجربته هناك، ودور إبليس فيها وقف ليسأل أسئلة ويجيب عليها: «أين كان هذا الذي كان؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو إبليس؟ . . كيف قال الله لهم؟ وكيف أجابوه؟».

وهذه الأسئلة حاولت بعض التفاسير السابقة أن تجيب عليها، وخاضت في المبهمات من أجل ذلك، لكن سيد في إجابته عليها يضع أمامنا قاعدة منهجية للتعامل مع المبهمات والبحث في عالم الغيب: (هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب. .)[1].

وطالما أن عقولنا غير مؤهلة للخوض في عالم الغيب، والبحث في أموره، فإن طريقنا لمعرفة ذلك هو النصوص. والقرآن ـ في حديثه عن قصص السابقين ـ لا يهدف إلى تعيين أسماء الأشخاص ولا تحديد الأماكن، لأن العبرة تتحقق بدون ذلك.

ففي تفسير سيد لقوله تعالى: ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾[2] قرر هذا المعنى في المبهمات فقال: (من هو الذي مر على قرية؟ ما هذه القرية التي مر عليها وهي خاوية على عروشها؟ إن القرآن لم يفصح عنهما شيئاً، ولو شاء الله لأفصح، ولو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بهذا

(١) الظلال ١: ٥٩.
(٢) البقرة: ٢٥٩.

الإفصاح ما أهمله في القرآن، فلنقف نحن ـ علـى طريقتنا في هذه الظلال ـ عند تلك الظلال. . .)[1].

ونفس الموقف وقفه سيد عندما عرض للملك الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك فاعتبره من مبهمات القرآن، ولذلك لم يحاول تحديد اسمه، لأنه «لا يذكر السياق اسمه. لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئاً. . . »[2].

وكذلك اسم النبي من بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله. . ﴾[3] من مبهمات القرآن (ولم يَرِد في السياق ذكر اسمه، لأنه ليس المقصود بالقصة، وذكرها هنا لا يزيد شيئاً في إيحاء القصة. .)[4].

وإذا كان سيد قد اكتفى في الأمثلة السابقة بعدم تحديد المبهمات ـ اتباعاً للقرآن الكريم ـ فإنه في بعض الأحيان يقف ليبين أن تجاوز سياق القرآن بشأن هذه المبهمات معناه الذهاب إلى التيه والخبط فيه بلا دليل. وكان ينتقد طريقة بعض السابقين في ذهابهم إلى هذا التيه، وأخذهم فيه من خرافات بني إسرائيل.

ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله: موتوا. ثم أحياهم ﴾[5] قرر موقفه من المبهمات بقوله: (لا أحب أن نذهب في تيه التأويلات، عن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. . من هم؟ وفي أي أرض كانوا، وفي أي زمان خرجوا؟. . فلو كان الله يريد بياناً عنهم لبين. .)[6].

كذلك (كيف قال الله موتوا؟ وكيف ماتوا؟ هل ماتوا بسبب مما هربوا منه وفزعوا؟ هل ماتوا بسبب آخر من حيث لم يحتسبوا؟ كل ذلك لم يرد عليه تفصيل لأنه ليس موضع العبرة. . .).

---

(١) الظلال ١: ٢٩٩٧

(٢) الظلال ١: ٢٩٧.

(٣) البقرة: ٢٤٦

(٤) الظلال ١: ٢٦٦.

(٥) البقرة: ٢٤٣.

(٦) الظلال ١: ٢٦٣.

ثم أحياهم. . «كيف؟ هل بعثهم من موت ورد عليهم الحياة؟ هل خلف من ذريتهم خلف تتمثل فيه الحياة القوية فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟ ذلك لم يرد عنه تفصيل. فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل، لئلا نتيه في أساطير لا سند لها كما جاء في بعض التفاسير. . .)[١].

وعن المبهمات في قصة آدم عليه السلام كما وردت في سورة الأعراف مثل: تحديد الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها. وكيفية وسوسة الشيطان له حتى أكل، وكيف بدت له ولزوجه سؤاتهما، وما معنى ذلك، وكيف طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وقبل أن يهبطوا جميعاً إلى هذه الأرض: أين كانوا؟ وأين هي الجنة؟. . يقرر سيد أن هذه الأسئلة وما يماثلها من المبهمات، وأنه كان من الممكن الإجابة عليها في حياة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والوحي ينزل عليه. أما وقد انقطع الوحي بدون إجابة فلا سبيل إلى إجابة علمية صحيحة عليها فهي من الغيب «وكل محاولة لمعرفة هذا الغيب بعد انقطاع الوحي هي محاولة فاشلة. .»[٢].

قصة (ابني آدم) في سورة المائدة، اعتبر سيد تحديد أحداثها من المبهم الذي لا سبيل إليه ـ إلا بالنصوص الصريحة الصحيحة ـ ولذلك لم يشغل نفسه بتحديده أو بيانه: (ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة. . وعلى الرغم من ورود بعض الآثار والروايات عن: «قابيل وهابيل» وأنهما ابنا آدم في هذه القصة، وورود تفصيلات عن القضية بينهما، والنزاع على أختين لهما. . فإننا نؤثر أن نستبقي القصة ـ كما وردت ـ مجملة بدون تحديد. .)[٣].

كذلك اسم الشاهد الذي شهد في قضية يوسف ـ عليه السلام ـ مع امرأة العزيز لم يحدده القرآن، كما لم يبين أين ومتى أدلى بشهادته، فكل ذلك من المبهم الذي لم يبينه سيد[٤].

---

(١) الظلال ١ : ٢٦٤.
(٢) الظلال ٣ : ١٢٦٨. و: ١٢٧٠.
(٣) الظلال ٢ : ٨٧٥.
(٤) الظلال ٤ : ١٩٨٢.

كذلك تحديد أصحاب القرية في سورة «يٰس» وموقع قريتهم، وأسماء الرسل الثلاثة إليهم من مبهمات القرآن[1].

لقد كان موقف سيد من «مبهمات القرآن» بعدم بيانها أو تحديدها موقفاً منهجياً وثابتاً، لأن القرآن عرضها هكذا مبهمة عن قصد لا عن نسيان، ولأن المقصود من السياق القرآني للمبهمات هو العبر والتوجيهات، وهذه تتحقق بعرضها على صورتها القرآنية. ولأن الوسيلة الثابتة لبيانها ـ بعد انتقال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ليست بين أيدينا، ولذلك نتركها على إبهامها.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٦١

المبحث السابع

غريب القرآن

غريب القرآن مبحث من مباحث علوم القرآن وموضوع من موضوعاته، يهتم ببيان معاني الكلمات الغريبة في القرآن، وتفسيرها للقراء. وبالرغم من أن القرآن الكريم نزل بلغة عربية واضحة وأنه ميسر للتلاوة والذكر، وأن غالبية كلماته معروفة من قبل العرب، والمتكلمين باللغة العربية في أي زمان ومكان. بالرغم من ذلك فهناك كلمات ـ قليلة ـ قد يصعب معرفة معناها لقارئي القرآن في الأزمنة اللاحقة لنزول القرآن، ولذلك لا بدّ من بيان معناها، وهذه الكلمات هي التي أطلق عليها دارسو القرآن اسم «غريب القرآن».

وقد اهتم العلماء والمفسرون بتفسير هذه الكلمات. فالتفاسير المختلفة فسرتها وبينت معناها، وخصص لها بعض العلماء كتباً خاصة، من أهمها وأشهرها وأكثرها فائدة كتاب «المفردات في غريب القرآن». للراغب الأصفهاني.

ومن الطبيعي أن يهتم سيد في الظلال بغريب القرآن، وأن يبينه ويفسره للقراء.

وموقف سيد من الغريب وتعامله معه في الظلال غير واضح لدى بعض الناس، ولذلك شاعت كلمة على ألسنة بعضهم تلمز سيد بهذا الخصوص لأنه ـ حسب هذه الإشاعة ـ لم يقف عند الكلمات الغريبة مفسراً لها، وإنما تجاوزها إلى تسجيل خواطره وأفكاره، ولذلك جاء الظلال بدون تفسير

للكلمات الغريبة، ومن ثم لا بدّ لمن أراد معرفة تفسيرها من أن يرجع إلى كتب التفسير الأخرى!!!.

وكدنا نصدق هذه الإشاعة، لولا إننا وقفنا ـ بعد قراءتنا الشاملة للظلال ـ على ما ينقضها.

لسيد اهتمام خاص بغريب القرآن، وتفسير خاص له، بطرق مختلفة ـ سنشير إليها بعد قليل ـ وأعتقد أن القراء الذين تعودوا تفسير الغريب بالطريقة المعهودة في كتب التفسير، قد أَلِفوا هذه الطريقة، وبحثوا في الظلال لعلهم يجدونها فيه، ولما لم يجدوها أعلنوا أن الظلال ليس فيه تفسير للغريب.

لقد فسر سيد غريب القرآن في الظلال، وبيَّن معناه، ولم يقف عند المعنى المحدد، بل كان يتجاوزه ـ بعد إيراده ـ إلى تسجيل إيحاءات وظلال وحقائق الكلمة أو العبارة.

ولكنني أقرر أن سيد ليس له طريقة واحدة في تفسير الغريب، يمكن أن نعممها على الظلال كله، وإنما له في تفسيره طرقاً مختلفة.. فأحياناً كان يذكر المعنى بجانب الكلمة بين قوسين. وأحياناً يذكره بجانبها بين شرطتين (ـ ـ). وأحياناً يذكر المعنى العام بدون تحديد. وأحياناً يبين فقه اللغة للكلمة. وأحياناً يبين البعد الفني والتصويري لها. وأحياناً يبين للكلمة أكثر من معنى. وأحياناً يذكر المعنى في الحاشية ـ وهذا كثير في الطبعة الأولى ـ.

وفيما يلي نماذج من الظلال لكل حالة من هذه الحالات.:

من الأمثلة على ذكره معنى الكلمة الغريبة بجانبها فوراً، فيكون قد سلك ـ في هذه الحالة ـ طريقة قريبة من طريقة السابقين في التفسير. تفسيره لقوله تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون..﴾[1] فقد فسر الرجز والفسق بقوله: «والرجز: العذاب، والفسوق: المخالفة والخروج»[2].

(١) البقرة: ٥٩.
(٢) الظلال ١: ٧٣.

وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾[1]. بين معنى الكلمة الغريبة بقوله: «ثقفتموهم.. أي وجدتموهم.. في أية حالة كانوا عليها. وبأية وسيلة تملكونها»[2].

وبين معنى الخُمُر والجيوب في قوله تعالى: ﴿ وليضربن بخُمرهن على جيوبهن ﴾[3] بقوله: «والجيب فتحة الصدر في الثوب. والخمار غطاء الرأس والنحر والصدر»[4].

كما بين معنى الحافرة في قوله تعالى: ﴿ يقولون أإنا لمردودون في الحافرة؟ ﴾[5] بقوله: «فهم يتساءلون: أنحن مردودون إلى الحياة، عائدون في طريقنا الأولى.. يقال: رجع حافرته: أي في طريقه التي جاء منها»[6].

فها نحن نرى في هذا المثال كيف أن سيد لا يريد مجرد تفسير معنى الكلمة الغريبة، ولكن بيان معنى الآية، ولذلك قدم بيان معنى الآية على التفسير الحرفي لمعنى الكلمة. فهم عندما يبعثون من قبورهم يستغربون فيتساءلون أنحن مردودون إلى الحياة، عائدون في طريقنا الأولى.

لقد كان تفسير الغريب عند سيد ـ كغيره من موضوعات علوم القرآن ـ وسيلة إلى تحقيق أهدافه من الظلال، وتفسير القرآن الكريم، ولم يجعله غاية بحد ذاته.

والحالة الثانية في تفسيره للغريب هي أن يبين معنى الكلمة بين قوسين: فمعنى «يسومونكم سوء العذاب»[7] (يديمون عذابكم: من سام الماشية أي جعلها سائمة ترعى دائماً) وكأن العذاب كان هو الغذاء الدائم الذي يطعمونهم إياه»[8].

والآية رقم (٩١): من سورة النساء فسَّر أربع كلمات فيها بين قوسين.

---

(١) البقرة: ١٩١.
(٢) الظلال ١: ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٣) النور: ٣١.
(٤) الظلال ٤: ٢٥١٣.
(٥) النازعات: ١٠.
(٦) الظلال ٦: ٣٨١٣.
(٧) البقرة: ٤٩.
(٨) الظلال ١: ٧٠.

فجاء تفسيره لها هكذا: (ولهذا قال تعالى: ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ (المهادنة والصلح) ويكفوا أيديهم (أي عن القتال) فخذوهم (أَسَراء) واقتلوهم حيث ثقفتموهم (أي حيث وجدتموهم) وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا)[1].

وبين معنى كلمة عضين في قوله تعالى: ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين. الذين جعلوا القرآن عضين ﴾[2] بهذه الطريقة فقال: (والعضة: الجزء. من عضى الشاة أي فصل بين أعضائها). . وهم مسؤولون عن هذه التفرقة)[3].

ونلاحظ في هذا المثال أنه بين أصل اشتقاق الكلمة ومادة اشتقاقها أثناء تفسيره لها.

وكثيراً ما نرى سيد يبين أصل اشتقاق الكلمة ومادة اشتقاقها بالإضافة إلى تفسيره لها:

فالطاغوت في قوله تعالى: ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾[4] (صيغة من الطغيان، تفيد كل ما يطغى على الوعي، ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد)[5].

وهو في بيانه لاشتقاق الكلمة يعرج على دلالتها الفنية، وما فيها من جمال التصوير الفني الساحر.

ومن ذلك بيانه لمعنى الحبوط اللغوي والتصويري، في تفسير قوله تعالى: ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة. . ﴾[6] حيث قال: (والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة إذا رعت مرعى خبيثاً فانتفخت ثم نفقت. . والقرآن يعبر بهذا عن حبوط العمل. فيتطابق المدلول الحسّي والمدلول المعنوي. . يتطابق تضخم العمل الباطل وانتفاخ مظهره وهلاكه في النهاية وبواره. . مع تضخم حجم الناقة

---

(1) الظلال ٢: ٧٣٤.
(2) الحجر: ٩٠ - ٩١.
(3) الظلال ٤: ٢١٥٥.
(4) البقرة: ٢٥٦.
(5) الظلال ١: ٢٩٢.
(6) البقرة: ٢١٧.

وانتفاخها ثم هلاكها في النهاية بهذا الانتفاخ)[1].

وفي بيانه معنى النشوز جمع بين المعنيين، اللغوي الاشتقاقي ووضعه بين قوسين. والجمالي التصويري وذكره بعده: فقال: «فأما غير الصالحات. . فهن الناشزات» (من الوقوف على النشز وهو المرتفع البارز من الأرض) وهي صورة حسّية للتعبير عن حالة نفسية. فالناشز تبرز وتستعلي بالعصيان والتمرد[2].

وهو يتعرض إلى ظلال الكلمة فيشير إليها بالإضافة إلى تفسيرها وبيان اشتقاقها. فكلمة (يمهدون) في قوله تعالى: ﴿ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾[3] مضارعها للمفرد: يمهد: (ويمهد معناها: يُمهِّد ويُعبِّد، ويُعد المهد الذي فيه يستريح، ويهيىء الطريق أو المضجع المريح. وكلها ظلال تتجمع وتتناسق، لتصور طبيعة العمل الصالح ووظيفته. فالذي يعمل العمل الصالح إنما يمهد لنفسه ويهيىء أسباب الراحة في ذات اللحظة التي يقوم فيها بالعمل الصالح لا بعدها. وهذا هو الظل الذي يلقيه التعبير. .)[4].

والتغابن (مفاعلة من الغبن وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم، وحرمان الكافرين من كل شيء، ثم صيرورتهم إلى الجحيم. فهما نصيبان متباعدان، وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء، وليغبن كل فريق مسابقه! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون. فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك. .)[5].

والمعنى التصويري للكلمة يرجح على معناها الآخر المعنوي عنده، وما ذلك إلا لاهتمامه بالتصوير الفني وملاحظته له حتى وهو يفسر «غريب القرآن».

فقوله تعالى في بيان ما أصاب قوم لوط ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي

---

(١) الظلال ١: ٢٢٨.
(٢) الظلال ٢: ٦٥٣.
(٣) الروم: ٤٤.
(٤) الظلال ٥: ٢٧٧٣.
(٥) الظلال ٦: ٣٥٨٨.

من الظالمين ببعيد. . ﴾[1] يرجح سيد في تفسيره المعنى التصويري لكلمة (مسومة) فيقول: (هذه الحجارة «مسومة عند ربك». . كما تسوم الماشية أي تُربَّى وتطلق بكثرة. فكأنما هذه الحجارة مربَّاة! ومطلقة لتنمو وتتكاثر لوقت الحاجة. . وهو تصوير عجيب يلقي ظله في الحسّ ولا يفصح عنه التفسير، كما يفصح عنه هذا الظل الذي يلقيه. .).

ويبين الدافع الذي دفعه لترجيح هذ المعنى في الحاشية فيقول: (من معاني مسومة: معَلَّمَة ذات علامة خاصة. والتعبير التصويري يجعل المعنى الذي اخترناه لها أقرب إلى التصوير. .)[2].

ومن طرقه في تفسير الغريب أن يذكر الكلمة ثم يبين معناها بين شرطتين. كما في تفسيره كلمة «نِحلة» في قوله تعالى: ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾[3] حيث قال: (نحلة ـ أي هبة خالصة لصاحبتها ـ)[4].

ويبين معنى الطوْل في قوله تعالى: ﴿ ومن لم يستطيع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾[5]. بين شرطتين فقال: (الطول ـ أي القدرة على نكاح الحرة ـ)[6].

وأحياناً لا يورد معنى الكلمة أثناء التفسير، ولكن يجعله في الحاشية. والأمثلة على هذا كثيرة في الظلال ـ وبخاصة في الطبعة الأولى ـ نكتفي منها بهذه الأمثلة:

فسر معنى «فورهم» و«مسومين) الواردتين في قوله تعالى: ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)[7] في الحاشية فقال: (فورهم هذا: أي من جهتهم هذه. مسومين: أي معلمين لهم علامة تميزهم)[8].

---

(١) هود: ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) الظلال ٤: ١٩١٥.
(٣) النساء: ٤٠.
(٤) الظلال ١: ٥٨٥.
(٥) النساء: ٢٥.
(٦) الظلال ٢: ٦٢٦.
(٧) آل عمران: ١٢٥.
(٨) الظلال ١: ٤٧٠.

وكذلك فسر معنى «تعْبُرون» في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي، إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾[1] فقال في الحاشية (تعبرون: أي تصلون إلى نهايتها، وتذكرون مآلها)[2].

كذلك فسر الكلمات الثلاث الواردة في قوله تعالى: ﴿ فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك، ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا. أو يصبح ماؤها غوراً ﴾[3] والكلمات هي: حسبانا. زلقا. غورا. بين معناها في الحاشية فقال عن الأولى «سيل مدمر يقتلع أشجارها ويهلكها». وعن الثانية: «سطحاً أجرد تزل فيه القدم» وعن الثالثة «غائراً وهو ضد النابع»[4].

وأحياناً يذكر معنيين محتملين للكلمة الغريبة أثناء التفسير. ففي ﴿ تحسونهم ﴾[5] معنيان: «أي يخمدون حسّهم. أو يستأصلون شأفتهم»[6].

وقد يذكر المعنيين المحتملين في الحاشية. فقول الله لموسى ـ عليه السلام: «إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى»[7] في كلمة طوى احتمالين أوردهما سيد في الحاشية بقوله: «قيل: إنها اسم للوادي، وقيل: إنها وصف له»[8].

وهناك طريقة أخرى عجيبة لسيد في تفسير الغريب: حيث يبين معنى الكلمة ثم يوردها.. (فالمخمصة في قوله تعالى: ﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم ﴾[9] هي الجوع. فسرها سيد هكذا (فالمضطر من الجوع ـ وهو المخمصة ـ..)[10].

وبهذه الطريقة بين معنى «زيلنا» في قوله تعالى: ﴿ فزيلنا بينهم ﴾[11]

---

(1) يوسف: ٤٣.
(2) الظلال ٤: ١٩٩٣.
(3) الكهف: ٤٠ ـ ٤١.
(4) الظلال ٤: ٢٢٧١.
(5) آل عمرآن: ١٥٢.
(6) الظلال ١: ٤٩٣.
(7) طه: ١٢.
(8) الظلال ٤: ٢٣٣١.
(9) المائدة: ٣.
(10) الظلال ٢: ٨٤١.
(11) يونس: ٢٨.

حيث قال: (ثم فرق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهما في الموقف (فزيلنا بينهم))[1].

ومما يدل على أن سيد لم يسلك طريقة واحدة في تفسير غريب القرآن أنه في صفحة واحدة من صفحات الظلال سلك ثلاث طرق في تفسير الغريب...

الزبر في قوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. بالبينات والزبر﴾[2] فسرها بين قوسين (أرسلناهم بالبينات وبالكتب (والزبر الكتب المتفرقة)[3].

والتفيؤ في قوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلالُه عن اليمين والشمائل﴾[4] فسرها بين شرطتين فقال: (ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة - أي الراجعة بعد امتداد -).

أما كلمة «داخرين» فقد فسرها بطريقة ثالثة في نفس الصفحة: بأن ذكر معناها بجانبها مباشرة: (ويرسم المخلوقات داخرة، أي: خاضعة خاشعة طائعة)[5].

وأحياناً نجده في تفسيره للغريب يذكر معنى الكلمة كما هي في السياق القرآني، مع ذكره المعنى العام الذي يشمل هذا المعنى الخاص ويشمل غيره. كما في تفسير قوله: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾[6] فرغم أن لكلمة (الفواحش) معنى عاماً إلا أنها في هذه الآية تعني فواحش محددة. وقد بين سيد المعنيين كما بين اشتقاق الكلمة بقوله: (والفواحشَ: كل ما أفحش - أي تجاوز الحد - وإن كانت أحياناً تخص بنوع منها هو فاحشة الزنا. ويغلب على الظن أن يكون هذا هو المعنى المراد في هذا الموضع. لأن المجال مجال تعديد محرمات بعينها، فتكون هذه واحدة منها

---

(١) الظلال ٣: ١٧٨.
(٢) النحل: ٤٣ - ٤٤.
(٣) الظلال ٤: ٢١٧٣.
(٤) النحل: ٤٨.
(٥) الظلال ٤: ٢١٧٣.
(٦) الأنعام: ١٥١.

بعينها. وإلا فقتل النفس فاحشة، وأكل مال اليتيم فاحشة، والشرك بالله فاحشة الفواحش. فتخصيص الفواحش هنا بفواحش الزنا أولى بطبيعة السياق. وصيغة الجمع لأن هذه الجريمة ذات مقدمات وملابسات كلها فاحشة مثلها. فالتبرج، والتهتك والاختلاط المثير، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة، والإغراء والتزيين والاستثارة.. كلها فواحش تحيط بالفاحشة الأخيرة..)[1].

يظهر في نهاية هذا المبحث أن سيد قطب لم يغفل (غريب القرآن) في الظلال، وإنما اهتم به وحرص على بيانه وتفسيره، ولكن ليس في الطريقة المعهودة التي سلكها السابقون. بل إنه لم يسلك في بيانه طريقة موحدة، بل سلك عدة طرق. بيّناها، وضربنا عليها الأمثلة من الظلال. وإن كان يؤخذ عليه تنوع هذه الطرق.

---

(١) الظلال ٣: ١٢٣١.

المبحث الثامن

إعجاز القرآن

حديث سيد قطب عن إعجاز القرآن مبثوث في مواطن عديدة من الظلال، وله حديث سابق عن الإعجاز في كتابه «التصوير الفني في القرآن» ويكاد يقصره هناك على وجه واحد هو الإعجاز البياني، وما يتفرع عنه من الإعجاز في التأثير والإعجاز في التصوير والإعجاز في العرض... ولكنه في الظلال تحدث عن وجوه أخرى للإعجاز، رغم تركيزه على الإعجاز البياني وما تنوع عنه، ونفهم من كلامه في الظلال على أن الإعجاز ـ في رأيه ـ مطلق وأنه «مفتوح» مستمر، يجد فيه اللاحقون ما يضيفونه على السابقين.. وهكذا إلى قيام الساعة!.

وقد وقفت وقفة طويلة في كتابي «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب» أمام حديث سيد عن الإعجاز. في كتاب (التصوير الفني في القرآن) وفي الظلال، وبينت رأي سيد في الإعجاز أثناء تفسيره للقرآن، والوجوه التي عرضها للإعجاز في الظلال. وخصصت لذلك الفصل الثالث من الباب الثاني من الكتاب (بين الإعجاز والتصوير) والوجوه التي تحدثت عنها هناك هي: الإعجاز في التأثير. والإعجاز في التصوير. والإعجاز في الأداء. والإعجاز الموضوعي. والإعجاز في النظم والمناهج. والإعجاز الحركي[1]..

وبما أن هذا المبحث مخصص لبيان طريقته في عرض بعض

---

(١) انظر «نظرية التصوير الفني عند سيد قطب»: ٢٨٣ ـ ٣١٧.

موضوعات علوم القرآن فلن أتمكن من بسط حديثه عن إعجاز القرآن بصورة مفصلة، ولذا أحيل على فصل (بين الإعجاز والتصوير) في الكتاب المذكور[1] وأكتفي هنا ببيان رأي سيد قطب في إعجاز القرآن وفهمه له، والوجوه التي أشار إليها والألوان التي عرضها في الظلال.

كان حديث سيد عن الإعجاز في تفسيره الحروف المقطعة في فواتح السور، وفي تفسيره لآيات التحدي في سور البقرة ويونس وهود والإسراء والطور.. وفي وقفته أمام الآيات التي تبين موضوع القرآن وسماته وخصائصه الدالة على مصدره..

وكانت أطول وقفاته في الظلال للحديث عن الإعجاز في تفسيره لآية التحدي في سورة يونس تحدث فيها عن الإعجاز البياني والموضوعي، والإعجاز في التأثير والأداء[1].

كان سيد يريد أن يستدل بإعجاز القرآن على مصدره الرباني، وأن يتوصل به إلى أن القرآن كلام الله، فلم يكن حديثه عن الإعجاز من أجل الإعجاز، أو من أجل عرض أساليب البيان في القرآن، وفنون البلاغة فيه ـ كما فعل بعض من كتب في الإعجاز ـ.

إن القرآن الكريم المعجز يحمل طابع الصنعة الربانية، وإنَّ عجز العرب عن المعارضة. واستمرار هذا العجز إلى قيام الساعة دليل على أن القرآن ليس كلام بشر، وإنما هو كلام الله...

يرى سيد أن أسلوب القرآن دليل على مصدره ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم.. ﴾[2] إن طابع الصنعة الربانية ظاهر فيه، يفرقه عن كلام البشر وعن صنع البشر.. في مبناه وفي فحواه سواء..)[3].

الإبداع الفني والإعجاز الجمالي والتصويري في القرآن ـ المتفرع عن

---

(1) انظر الظلال ٣: ١٧٨٥ ـ ١٧٩٤.

(2) النساء: ١٧٤.

(3) الظلال ٢: ٨٢١.

الإعجاز البياني - دليل على مصدر القرآن أيضاً: فالآية رقم (٥٩): من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. ويعلم ما في البر والبحر. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها. ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ نظر في الفن والتصوير والعرض البياني فيها فأدرك أن البشر عاجزون عن ذلك، : «كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته، فنرى آفاقاً من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر، على هذا المستوى السامق».

وبعد أن عرض بعض هذه الأفاق قال: «فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق؟ ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال؟ . . من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله، في مثل هذا النص القصير. . من؟ إلا الله . . . »[١].

كذلك موضوع القرآن دليل على أنه من عند الله. والإعجاز الموضوعي فيه شاهد على مصدره. فالآية السابقة من سورة الأنعام نظر سيد في موضوعها، فقرر هذه الحقيقة «وننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب، فنرى هذا الإعجاز الناطق. بمصدر هذا القرآن. ننظر إليها من ناحية موضوعها، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر، فليس عليه طابع البشر. . إن الفكر البشري - حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع: موضوع شمول العلم وإحاطته - لا يرتاد هذه الآفاق. . إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود. . »[٢] إلخ.

موضوع القرآن وفحواه، والتصور الذي يحمله، والمنهج الذي يقرره، والنظام الذي يرسمه، والتصميم الذي يضعه للحياة. . هذا كله فيه (البرهان كل البرهان على المصدر الذي جاء منه، وعلى أنه ليس من صنع الإنسان، لأنه يحمل طابع صنعة كاملة ليس هو طابع الإنسان)[٣].

---

(١) الظلال ٢ : ١١١٣.

(٢) الظلال ٢ : ١١١٢.

(٣) الظلال ٢ : ٨٢٢.

بلاغة القرآن وبيانه، وموضوع القرآن ومنهجه.. ومن ثم إعجاز القرآن دليل على مصدره الرباني.. ولكن من الذي يدرك هذا أكثر من غيره؟ وهل هناك وسائل لإدراك إعجاز القرآن؟..

يقرر سيد أن العلماء المفكرين والأدباء والناقدين هم أقدر الناس على إدراك الإعجاز وفهمه وتذوقه. فموضوع الآية السابقة (رقم ٥٩ من سورة الأنعام) معجز إعجازاً واضحاً للأدباء المفكرين. وفي هذا يقول سيد: (والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيداً حدود التصور البشري، وحدود التعبير البشري أيضاً. ويعلمون ـ من تجربتهم البشرية ـ أن مثل هذا المشهد لا يخطر على القلب البشري، كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضاً.. والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلاً..)[1].

القرآن الكريم المعجز لا تشبع منه العلماء، ولا يمله الباحثون والقراء، وكل عالم أو باحث سيجد في القرآن ما يريد، وسيدرك ـ من خلال الزاوية التي ينظر إلى القرآن منها ـ سمو القرآن وإعجازه: وقد بين سيد أن كل عالم أو باحث سيدرك إعجاز القرآن من خلال تخصصه وسيدرك وجه الإعجاز من الجانب الذي تناوله. وسنخرج من مجموع نظرات هؤلاء وأولئك بالإعجاز المطلق للقرآن الكريم: «.. والذين يدركون بلاغة هذه اللغة أو يتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان. وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية، والأصول التشريعية، ويدرسون النظام الذي جاء به القرآن، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها، والفرص المدخرة لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة.. كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في جميع الأجيال.. ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه..

---

(١) الظلال ٢: ١١١٣.

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا، وفي النظم والتشريعات والنفسيات، وما إليها. . .

والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب. والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي والإنساني بصفة عامة، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً. . .)[1].

بهذا يحدد سيد الوسائل لإدراك إعجاز القرآن، ويبين الأصناف القادرة على إدراك هذا الإعجاز أكثر من غيرها. والذين يمارون في هذا فليقوموا بالمقارنة بين أسلوب القرآن وأساليب البشر، ومناهجه ومناهجهم، وعلومه وعلومهم. . .

إن مزاولة فن الشعور وفن التفكير وفن القول وفن التعبير تقود إلى هذه الحقيقة، وتقرر هذه النتيجة، وتسلم بإعجاز القرآن، وتؤمن بالله وبرسوله، وتعمل على تطبيق أحكام القرآن، وتحقيق رسالته. . هذا عندما تستقيم النفوس وتصح الأفهام. .

وقف سيد أمام الحروف المقطعة في فواتح السور، واعتبرها دالة على إعجاز القرآن البياني، وهو في رأيه هذا متابع للكثيرين من علماء القرآن ومدركي إعجازه ومتذوقي أسلوبه. . يقول في وقفته أمام الآية الأولى من سورة البقرة «ألم. .» ومثل هذه الأحرف يجيء في مقدمة بعض السور القرآنية. وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة. نختار منها وجهاً: إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة

---

(١) الظلال ٣: ١٧٨٥ ـ ١٧٨٦.

ومرة ومرة أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، فلا يملكون لهذا التحدي جواباً[1]..

والذي جعله يختار هذا الرأي هو السياق القرآني ذاته، حيث إننا نجد السور المفتتحة بهذه الحروف المقطعة تتحدث بعدها مباشرة عن القرآن الكريم. مشيرة إلى مصدره أو سماته. وهذا الترتيب مقصود في السياق القرآني، وهذه الإشارة لها دلالتها.

وفي هذا يقرر سيد أن الرأي الذي اختاره في فواتح السور «يتمشى معنا بيسر في إدراك مناسبات هذه «الإشارة» في شتى السور». ففي سورة البقرة كانت الإشارة تتضمن التحدي الذي ورد في السورة بعد ذلك «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[2].

أما في سورة آل عمران «فتبدو مناسبة أخرى لهذه الإشارة». هي أن هذا الكتاب منزل من الله الذي لا إله إلا هو. وهو مؤلف من أحرف وكلمات شأنه في هذا شأن ما سبقه من الكتب السماوية التي يعترف بها أهل الكتاب ـ المخاطبون في السورة ـ فليس هناك غرابة في أن ينزل الله هذا الكتاب على رسوله بهذه الصورة..[3].

وهذا الرأي الذي اختاره سيد في هذه الأحرف كان على سبيل الترجيح لا الجزم»[3] على حسب قوله.

وإعجاز القرآن الذي تشير إليه الأحرف المقطعة وتدل عليه، مرتبط بالإعجاز في خلق الله جميعاً. إن كل ما خلقه يحمل الطابع الرباني المعجز، وأن كل ما صنعته يد البشر يحمل طابع الصنعة البشرية القاصر العاجز:.. وبما أن القرآن كلام الله تعالى فإنه يحمل ذلك الطابع وهو معجز للبشر وإن

---

(١) الظلال ١ : ٣٨.
(٢) البقرة: ٢٣.
(٣) الظلال ١ : ٣٦٤.

اتفق مع كلام البشر في الحروف والكلمات والعبارات: (والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خلق الله جميعاً. وهو مثل صنع الله في كل شيء وصنع الناس.. إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة، أو آنية أو أسطوانة، أو هيكل أو جهاز.. كائناً في دقته ما يكون.. لكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة، حياة نابضة خافقة تنطوي على ذلك السر الإلٓهي المعجز... سر الحياة.. ذلك السر الذي لا يستطيعه بشر، ولا يعرف سره بشر.. وهكذا القرآن.. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاماً وأوزاناً، ويجعل الله منها قرآناً وفرقاناً. والفرق بين صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض.. هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة..)[1].

وهذه اللفتة لسيد لفتة ذات قيمة واعتبار، وهذا الربط منه بين إعجاز القرآن وبين خلق الإنسان ربط حكيم. فالمادة الأولية للاثنين واحدة: تراب وماء في الإنسان. وحروف وكلمات في القرآن. يتناول الإنسان الأمرين فيكون عملاً يحمل صفات الإنسان من العجز. بينما في الأمر الإلٓهي يرتقيان إلى القمة في الإعجاز..

ولم أجد أحداً ممن كتب في الإعجاز قبل سيد قطب ـ حسب اطلاعي ـ التفت هذه اللفتة، وربط هذا الربط بين الأمرين، ولا أحب أن نفهم كلام سيد في هذا الربط أكثر من ذلك، ولا أن نحمله على أكثر من ذلك، فهو في ربطه بين إعجاز القرآن والإعجاز في خلق الإنسان، لم يكن يرى تساويهما ـ القرآن والإنسان ـ في كل السمات.. ولم يشر من قريب ولا من بعيد إلى أن القرآن مخلوق لأن الإنسان مخلوق.. إنهما يتفقان عنده في دلالتهما على الإعجاز، الإنسان خلقه معجز لأنه من خلق الله. والقرآن معجز فهو كلام الله.

إن سيد هنا لا يرى أن القرآن مخلوق لمجرد مقارنته بالإنسان

(١) الظلال ١ : ٣٨.

المخلوق، ومن ثم فهو ليس مع المعتزلة في رأيهم بخلق القرآن، وإنْ استخدم كلمة «صنع الله» التي استخدمها المعتزلة للتعبير عن خلق القرآن. والتي لم يستخدمها إلا من باب المقارنة فقط.

أقول هذا لأنني أعتقد أن البعض ـ ممن ينظر في الظلال بمنظار أسود وبعين السخط وبهدف إخراج الأخطاء وتصيدها ـ سيقف أمام هذا الكلام، وسيطعن فيه، ويلمز سيد وفكره، ويصنفه مع المعتزلة.. مع أنه لا دلالة في الكلام على ذلك.

من وجوه الإعجاز التي أشار لها سيد في الظلال «الإعجاز في التأثير» وقد عرض علينا صوراً من تأثير القرآن في الناس: منها تأثيره في النجاشي وقومه عندما سمعوا آيات منه[1]. وتأثيره في مجموعة من زعماء المشركين من قريش كانوا يستمعون له ـ سراً ـ لمدة ثلاث ليالٍ متتابعات، وأن عنادهم حال بينهم وبين الإيمان[2]. وتأثيره في سيد نفسه عندما سمع قارئاً يقرأ سورة النجم[3]. وتأثيره في غير العرب والمسلمين المتمثل في المرأة اليوغوسلافية التي تأثرت بآيات منه سمعتها من سيد نفسه عندما ألقى خطبة الجمعة على ظهر السفينة في طريقه إلى أمريكا[4]..

هذه النماذج تدل على «أن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن. وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام. وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل، ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن، كلما تفتح القلب، وصفا الحسّ، وارتفع الإدراك، وارتقت حساسية التلقي والاستجابة، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان..)[5].

---

(١) أنظر الظلال ٢: ٩٦٤ ـ ٩٦٥.
(٢) أنظر الظلال ٢: ١٠٧٤ ـ ١٠٧٥.
(٣) أنظر الظلال ٦: ٣٤٢٠ ـ ٣٤٢١.
(٤) أنظر الظلال ٣: ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧.
(٥) الظلال ٥: ٢٨٠٥.

ولكن ما هو سبب التأثير، وما هو سر هذا السلطان المعجز للقرآن على القلوب؟ وما هو مصدر هذا الوجه من الإعجاز؟ يورد سيد بعض العناصر المحتملة لذلك بقوله: (إن في هذا القرآن سراً خاصاً، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن. يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحسّ بمجرد الاستماع لهذا القرآن. يدركه بعض الناس واضحاً. ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود. هذا العنصر الذي ينسكب في الحسّ يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز عن إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود[1]؟..

وكما أن القرآن معجز بتأثيره فهو معجز بتعبيره، معجز بألفاظه وكلماته، وجمله وعباراته، وهو الوجه الأظهر لإعجازه الذي أدركه العرب المعاصرون لنزوله، والذين بلغوا القمة في فن القول وفن التعبير، ومع ذلك سلموا بالعجز عن معارضته: (فهذا جانبه التعبيري.. ولعله كان بالقياس إلى العرب في جاهليتهم أظهر جوانبه ـ بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني، يتفاخرون به في أسواقهم ـ ها هو ذا كان وما يزال إلى اليوم معجزاً لا يتطاول إليه أحد من البشر. تحداهم الله به. وما يزال هذا التحدي قائماً. والذين يزاولون فن التعبير من البشر، ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه، هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز معجز[2].

والقرآن كذلك معجز بأدائه، وأساليب العرض الفني فيه، ولسيد وقفة مطولة أمام أساليب بيانه، وتذوق خاص لهذا اللون من الإعجاز. وقد أعد بحثاً متكاملاً عن ذلك بعنوان «أساليب العرض الفني في القرآن»[3] تخلى عنه فلم ينشره.

---

(1) الظلال ٦: ٣٣٩٩.

(2) الظلال ٣: ١٤٢١.

(3) انظر «سيد قطب الشهيد الحي»: ٢٦٠.

والذين وقفوا أمام الأداء القرآني، وكتبوا في خصائص أسلوبه كثيرون في القديم والحديث، ويعتبر الدكتور محمد عبدالله دراز في طليعتهم. وإن كلامه في «النبأ العظيم» فيه الجدة والابتكار والإبداع[1].

أما نظرة سيد للأداء القرآني فهي نظرة فريدة، إذ عرض فيها مزايا للأداء القرآني لم يسبق إليها، صاغها بأسلوبه البياني المشرق.

وأسجل فيما يلي خلاصة لهذه المزايا، وأحيل على كلامه حولها وبيانه لها في وقفته المطولة حول الإعجاز في تفسيره آية التحدي في سورة يونس.

١ ـ الدقة المعجز في الأداء، والتناسق الفني في التعبير: حيث يقول (إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض. وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير، وأجمله وأحياه أيضاً، مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو. ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آنٍ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال..).

٢ ـ تنوع مدلولات النص القرآني، وفي ذلك يقول: (وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني.. هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدولات، وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها. بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضوع..).

٣ ـ استحياء المشاهد واستحضارها. سواء كان بحذف كلمة من السياق فيكون لهذا الحذف أثر مباشر في بث الحياة في الصورة، أو كان بالالتفاتات الكثيرة المتناسقة في السياق، وفيه يقول (وللأداء القرآني

---

(١) انظر النبأ العظيم: ٩٤ ـ ١٣٦.

طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد والتعبير المواجه، كما لو كان المشهد حاضراً بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر. ولا يملك الأداء البشري تقليدها. لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة[1]..

ولم يقف سيد عند الأداء القرآني، وبيان مزاياه، والحديث عن الإعجاز فيه، بل انتقل إلى الموضوع الذي عرضه السياق، ليتحدث عن الإعجاز فيه، وهذه النقلة من سيد ضرورية لكل باحث أو متحدث في الإعجاز، لأن الأداء قالب عرضت به موضوعات القرآن، ولا بدّ من الانتقال من الصورة إلى المضمون. فالقرآن معجز بأدائه وصورته، ومعجز بموضوعه، وهو المضمون الذي عرضته الصورة.

وحديث سيد عن الإعجاز الموضوعي في مواضع عديدة من الظلال، وكان أشملها وأوفاها حديثه عنه في وقفته المطولة في سورة يونس التي يقول عنه فيها: (إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها. فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة، وقلبها الشاعر مرة. وحسّها المتوفز مرة، ولكنه يخاطبها جملة، ويخاطبها من أقصر طريق. ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة، كلما خاطبها.. وينشيء فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها..)[2].

وقد عرض لنا سيد ـ وهو يتحدث عن الإعجاز الموضوعي ـ أربع مزايا لمنهج القرآن في عرض موضوعاته، أخذها من بحثه عن «مقومات التصور الإسلامي» الذي لم يطبع حتى الآن...

١ ـ إنه يعرض الحقيقة ـ كما هي في عالم الواقع ـ في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها، وكل جوانبها وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها.. وهو ـ مع هذا الشمول ـ لا يعقِّد هذه الحقيقة، ولا يلفها بالضباب، بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها..

---

(١) أنظر هذه المزايا في الظلال ٣: ١٧٨٧ ـ ١٧٨٨.
(٢) الظلال ٣: ١٧٨٨.

٢ ـ إنه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات «العلمية» والتأملات «الفلسفية» والومضات «الفنية» جميعاً. فهو لا يفرد كل جانب من جوانب «الكل» الجميل المتناسق بحديث مستقل. كما تصنع أساليب الأداء البشرية. وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول. . .

٣ ـ إنه ـ مع تماسك جوانب الحقيقة وتناسقها ـ يحافظ تماماً على أعطاء كل جانب من جوانبها ـ في الكل المتناسق ـ مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله ـ وهو الميزان ـ.

٤ ـ إنه يمتاز أيضاً بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية ـ مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم، وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعاً وروعة وجمالاً، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض، ولا الأسلوب البشري في التعبير. . ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة، وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة[1]. .

وحتى ندرك الإعجاز الموضوعي للقرآن، وحتى نقف على مزاياه في هذا، يحيلنا سيد على وسيلة مضمونة لذلك فيقول: (ولا يمكن أن نصف نحن في أسلوبنا البشري ملامح المنهج القرآني، فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج. .)[2].

ومما يتصل بالإعجاز الموضوعي للقرآن، وبمزاياه في عرض موضوعاته، ومنهجه في بيان حقائقه، ما يلي: ـ

١ ـ إن القرآن «يقدم حقائق العقيدة ـ أحياناً ـ في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلم بها. لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو. .»[3].

٢ ـ كذلك يبدو الطابع الإلٓهي في هذا القرآن في طريقة استدلاله بأشياء وأحداث مثيرة، صغيرة في ظاهرها، وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب

---

(١) انظر هذه المزايا في الظلال ٣: ١٧٨٨ ـ ١٧٩٠.

(٢) (٣) الظلال ٣: ١٧٩٠.

الموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه[1]..

وقد أدرك سيد هذه المزية من منهج القرآن في عرض موضوعاته. وبخاصة العقيدة ـ فقال: (إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة، قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلّهية في الوجود، وينشىء بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود، كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والقلوب..)[2].

إن هذه المزايا التي بينها سيد دليل على مصدر القرآن. وإن الإعجاز الموضوعي في القرآن طريق ووسيلة لإثبات أن القرآن من عند الله. وقد أعلن سيد هذه النتيجة بقوله: (إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره.. إنه المصدر الذي صدر منه الكون، فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون.. فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال، وأضخم الخلائق.. الذرة يُظن أنها مادة بناء الكون، والخلية يَظُن أنها مادة بناء الحياة.. والذرة على صغرها معجزة في ذاتها، والخلية على ضآلتها آية في ذاتها. وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني..)[2].

ونلاحظ من هذه الفقرة، كيف أن سيد عرض فيها دليلاً آخر على مصدر القرآن، وندرك منه «تفنن» سيد في عرض أدلته على مصدر القرآن، وتفرده في الكثير منها، وملاحظته لهذه الأدلة والتفاته لهذه الأمور دليل على «حضوره» المستمر الواعي وهو يناقش أية مسألة، وربطه بين هذا الكون وما فيه ومن فيه. ففي تفسير سورة البقرة ربط بين خلق الإنسان من الطين وصياغة القرآن من كلمات. وهنا في تفسير سورة يونس ربط بين طريقة القرآن في عرض موضوعاته وتقرير حقائقه وبين خلق الكون وطريقة بنائه.. فالله سبحانه هو خالق هذا الكون، وهو وحده خالق هذا الإنسان، وهو وحده منزل هذا الكتاب المعجز لبني الإنسان... ولا بدّ من ربط بين هذه الظواهر

---

(١) الظلال ٣: ١٧٩٢.

(٢) الظلال ٣: ١٧٩٣.

الثلاثة، والاستدلال منها على موضوع موحد، والخروج منها بحقيقة واحدة.. وهذا ما فعله سيد في حديثه عن الإعجاز، وهذا ما تفرد فيه في عرضه لأدلته على مصدر القرآن، وهذا من جملة ما أضافه عندما تناول هذا الموضوع «إعجاز القرآن» في الظلال..

ونتقل من الإعجاز الموضوعي إلى حديث سيد عن الإعجاز القرآني في النظم والمناهج والتشريعات، وهذا وجه من وجوه الإعجاز التفت إليه سيد وتحدث عنه، عند عرضه لمناهج القرآن وأحكامه وتشريعاته.

فقد أشار إشارات إلى منهج القرآن العجيب المعجز في مخاطبة الكينونة الإنسانية بحقائق الوجود. ومنهجه في تربية النفس الإنسانية. ومنهجه وهو يلمس الفطرة الإنسانية. كما أشار إلى المادة التي يعرضها القرآن في هذا المنهج.. سواء كانت تتعلق بنظرته إلى الكون. أو إلى الإنسان. أو إلى الحياة. وقرر بعد إشاراته هذه الحقيقة: (وفي كل حقل من هذه الحقول يجد الدارس الواعي لهذا القرآن وفرة من النصوص والتوجيهات يحار في وفرتها وكثرتها، فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة..)[1].

كما أشار سيد إلى الإعجاز التشريعي في تفسيره لآية الدَّيْن في سورة البقرة ـ أطول آيات القرآن الكريم ـ فقال: (إن الإعجاز في آيات التشريع هنا، لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه، بل هو أقوى، لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد، ولا ينوب عنه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة، والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد... ذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادىء للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون، كما يعترف الفقهاء المحدثون..)[2].

أما الإعجاز في مهمة القرآن الدعوية وطبيعته الحركية ـ والذي يمكن

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٤٢١ ـ ١٤٢٣.

(٢) الظلال ١: ٣٣٤.

أن يطلق عليه اسم (الإعجاز الحركي) فلسيد وقفات في الظلال يشير فيها إليه ويتحدث عنه.

من ذلك حديثه عن بيان القرآن طبيعة المعركة المستمرة بين المسلمين وأعدائهم، على اختلاف الزمان والمكان، حيث بيَّن القرآن هذا بياناً شاملاً شافياً وافياً معجزاً. سواء طبيعة هذه المعركة أو أهدافهم منها، أو اتفاق جميع فئاتهم على تحقيقها، أو أسلحتهم المختلفة فيها:

«ومن علامات الإعجاز في القرآن، أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة لا تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائرة المتجددة، بين الجماعة المسلمة في كل مكان، وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليدين، الذين ما يزالون هم هم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها..»[1].

ومن مظاهر الإعجاز الحركي أيضاً: تنشئة الأمة المسلمة على نصوص القرآن، وإخراج القرآن لها من العدم حيث تسلمت به قيادة البشرية واستعداد القرآن للعمل والتربية والإعداد والتنشئة، وإخراج أجيال جديدة من هذه الأمة: (أما الإعجاز القرآني فيتجلى في أن هذه التوجيهات وهذه الأسس التي جاء بها القرآن لكي ينشيء الجماعة المسلمة الأولى، هي هي ما تزال التوجيهات والأسس لقيام الجماعة في كل زمان ومكان، وأن المعركة التي خاضها القرآن ضد أعدائها، هي ذاتها المعركة التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان.... وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقيها إلى توجيهات هذا القرآن، حاجة الجماعة المسلمة الأولى، كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح، وإدراك موقفها من الكون والناس إلى ذات النصوص وذات التوجيهات، وتجد فيها معالم طريقها واضحة، كما لا تجدها في أي مصدر آخر من مصادر المعرفة والتوجيه.... ويظل القرآن كتاب هذه الأمة العامل في حياتها، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي، ودستورها الشامل

---

(١) الظلال ١: ٥٦٦.

الكامل، الذي تستمد منه منهج الحياة ونظام المجتمع وقواعد التعامل الدولي والسلوك الأخلاقي والعلمي.. وهذا هو الإعجاز..)[1].

يظهر لنا من الأمثلة السابقة التي أوردناها إدراك سيد لإعجاز القرآن وتذوقه لأسلوبه الكريم المعجز، وجعله دليلاً على مصدر القرآن، ودليلاً للنبي ﷺ على نبوته ورسالته، وتصريحه بأن هذا القرآن يحمل في موضوعه وتعبيره الطابع الرباني المعجز، وأن الأدباء والمفكرين هم أقدر الناس على تذوقه وإدراك إعجازه.. وأنه عرض في الظلال بعض وجوه إعجاز القرآن، ومن أهمها: الإعجاز في التأثير. والإعجاز في التعبير. والإعجاز في الأداء. وهي مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالإعجاز البياني، أظهر وجوه الإعجاز في القرآن، بل هو الوجه الوحيد للإعجاز الذي كان به التحدي للعرب المعاصرين لنزول القرآن. كما تحدث عن وجوه أخرى للإعجاز مثل: الإعجاز الموضوعي. والإعجاز في النظم والمناهج. والإعجاز الحركي...

إنه يرى أن إعجاز القرآن مطلق.. (فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا، وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما اليها..)[2] وليس هذا خاصاً بجيل من الأجيال أو زمن من الأزمان ولكنه الإعجاز المطلق في كل العصور: (فهذه الظواهر المدركة.. وأمثالها.. مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى إنكاره.. مما يسبغه على هذا الكتاب سمة «الإعجاز المطلق» في جميع العصور)[3].

وهذا الإعجاز القرآني المطلق يقرر سيد أنه يبقى جديداً على اختلاف الزمان والمكان، ويستطيع اللاحقون دائماً إضافة الكثير على ما ذكره السابقون.. «ثم يبقى النص القرآني بعد ذلك مفتوحاً للأجيال، وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئاً من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال. وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول على توالي الأزمان»[4].

---

(١) الظلال ١ : ١٢٤.
(٢) الظلال ٣ : ١٧٨٥.
(٣) الظلال ٦ : ٣٣٩٩.
(٤) الظلال ٥ : ٢٦٥٧

الفصل الخامس

موقفه من بعض موضوعات التفسير

المبحث الأول

السيرة النبوية

لسيد قطب وقفات خاصة في الظلال تناول فيها أحداثاً من سيرة الرسول - ﷺ - وله في السيرة نظرات فريدة، وتحليلات صائبة، وآراء وجيهة. وكلامه حول السيرة كثير أصيل، ويصلح أن يُستل من الظلال، وأن ينسَق بينه ليصدر في كتاب مستقل. وغالب وقفاته عند تعريفه بالسور في الطبعة المنقحة أو في تفسير الآيات التي تعرض بعض الغزوات أو الأحداث الهامة في حياة الرسول - ﷺ - وأصحابه..

وكان في نيّة سيد أن يتفرغ للسيرة تفرغاً كاملاً، ويكتب فيها بحثاً جديداً فريداً، هو «في ظلال السيرة». ويبدو أنه كان يؤجل هذا المشروع إلى أن ينتهي من الطبعة المنقحة للظلال. ولكن الطغاة - الذين عجلوا بإعدامه - أتلفوا أبحاثه العديدة التي كتبها، أو التي بدأ بكتابتها ومنها «في ظلال السيرة»[1].

وأعتقد أن سيد قطب هو أقدر الناس على الكتابة الحركية في السيرة النبوية، وعلى الوقوف على المعاني التربوية والدعوية فيها، وعلى أن يعيش

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٧٣٢ حاشية وانظر مبحث (بحوث له لم تنشر) في كتاب «سيد قطب الشهيد الحي».

في ظلالها وأن يسجل لنا ما عاشه، وما خرج به من المعاني والحقائق والدلالات. . وبما أن هذا البحث «وُئِد» بإعدامه فإنه سيبقى بدون كتابة ـ على منهج وطريقة سيد ـ لأنه لو كتب فيه الكاتبون ـ ولو كانوا من الدعاة العاملين ـ فسيبقى لسيد منهجه وطريقته ونظراته واستدلالاته وأسلوبه وأدبه وبلاغته[1]. .

وإنني أبني حكمي هذا على إضافات سيد الفريدة في الظلال، ومنهجه وطريقته وأهدافه من الظلال. الذي جاء تفسيراً فريداً للقرآن الكريم. . كما أبني هذا على تحليلات سيد وآرائه الفريدة للسيرة وأحداثها ودلالاتها في المواطن التي تناولها في الظلال. .

وقد كان سيد منهجياً وعلمياً في تناوله لموضوعات السيرة في الظلال، حيث كان يأخذ هذه المادة من مصادرها الأساسية الموثوقة، ولا يكتفي بواحد منها في غالب الأحيان وإنما ينظر فيها كلها، ويستخلص منها الصورة الإجمالية للواقعة، وينص على هذه المصادر، ويقف ليقارن بينها في الظلال. وقد تحدثنا بالتفصيل عن ذلك عند بيان موارد مادة (السيرة النبوية) في فصل (موارد الظلال) وكانت كتب السيرة التي رجع إليها وأخذ منها، خمسة من أمهات كتب السيرة هي: السيرة النبوية لابن هشام. وإمتاع الأسماع للمقريزي. وجوامع السيرة لابن حزم. وزاد المعاد لابن قيم الجوزية. وسيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم لمحمد عزة دروزة. بالإضافة إلى كتب التفسير مثل: تفسير ابن كثير والطبري: وكتب الحديث مثل: مسند أحمد وصحيح البخاري، وكتب التاريخ مثل البداية والنهاية لابن كثير.

ونظراً لرجوع سيد إلى هذه الكتب ينقل منها أو يورد خلاصتها، فقد اتهمه بعضهم بأنه لم يأتِ بجديد في حديثه عن السيرة، وأنه كان يجمع

---

(١) كتب معاصرون في السيرة ـ وبعضهم من الدعاة العاملين ـ ورغم أنهم أتوا بتحليلات جيدة ودلالات وتوجيهات جديدة. ورغم أن أحدهم ـ الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس ـ أخذ نفس عنوان بحث سيد إذ نشر عدة حلقات في سلسلة «في ظلال السيرة النبوية»!!! إلا أن بعض الموضوعات الحركية والتربوية والدعوية لم تعالج كما يجب. بالإضافة إلى خلو معظم هذه الكتابات من الصور البليغة والقالب الساحر!!

ويلخص من هذه الكتب، وراح يلمزه من أجل ذلك. ويمكن أن يعذر قائل ذلك إذا لم يقرأ كلام سيد حول السيرة في الظلال، ولكنه لا يمكن أن يعذر إذا كان قد وقف على كلامه في الظلال وعلى تحليلاته واستنتاجاته الفريدة، ويكون الباعث له على كلامه حاجات أخرى في نفسه:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة   أو كنت تدري فالمصيبة أعظم.

لم يكن سيد يهدف من تلخيصه لأحداث من السيرة ووقوفه أمامها، إلى مجرد السرد التاريخي، أو مجرد الاستشهاد بأحداثها أو تفسير القرآن بها.. ولكنه كان يهدف إلى أهداف أخرى، أشار إليها وهو يلخص أحداث غزوة بدر الكبرى بقوله:

(أما أحداث هذه الغزوة الكبرى فنجملها هنا قبل استعراض سورة الأنفال التي نزلت فيها، وذلك لنَنسم الجو الذي نزلت فيه السورة، وندرك مرامي النصوص فيها، وواقعيتها في مواجهة الأحداث من ناحية، وتوجيهها للأحداث من الناحية الأخرى.. ذلك أن النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البيانية واللغوية فحسب!! إنما تدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في جوها التاريخي الحركي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملها مع الواقع الحي.. وهي ـ وإن كانت أبعد مدى وأبقى أثراً من الواقع التاريخي الذي جاءت تواجهه ـ لا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلا في ضوء ذلك الواقع التاريخي.. ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم، وفاعليتها المستمرة..)[1].

إن أهدافه من ذلك هي: أن يتنسم الجو الذي نزلت فيه الآيات، وأن يستحضر ذلك الجو ويعيش فيه، وينظر في الآيات من خلاله، وإنما فعل ذلك كي يدرك مرامي الآيات، ويقف على أبعادها، ويدرك «الواقعية الجدية» لهذه النصوص، ومهمتها الحركية العملية من خلال مواجهتها للأحداث الواقعية زمن الرسول ـ ﷺ ـ وتوجيهها لها، للاستدلال بها على الواقعية

---

(١) الظلال ٣: ١٤٥٣.

الجدية الدائمة للآيات، وصلاحيتها للقيام بها، واستعدادها لذلك في أي زمان أو مكان.

والسبب في جعله هذا هدفاً له من عرض أحداث السيرة والوقوف أمامها، رغبته في الفهم الصحيح لآيات القرآن والسلوك في الطريق الواضح في ذلك، والاتباع لأحسن طرق التفسير. وهذا كله إنما يكون بالحياة في الجو التاريخي للآيات، وفي واقعيتها الجدية، وتعاملها مع الواقع الحي.. والرجوع إلى أحداث السيرة، والوقوف أمامها، واستخلاص حقائقها، وتسجيل الدروس والعبر منها..

كانت له وقفات في تفسير القرآن المكي أمام الفترة المكية من السيرة. وفي تفسير القرآن المدني وقفات أمام الفترة المدنية منها وبخاصة الغزوات والجهاد..

استوقفه - في تفسير سورة الشورى المكية- اختيار بلاد العرب لتكون مهد الرسالة الخاتمة، دون غيرها من البقاع. وصار «ينظر من وراء الأحداث واستقرائها، ومن وراء الظروف ومقتضياتها، وبعد ما سارت هذه الدعوة في الخط الذي سارت فيه، وانتجت فيه نتاجها..» بهدف إدراك طرف من حكمة الله في هذا الاختيار، وكانت وقفة له بديعة أتى فيها بحِكَم فريدة، ونظرات صائبة، ونظر فيها من الزاوية السياسية والاجتماعية والأخلاقية والحضارية..

ومن أروع جوانب نظرته هذه الجانبُ السياسي: إذ أن العالم كله كانت تحكمه أربع أمبراطوريات: الرومانية والفارسية والهندية والصينية.. وكان للرومانية والفارسية السيطرة المباشرة على المنطقة، والأثر والتأثير عليها. وكان لهاتين الأمبراطوريتين سيطرة تامة وتحكم مباشر وسلطان نافذ على الديانتين: اليهودية والمسيحية. وكان هذا - بالإضافة إلى الانحراف التصوري والفساد الداخلي فيهما - أفقدهما القدرة على الإصلاح أو الحرية في الحركة والعمل.. وبما أن الإسلام جاء لينقذ البشرية كلها مما هي فيه فلم يكن «هنالك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة الضخمة في حياة البشر. فلم يكن هناك بدّ من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية

من تلك الأمبراطوريات، وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجية على طبيعته، بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله. . وأنسب بقعة لذلك هي جزيرة العرب. وأم القرى وما حولها بالذات[1].

ولم يطل وقفته تلك، ولم يفصل القول في استعداد الجزيرة وأهلها لحمل الرسالة الجديدة ونشرها. . «فذلك أمر يطول. ومكانه رسالة خاصة مستقلة وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة، التي يُظهر التدبرُ والتفكر بعضَ أطرافها، كلما اتسعت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة. .»[2].

وفي تفسيره لسورة العلق وقف أمام الحادث الكبير «نزول الوحي» على رسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن أورد خلاصته من كتب السيرة والتفسير، إذ أورد رواية في نزوله عن مسند الإمام أحمد. ورواية أخرى عن الطبري، وأشار إلى أن ابن إسحاق أورده مطولاً مما يوحي بأنه اطلع على سيرة ابن هشام ـ تلميذ ابن إسحاق ـ أيضاً[3].

وفي وقفته أعلن أن هذا الحادث «ضخم. ضخم جداً. ضخم إلى غير حد. ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا. .

«إنه حادث ضخم بحقيقته. وضخم بدلالته. وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعاً. . وهذه اللحظة التي تم فيها الحادث تعد ـ بغير مبالغة ـ هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل»[4].

وبعد ذلك انتقل ليفصل في هذه الجوانب، إذ بين كيف أنه ضخم في حقيقته. وبين دلالته، وأشار إلى أهم آثاره في حياة البشرية[5].

---

(١) الظلال ٥ : ٣١٤٣.

(٢) الظلال ٥ : ٣١٤٤. وانظر الوقفة كاملة في الظلال: ٣١٤٢ ـ ٣١٤٤.

(٣) الظلال ٦ : ٣٩٣٦.

(٤) انظر الظلال ٦ : ٣٩٣٦ ـ ٣٩٣٨.

وبهذا نقف على طريقة سيد في تناول أحداث السيرة. إذ أنه يطلع أولاً على الكتب الأساسية في هذا. ثم يورد خلاصتها ـ وقد يورد أكثر من رواية كما فعل هنا ـ ثم يقف أمام الحادث، ويمعن النظر فيه، ويسجل لنا أهم حقائقه ودروسه وعظاته.. ولئن كان يعتمد على الجمع والتلخيص في المرحلة الأولى. فإنه ذاتي متفرد في تحليلاته، واستنتاجاته وآرائه..

وفي تفسيره لسورة القلم وقف يستخلص من سياقها وجوِّها وإيحاءاتها ملامح المجتمع المكي المشرك، وسر حرب قريش الشرسة ـ للدعوة الإسلامية وأسباب ذلك كما استخرج من السورة مظاهر للسذاجة والبدائية في تصور قريش وتفكيرها ومشاعرها واهتماماتها ومشكلاتها.. وكان يهدف من هذا إلى بيان المعجزة في نقلهم ـ بعدما أسلموا ـ من السذاجة والبدائية إلى صورة فريدة سامقة لم تصلها أمة من الأمم[1].

ولما فسر قوله تعالى ـ من سورة القلم ـ: ﴿ فلا تطع المكذبين. ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾[2] بيَّن هدف المشركين من المساومات، ورغبتهم في المداهنات. وكيف أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يجارهم في مداهناتهم، ودلالة هذا على المنهج الحركي الإسلامي، والمفاصلة التامة مع الجاهلية في ذلك.

واستشهد لما قال بالسيرة النبوية، حيث اطلع على عدة روايات في استعمال قريش لسلاح المداهنة ضد الرسول ـ ﷺ ـ وكيف رد عليهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أورد خلاصته لتلك الروايات. ممثلة في ثلاث صور:

الصورة الأولى: مجيء قريش إلى أبي طالب يساومونه ويساومون أمامه الرسول عليه الصلاة والسلام، والرد الواثق الثابت الذي رد به عليهم وقطع مداهنتهم.

والصورة الثانية: إيفادهم أحد زعمائهم ـ وهو عتبة بن ربيعة ـ ليفاوض الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويداهنه ويساومه ويقدم له شتى الإغراءات.

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٦٥١ ـ ٣٦٥٤.

(٢) القلم: ٨ ـ ٩.

والصورة الثالثة: مساومة مجموعة من زعماء قريش المتمثلة في أنصاف الحلول، إذ عرضوا على الرسول ـ عليه السلام ـ أن يعبدوا ربه يوماً ويعبد هو أصنامهم يوماً. ونزول القرآن بحسم هذه المساومة.

والصور الثلاثة أخذها من سيرة ابن هشام(١).

كذلك وقف أمام حادثة الرسول ـ ﷺ ـ مع عبد الله ابن أم مكتوم ـ رضي الله عنه ـ الذي تشير إليه سورة عبس وتعالجه. وقف أمامه يستخلص دروسه ويسجل دلالاته ويلتفت إلى آثاره. لأن الحادث وعلاج القرآن له والتزام الرسول ـ ﷺ ـ بالتوجيهات الربانية في شأنه يعتبر ميلاداً جديداً للبشرية، وتصحيحاً للقيم والاعتبارات، وتوحيداً لمصدر التلقي فيها كلها، وبياناً للميزان الفريد الوحيد فيها. وكان حريصاً في وقفته على أن يختار لقطات من السيرة النبوية تبين تصرفات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتطبيقه لهذا الميزان. وكانت أكثر من عشر لقطات. انتقل بعدها إلى حياة الصحابة وتطبيقهم لهذا الميزان ليورد لقطات مماثلة(٢).

لقد كان يفسر القرآن بالسيرة النبوية، ويورد أحداثاً من هذه السيرة استشهاداً لحقائق ثابتة تقررها الآية، ليبين «صدقها الواقعي» وأبعادها الواقعية الحركية ولكي «يوسع» مدلول الآية بمعالجتها لأحداث واقعية أو تفسيرها بأحداث واقعية..

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾(٣).

بيّن أن المشركين لا يكذبون الرسول ـ ﷺ ـ في الحقيقة رغم حربهم الشرسة له. ورغم تكذيبهم الظاهري له. وأنهم يشعرون بقرارة نفوسهم أنه صادق أمين، كما كانوا يقرون أن القرآن ليس من كلام بشر، وأن كفرهم ليس

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٦٥٨ ـ ٣٦٦١.
(٢) انظر الظلال ٦: ٣٨٢٦ ـ ٣٨٣٠.
(٣) الأنعام: ٣٣.

عن نقص في الأدلة، ولكنه ناتج عن العناد والجحود والخوف على النفوذ والمصالح، والمكاسب والمكانة... ولذلك كانوا يكفرون به ويحاربونه...

وللاستشهاد بهذه الحقائق - التي استخرجها من الآية أورد عدة روايات من السيرة تقرر ذلك.

الرواية الأولى: عن ابن إسحاق تسجل سماع مجموعة من زعماء قريش سراً - ولمدة ثلاث ليالٍ متتابعات - قراءة الرسول ﷺ - القرآن الكريم.

والرواية الثانية: عن ابن جرير وفيها اعتراف أبي جهل صراحة للأخنس بن شريق يوم بدر بصدق الرسول - عليه الصلاة والسلام -

والرواية الثالثة: عن ابن إسحاق حول موقف عتبة بن ربيعة بعدما سمع القرآن من رسول الله ﷺ.

والرواية الرابعة: عن ابن إسحاق حول قول الوليد بن المغيرة يعلم قريشاً شبهة يثيرونها بين الناس عن الرسول والقرآن، وهو يعلم أنها داحضة..

والرواية الخامسة: عن ابن جرير حول مساومة الوليد بن المغيرة للرسول - عليه السلام - ثم تركه متأثراً به، ولكن انتصر كفره عليه بتأثير أبي جهل، وقوله عن القرآن إنه سحر. وهو يعلم أنه ليس بسحر..

وعاد بعد هذه الروايات الخمسة إلى تلخيص دلالاتها في أسطر قليلة[1]..

ومن نظراته البديعة في الفترة المكية من السيرة، إطلاقه اسم (الفترة الحرجة) على مرحلة شاقة من مراحل السيرة في مكة، وهي أقسى فترة مرت على المسلمين في مكة، وكانت هذه الفترة ما بين (عام الحزن) والهجرة إلى المدينة.. وفيها شنت قريش أقسى وأعنف أسلحتها في حرب المسلمين في مكة. إذ حوصروا من جميع الجوانب، وتجمدت حركة الدعوة في مكة،

---

(١) انظر الظلال ٢: ١٠٧٤ - ١٠٧٧.

وزاد الاضطهاد والتعذيب على المسلمين وعاشوا حالة لا تكاد توصف من الضيق والمكابدة والمعاناة. . وفي هذه الفترة نزلت سورة من القرآن تعالج ما عاشه المسلمون معالجة شافية، وهي سور يونس وهود والإسراء والفرقان. . وقد بين لنا سيد ملامح هذه الفترة في تعريفه بسورتي يونس وهود[1] وخرج من ذلك بنتيجة قاطعة يقول فيها (وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركي في التوجيه القرآني؟ وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة في كل مرحلة بالتوجيه المكافىء للموقف)[2].

كذلك وقف أمام كف المسلمين عن القتال مكة، ونظر فيه بهدف استخراج حِكَمه وإيحاءاته وتسجيل أسباب ذلك. وقدم لها بوضع الضوابط المنهجية في تعليل الأحكام والتشريعات ـ والتي بيناها في مبحث «بيان حكمة التشريعات وتعليل الأحكام». والأسباب التي بينها أسباب اجتهادية. . «تخطىء وتصيب، وتنقص وتزيد، ولا نبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله. وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان. .».

والأسباب التي أوردها سبعة. قدم لكل واحد بكلمة (ربما) التي تفيد الاحتمال وهي:

١ ـ إن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد وضبط للصحابة وهذا يتحقق بالكف عن القتال.
٢ ـ إن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ.
٣ ـ تجنب إنشاء معركة ومقتلة في كل بيت.
٤ ـ إن كثيرين من المعاندين المشركين سيسلمون فيما بعد، وهذا لن يتحقق لو شرع القتال! . .
٥ ـ إن كون المسلمين في مكة مظلومين أصحاب قضية واجهوها بالصبر والاحتمال. أدعى لتعاطف القبائل معهم.

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٧٥١ ـ ١٧٥٢ و ٤: ١٨٤٠ ـ ١٨٤٣.
(٢) الظلال ٤: ١٨٤٣.

٦ ـ لقلة عدد المسلمين في مكة، ولو شرع القتال لتمت إبادتهم في الأيام الأولى.
٧ ـ لعدم قيام الحاجة الماسة إلى القتال لأن الدعوة تبلغ وسط المحنة وهذا هو المطلوب في هذه المرحلة.

وهذه الأسباب كما نرى وجيهة مقبولة، وتعليلاته فيها سليمة. وبعضها متفـرد فيه لم يسبق إليه[١].

والذي جعله يقف على هذه الأسباب ويبينها هو أنه لم يدرس السيرة النبوية دراسة نظرية أكاديمية. أو لمجرد الثقافة أو المتاع القصصي والسرد التاريخي، وإنما درسها كحركة واقعية عملية ـ كما ذكر ذلك بالحرف[٢].

من هذا المنطلق ـ دراسة السيرة كحركة ـ نظر في أحداث السيرة الأخرى ومن ذلك الهجرة إلى الحبشة فخرج من ذلك برأي فريد لم يسبق إليه.. إن الهجرة إلى الحبشة لم تكن للنجاة أو الفرار أو مجرد اللجوء للنجاشي، إنما كانت تكليفاً من الرسول ـ ﷺ ـ للمهاجرين إلى الحبشة لدراسة الحبشة دراسة ميدانية متكاملة، لمعرفة مدى صلاحيتها لتكون القاعدة الأولى للدعوة الإسلامية، والإقليم الأول الذي ينطلق منه المجتمع الإسلامي إلى البقاع الأخرى. وقد خرجوا بنتيجة أنها لا تصلح لذلك ومن ثم توجه الرسول ـ عليه السلام ـ إلى الطائف لنفس الغرض، وبعد ذلك توجه إلى المدينة التي وجد فيها ضالته، وحقق فيها أهدافه العملية. وقد سرد سيد أدلته على هذا القول من خلال أحداث الهجرتين[٣].

ومن إضافاته الفريدة في تحليلات أحداث السيرة وقفته المطولة أمام الواقع التاريخي الحركي للجماعة المسلمة قبل الفتح وبعده. ووقوفه على أسباب النقاء وأسباب الخلخة في الجماعة المسلمة، ومظاهر هذا النقاء وهذه

---

(١) انظر الظلال ٢ : ٧١٣ ـ ٧١٥ وانظر صياغة أخرى لهذه الأسباب في الظلال ١ : ١٨٥ ـ ١٨٦.
(٢) انظر الظلال ١ : ١٨٥.
(٣) انظر كلامه البديع حول هذا في الظلال ١ : ٢٨ ـ ٣٠.

الخلخلة من خلال أحداث السيرة ونصوص القرآن الكريم، والجهود الشاقة التي بذلها الرسول ـ ﷺ ـ والصفوة من أصحابه لمعالجة أعراض الخلخلة وإزالة أسبابها والسير بالجماعة نحو النقاء والصفاء ونجاحهم في هذا. وإدراك النواة العاملة الثابتة في الجماعة، وهي التي أسماها (القاعدة الصلبة) وعناصرها قبل الهجرة في مكة، وفي أول الهجرة، وقبيل فتح مكة، وبعد الفتح. وقد ألمَّ بهذا بأشد اختصار ممكن. ووقف بعد ذلك ليسجل دلالات هذا لكل حركة إسلامية، ويسجل كذلك توصياته لها، لملاحظة هذا واستفادتها منه وتركيزها عليه لتحقيق ما حققته الجماعة المسلمة الأولى من نجاح . . .

ووقفته هذه من أروع وأجود وقفاته الحركية وتحليله الحركي للسيرة النبوية[1].

أما وقفاته أمام الغزوات الحاسمة في حياة الرسول ـ ﷺ ـ فإنها موجودة في تفسيره للنصوص التي تعرض هذه الغزوات وأحداثها. إذ كان في هذه المواطن حريصاً على الاطلاع على مصادر السيرة في سياق هذه الغزوات وعلى تلخيص أحداثها وتسجيلها في الظلال، ثم الوقوف على دلالات وعبر ودروس تلك الأحداث. فعل هذا في نظرته إلى غزوة بدر في تفسيره لسورة الأنفال[2]. وغزوة أحد في تفسير آل عمران[3] وغزوة تبوك في سورة التوبة[4] وغزوة حنين في التوبة أيضاً[5] وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب[6] وصلح الحديبية وفتح مكة في سورة الفتح[7] وسرية عبد الله بن جحش في سورة البقرة[8] وحديث الأفك في سورة النور[9] وغير ذلك.

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٥٧٠ ـ ١٥٧٨.
(٢) الظلال ٣ : ١٤٥٣ ـ ١٤٦٣.
(٣) الظلال ١ : ٤٦٠، ٤٦٧ و ٥٢٦ ـ ٥٣٣.
(٤) الظلال ٣ : ١٧٢٣ ـ ١٧٣٢.
(٥) الظلال ٣ : ١٦١٦ ـ ١٦١٨.
(٦) الظلال ٥ : ٢٨٣٢ ـ ٢٨٣٦.
(٧) الظلال ٦ : ٣٣٠٦ ـ ٣٣١٢.
(٨) الظلال ١ : ٢٢٥ ـ ٢٢٨.
(٩) الظلال ٤ : ٢٤٩٥ ـ ٢٥٠٠.

هذا بالإضافة إلى نظراته وتحليلاته لبعض الأحداث الخاصة زمن رسول الله ـ ﷺ ـ من خلال وقوفه على أسباب النزول كما في تفسيره لسور الحجرات [١] والمجادلة [٢] والممتحنة [٣] والمنافقون [٤] والتحريم [٥] والبقرة [٦] والنساء [٧] وغير ذلك..

يظهر لنا في نهاية هذا المبحث موقف سيد قطب من السيرة النبوية، وطريقته في النظر إليها والتعامل معها وإطلاعه عليها، وتركيزه عليها، وحرصه على بيانها حتى يدرك الأبعاد الواقعية للآيات والقيام بالتفسير الدقيق لها، واستخلاصه أحداثها من عدة مصادر أساسية في السيرة وتلخيص ذلك في الظلال، وبيان الدروس والعبر منها، وإضافاته في الكثير من مباحثها وتفرده في الكثير من آرائه ونظراته وتحليلاته لها..

(١) الظلال ٦: ٣٣٣٨ ـ ٣٣٤١.
(٢) الظلال ٦: ٣٥٠٥ ـ ٣٥٠٦.
(٣) الظلال ٦: ٣٥٣٨ ـ ٣٥٤٠.
(٤) الظلال ٦: ٣٥٧٢ ـ ٣٥٧٨.
(٥) الظلال ٦: ٣٦١٢ ـ ٣٦١٥.
(٦) الظلال ١: ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٧) الظلال ٢: ٧٥١ ـ ٧٥٣.

المبحث الثاني

«الأقوال المأثورة»

بعض المسلمين المعاصرين كانت نظرتهم إلى الظلال نظرة ظالمة قاصرة، حيث اعتبروه مجرد خواطر ومشاعر وانفعالات، ولذلك جاء الكلام فيه كلاماً أدبياً ليس إلا. وعللوا لرأيهم القاصر هذا بأن الظلال ليس فيه من المأثور شيء.

وهم في هذا يقارنون بينه وبين التفاسير التي تخصصت بـالأقوال المأثورة، أو سارت على المنهج الأثري في التفسير، ومن ثم صنفت ضمن مدرسة التفسير بالمأثور، مثل تفسير القرآن العظيم لابن كثير، أو جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري. وهي مقارنة ظالمة إذ أن لكل مفسر منهجاً في التفسير وطريقة يطبق فيها المنهج.. ومن الخطأ أن يقارَن بمفسٍّر آخر سار على منهج آخر.. ولا أدري لماذا قارنوا بين الظلال وبين تفسير الطبري مثلاً ليقولوا إنه ليس مثل الطبري في التفسير بالمأثور ـ ونحن نقول نعم إنه ليس مثله في هذا ـ ولِمَ لَمْ يقارنوا بين التفاسير الأخرى غير المأثورة؟ لماذا لم يقارنوا بين كشاف الزمخشري وتفسير الطبري مثلاً، ليتهموا الزمخشري بأن تفسيره ليس تفسيراً لأنه لم يتخصص في التفسير بالمأثور؟ أم أن سيد قطب وظلاله يختصان بالنظرات القاصرة والأحكام الظالمة.

إن سيد قطب لم يكن في منهجه ولا في طريقته في التفسير استيعاب الأقوال المأثورة وحشدها كلها في ظلاله، ولم يصنِّف تفسيره ضمن مدرسة التفسير بالمأثور مثل الطبري أو ابن كثير.. ولذلك لا يعيب سيد عدم حشده

الأقوال المأثورة في تفسيره، ولا ينقص ظلاله أن لم نجد فيه هذه الأقوال كلها. . . لقد اعتبرنا الظلال أساساً لمدرسة جديدة في التفسير هي مدرسة «التفسير الحركي الدعوي التربوي» واعتبرنا سيد رائداً لهذه المدرسة في التفسير[1]. .

ولكن هل كان الظلال خالياً تماماً من الأقوال المأثورة في التفسير؟

الجواب بالنفي. فقد بينا في فصل سابق من هذا الباب أن سيد سار على «الطريقة المثلى في التفسير» وخصصنا مبحثاً لكل مرحلة من مراحل هذه الطريقة. تحدثنا فيها عن تفسيره القرآن بالقرآن، ثم تفسيره القرآن بالسنّة، ثم تفسيره القرآن بحياة الصحابة، وقد ضربنا الأمثلة الكثيرة من الظلال على توفر هذه المراحل فيه. وبما أن هذه المباحث ترتبط ارتباطاً مباشراً بالتفسير بالمأثور فنكتفي بالإحالة عليها هناك[2]. .

إن من التفسير بالمأثور: تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنّة، وتفسير القرآن بأقوال وحياة الصحابة. وتحدثنا عن هذا وضربنا الأمثلة عليه في الفصل الثاني من هذا الباب فلا داعي لإعادته هنا.

ولكننا في هذا المبحث نريد أن نضرب أمثلة من الظلال على تفسير سيد للآيات ـ أحياناً ـ بأقوال التابعين وعلماء التفسير الأوائل.

إن سيد قطب لم يستبعد الأقوال المأثورة من الظلال رغم أنه لم يتخصص في التفسير بالمأثور، ورغم أنه يهتم بالمعاني الحركية والتربوية والدعوية. . فقد كان من مصادره الأساسية في مادة التفسير تفسير ابن كثير ـ كما بينا في فصل موارد الظلال ـ وبما أن الإمام ابن كثير كان متخصصاً في التفسير بالمأثور، إذ فسر القرآن بالقرآن وبالحديث وبأقوال الصحابة والتابعين وعلماء التفسير الأوائل، فقد أخذ سيد منه بعض هذه الأقوال المأثورة في بعض المواضع. .

---

(١) انظر فصل «الظلال نقلة جديدة في التفسير» في كتاب «مدخل إلى ظلال القرآن».

(٢) انظر المباحث: الأول والثالث والرابع والخامس من الفصل الثاني من هذا الباب.

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون.. ﴾[1] أشار إلى أن الأنداد يجعلهم البعض شركاء لله ـ وهذا من الشرك، وقد لا تكون أصناماً ساذجة بدائية كما كان يفعل المشركون. ولكنها قد تكون بصور أخرى خفية. وقد أعطانا مقياساً ثابتاً جامعاً للأنداد حيث قال: «قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أي صورة، وفي الخوف من غير الله في أي صورة. وفي الاعتقاد بنفع أو ضر في غير الله في أي صورة..».

وعندما أراد أن يمثل للأفراد التي قد تتخذ اكتفى بإيراد قول مأثور عن الإمام ابن عباس رضي الله عنهما: «عن ابن عباس قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن يقول؛ والله وحياتك يا فلان وحياتي. ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة. ولولا البط في الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت وقول الرجل لولا الله وفلان... هذا كله به شرك.. وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ـ ﷺ ـ ما شاء الله وشئت قال: «أجعلتني لله نداً؟»[2].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾[3] اكتفى بإيراد أقوال عن الصحابة والتابعين في معنى الآية. أخذها من تفسير ابن كثير فقال: «ذكر ابن كثير في تفسير الآية: قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم أكل الحرام. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم. وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ ـ قال: «إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم، فلعل

---

(١) البقرة: ٢٢.

(٢) الظلال ١: ٤٨ وقارنه بتفسير ابن كثير ١: ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) البقرة: ١٨٨.

بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار. فليحملها أو ليذرها..»[1].

فانظر كيف اكتفى بتفسير هذه الآية بإيراد الأقوال المأثورة، ولم يفسرها بشيء من كلامه، ولاحظ كيف أنه أورد قولاً.. لابن عباس وقولاً لمجموعة من علماء التابعين في هذا التفسير..

وإذا كان في المثال السابق قد اكتفى بإيراد الأقوال المأثورة في تفسير الآية، ففي المثال التالي اختار قولاً من الأقوال المأثورة ورجحه وتبناه.

ما حكم الزواج بكتابية تعتقد أن الله ثالث ثلاثة، أو أن الله هو المسيح ابن مريم، أو أن العزير ابن الله؟ أهي مشركة محرمة أم تعتبر من أهل الكتاب؟ الجمهور من العلماء اعتبروها من أهل الكتاب ولذلك أباحوا التزوج بها. وبعضهم يعتبرها مشركة ويحرم الزواج بها، وكان سيد مع الفريق الثاني الذي تبع عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ (والجمهور على أنها تدخل في هذا النص.. «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم..»[2]. ولكني أميل إلى الرأي القائل بالتحريم في هذه الحالة. وقد رواه البخاري عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول ربها عيسى)[3].

ومع ترجيحه الرأي القائل بحرمة هذا الزواج، فقد نظر في قول الجمهور الذي يبيح التزوج من كتابية واعتبره ينتقل إلى الكراهة لاعتبارات عملية واقعية، واعتمد على المأثور في قوله بكراهة هذا الزواج: «على أن هناك اعتبارات عملية قد تجعل المباح من زواج المسلم بكتابية مكروهاً، هذا ما رآه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أمام بعض الاعتبارات.

قال ابن كثير في التفسير: قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله ـ بعد

(١) الظلال ١: ١٧٦ وقارنه مع تفسير ابن كثير ١: ٢٢٥.
(٢) المائدة: ٥.
(٣) الظلال ١: ٢٤١ وقارنه مع تفسير ابن كثير ١: ٧٢٥٧

حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات ـ وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني. .

وروي أن حذيفة تزوج يهودية، فكتب إليه عمر: خل سبيلها. فكتب إليه: خل سبيلها! فقال: أحرام هي، فأخلي سبيلها؟ فقال لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاظلوا المؤمنات منهن. وفي رواية أخرى أنه قال، المسلم يتزوج النصرانية والمسلمة»[1].

ولا أدري من هي النصرانية التي أباحت آية المائدة تزوجها، طالما أن كل النصارى يعتقدون أن الله هو المسيح ابن مريم أو أن الله ثالث ثلاثة، ومن ضمنهم النصارى المعاصرين لتزول القرآن الكريم والذي أباح الزواج من نسائهم!! على الرغم من اعتقادهم هذه العقيدة الباطلة.

إن ترجيح سيد للرأي الثاني يكاد يلغي الزواج بالنصرانية مطلقاً، لأن القيد الذي ذكره هو قيد نظري لا وجود له بل لا يمكن تحقيقه في عالم الواقع، فأين هي النصرانية التي لا تعتقد تلك العقيدة الباطلة؟؟

إن قولنا بكراهة الزواج من الكتابية أولى من أن نشترط ذلك الشرط الذي يعني إلغاء حكم الآية.

ومن المواطن التي وقف فيها أمام الأقوال المأثورة، وأورد فيها طائفة منها، تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، والله سميع عليم. لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ﴾[2].

وكان إيراده للأقوال المأثورة أثناء تفسيره لمقطعين منها: ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾. والأقوال التي أوردها ليفسر كيف يكون اليمين والحلف بالله مانعاً يمنع من البر والتقوى والإصلاح بين الناس:

---

(١) الظلال ١: ٢٤١.

(٢) البقرة: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

قال: «التفسير المروي في قوله تعالى: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم.. ﴾ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لا تجعلن عرضة يمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير. وكذا قال مسروق والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاووس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهري والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراساني والسدي ـ رحمهم الله ـ كما نقل ابن كثير..»[1].

واستدل لهذا الرأي الذي ذهب إليه جمهور المفسرين من التابعين بحديثين صحيحين لرسول الله ـ ﷺ ـ أحدهما عند مسلم والآخر عند البخاري. كما استشهد له بحياة الصحابة المتمثل بقسم أبي بكر الصديق أن لا ينفق على قريبه مسطح لدوره في قصة الافك.. ثم تكفيره عن يمينه[2]..

والمقطع الثاني: الذي أورد المأثور في تفسيره هو قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم.. ﴾ حيث أورد طائفة من الأحاديث وأقوال الصحابة في تحديد لغو اليمين التي لا يؤاخذ عليها. أورد ثلاثة أحاديث تبين أن المقصود باللغو هو ما يجري به اللسان عفواً ولغواً من غير قصد، فلا كفارة فيه. وأورد قولاً مأثوراً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن اللغو هو أن يحلف وهو غضبان. وفي قول آخر لابن عباس: أن اللغو هو أن يحرم بيمينه ما أحل الله[3]..

ولخص النتيجة التي تؤخذ من هذه الأقوال بقوله ـ بعد إيرادها ـ «والذي يخلص من هذه الآثار أن اليمين التي لا تنعقد النية على ما وراءها إنما يلغو بها اللسان لا كفارة فيها. وأن اليمين التي ينوي الحالف الأخذ أو الترك لما حلف عليه هي التي تنعقد...»[4].

وأحياناً يورد أحاديث في تفسير الآية، ثم يتبعها بذكر تطبيق الصحابة

---

(١) الظلال ١: ٢٤٣ وقارنه مع تفسير ابن كثير ١: ٢٦٦.
(٢) الظلال ١: ٢٤٣ وقارنه مع تفسير ابن كثير ١: ٢٦٦.
(٣) الظلال ١: ٢٤٣ ـ ٢٤٤ وقارنه مع تفسير ابن كثير ١: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٤) الظلال ١: ٢٤٤.

لها وتعاملهم معها. كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأتِ بما غل يوم القيامة.. ﴾[1].

حيث أورد في تفسيرها حديثاً رواه الشيخان وأحمد عن فعلة «ابن اللتبية» الذي بعثه الرسول - ﷺ - على الصدقة وعودته يحمل قسماً آخر هدية له وإنكار الرسول عليه.

وأورد حديثاً آخر رواه الشيخان وأحمد أيضاً في تحذير الرسول - ﷺ - عماله عن الغلول، وتنفيره منه بذكر صورة زرية منفرة للغال يوم القيامة.

وحديثاً ثالثاً رواه مسلم وأحمد ينهي فيه أيضاً عن الغلول، وتحرج أحد الصحابة نتيجة لذلك من أن يلي عملاً.

وحتى يبين أثر الآية والأحاديث في نفوس الصحابة، وتأثيرها في حياتهم، والتزامهم بها وتطبيقهم لها. أورد لقطة من لقطات التاريخ الإسلامي أوردها ابن جرير الطبري في تاريخه عن تسليم عامر بن عبد قيس ما وجد من كنوز كاملة لقائد الجيش الإسلامي. وجوابه لمن سأله عن نفسه.. وقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما وصلته الغنائم والأقباض إلى المدينة[2]..

وقد يورد الأقوال المأثورة كشواهد وأدلة لرأيه في تفسير الآية، كما فعل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فقالوا: هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا. فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم.. ساء ما يحكمون.. ﴾[3].

حيث تصف الآية تصورات الجاهلية في الحرث والأنعام وتقسيمها هذا بين الله وبين شركائهم، ثم تبين جور الجاهليين على الجزء الذي جعلوه لله.

---

(١) آل عمران: ١٦١.

(٢) انظر الظلال ١: ٥٠٤ - ٥٠٥ وقارنه مع تفسير ابن كثير ١: ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٣) الأنعام: ١٣٦.

فكيف كانوا يقسمون الحرث والأنعام هذه القسمة الجائرة؟ بيان هذا في الأقوال المأثورة.

أورد خمسة أقوال في بيان هذه القسمة:

الأول: عن ابن عباس.
والثاني: عن مجاهد.
والثالث: عن قتادة.
والرابع: عن السدي.
والخامس: لابن جرير الطبري الذي بين كيف أنهم ساء ما يحكمون.

وختم هذه الأقوال بكلام له بين فيه تحقق مصلحة شياطين الجن وشياطين الأنس في هذه القسمة وفي جدال المسلمين بذلك[1].

وأحياناً ينظر في الأقوال المأثورة فلا يرجح واحداً منها، بل يورد رأياً خاصاً منها. ويستدل له!! كما في تحديد المقصود «بالسائحين» في قوله تعالى: ﴿ التائبون. العابدون. الحامدون. السائحون. الراكعون. الساجدون. الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. والحافظون لحدود الله.. ﴾[2].

قال: «السائحون: وتختلف الروايات فيهم: فمنها من يقول: إنهم المجاهدون ومنها من يقول: انهم المتنقلون في طلب العلم، ومنهم من يقول إنهم الصائمون... ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه... ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض.. ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك.. ﴾[3] فهذه الصفة أليق هنا بالجو

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٢١٧ ـ ١٢١٨.
(٢) التوبة: ١١٢.
(٣) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

بعد التوبة والعبادة والحمد. فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله. . . »[1].

وإذا كان في المثال السابق قد تجاوز الأقوال المأثورة وأتى برأي خاص به، فإنه في المثال التالي لم يخرج عن أحد الأقوال المأثورة. فمن هي النفس اللوامة في قوله تعالى: ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة. . ﴾[2] قال: «في التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها. . » أورد القول الأول للحسن البصري في أنها النفس المؤمنة تلوم صاحبها. والثاني عن عكرمة أنها تلوم على الخير والشر. والثالث عن ابن عباس: أنها النفس اللؤوم أو المذمومة. وعن مجاهد أنها التي تندم على ما فات. والخامس: عن قتادة أنها الفاجرة. والسادس: عن ابن جرير الطبري في الجمع بين الأقوال السابقة وبخاصة قول عكرمة مع قول مجاهد.

أما هو فقد رجح قول الحسن البصري الأول: «ونحن نختار في معنى «النفس اللوامة» قول الحسن البصري. . »[3].

من هذه الأمثلة يظهر لنا أن سيد قطب كان يلتزم الطريقة المثلى في التفسير. وأنه كان يفسر القرآن بالقرآن وبالسنّة وبأقوال الصحابة والتابعين وعلماء التفسير. ويورد الكثير من الأقوال المأثورة في تفسير الآية. . .

---

(١) الظلال ٣: ١٧١٩.

(٢) القيامة: ٢.

(٣) انظر الظلال ٦: ٣٧٦٨.

المبحث الثالث

الإسرائيليات والأخبار

الإسرائيليات ليست موضوعاً أساسياً من موضوعات التفسير، لا بدّ لكل مسلم مفسر من أن يعود إليها ويأخذ منها ويورد في تفسيره أخبارها ورواياتها. . ولكن الذي جعلنا نخصص هذا المبحث لها ضمن هذا الفصل «موقفه من عرض موضوعات التفسير» أن غالب المفسرين استهوتهم تلك الإسرائيليات والأخبار فأوردوها في تفاسيرهم بنسب متفاوتة قلة وكثرة، ولكنه لا يكاد يسلم منها تفسير من التفاسير القديمة. .

ويبدو أن رغبة المفسرين في أن يتوسعوا في تفسير الأحداث الماضية وبخاصة القصص القرآني وحياة الأنبياء، وأن يزيدوا في هذا على نصوص القرآن والأحاديث الصحيحة للرسول - ﷺ - فلما بحثوا عن مصدر يأخذون منه لم يجدوا أمامهم إلا هذه الإسرائيليات والأخبار والخرافات والأساطير، فأخذوا منها.

والإسرائيليات مصطلح أطلقه العلماء على المادة المأخوذة عن بني إسرائيل، فهي لفظ «يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعم اللون اليهودي واللون النصراني للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليات من باب التغليب

للجانب اليهودي على الجانب النصراني، فإن الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه. . .)[1].

ولم يكن المفسرون الذين أوغلوا في الإسرائيليات وأخذوا منها علميين ولا منهجيين، ومن ثم لم يكن كلامهم الذي أخذوه عن الإسرائيليات مقبولاً عند العلماء المحققين ولا ثابتاً أمام البحث والتمحيص. . وهم بعملهم هذا قادوا التفسير إلى الأخبار غير الثابتة، بل أوصله بعضهم إلى الخرافات والأساطير. . ويا لتهم وقفوا عند حدود النصوص الموثوق بها، وهي الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة. إذن لاستراحوا وأراحوا، وأعفوا اللاحقين عن الخوض في التيه، وأبقوهم عند حدود النص القرآني والحياة في ظلاله. . .

أما سيد قطب فقد كان له موقف أصيل من الإسرائيليات، وهـذا الموقف ناتج من قواعد منهجه في التفسير، مثل «المهمة العملية الحركية للقرآن» و «المحافظة على جو النص القرآني» و «استبعاد المطولات التي تحجب نور القرآن» وقد بينا هذه القواعد عند حديثنا عن منهجه في التفسير[2]. ونتيجة لذلك فقد استبعد هذه الإسرائيليات من الظلال، حيث لم نجد لها أثراً فيه. ومما ساعد على استبعادها، رغبته في أن يكون منهجياً سلفياً في التفسير، وأن يكون واقعياً جدياً في البحث. ولذلك كان من سمات الظلال «الواقعية الجدية» و «المنهجية السلفية».

وإذا أردنا أن نعرف موقف سيد قطب من الإسرائيليات، فلنقرأ تفسيره للقصص القرآني وسير الأنبياء، وطريقته في الوقوف على أحداث هـذا القصص، ثم نقارن بين الظلال وبين بعض التفاسير الأخرى التي أغرقت في الأخذ عن الإسرائيليات مثل تفسير الخازن، أو التي قللت في الأخذ عنها مثل القرطبي. . لنجد أن سيد كان حريصاً على البقاء في جو النص القرآني والحديث النبوي الصحيح، وعدم البحث فيما هو مسكوت عنه فيهما ومن ثم عدم إثبات شيء من الإسرائيليات في ذلك.

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ١: ١٦٥.
(٢) انظر الفصل الثاني من الباب الأول.

هذا. وفي الظلال مواطن كثيرة يصرح فيها سيد بعدم تجاوز النصوص الثابتة في البحث في قصص السابقين، لأن في تجاوزها خروج عن الدائرة المأمونة في البحث العلمي المنهجي إلى الخرافات والأساطير، والضرب في تيهها بلا دليل...

ولقد كان يقف أحياناً في الظلال ليأخذ على المفسرين اتجاههم إلى الإسرائيليات، وينكر عليهم صنيعهم هذا..

ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم آيات مفصلات.. ﴾[1] أبان لنا عن منهجه الثابت المأمون في تفسيره قصص السابقين: وهو البقاء في جو النص القرآني، والسكوت على ما سكتت عليه النصوص ـ آيات أو أحاديث صحيحة ـ وينكر على المفسرين أخذهم في هذا عن الإسرائيليات.

قال: «فأما كيف وقعت هذه الآيات، فليس لنا وراء النص القرآني شيء، ولم نجد في الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عنها شيئاً. ونحن على طريقتنا في هذه الظلال نقف عند حدود النص القرآني في مثل هذه المواضع. لا سبيل لنا إلى شيء منها إلا من طريق الكتاب أو السنّة الصحيحة. وذلك تحرزاً من الإسرائيليات والأقوال والروايات التي لا أصل لها، والتي تسربت ـ مع الأسف ـ إلى التفاسير القديمة كلها، حتى ما ينجو منها تفسير واحد من هذه التفاسير.. وحتى إن تفسير الإمام ابن جرير الطبري ـ على نفاسة قيمته ـ وتفسير ابن كثير كذلك ـ على عظيم قدره ـ لم ينجوا من هذه الظاهرة الخطيرة..»[2].

وكمثال على تلك الروايات التي تشم منها رائحة الإسرائيليات أورد سيد واحدة منها لا اعتقاداً منه بصحتها ولكن رغبة في التمثيل لها. قدم لها بقوله: «وقد وردت روايات شتى في شأن هذه الآيات عن ابن عباس، وعن

---

(١) الأعراف: ١٣٣.

(٢) الظلال ٣: ١٣٥٨ ـ ١٣٥٩.

سعيد بن جبير، وعن قتادة، وعن ابن إسحاق. رواها أبو جعفر الطبري في تاريخه وفي تفسيره. وهذه واحدة منها..».

وعقب على الرواية بعد إيرادها قائلاً: «والله أعلم أي ذلك كان، والصورة التي جاءت بها هذه الآيات لا يؤثر اختلافها في طبيعة هذه الآيات. فالله ـ سبحانه ـ أرسلها بقدره في وقت معين، ابتلاء لقوم معينين، وفق سنّته في أخذ المكذبين بالضراء لعلهم يتضرعون..»[1].

ولدى الرجوع إلى تفسير ابن كثير للتأكد من كلام سيد قطب حوله، وصحة الحكم الذي أصدره عليه، تبين أنه أورد فعلاً روايات عديدة، وأقوالاً متضاربة حول الجراد والدم والقمل.. ثم عندما اتجه إلى تفصيل وقوع هذه الآيات على قوم فرعون أورد نفس الرواية التي أشار لها سيد في تفسير الطبري الذي أسندها الطبري فيه إلى سعيد بن جبير. كما أورد رواية أخرى مقاربة للرواية الأولى.. وتبدو في الروايتين رائحة الإسرائيليات[2]..

كذلك لدى الرجوع إلى تفسير الإمام الطبري الذي أخذ منه سيد روايته تبين أنه توسع في تفسير الآية بإيراد عدة روايات ـ ومن ضمنها الرواية التي سجلها سيد ـ وتبدو فيها رائحة الإسرائيليات أيضاً. وبلغ عدد هذه الروايات أربع عشرة رواية في أكثر من عشر صفحات من التفسير[3]..

إن موقف سيد قطب من الإسرائيليات مرتبط بموقفه من «مبهمات القرآن» وطريقته في النظر إليها والتعامل معها وتفسيرها. وقد بينا في مبحث «مبهمات القرآن» في الفصل السابق من هذا الباب أنه لم يحاول تبيينها، وإنما تركها مبهمة اتباعاً للقرآن والحديث الصحيح.. في سكوته عما سكتا عنه. إذ لو كان في بيانها خير أو مصلحة أو فائدة لبينها القرآن أو الرسول ـ ﷺ ـ وطالما لم تبين في هذين المصدرين فلم تعد لنا وسيلة علمية

---

(1) انظر الظلال ٣: ١٣٥٩.

(2) انظر تفسير ابن كثير ٢: ٢٣٩ ـ ٢٤٢.

(3) انظر جامع البيان للطبري بتحقيق محمود شاكر ١٣: ٥٧ ـ ٦٨.

يقينية في تبيينها، والذهاب إلى الخرافات والإسرائيليات والأساطير لتبيينها، لا يليق بمفسر ملتزم منهجي جاد. . .

إن البقاء في جو النص القرآني، والانتقال إلى الحديث الصحيح بعد ذلك لتفسير الآية باعتبار هذين المصدرين العلميين اليقينيين لمعرفة الأحداث الماضية وقصص السابقين الواردة في القرآن، إن هذا هو الذي حال بين سيد وبين الإسرائيليات. . وهو يصرح بذلك في الظلال غالباً عند قصص السابقين ليطلع القارىء على منهجه وطريقته في التفسير أولاً، وليحول بينه وبين الذهاب إلى الإسرائيليات، وكي لا يقبل منها شيئاً ولو ورد في التفاسير القديمة. .

في وقفته أمام قصة أصحاب السبت في سورة الأعراف، وبخاصة مسخ المعتدين منهم قردة وخنازير، كان ملتزماً بالبقاء ضمن الدائرة المأمونة، وعدم تجاوزها إلى الإسرائيليات. قال: «أما كيف صاروا قردة؟ وكيف حدث لهم بعد أن صاروا قردة؟ هل انقرضوا كما ينقرض كل ممسوخ يخرج عن جنسه؟ أم تناسلوا وهم قردة؟. . إلى آخر هذه المسائل التي تتعدد فيها روايات التفسير. . فهذا كله مسكوت عنه في القرآن الكريم، وليس وراء ذلك عن رسول الله - ﷺ - شيء. . فلا حاجة بنا نحن إلى الخوض فيه[1]. . .

والإمام ابن كثير في تفسيره لهذه القصة في الأعراف، أحال على تفسيره لسورة البقرة، ولدى الرجوع إلى تفسيره هناك بالإجابة على هذه الأسئلة، وجدنا له روايات عديدة عن التابعين أو الصحابة، ولم نجد من بينها حديثاً واحداً صحيحاً لرسول الله - ﷺ - وبهذا يظهر لنا صحة الحكم الذي أصدره سيد على هذه الروايات[2]. .

وفي وقفة سيد أمام الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين في سورة الأعراف. كان واقفاً عند حدود النصوص القرآنية

---

(١) الظلال ٣: ١٣٨٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢: ٢٥٨ - ٢٥٩ و ١: ١٠٥ - ١٠٧.

والحديثية أيضاً، فلم يجاوزها إلى الأقوال غير الثابتة أو الإسرائيليات والأساطير. . فقد أشار إلى اختلاف الروايات في تحديد الشخص المقصود بالآية بقوله: «تذكر بعض الروايات أنه نبأ رجل كان صالحاً في فلسطين قبل دخول بني إسرائيل، وتروي بالتفصيل الطويل قصة انحرافه وانهياره، على نحو لا يأمن الذي تحرس بالإسرائيليات الكثيرة المدسوسة في كتب التفاسير، أن يكون واحدة منها، ولا يطمئن على الأقل لتلك التفصيلات التي وردت فيها. . ثم إن في هذه الروايات من الاختلاف والاضطراب ما يدعو إلى زياد الحذر. . .» وبعد أن أشار إلى الأقوال المضطربة في تحديده التي بلغت ثمانية أقوال متناقضة قال: «لذلك رأينا ـ على منهجنا في ظلال القرآن ـ ألا ندخل في شيء من هذا كله. بما أنه ليس في النص القرآني منه شيء. ولم يرد من المرفوع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ عنه شيء. وأن نأخذ من النبأ ما وراء ذلك. .»[1].

كذلك في نظرته إلى قصة ناقة صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يكتفي بالسياق القرآني في عرضها. . (ولا يذكر السياق صفة لهذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة. ولكن في إضافتها لله «هذه ناقة الله»، وفي تخصيصها لهم «لكم آية» ما يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة، يعلمون بها أنها آية لهم من الله. ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجيء. .»[2].

إنه لا يقبل من المفسرين خروجهم عن السياق القرآني والأحاديث الصحيحة، إلى الأساطير والإسرائيليات، وإثبات ما فيها من تلفيق وافتراء على أنه أمور حدثت ووقعت، وتفسير لآيات كتاب الله. . ولذلك يرفض هذه الروايات التي أوردوها. وحتى نعرف ما فيها من تلفيق، يشير إليها بسخرية لاذعة.

---

(١) الظلال ٣: ١٣٩٧.

(٢) الظلال ٤: ١٩٠٨.

ففي تفسير قوله تعالى ـ بشأن قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ـ «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه. .»[1] أشار إلى تلك الروايات قائلاً: (لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة. فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعاً شبقاً، والله يدفعه ببراهين كثيرة فلا يندفع. صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على أصبعه بفمه، وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن ـ أي نعم من القرآن ـ تنهي عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي. . حتى أرسل الله جبريل يقول له: أدرك عبدي، فجاء فضربه في صدره. . إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع»[2]. .

كان ملتزماً بتوجيهات وإرشادات القرآن بالنسبة لقصص السابقين، وهذا الالتزام حال بينه وبين الخوض في الإسرائيليات. كما في وقفته أمام قصة أصحاب الكهف. إذ أطلعنا على منهجه في فهمها بقوله: (وفي القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة. فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى. ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن. فهو المصدر الوحيد المستيقن. ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح. وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها وعن المراء فيها والجدل رجماً بالغيب. .»[3].

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى في عرض قصة أصحاب الكهف: ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً، ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾[4].

ولا أدري كيف أجاز بعض المفسرين لأنفسهم أن يستفتوا أهل الكتاب في أصحاب الكهف، وأن يعتمدوا أقوالهم أو حتى يلتفتوا إليها ويوردوها في كتبهم مع هذا التوجيه القرآني وهذا النهي الصريح الواضح في كتاب الله؟!.

---

(١) يوسف: ٢٤.
(٢) الظلال ٤: ١٩٨١.
(٣) الظلال ٤: ٢٢٦١.
(٤) الكهف: ٢٢.

وهو عندما يترك الإسرائيليات يلجأ إلى وسائل علمية. وتحليلات مقبولة، ونظرات فاحصة، ويخرج من ذلك بآراء جديدة فريدة. كما في عقدة لسان موسى ـ عليه السلام ـ إذ استبعد الإسرائيليات فيها التي تحدد أنه تناول جمرة في صغره فحرق لسانه واستمر العيب في لسانه. ونظر في قول موسى لربه ﴿ رب إني أخاف أن يكذبون. ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون. . ﴾[1] بما يتفق مع عصمة موسى ـ عليه السلام ـ ومع البحث العلمي المنهجي. فقال:

(والظاهر من حكاية قول ـ عليه السلام ـ أن خوفه ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده. إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾[2] ومن شأن هذه الحبسة أن تنشيء حالة من ضيق الصدر، وتنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقاً. . . . وهكذا. . وهي حالة معروفة. فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون. . [3]).

فهذا الرأي الذي تفرد به سيد في بيان سر عقدة لسان موسى عليه السلام الناتجة عن ضيق صدره ـ بنص القرآن ـ رأي وجيه سديد. استخدم فيه وسيلة التحليل النفسي السليم المتزن. وأي إنسان انفعل بحادث من الحوادث وازداد انفعاله به، ولاحظ ضيق صدره نتيجة لذلك الانفعال، وانحباس لسانه عن الكلام في هذه الحالة، أو عجزه عن التعبير السليم الهادىء المبين، لأنه عاجز عن تصريف الانفعال بالكلام. أي إنسان مر بهذا أو قرأ عن هذا، يستطيع أن يفهم طلب موسى ـ عليه السلام ـ ويفسره به بدل أن يخوض في الخرافات والأساطير والإسرائيليات حول الجمرة والتمرة!!.

---

(١) الشعراء: ١٢ ـ ١٣.

(٢) طه: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) الظلال ٥: ٢٥٨٩.

وقد أعفانا الإمام ابن كثير البحث في قصة الجمرة والتمرة المزعومة، حيث قال ـ بعد إيرادها بخبر طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ «وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليلاً منه. وكأنه تلقاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضاً..»[١].

لقد نجح سيد ـ بالميزان الضابط الذي بيناه ـ في تجاوز الإسرائيليات في قصص الأنبياء، والتي تقدح في عصمتهم ـ عليهم السلام ـ كما في قصة داود ـ عليه السلام ـ مع الخصمين عندما تسوروا المحراب في سورة ص[٢]. وفتنة سليمان ـ عليه السلام ـ والجسد الذي ألقي على كرسيه[٣]. وقصته مع الصافنات الجياد في ص. ومع ملكة سبأ في سورة النمل[٤]. وكما في ريح سليمان في سورة الأنبياء[٥]. وضر أيوب ـ عليه السلام ـ في سورة ص[٦]. وغير ذلك.

بهذا يظهر لنا أن سيد كان علمياً ومنهجياً في النظر في قصص السابقين في القرآن. وأنه كان حريصاً على البقاء في جو النص القرآني، وأنه لا يأخذ فيها إلا من المصادر اليقينية الثابتة وهي الآيات والأحاديث الصحيحة، وأن هذا الضابط حال بينه وبين الإسرائيليات والأساطير والخرافات والروايات، التي لا أصل لها ولا صحة لسندها، ومن ثم خلا الظلال من ذلك. وهذه مزية عظيمة تسجل لسيد ولظلاله!!!.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٥٣. وانظر القصة فيه ٣: ١٤٨ ـ ١٥٣.
(٢) انظر الظلال ٥: ٣٠١٨.
(٣) انظر الظلال ٥: ٣٠٢٠.
(٤) انظر الظلال ٥: ٢٦٤١.
(٥) آنظر الظلال ٤: ٢٣٩١.
(٦) انظر الظلال ٥: ٣٠٢١.

المبحث الرابع

«النحو والبلاغة»

لم يكن من أهداف سيد في الظلال عرض مباحث النحو والبلاغة، ولا تفسير الآيات الكريمة تفسيراً نحوياً أو بلاغياً. ولا ذكر الوجوه المختلفة في إعراب كلمات الآية أو توجيهها بلاغياً، ولا الحديث عن ألوان البلاغة ومباحثها فيها. ولذلك لا يمكن أن يصنف الظلال ضمن التفاسير النحوية كتفسير البحر المحيط لأبي حيان، ولا التفاسير البلاغية كتفسير الكشاف للزمخشري..

ولكن لا يعني هذا أن سيد أغفل الحديث عن النحو والبلاغة في الظلال إغفالاً تاماً، إننا وجدنا في الظلال حديثاً قصيراً في عدة مواطن عن أمور نحوية أو بلاغية، وإشارات سريعة إلى النحو أو البلاغة في بعض الآيات.. وظهر لنا أن وقفات سيد في هذه المواطن لم يكن يقصد فيها إلى الحديث عن النحو أو البلاغة كهدف وغاية. وإنما تجاوزه إلى ما في الآية من دلالات مختلفة.. أي أنه لم يتحدث عن النحو من أجل النحو، ولا عن البلاغة من أجل البلاغة ـ كما فعل بعض المفسرين السابقين ـ وإنما جعل النحو والبلاغة وسيلة إلى غاية، وطريقاً لبيان ما في الآية من لفتات وحقائق وتوجيهات عقيدية وتربوية وغير ذلك.

والدليل على هذا: أنه كان في معظم هذه الوقفات النحوية والبلاغية، يتبع الحديث عن النحو والبلاغة بدلالاتها التي أشرنا إليها، وسر ورود الآية على هذا التركيب البلاغي، أو هذه الصيغة النحوية..

فلما فسر قوله تعالى - في قصة ابني آدم -: ﴿ إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر. . ﴾[1].

استوقفه بناء الفعل للمجهول «تُقُبِّل» ووقف أمام هذا الأمر - النحوي - ليستخرج منه دلالتين: الأولى عقيدية. والثانية منهجية علمية!!.

قال: «والفعل مبني للمجهول، ليشير بناؤه هكذا إلى أن أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوة غيبية، وإلى كيفية غيبية. وهذه الصياغة تفيدنا أمرين:

الأول: ألا نبحث نحن عن كيفية هذا التقبل، ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير في روايات نرجح أنها مأخوذة عن أساطير العهد القديم.

والثاني: الإيحاء بأن الذي قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله، فالأمر لم يكن له يد فيه، وإنما تولته قوة غيبية بطريقة غيبية، تعلو على إدراك كليهما وعلى مشيئته. .»[2].

جعل النحو والبلاغة وسيلة لتوضيح قضية «الحاكمية»، حيث استوقفه تركيب الآيات النحوي والبلاغي، وخرج من هذا بدلالة عليها.

فقد وردت ثلاث آيات في سورة المائدة عن الحكم والتشريع، ختمت أولاهما بقوله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[3] وختمت الثانية بقوله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[4] وختمت الثالثة بقوله تعالى: ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[5].

التعبير في الآيات الثلاث عام. لكن استوقف سيد الأوصاف الثلاثة: الكافرون. الظالمون. الفاسقون. هل كل واحد ينطبق على حالة خاصة

---

(1) المائدة: ٢٧.
(2) الظلال ٢: ٨٧٥.
(3) المائدة: ٤٤.
(4) المائدة: ٤٥.
(5) المائدة: ٤٧.

فتكون أمامنا ثلاث حالات منفصلة؟ أم الأوصاف الثلاثة لموصوف واحد؟ وكلها تنطبق على حالة واحدة.

قال سيد بالرأي الثاني وجزم به عند تفسيره للآية الثانية فقال: «وهذا الوصف الجديد (الظالمون) لا يعني أنها حالة أخرى غير التي سبق وصفها بالكفر، وإنما تعني إضافة صفة أخرى لمن لم يحكم بما أنزل الله.

فهو كافر باعتباره رافضاً لألوهية الله - سبحانه - واختصاصه بالتشريع لعباده، وبادعائه هو حق الألوهية بادعائه حق التشريع للناس.

وهو ظالم بحمل الناس على شريعة غير شريعة ربهم، الصالحة المصلحة لأحوالهم. فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة، وتعريضها لعقاب الكفر. وبتعريض حياة الناس - وهو معهم - للفساد»[1].

وأخبرنا على وسيلته إلى هذا الفهم، والأداة التي استخرج بها هذه الدلالة من الآيات، فإذا بها النحو والبلاغة! قال: «وهذا ما يقتضيه اتحاد المسند إليه وفعل الشرط: «ومن لم يحكم بما أنزل الله»: .... فجواب الشرط الثاني يضاف إلى جواب الشرط الأول، ويعود كلاهما على المسند إليه في فعل الشرط وهو «مَنْ» المطلق العام»[2].

ولقد كان لسيد وقفة أمام «التقديم والتأخير» كمبحث بلاغي، إذ «وظفه» لاستخراج دلالات حركية منهجية للآية!!.

كان ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا..﴾. إذ أن الآية تحدد أشد الناس عداوة للمؤمنين، وجعلت عداوة اليهود للمؤمنين في المقام الأول مقدمة على عداوة المشركين، فما دلالة هذا؟.

«إن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على

---

(١) الظلال ٢: ٩٠٠.

(٢) الظلال ٢: ٩٠٠.

الذين أشركوا في صدد أنهم أشد عداوة للذين آمنوا، وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة، وأمر مقرر يراه كل من يرى، ويجده كل من يتأمل!

نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيباً ولا ترتيباً.. ولكن تقديم اليهود هنا، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين. ربما لأنهم أصلاً أهل كتاب - يجعل لهذا التقديم شأناً خاصاً غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه - على الأقل - يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا! ونقول: إن هذا «على الأقل» ولا ينفي هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا..»[1].

كذلك التفت سيد إلى تركيب الآية نحوياً وبلاغياً، واستوقفته بكلماتها وصياغتها وضمائرها.. واستخرج من هذا دلالات على العقيدة، وأدرك أبعاد الآية وإيحاءاتها..

قوله تعالى: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون؟ ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾[2] إنكار على العرب المشركين إذ يتخذون الشركاء لله، وهذه الآية عبرت عن الشركاء بضمير العاقل «هم»، وكلمة هم تستعمل للعقلاء «أنفسهم».. فما دلالة هذا؟:

يقول سيد «فهذه الواو والنون تشير إلى أن من بين هذه الآلهة على الأقل بشراً من «العقلاء» الذين يعبر عنهم بضمير «العاقل»!.. وما علمنا أن العرب في وثنيتهم كانوا يشركون بآلهة من البشر - بمعنى أنهم يعتقدون بألوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم - إنما هم كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام في النزاعات - أي الحاكمية الأرضية - وأن القرآن يعبر عن هذا بالشرك، ويسوي

---

(١) الظلال ٢: ٩٦٠.

(٢) الأعراف: ١٩١ - ١٩٢.

بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء . .»[1].

وظاهر من هذا النص أن قضية «الحاكمية» هي التي تشغل فكره، وأنه كان يستحضرها في تفسير الآيات، وإذا وجد أية دلالة في الآية عليها، مهما كان نوعها سرعان ما يسجلها ويوردها. كما في دلالة ضمير العاقل عن الشركاء في هذه الآية.

للتركيب البلاغي للآية دلالته الحركية التي يشير إليها سيد كما في قوله تعالى: ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم . . ﴾[2] فما هو السر في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه؟ «الفعلة الخائنة، والنيّة الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة. . يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة. . . . «خائنة» . . لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقي ظلالها وحدها على القوم . . فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هـو جوهـر موقفهم . . »[3].

كذلك للتركيب النحوي للآية دلالته الحركية. كما في قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس . . ﴾[4] «إن التعبير بكلمة «أخرجت» المبني لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر، وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجاً، وتدفعها إلى الظهور دفعاً من ظلمات الغيب . . »[5].

وأحياناً يكون للتركيب النحوي دلالته الجمالية التصويرية. إذ وقف سيد أمام فعل مبني للمجهول وسجل هذه الدلالة. هذا الفعل في قوله تعالى: ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾[6] قال: «فأما الصورة الغليظة التي ترسمها «وأشربوا في قلوبهم العجل» فهي صورة فريدة. لقد أُشربوا. بفعل فاعل سواهم. أشربوا ماذا؟ أشربوا العجل! وأين أشربـوه؟ أشربـوه في قلوبهم! ويظل الخيال يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة، وتلك الصورة

---

(1) الظلال ٣ : ١٤١٤.
(2) المائدة: ١٣.
(3) الظلال ٢ : ٨٥٩.
(4) آل عمران: ١١٠.
(5) الظلال ١ : ٤٤٧.
(6) البقرة: ٩٣.

الساخرة الهازئة: صورة العجل يُدخَل في القلوب إدخالاً! ويحشر فيها حشراً»[1].

وهناك مثال ثالث في القرآن استخرج سيد من بناء الفعل دلالة نفسية لطيفة وهو قوله تعالى: ﴿ زُيِّن للناس حب الشهوات. . . ﴾[2] وفي ذلك يقول: «وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل، فهو محبب ومزين. . وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه. . »[3].

الاستثناء كأسلوب بلاغي له دلالته الواقعية، فهو في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ﴾[4] منقطع. فأول الآية يحرم أكل الأموال بالباطل، وما بعد الاستثناء ليس داخلاً فيه، لأن التجارة عن تراضٍ ليست من أكل المال بالباطل. ولكن مجيء السياق هكذا يوحي بنوع من الملابسة بينها وبين صور التعامل الأخرى المحرمة وبخاصة الربا. الذي يغالط المرابون فيجعلونه تجارة. هذه الملابسة بين الربا والتجارة، هي التي لعلها جعلت هذا الاستدراك «إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم» يجيء عقب النهي عن أكل الأموال بالباطل. وإن كان استثناء منقطعاً كما يقول النحويون[5]. .

وأحياناً يورد سيد قولين في إعراب بعض كلمات الآية. كما في قوله تعالى: ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة، والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾[6].

وفي ذلك يقول: «ونلاحظ أن «المقيمين الصلاة» تأخذ إعراباً غير سائر ما عطفت عليه. وقد يكون ذلك لإبراز قيمة إقامة الصلاة في هذا الموضع على معنى ـ وأخص المقيمين الصلاة ـ ولها نظائر في الأساليب العربية وفي

---

(١) الظلال ١: ٩١.
(٢) آل عمران: ١٤.
(٣) الظلال ١: ٣٧٣.
(٤) النساء: ٢٩.
(٥) انظر الظلال ٢: ٦٣٩ ـ ٦٤٠.
(٦) النساء: ١٦٢.

القرآن الكريم، لإبراز معنى خاص في السياق له مناسبة خاصة.. وهي هكذا في سائر المصاحف وان كانت قد وردت مرفوعة «والمقيمون الصلاة» في مصحف عبد الله بن مسعود»[1].

كذلك هناك وجهان في إعراب قوله تعالى: ﴿ ألمص. كتاب أنزل إليك.. ﴾[2] أوردهما سيد ووجَّه الآية على كل منهما: «يصح القول بأن «ألمص» مبتدأ وخبره كتاب أنزل إليك».. بمعنى أن هذه الأحرف وما تألف منها هي الكتاب.. كما يصح القول بأن «ألمص» مجرد إشارة للتنبيه على ذلك المعنى الذي رجحناه.. و«كتاب» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو كتاب. أو هذا كتاب..»[3].

التوكيدات البلاغية لها دلالتها الاعتقادية كما في قوله تعالى: ﴿ يا بني لا تشرك بالله. إن الشرك لظلم عظيم ﴾[4] إذ أكد «هذه الحقيقة مرتين مرة بتقديم النهي وفصل علته. ومرة بأن واللام..»[5].

وقد يكون لورود الآية بالصيغة التي وردت بها دلالة على التناسب في السورة كما في قوله تعالى: ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[6] فقد وردت قوم منصوبة وبدون لفظ «في» بتقدير كلمة «أذكر» قبلها، وتلتها «والسماء بنيناها...»[7] معطوفة عليها.. وهذه آية كونية، وتلك آية تاريخيه يربطهما السياق معاً، ويربط بهما هذا القطاع بالقطاع الثالث (السابق) في السورة»[8].

وفي قوله تعالى: ﴿ قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود ﴾[9] «صارت النار بدلاً في التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها»[10].

(١) الظلال ٢: ٨٠٤.
(٢) الأعراف: ١ ـ ٢.
(٣) الظلال ٣: ١٢٥٤.
(٤) لقمان: ١٣.
(٥) الظلال ٥: ٢٧٨٨.
(٦) الذاريات: ٤٦.
(٧) الذاريات: ٤٧.
(٨) الظلال ٦: ٣٣٨٥.
(٩) البروج: ٤ ـ ٥.
(١٠) الظلال ٦: ٣٨٧٣.

بهذا كله يظهر لنا أن سيد قطب لم يخصص الظلال للتوجيهات النحوية والبلاغية، ولكنه لم يستبعدها منه نهائياً، بل وقف وقفات مختلفة لملاحظة القضايا النحوية والبلاغية في الآيات . وهو في وقفته أمامها وإيراده لها، لا يجعلها غاية أو هدفاً، وإنما يجعلها وسيلة إلى غاية، وطريقاً إلى تحقيق أهدافه من التفسير، ولذلك «يوظفها» لاستخراج دلالات الآية العقيدية أو الحركية أو التربوية أو غير ذلك. .

المبحث الخامس

«القصص القرآني»

نظرات سيد قطب في قصص القرآن وتحليلها سابقة على تفسيره الظلال، فقد خصص لها فصلاً مطولاً من كتابه «التصوير الفني في القرآن» وهو فصل «القصة في القرآن» وبحثه للقصة في هذا الفصل من زاوية فنية بيانية جمالية ـ لأنها تتفق مع موضوع الكتاب ـ تحدث فيه عن أغراض القصة في القرآن وعرض عشرة أغراض لها، واستدل لها بنصوص القرآن. ثم بين آثار خضوع القصة القرآنية للغرض الديني من خلال النماذج القرآنية وكانت ثلاثة. ثم تحدث عن مظاهر التنسيق الفني في القصة وكانت كذلك ثلاثة مظاهر. ثم تحدث عن الخصائص الفنية للقصة وهي أربع. وخصص مبحثاً خاصاً للخصيصة الرابعة وهي «التصوير في القصة» وأبرز مظاهر وألوان التصوير ثلاثة. وتحليلات سيد الفنية للقصة في القرآن في هذا الفصل ـ بمباحثه التي أشرنا إليها ـ تدل على موهبته الفنية وثقافته النقدية ونظراته التحليلة. وقد أشار في ذلك الفصل إلى معظم قصص القرآن، واستشهد فيه بآيات القرآن الكريم[١].

وكان يعتبر هذا الفصل بحثاً موجزاً عن القصة في القرآن، وكان ينوي أن يعد بحثاً خاصاً مطولاً لها بعنوان «القصة بين التوراة والقرآن». ولكنه لم يطبع[٢].

---

(١) انظر فصل «القصة في القرآن» من كتاب التصوير الفني في القرآن.

(٢) انظر مبحث «بحوث له لم تنشر» من كتاب «سيد قطب الشهيد الحي».

ومع ذلك فقد كان هذا الفصل الموجز في كتاب التصوير الفني مرجعاً لمعظم من كتب في القصة القرآنية بعد سيد قطب.

وإذا كانت وقفة سيد أمام القصة القرآنية في كتاب التصوير الفني وقفة بيانية جمالية، وتحليلـه لها تحليلاً فنياً تصويرياً، فإنه في الظلال قد تناولها من عدة جوانب، ونظر لها من عدة زوايا، وحللها من عدة أسس، وعرضها بعدة طرق، فكان حديثه عنها فنياً جمالياً، ونقدياً تحليلياً، ومنهجياً أثرياً سلفياً، وفكرياً موضوعياً، وتربوياً حركياً..

وكثيراً ما كان يحيل على فصل القصة في القرآن المشار إليه، مما يوحي بأنه لم يستبعد كلامه في هذا الفصل، وإنما اعتمده وبنى عليه وأضاف إليه المزيد في الظلال[1].

القصص القرآني في رأي سيد قطب قصص واقعي وليس خيالياً، وهو متناسق مع السياق القرآني، فقد تعرض القصة في عدة سور، ولكن بدون تكرار، وإنما تعرض منها حلقات متناسقة ومتناسبة مع موضوع السورة، وتحقق أهداف السورة وأغراضها، وهو في حديثه عن القصص القرآني لم يذهب إلى تيه الإسرائيليات والخرافات والأساطير، ولم يخض في ذلك مع الخائضين، ولا خبط مع الخابطين من السابقين، وإنما كان حريصاً على البقاء في جو النص القرآني، وإذا تجاوزه فإلى الحديث النبوي الصحيح، واستعاض عن الخرافات والأباطيل في عرضه للقصص بالحديث عن دلالات القصص العقيدية والفكرية والدعوية والحركية. والتحليلات الفنية والأدبية والبيانية لها.

وتتفاوت وقفاته أمام القصص القرآني في الظلال، فبعضها قصير جداً لا يتجاوز بضعة أسطر، وبعضها مطول يبلغ عدة صفحات. وكانت أطول وقفاته وأعمقها نظراً، وأشملها تحليلاً، وأوضحها نقداً بيانياً في مقدمته لسورة

---

(١) انظر على سبيل المثال ـ الظلال ١: ٥٥ و ٨٠ و ٣٩١.

يوسف وتحليلاته الفنية والفكرية والدعوية والتاريخية لقصة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام[1] ـ.

كانت أول وقفات سيد في الظلال أمام قصص القرآن، في تفسيره لقصة خلق آدم كما وردت في سورة البقرة ـ باعتبارها أول قصة في القرآن حسب ترتيب سوره ـ وتحدث في هذه الوقفة حديثاً منهجياً موضوعياً، عن التناسب بين القصة والسورة التي تعرض فيها. وعن التكرار في القصة. وناقش الذين يدّعون أن القصة القرآنية ليست واقعية، أو أن فيها إضافات ليست واقعية. ونظراً لقيمة كلامه في إعطاء رأيه حول هذه القضايا المتعلقة بالقصة، فإننا نورده فيما يلي:

«يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات. وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدى بها. تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي. وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى.. ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار..»[2].

ورأى سيد من المناسب في هذا المقام أن يرد على الذين يزعمون أن القصص القرآني مختلق، وأنه خيالي وليس واقعياً، وأن القرآن كان يتصرف ببعض حوادث القصة ويخلقها ويختلقها من أجل المتعة الجمالية والأداء الفني.. ومن ثم فقصص القرآن «أساطير» بهذا الاعتبار..

---

(١) انظر الظلال ٤: ١٩٥١ ـ ١٩٦٨.

(٢) الظلال ١: ٥٥.

ولقد وجه هذا المطعن المغلوط إلى قصص القرآن، المستشرقون من أعداء هذا الدين في حربهم للقرآن، وقد تلقف هذا المطعن «المستغربون» من العرب، ورددوها في كتاباتهم، وكان من أول من ردد هذا الدكتور محمد أحمد خلف الله ـ تلميذ أمين الخولي وعضو مدرسة الأمناء الأدبية ـ حيث أعد رسالة لنيل الدكتوراه بعنوان «الفن القصصي في القرآن» ـ أشرف عليه فيها شيخه أمين الخولي ـ وفيها يقول:

«إن ما بالقصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام عن التاريخ. وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع»[1].

ويقول عن القصص القرآني بأنه «يمثل نفسية النبي، ويمثلها في أدق مراحلها، وفي أعنف صورها»[2].

ويقول «إن المسألة في القصة القرآنية هي بعينها مسائل الصور البيانية من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية. . . الخ وأنها من هنا لا توصف بتصديق ولا بتكذيب، وإنما هي العرض الأدبي الذي يهز العاطفة ويستثير الوجدان»[3].

ويخرج خلف الله من هذه المقدمات المغلوطة بنتيجة خاطئة مغلوطة ـ تعتبر ترديداً لشبهات كفار قريش ضد القرآن ـ إذ يقول: «إذا كان كل هذا ثابتاً، فانا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير. . »[4].

ولقد اطلع سيد على كتاب خلف الله وساءته أفكاره الخاطئة المغلوطة، ولذلك رد على هذه الأفكار بعبارات موجزة فقال: «ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن ـ بمعنى التزويق الذي لا يتقيد بواقع ـ ولكن الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا

---

(١) الفن القصصي في القرآن للدكتور محمد أحمد خلف الله: ٢٥٥.
(٢) المرجع السابق: ٣٣٧.
(٣) المرجع السابق: ١٣٨.
(٤) المرجع السابق: ١٨٠.

القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة، هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصص في كل موضع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهاج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ. وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء»[1].

القصص القرآني قصص واقعي حادث فعلاً، والقرآن يعرض قصصه الواقعية لأغراض واقعية وليحقق بها أهدافاً حركية واقعية: «إن القرآن لا يقص قصة إلا ليواجه بها حالة، ولا يقرر حقيقة إلا ليغير بها باطلاً.. إنه يتحرك حركة واقعية حية في وسط واقعي حي. إنه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد، ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفني..»[2].

والقصص القرآني يعرض متناسباً مع السياق، فالحلقات التي تعرض من القصة تتفق مع موضوع السورة التي وردت فيها وتلتقي معها لتحقيق أغراض السورة وأهدافها، فقصة نوح ـ عليه السلام ـ وردت في سورة الأعراف مختصرة، والحلقات التي عرضت منها تحقق أهداف سورة الأعراف: «تعرض القصة هنا باختصار، ليست فيها التفصيلات التي ترد في مواضع أخرى من القرآن في سياق يتطلب تلك التفصيلات كالذي جاء في سورة هود، وفي سورة نوح.. إن الهدف هنا هو تصوير تلك المعالم التي تحدثنا عنها آنفاً: طبيعة العقيدة. طريقة التبليغ. طبيعة استقبال القوم لها. حقيقة مشاعر الرسول. تحقق النذير.. لذلك تذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم على منهج القصص القرآني..!!»[3].

وإذا كانت الحلقات المعروضة من قصة نوح ـ عليه السلام ـ متناسبة

---

(١) الظلال ١: ٥٥.

(٢) الظلال ٢: ١٢٤٥.

(٣) الظلال ٣: ١٣٠٨.

مع سياق السورة وتلتقي على تحقيق أهدافها. . فإن القصة في سورة يونس لا تعرض منها إلا حلقة واحدة: هي الحلقة الأخيرة. لأن هذا وحده يكفي لتحقيق أغراض السورة ويتناسب مع سياقها: «إن الحلقة التي تعرض هنا من قصة نوح هي الحلقة الأخيرة: حلقة التحدي الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل. ولا يذكر في هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان، ولا التفصيلات في تلك الحلقة، لأن الهدف هو إبراز التحدي والاستعانة بالله وحده، ونجاة الرسول ومن معه، وهم قلة، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة. لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة، لأن هذا هو السياق في هذا الموضع[1]. .

أما في سورة هود فقد وردت قصة نوح مفصلة بعض الشيء ـ وبخاصة السفينة والطوفان ـ لأن القصص هو قوام سورة هود جاء يحقق أهدافها وأغراضها، ومصداقاً للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتحقيقها. . . ولذلك كانت الحلقات المعروضة من قصة نوح متناسبة مع سياق السورة ومقررة لحقائقها[2]. .

وفي سورة الشعراء كانت الحلقة المعروضة من قصة نوح متناسبة مع موضوع السورة أيضاً، ومع الجو العام الذي نزلت فيه سورة الشعراء وواقع الدعوة يومها في مكة، وواقع المواجهة بين الرسول ـ ﷺ ـ وبين المشركين في مكة[3].

«أما سورة نوح فإنها خصصت لحديث مفصل ـ بعض الشيء ـ لقصة نوح عليه السلام مع قومه: بهدف وصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض، ودورة من دورات العلاج الدائم للبشرية، وتعرض شوطاً من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر. . وهذه التجربة تكشف عن صورة من

---

(١) الظلال ٣: ١٨١٠.

(٢) انظر الظلال ٤: ١٨٧٠.

(٣) انظر الظلال ٥: ٢٦٠٦.

صور البشرية العنيدة الضالة الكافرة. . وصورة من صور الرحمة الإلهية في إرسال الرسل. . وصورة من صور الجهد المضني، والعناء المرهق، والصبر الجميل، والإصرار الكريم الذي قام به نوح ـ عليه السلام ـ وقد عرضت هذه الصور من خلال السورة ـ بعرض قصة نوح مفصلة على رسول الله ـ ﷺ ـ في مكة، وعلى الجماعة المسلمة في مكة، وعلى المشركين في مكة، وعلى الأمة المسلمة بعامة[1]. . » .

وكما كانت القصة متناسبة مع موضوع السورة، وتعرض الحلقات التي تتفق مع أهداف السورة، كذلك نجد أن بعض السور تعرض عدة قصص. ولها طريقتها في عرض القصص. . فبعضها يعرضها حسب الخط التاريخي، وبعضها يعرضها بدون ترتيب تاريخي!!!.

فسورة الأعراف تعرض القصص حسب وجودها التاريخي: قصة نوح ثم قصة هود. ثم قصة صالح، ثم قصة لوط. ثم قصة شعيب. ثم قصة موسى. . . . عليهم الصلاة والسلام. . وذلك لأن القصص في الأعراف «يعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى، ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق. . »[2].

وسورة هود كذلك تعرض السور حسب تسلسلها التاريخي «فيبدأ بنوح، ثم هود، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط، ثم شعيب، ثم إشارة إلى موسى ويشير إلى الخط التاريخي. لأنه يُذكّر التالين بمصير السابقين على التوالي بهذا الترتيب»[3].

وبما أن السورتين ـ تعرضان القصص القرآني حسب تسلسله التاريخي فقد لفت نظر سيد عدم وجود حديث عن قصة إبراهيم في سورة الأعراف ـ ولو كانت إشارة ـ وبعد نظر وتأمل أدرك أن موضوع الأعراف هو الذي دعا إلى عدم الحديث عن هذه القصة: «ذلك أن السياق يتحرى مصارع المكذبين. .

---

(١) انظر الظلال ٦: ٣٧٠٦ ـ ٣٧٠٧.

(٢) انظر الظلال ٣: ١٣٠٤.

(٣) الظلال ٤: ١٨٧٠.

وهذا القصص إنما هو تفصيل لهذا الإجمال في إهلاك القوى التي كذبت بالنذير. . وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يطلب من ربه هلاكهم. . بل اعتزلهم ومايدعون من دون الله. . »(١).

أما سورة الشعراء فإنها لا تعرض القصص القرآني حسب الخط التاريخي بل عرضتها هكذا: قصة موسى. ثم قصة إبراهيم. ثم قصة نوح. ثم قصة صالح ثم قصة لوط. ثم قصة شعيب. لأن المقصود ليس هو التسلسل التاريخي، وإنما المقصود العبرة والعظة(٢). .

إن قصص القرآن لها مهمة حركية، ومهمة تربوية دعوية. . لأنها من موضوعات القرآن التي تتمثل فيها طبيعة القرآن الواقعية الحركية العملية. . فقد «كان هذا القصص يتنزل على رسول الله ـ ﷺ ـ في مكة. والقلة المؤمنة معه محصورة في شعابها، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها، والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق، ويريهم معالمه في مراحله جميعاً، ويأخذ بأيديهم وينقل خطواتهم في هذاالطريق وقد بات لا حباً موصولاً بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشري. . . »(٣).

وأبرز ما تكون هذه المهمة وضوحاً في قصة يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ التي نزلت في الفترة الحرجة، في مكة. وقد أشار سيد إلى هذا، وإلى دلالاتها وإيحاءاتها التربوية الحركية للحركة الإسلامية عموماً(٤).

وعندما ينظر سيد في القصص القرآني فإنه ينظر فيه من عدة زوايا: الزاوية الفنية. والزاوية الفكرية. والزاوية الحركية.

ففي قصة البقرة ـ على سبيل المثال ـ القصيرة «كما يعرضها السياق

---

(١) الظلال ٣: ١٣١٤.

(٢) انظر الظلال ٥: ٢٦٠٠.

(٣) الظلال ٤: ١٩٤٨.

(٤) أنظر الظلال ٤: ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ و ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥.

القرآني مجال للنظر في جوانب شتى. . جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة. وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة. . ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءاً ونهاية واتساقاً مع السياق. . »[١].

وقد حلل سيد قطب القصة، وبين فيها هذه الجوانب الثلاثة بالتفصيل[٢]. وهو في تفسير القصص القرآني يبقى في جو النص القرآني. ولا يذهب إلى الإسرائيليات والأساطير في عرض حوادثها أو تعيين مبهماتها، كما نص على منهجه في ذلك في تفسير قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم[٣]. وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه[٤]. . بل إنه نص في تفسيره لقصة موسى مع فرعون كما وردت في سورة القصص بأن «التحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية، ولا يزيد في دلالتها شيئاً»[٥]. ولذلك لا يجوز تحديد ذلك وأخذه عن المصادر غير الموثوقة، ومجاوزة الدائرة اليقينية المأمونة في هذا.

كذلك قصة قارون ـ كما هي في سورة القصص ـ لا يحدد القرآن زمانها ولا مكانها، وإذا كانت الروايات ـ غير الموثوقة قد خاضت وتفرقت في هذا التحديد فإننا «لسنا في حاجة إلى كل هذه الروايات. ولا إلى تحديد الزمان والمكان. فالقصة كما وردت في القرآن كافية لأداء الغرض منها في سياق السورة، ولتقرير القيم والقواعد التي جاءت لتقريرها. ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد في دلالتها شيئاً ما ترك تحديدها. فلنستعرضها إذن في صورتها القرآنية بعيدة عن تلك الروايات التي لا طائل وراءها[٦]. .

---

(١) الظلال ١ : ٧٧.

(٢) انظر الظلال ١ : ٧٧ ـ ٨٠ وانظر أيضاً في ١ : ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

(٣) انظر الظلال ١ : ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٤) انظر الظلال ١ : ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٥) الظلال ٥ : ٢٦٧٧.

(٦) الظلال ٥ : ٢٧١٠.

ويستعيض عن الروايات غير الثابتة والإسرائيليات بالحديث عن دلالات القصة وحقائقها وإيحاءاتها، ويعرض دروسها وعبرها. كما فعل في تفسير قصة بني إسرائيل مع ملكهم «طالوت» إذ عرض العبرة الكلية التربوية الحركية التي تبرز منها. وأهم العبر والعظات الجزئية التربوية الحركية أيضاً[1].

إن نظرة سيد قطب إلى القصص القرآني ناتجة عن نظرته إلى نصوص القـرآن وثقته المطلقة بها، وإن طريقته في تفسير القصص القرآني تطبيق لقواعد منهجه في تفسير القرآن. وإنه بتحليلاته الفنية لهذا القصص، والتفاته إلى حقائقه الفكرية والتصورية، وبيانه دروسه الحركية والتربوية والدعوية يحقق أهداف الظلال التي جعلها نصب عينيه وهو يفسر القرآن. . .

---

(١) انظر الظلال ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

المبحث السادس

آيات العقيدة

كان القرآن الكريم يركز على العقيدة، ويشير إليها في مختلف الآيات المكية والمدنية، ويتحدث عن حقائقها وقضاياها، ويعرض لموضوعاتها وخصائصها.

والآيات التي تعرضها كثيرة في القرآن، مما يوحي بأنها موضوع القرآن الأساسي. وقد لاحظ سيد قطب ذلك فقال: «فتعريف الألوهية الحقة، وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها، والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق، واعترافهم بالقوامة والربوبية والحاكمية له وحده.. هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله... وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها...»[١].

أما أهم موضوعات هذه العقيدة عند سيد قطب - والتي بينها القرآن بياناً شاملاً وافياً - فهي: حقيقة الألوهية وخصائصها. وقضية الألوهية والعبودية وحقيقة الغيب - بما فيه القدر والدار الآخرة - وحقيقة الإنسان. وحقيقة الكون وحقيقة الحياة[٢].

ونتيجة لذلك فقد ركز سيد على العقيدة ومباحثها وموضوعاتها في الظلال تركيزاً خاصاً، وتوسع في الحديث عنها، وناقش قضاياها، وجلى

(١) الظلال ٣: ١٧٥٣.

(٢) انظر الظلال ٣: ١٧٨٩.

جزئياتها على أحسن صورة. بل لقد كان من قواعد منهجه في التفسير «بيان أهمية العقيدة وأثرها».

وهو في نظرته إلى العقيدة وفهمه لها يكتفي بأخذها من القرآن الكريم - والحديث الصحيح كذلك - ولا يجيز أخذها من أي مصدر آخر. فهو يرى أن القرآن فيه ما يكفي ويغني في ذلك.

وقد أخرج بحثاً خاصاً في هذا، وهو من أعمق وأنضج وأجود بحوثه ودراساته وهو «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته».

ولسيد منهج واضح في أخذه حقائق العقيدة من القرآن عبر عنه - في كتاب خصائص التصور الإسلامي - الذي يعتبر بحق دراسة قرآنية - بقوله: «منهجنا - إذن - في هذا البحث عن خصائص التصور الإسلامي ومقوماته أن نستلهم القرآن الكريم مباشرة - بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً - وأن نستحضر - بقدر الإمكان - الجو الذي تنزلت فيه كلمات الله للبشر، والملابسات الاعتقادية والاجتماعية والسياسية التي كانت البشرية تتيه فيها وقت أن جاءها هذا الهدى. ثم التيه الذي ضلت فيه بعد انحرافها عن الهدي الإلٓهي . .».

أما منهجه في استلهام القرآن فيتحدد بقوله: (ومنهجنا في استلهام القرآن ألا نواجهه بمقررات سابقة إطلاقاً، لا مقررات عقلية ولا مقررات شعورية - من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاته -)[1].

وقد تحدثنا في فصول ومباحث سابقة بالتفصيل عن نظرة سيد قطب إلى العقيدة، وإخراجها من آيات القرآن، وتجاوز الخلاف المذهبي والكلامي فيها، والتركيز عليها وبيان أهميتها وآثارها في الحياة. مما يجعلنا في هذا المبحث نحيل على تلك الفصول والمباحث والأمثلة التي أوردناها فيها من الظلال[2].

---

(١) خصائص التصور الإسلامي: ١٦ - ١٧.
(٢) انظر الظلال نقلة بعيدة في التفسير في كتاب «مدخل إلى ظلال القرآن» و(بيان أهمية العقيدة =

كثيراً ما كان يقف أمام حقيقة (الغيب) وهو يفسر الآيات التي تعرضها. (ذلك أن حقيقة الغيب من مقومات التصور الإسلامي الأساسية، لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية، ومن قواعد الإيمان الرئيسية)[1] بل كانت له وقفة مطولة في تفسير سورة الأنعام تحدث فيها عن معنى الغيب وحقيقته وموقف العلم منه ونظرته له وكانت هذه الوقفة أشبه ما تكون بتفسير موضوعي متكامل، أورد فيها مختلف الآيات التي تعرض صفات المؤمنين ـ ومنها إيمانهم بالغيب ـ والآيات التي تشير إلى علم الإنسان المحدود القليل بالقياس إلى حقائق هذا الوجود. ثم أورد أقوالاً لعلماء معاصرين غربيين ـ للاستشهاد بها ـ يقررون فيها اعتراف العلم الحديث بحقيقة الغيب وتسليمه بها، ويعرضون مظاهر وأمثلة لذلك.. ثم تحدث عن طبيعة الغيب في العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي والعقلية الإسلامية[2].

وخرج من وقفته بنتائج قاطعة منها: «إن الغيب هو الحقيقة العلمية الوحيدة المستيقنة من وراء كل التجارب والبحوث والعلم الإنساني ذاته! وأن «العلمية» في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماماً «للغيبية».. أما الذي يقابل الغيبية حقاً فهو «الجهلية»!! الجهلية التي تعيش في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ـ ربما ـ ولكنها لا تعيش بالقرن العشرين»[3].

ولذلك فإن «الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها «الفرد» فيتجاوز مرتبة «الحيوان» الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة «الإنسان» الذي يدرك أن الوجود أشمل وأكبر من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس ـ أو الأجهزة التي هي امتداد اللحواس»[4].

= وأثرها) و (إزالة التعارض الموهوم بين النصوص) في الفصل الثالث من الباب السابق من هذا الكتاب.

(١) الظلال ٢: ١١٣.

(٢) انظر الظلال ٢: ١١١٣ ـ ١١٢١.

(٣) الظلال ٢: ١١١٥.

(٤) الظلال ٢: ١١٢٠ ـ وانظر الظلال ١: ٣٩ ـ ٤٠.

وينتج عن ذلك «أن العقلية الإسلامية عقلية «غيبية علمية» لأن الغيبية هي العلمية بشهادة العلم والواقع.. أما التنكر للغيب فهو «الجهلية» التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة!»[1].

أما تفسيره للآيات التي تعرض حقائق غيبية، أو أحداثاً وقعت وهي «غيب» بالنسبة لنا، فإنه يبقى في جو القرآن الكريم، ويتلقى إيحاءاتها ودلالاتها وحقائقها منها، ولا يخوض فيها بعقله، لأنه يؤمن أن هذا العقل - الذي هو منحة من الله - لم يوهب الاستعدادات والقدرة على البحث في عالـم الغيب، فأمامه المجال الواسع في عالم الشهادة..

تساءل - في تفسيره لقصة آدم في مطلع سورة البقرة عن المكان الذي جرت به حوادث القصة، والجنة التي كان فيها مع زوجه، وكيف قال الله للملائكة وكيف أجابوه؟

وقرر هذه الحقيقة في إجابته على تلك الأسئلة بقوله: (وهذا وأمثاله في القرآن غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به، بالأداة التي وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على هذا الغيب، وبقدر ما سخر للإنسان من النواميس الكونية وعرفه بأسرارها، بقدر ما حجب عنه أسرار الغيب، فيما لا جدوى له في معرفته...»[2].

وطالما أن العقل البشري غير مؤهل أصلاً لإدراك أحداث عالم الغيب فيجب عليه أن يتلقى النصوص القرآنية وحقائقها ودلالتها، وأن يبقى في جوها وفي حدودها.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء..﴾[3] ولا ندخل في تحديد هذه الأيام

---

(١) الظلال ١: ٥٩.

(٢) هود: ٧.

الستة. فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها. إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية..

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله، الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر. فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه..»[1].

أما المقطع الثاني من الآية: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ فقد تساءل حوله أسئلة، وقرر هذه الحقيقة في إجابته عليها: «أما كيف كان هذا الماء وأين كان، وفي أية حالة من حالاته كان. وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء. فزيادات لم يتعرض لها النص، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر علمه إلا هذا النص وفي حدوده..»[2].

ولذلك يتجه إلى فهم الحقائق والمعاني التي تشير إليها الآية التي تعرض أو تقرر أموراً غيبية، وبيانها للقراء، ويدعوهم إلى التعامل معها على هذا الأساس.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به، ويستغفرون للذين آمنوا﴾[3] قرر هذا بقوله: (ونحن لا نعرف ما هو العرش؟ ولا نملك صورة له، ولا نعرف كيف يحمله حملته، ولا كيف يكون من حوله، حوله، ولا جدوى من الجري وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشري أن يلم بها، ولا من الجدل حول غيبيات لم يطلع الله أحداً من المتجادلين عليها. وكل ما يتصل بالحقيقة التي يقررها سياق السورة أن عباداً لله مقربين يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به. يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن..»[4].

---

(١) الظلال ٣: ١٧٦٢.
(٢) الظلال ٤: ١٨٥٧.
(٣) غافر: ٧.
(٤) الظلال ٥: ٣٠٧٠ - ٣٠٧١.

وحتى يكون فهمه لآيات العقيدة صحيحاً، وتفسيره لها صائباً، تجاوز عصر الخلاف المذهبي والكلامي بين المسلمين، وتجاوز أقوال الفرق الإسلامية على اختلاف أسمائها، وأخذ ينهل من معين القرآن الصافي. ويتلقى تقريراته وحقائقه حول العقيدة ومباحثها وقضاياها.. لقد أخذ العقيدة من القرآن الكريم، ولم يكن في هذا منتمياً لأية فرقة من الفرق الكلامية الإسلامية ويصح أن نقول عنه إنه أخذ «العقيدة قبل الاختلاف» لقد دخل عالم القرآن الكريم بدون مقررات فكرية أو تصورية سابقة، واستلهم آياته مباشرة، وأوحت له بمعانيها ودلالتها.. وقد أشرنا في فصل «الظلال نقلة بعيدة في التفسير» أن هذه المزية لسيد ولظلاله من أهم المزايا لهما، وأنه بها حقق الشروط لتفسير معاصر..

إنه لم يعرض العقيدة في الصورة التي عرضتها فيها الفرق الكلامية ولا في قالب (علم الكلام) أو (علم التوحيد) كما فعل رجال الفرق أيضاً. وإنما عرض العقيدة كما هي في سياق القرآن، وفسرها كما توحي بذلك آيات القرآن، وأدرك حقائقها ومباحثها وقضاياها كما يقرر القرآن.

وكان يقف في تفسيره لآيات العقيدة لينتقد منهج بحث العقيدة الذي سار عليه رجال الكلام. ويأخذ عليهم طريقتهم في عرض موضوعات وقضايا العقيدة، ومن ثم يرفض النتائج التي خرجوا بها، والآراء التي سجلوها.

من ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات.. ﴾[1].. (ويكثر المفسرون والمتكلمون هنا من الكلام عن خلق الأرض والسماء، ويتحدثون عن القبلية والبعدية. ويتحدثون عن الاستواء والتسوية.. وينسون أن «قبل» و«بعد» اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى، وينسون أن الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان يقربان إلى التصور البشري المحدود صورة غير المحدود.. ولا يزيدان، وما كان الجدل الكلامي الذي

---

(١) البقرة: ٢٩.

ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات القرآنية، إلا آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى، عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية، وللعقلية الإسلامية الناصعة.. وما كان لنا نحن اليوم أن نقع في هذه الآفة فنفسد جمال العقيدة وجمال القرآن بقضايا علم الكلام[1].

وحتى يخرج برأي صائب صحيح في موضوع العقيدة، كان يجمع الآيات المتشابهة التي تتحدث عن الموضوع الواحد، ويوفق بينها، ويخرج منها كلها بدلالة عامة أو حقيقة موحدة.. وكان يأخذ على «علماء الكلام» من المسلمين أنهم لم يفعلوا ذلك، وإنما تناولوا هذه الآيات كل آية وحدها فكانت نظرتهم جزئية، وفعلهم تجزيئي، وأحكامهم وآراؤهم قاصرة..

قضية «القضاء و القدر» أو «الجبر والاختيار» أو «الإرادة والكسب» والتي أشغلت علماء الكلام، عند سيد قطب ميسرة وليست معقدة، وواضحة لا لبس فيها، وذلك لأنه جمع الآيات المتفرقة التي تتحدث عنها. قال: (النصوص القرآنية تقول: إن كل ما يحدث بإرادة الله وقدره. وتقول في الوقت ذاته إن الإنسان يريد ويعمل ويحاسَب على إرادته وعمله.. والقرآن كله كلام الله، ولن يعارض بعضه بعضاً. فلا بدّ إذن أن تكون هناك نسبة معينة بين هذا القول وذاك، ولا بدّ إذن أن يكون هناك مجال لإرادة الإنسان وعمله يكفي لحسابه عليه وجزائه، دون أن يتعارض هذا مع مجال الإرادة الربانية والقدر الإلٰهي. كيف؟ هذا ما لا سبيل لبيانه، لأن العقل البشري غير كفء لإدراك كيفيات عمل الله!)[2].

وهذا الجمع بين النصوص جعله يخرج منه بنتيجة قاطعة ـ في موضوع الجبر والاختيار ـ عبر عنه بجملة واحدة فقال: (لا جبرية إذن في تصرفات الناس، ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها) وعلق على هذه العبارة في

---

(١) الظلال ١: ٥٣ وانظر الظلال ٢: ١٠٦٦ و٣: ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥.

(٢) الظلال ٢: ٧١٩ وانظر نفس الموضوع في الظلال ٢: ١٠٦٦ و٣: ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥.

الحاشية بأنه جعلها قاعدة له في تفسير آيات المشيئة: (وقد جرينا على هذه القاعدة في تفسير آيات المشيئة، فلم تلتو علينا حتى الآن. وعلى الله التوفيق)[(١)].

وفي موضع آخر فسر فيه آيات تقرر طلاقة مشيئة الله سبحانه، وتتحدث عن الهدى والضلال أو القضاء والقدر، تحدث عن هذا الموضوع أيضاً، ودلنا على طريقته في فهمها، إذ جمع الآيات المتاشبهة في هذا الموضوع، وانتقد صنيع علماء الكلام في هذا الأمر والنتائج الخاطئة التي خرجوا بها.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ من يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾[(٢)].

(ومن مراجعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية، والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً..).

وبعد ما قرر خلاصة هذه الآيات مجتمعة بشأن القضاء والقدر بيَّن أن الطريق إلى الفهم الصحيح للآيات لا يكون إلا بجمعها والنظر فيها مجتمعة، فقال: (هذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر، على سبيل الاحتجاج والجدل)[(٣)].

يخلص لنا ـ في ختام هذا المبحث ـ اهتمام سيد بآيات العقيدة وتركيزه عليها باعتبارها الموضوع الأساسي للقرآن، ووقوفه مع النصوص في تفسير آيات الغيب، وعدم إعمال عقله فيها ـ لأنه لم يزود لذلك ـ ودخوله عالم

---

(١) الظلال ٣: ١٨٢١ مع ملاحظة الحاشية.

(٢) الأعراف: ١٧٨.

(٣) الظلال ٣: ١٤٠٠.

القرآن بدون مقررات سابقة بل استلهامها مباشرة والإيمان بكل ما تلقيه وتوحي به، والاهتمام بآثار العقيدة ودورها، وتجاوز مرحلة الخلاف المذهبي والكلامي وأقوالهم واختلافاتهم حولها إلى القرآن مباشرة. وجمع الآيات المتشابهة في الموضوع الواحد والخروج بدلالاتها مجتمعة...

المبحث السادس

«آيات الأحكام»

لم يجعل سيد قطب ظلاله ميداناً للحديث الفقهي الموسع، ولا مجالاً لعرض الأقوال والمذاهب الفقهية وأدلتها ونقاشاتها وجدالها لأنه لا يتبع مدرسة التفسير الفقهي، وليس خاصاً بتفسير آيات الأحكام!

فماذا كان يفعل عندما كان يوجه آيات الأحكام؟ كيف كان يفسرها؟ وما هي طريقته في عرض الأحكام الفقهية؟ وما هو موقفه من الخلاف الفقهي؟

في الظلال حديث متفرق عن الأحكام الفقهية. ووقفات متفاوتة أمام الآيات التي تقررها، ورأي خاص في ترتيب الأبواب والكتب الفقهية. وموقف خاص من الفقه الإسلامي حسب ترتيب الأولويات في العمل الإسلامي المعاصر.

كما أن له موقفاً من «الاجتهاد» وأهميته ومكانته، ومن ثم له ترجيحات في المسائل الفقهية التي عرضها، لا يلتزم فيها «بالمذهبية الفقهية».

أدرك سيد نشأة الفقه الإسلامي المرتبطة بنشأة الجماعة المسلمة ونموها الحركي، وحركتها الواقعية بدينها.. ولذلك يدعو المسلمين المعاصرين - وبخاصة المشتغلين بقضايا الفقه الإسلامي - إلى ملاحظة هذا وإدراكه حقاً، ليعرفوا من أين يبدأون! «إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ..!» لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم، ونشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية. كذلك لم يكن الفقه الإسلامي هو الذي أنشأ المجتمع

المسلم، إنما كان المجتمع المسلم بحركته الواقعية لمواجهة حاجات الحياة الإسلامية هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي.

وهاتان الحقيقتان التاريخيتان الواقعيتان عظيمتا الدلالة، كما أنهما ضروريتان لفهم طبيعة الفقه الإسلامي، وإدراك الطبيعة الحركية للأحكام الفقهية الإسلامية.

والذين يأخذون اليوم تلك النصوص والأحكام المدونة، دون إدراك لهاتين الحقيقتين، ودون مراجعة للظروف والملابسات التي نزلت فيها تلك النصوص ونشأت فيها تلك الأحكام، ودون استحضار لطبيعة الجو والبيئة والحالة التي كانت تلك النصوص تلبيها وتوجهها، وكانت تلك الأحكام تصاغ فيها وتحكمها وتعيش فيها.. الذين يفعلون ذلك، ويحاولون تطبيق هذه الأحكام كأنها نشأت في فراغ، وكأنها اليوم يمكن أن تعيش في فراغ.. هؤلاء ليسوا «فقهاء» وليس لهم «فقه» بطبيعة الفقه، وبطبيعة هذا الدين أصلاً!»[1].

ونجد في هذا النص أن سيد يرسم الطريق لفهم الفقه، ويحدد المنهج السليم للبحث الفقهي، ويضع خطة منهجية للعمل الفقهي المنشود:

١ ـ لقد نشأ الفقه الإسلامي في مجتمع مسلم عامل متحرك بدينه.
٢ ـ المجتمع المسلم المتحرك هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي وليس العكس.
٣ ـ وجوب مراجعة الظروف والملابسات التي نزلت فيها النصوص.
٤ ـ وجوب ملاحظة نشأة الأحكام وملامحها.
٥ ـ وجوب ملاحظة طبيعة وجو البيئة والحالة التي كانت الأحكام الفقهية تواجهها وتعالجها وتعيش فيها..

ونظراً لإدراك سيد لطبيعة الفقه الإسلامي ونشأته وخطته فإنه لم يكن يتوسع في الحديث عن القضايا والمسائل الفقهية النظرية، ولا الآراء الافتراضية.

---

(١) الظلال ٤: ٢٠٠٦، وانظر كلاماً مشابهاً في الظلال ٣: ١٥١٨ ـ ١٥١٩ و٣: ١٧٣٥ ـ ١٧٣٦ و٣: ١٦٣٤ والظلال ٢: ٩٨٤ ـ ٩٨٨.

فموضوع (الغنائم) في العصر الحاضر لا يعتبر مسألة فقهية حية واقعية، لأنه ناتج عن الجهاد الإسلامي الذي تمارسه الدولة المسلمة والمجتمع المسلم وهما مفقودان في هذا العصر. . لذلك تجاوز سيد هذا الموضوع من الناحية الفقهية. . .

(وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعاً إسلامياً يواجهنا اليوم أصلاً فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد في سبيل الله، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها. .)[1].

«من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحي الواقعي الحركي لهذا الدين لا ندخل هنا في تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم، حتى يحين وقتها عندما يشاء الله، وينشأ المجتمع الإسلامي، ويواجه حالة جهاد فعلي تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام، وحسبنا في هذه الظلال أن نتتبع الأصل الإيماني في السياق التاريخي الحركي، والمنهج القرآني التربوي. فهذا هو العنصر الثابت، الذي لا يتأثر بالزمن في هذا الكتاب الكريم. . وكل ما عداه تبع له وقائم عليه. .)[2].

لقد نظر سيد في نشأة الفقه الإسلامي المتوافقة مع نشأة وحركة المجتمع المسلم. فلم تكن هناك أحكام فقهية في العهد المكي تتعلق بالأحكام الشرعية التنفيذية. ولذلك يقرر «وأما الأحكام الشرعية فتطلب ويسأل عنها عند وقوع الأقضية التي تتطلب هذه الأحكام. . هذا هو منهج الإسلام. .

ففي طوال العهد المكي لم يتنزل حكم شرعي تنفيذي ـ وإنْ تنزلت الأوامر والنواهي عن أشياء وأعمال ـ ولكن الأحكام الشرعية التنفيذية كالحدود والتعازير والكفارات لم تتنزل إلا بعد قيام الدولة المسلمة التي تتولى تنفيذ هذه الأحكام. .».

---

(١) الظلال ٣: ١٥١٨.

(٢) الظلال ٣: ١٥١٩ وانظره أيضاً في ٢: ٩٨٤ ـ ٩٨٨ و٣: ١٦٣٤.

والتفت إلى واقع الصحابة الكرام، فإذا هم يدركون هذه الطبيعة الواقعية الحركية للأحكام «ووعى الصدر الأول هذا المنهج واتجاهه، فلم يكونوا يفتون في مسألة إلا إذا كانت قد وقعت بالفعل، وفي حدود القضية المعروضة، دون تفصيص للنصوص، ليكون للسؤال والفتوى جديتهما وتمشيهما كذلك مع ذلك المنهج التربوي الرباني. . .»[1]

ومن آرائه الفريدة في الفقه ـ والتي استخرجها من نظرته في السياق القرآني، وتلقي إيحاءاته ـ أن الفقه كله عبادة لله، لأن الحياة كلها عبادة لله، ولذلك فلا يجوز أن نقسم الفقه إلى قسمين: عبادات ومعاملات ـ إلا من باب التصنيف الموضوعي فقط ـ فالعبادات عبادة لله، والمعاملات عبادة لله، والدينونة لله يجب أن تكون في القسمين ـ لا كما يفهمه بعض المسلمين من وجوب كون العبادات لله، وجواز التفلت عن منهج الله في المعاملات. . .

نظر في سياق الآيات الأولى من سورة المائدة التي عرضت أحكاماً في الطهارة والصلاة إلى جانب أحكام في الطعام والنكاح والصيد والذبائح والتعامل مع الكفار. . فخرج من هذا بأن هذه كلها عبادات يتوجه المسلم بها ـ مخلصاً ـ إلى ربه وحده سبحانه. . وفي ذلك يقول: (إن أحكام الطهارة والصلاة كأحكام الطعام والنكاح، كأحكام الصيد في الحل والحرمة. كأحكام التعامل مع الناس في السلم والحرب. . كبقية الأحكام التالية في السورة. . كلها عبادة لله. . وكلها دين الله. . فلا انفصام في هذا الدين بين ما اصطلح أخيراً ـ في الفقه ـ على تسميته «بأحكام العبادات» وما اصطلح على تسميته «بأحكام المعاملات».

هذه التفرقة ـ التي اصطنعها «الفقه» حسب مقتضيات «التصنيف» و«التبويب» ـ لا وجود لها في أصل المنهج الرباني ولا في أصل الشريعة الإسلامية. . إن هذا المنهج يتألف من هذه وتلك على السواء. وحكم هذه كحكم تلك في أنها تؤلف دين الله وشريعته ومنهجه، وليست هذه بأوْلى من

(١) الظلال ٢ : ٩٨٧.

تلك في الطاعة والاتباع، لا، بل إن أحد الشطرين لا يقوم بغير الآخر. والدين لا يستقي إلا بتحققهما في حياة الجماعة المسلمة على السواء. كلها «عقود» من التي أمر الله المؤمنين في شأنها بالوفاء. وكلها «عبادات» ويؤديها المسلم بنية القربى إلى الله. وكلها «إسلام» وإقرار من المسلم بعبوديته لله.

ليس هنالك «عبادات» وحدها و«معاملات» وحدها.. إلا في التصنيف الفقهي.. وكلتا العبادات والمعاملات بمعناها هذا الاصطلاحي - كلها «عبادات» و«فرائض» و«عقود» مع الله. والإخلال بشيء منها إخلال بعقد الإيمان مع الله[1]..

ولقد كان هذا الرأي في الفقه الإسلامي سبباً في إدراكه الوحدة الموضوعية والتناسب الموضوعي في السياق القرآني. ففي الدرس الذي ضم الآيات من **٢٢١ - ٢٤٢** من سورة البقرة الذي عرضت فيه مجموعة من الأحكام الفقهية - في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية - بلغت اثني عشر حكماً، فقد وردت آية تتحدث عن حكم الصلاة في الخوف والأمن أثناء عرض آيات تتحدث عن الطلاق والعدة والنفقة، ووقف طويلاً - لعدة سنوات - يبحث عن الحكمة من هذا... وأخيراً - ولما أدرك الوحدة الشمولية العبادية للفقه كله - فتح الله عليه بالحكمة من هذا. وهي أن هذه الأحكام كلها عبادات: عبادة في الصلاة، وعبادة في أحكام الأسرة، وطاعة الله في أحكام الأسرة من جنس طاعته في الصلاة[2].

إن القرآن الكريم يعرض أحكام الفقه مقرونة بالعقيدة، وبتقوى الله، فصدر الآية يتحدث عن الحكم الفقهي، وتختم الآية بكلمات تربط القلب المؤمن بالله والشعور برقابته، والخوف منه والأمر بتقواه، والتذكير باليوم الآخر أو الحساب أو الميزان.. أو تشير إلى بعض صفات الله كالعلم والسمع والبصر.. وأبرز ما يكون هذا في الأحكام الفقهية التي عرضتها الآيات من: **٢٢١ - ٢٤٢** من سورة البقرة.

---

(١) الظلال ٢ : ٨٤٩.

(٢) انظر الظلال ١ : ٢٣٦ - ٢٣٨.

وفي ذلك يقول سيد مبيناً الحكمة من ربط هذه الأحكام بالعقيدة: «هذه الأحكام لا تذكر مجردة ـ كما اعتاد الناس أن يجدوها في كتب الفقه والقانون ـ. . كلا إنها تجيء في جو يشعر القلب البشري أنه يواجه قاعدة كبرى من قواعد المنهج الإلّهي للحياة البشرية، وأصلاً كبيراً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الإسلامي. وأن هذا الأصل يوصل بالله سبحانه مباشرة. . .

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الإنسان بخطر هذا الأمر وخطورته، كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته، وأن كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله. . .»[1].

كان سيد قطب صاحب نظرة «سلفية» في مباحث وقضايا الفقه الإسلامي، التي أشار إليها في الظلال، فكان يستوحي النصوص القرآنية ويستلهمها للخروج برأي في المسألة. كما في حكم الأسرى في الإسلام الذي يعرضه القرآن في قوله تعالى: ﴿ حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها ﴾[2] وقد اعتبر سيد هذه الآية «هي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى. .» وحكمهم إلى الإمام: إما أن يطلق سراحهم بلا مقابل من مال أو من فداء الأسرى المسلمين. وإما أن يطلق سراحهم مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين. وليس في الآية حالة ثالثة كالاسترقاق أو القتل. . ولكن الذي حدث فعلاً أن رسول الله ـ ﷺ ـ والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى ـ وهو الغالب ـ وقتلوا بعضهم في حالات خاصة[3]. .

وحتى يوضح كلامه هذا ويستشهد له بكلام السابقين أورد كلاماً مطولاً للجصاص في أحكام القرآن[4] وعقب عليه بذكر رأيه في حكم الأسرى ـ

---

(١) الظلال ١: ٢٣٦.

(٢) محمد: ٤.

(٣) الظلال ٦: ٣٢٨.

(٤) انظر الظلال ٦: ٣٢٨٢ ـ ٣٢٨٥.

الذي أخذه من القرآن ـ وهو: المن بدون مقابل أو الفداء. وعلق على ذلك بقوله: «وهذا هو الرأي الذي نستوحيه من النص القرآني الحاسم. ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث.. والله الموفق للصواب.. ويحسن أن يكون مفهوماً أنني أجنح إلى هذا الرأي لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده..» وختم كلامه بقوله: «إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه فأجنح إلى ذلك الرأي بإيحاء النص واتجاهه»(١).

ونظراً لتلك «السلفية» كان سيد يحب أن يأخذ الأحكام الفقهية كما هي في كتاب الله وسنّة رسوله ـ ﷺ ـ وكان يؤْثر أن يعيش مع تطبيق الصحابة الكرام لتلك الأحكام وحركتهم بها وحياتهم معها.

ففي تفسيره لآيات الصوم في سورة البقرة، ولما تعرض للحديث عن الفطر في السفر ـ كرخصة من الله سبحانه لعباده ـ لم يشأ أن يورد الأقوال والخلافات الفقهية حول فطر المسافر أو صومه، وإنما اتجه إلى السنة وحياة الصحابة في هذه المسألة وقال: «بقي أن نثبت هنا بعض ما روي من السنّة في حالات متعددة من حالات السفر، في بعضها كان التوجيه إلى الفطر، وفي بعضها لم يقع نهي عن الصيام.. وهي بمجموعها تساعد على تصور ما كان عليه السلف الصالح من إدراك للأمر، قبل أن تأخذ الأحكام شكل التقعيد الفقهي على أيدي الفقهاء المتأخرين.. وصورة سلوك أولئك السلف ـ رضوان الله عليهم ـ أملأ بالحيوية وألصق بروح هذا الدين وطبيعته، من البحوث الفقهية، ومن شأن الحياة معها وفي جوها أن تنشىء في القلب مذاقاً حياً لهذه العقيدة وخصائصها(٢)..

وكانت الأحاديث التي أوردها أحد عشر حديثاً.. وعلق على ذلك بأن بيَّن الدلالة الواقعية لتلك الأحاديث، والبعد التربوي لها «والصورة التي تنشأ في الحسّ من مجموع هذه الحالات.. إنه كانت هناك مراعاة لحالات واقعية، تقتضي توجيهاً معيناً ـ كما هو الشأن في الأحاديث التي تروى في

---

(١) الظلال ٦: ٣٢٨٥.

(٢) الظلال ١: ١٦٩.

الموضوع العام الواحد، ونجد فيها توجيهات متنوعة فالرسول ـ ﷺ ـ كان يربي وكان يواجه حالات حسّية. ولم يكن يواجهها بقوالب جامدة. .»[1]

أما حكم المريض، والمرض الذي يبيح لصاحبه الفطر، فقد بحث سيد في السنّة فلم يجد فيها تحديداً لذلك، فأخذه من جملة أقوال الفقهاء: «أما المرض فلم أجد فيه شيئاً إلا أقوال الفقهاء، والظاهر أنه مطلق في كل ما يثبت له وصف المرض، بلا تحديد في نوعه وقدره ولا خوف شدته»[2].

لم يكن سيد في إشاراته لأحكام الفقه، أو ترجيحاته لآراء الفقهاء «مذهبياً ملتزماً بمذهب من المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة. . وإنما كان «لا مذهبياً» يدور مع النص ودلالته وإيحاءه، ويأخذ من الكتاب والسنّة ما يوحيان به من أحكام، وسيان عنده ان وافق المذهب الحنفي أو الشافعي أو المالكي أو الحنبلي في هذا الرأي أو الترجيح. .

ما هو المقصود بقوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾[3] أشار سيد إلى أربعة أقوال في ذلك:

١ ـ أن اللمس يوجب الوضوء إطلاقاً.
٢ ـ أنه يوجب الوضوء إذا كان اللامس أو الملموس ممن تثور الشهوة عندهما باللمس.
٣ ـ أنه يوجب الوضوء إذا أحسّ اللامس بشهوة.
٤ ـ أنه لا يوجب الوضوء إطلاقاً، ولا العناق ولا التقبيل للزوجة، ويكون على هذا القول الرابع المقصود به الجماع الموجب للغسل.

ورجح سيد أن المقصود بالآية هو الجماع. وأن اللمس كناية عن الجماع.

---

(١) الظلال ١: ١٧٠ ـ ١٧١.
(٢) الظلال ١: ١٧١.
(٣) النساء: ٤٣.

قال: «والذي نرجحه في «أو لامستم النساء» أنه كناية عن الفعل الذي يستوجب الغسل. وبذلك نستغني هنا عن كل الخلافات في مسألة الوضوء[1].

وهو في ترجيحه هنا موافق للمذهب الحنفي الذي يحمل معنى اللمس في الآية على الجماع.

وإذا كان موافقاً للحنفية في لمس المرأة، فإنه يخالفهم في قصر الصلاة في السفر - استناداً إلى فعل رسول الله - ﷺ - فالحنفية لا يجيزون قصر الصلاة للمسافر إلا للحاج في عرفة ومزدلفة، أما ترجيح سيد فإن المسافر يقصر «في عدد الركعات بجعلها اثنتين في الصلاة الرباعية. فهذا مرخص به للمسافر إطلاقاً، بلا تخصيص حالة الخوف من الفتنة. بل هذا هو المختار في الصلاة للمسافر - كفعل رسول الله ﷺ في كل سفر - بحيث لا يجوز إكمال الصلاة في السفر في أرجح الأقوال..»[2].

وعندما تحدث عن حد «الحرابة» والذي يقرره قوله تعالى: ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوا من الأرض.. ﴾[3] تجاوز قول الجمهور - الحنفية والشافعية والحنابلة - إلى قول المالكية في بيان حد الحرابة، وكيف يقيمه الإمام على المحاربين.. قال: «ونحن نختار رأي الإمام مالك في الفقرة الأخيرة منه، وهي أن العقوبة قد توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل، لأن هذا إجراء وقائي المقصود منه أولاً منع وقوع الجريمة، والتغليظ على المفسدين في الأرض..»[4].

أما قضاء الصلاة فإنه يفهم من كلامه أنه يرجح رأي الظاهرية في أن قضاء الصلاة الفائتة لا يصح لأن الصلاة كتاب موقوت. قال: «ومن قوله

---

(١) الظلال ٢ : ٦٦٩.

(٢) الظلال ٢ : ٧٤٧.

(٣) المائدة: ٣٣.

(٤) الظلال ٢ : ٨٨٠.

تعالى: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾[1] يأخذ الظاهرية رأيهم في عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزىء ولا تصح. لأن الصلاة لا تصح إلا في ميقاتها المعين. فمتى فات الميقات فلا سبيل لإقامة الصلاة.. والجمهور على صحة قضاء الفوائت. وعلى تحسين التبكير في الأداء، والكراهية في التأخير..»[2].

والذي جعلنا نفهم من كلامه هذا ترجيحه لرأي الظاهرية ـ ولو لم ينص على ذلك ـ هو ذكره لدليلهم من القرآن وبيان وجه الاستدلال منه، بينما اكتفى بذكر قول الجمهور بدون دليل أو توجيه..

وسيد مع ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في تحريم الزواج من الكتابية التي تقول المسيح ابن الله[3]. وهو مع الإمام الجصاص ـ الحنفي ـ في كيفية قصر الصلاة عند الخوف من الكفار، وأنه قصْر في صفاتها لا في عددها[4]. وهو مع الإمام الطبري في المحرمات في سورة الأنعام وما يأكله المضطر منها ومقداره[5].. وهو مع الإمام ابن العربي ـ المالكي ـ في معنى الفرار من الكفار في المعركة وحكمه وحالاته[6]..

كان سيد يتحدث ـ أحياناً ـ عن أهمية «الاجتهاد» في الفقه الإسلامي، ويدعو ـ المؤهلين من العلماء ـ إلى ممارسته، وملاحظة السمة الحركية الواقعية للفقه الإسلامي، وارتباطه بالمجتمع الإسلامي وترتيب الأولويات في ذلك.. إن الاجتهاد ضروري للمجتمع الإسلامي، وهو مستمر نظراً لتحدد الأحداث والحوادث والقضايا لهذا المجتمع.. ولكن الاجتهاد مرحلة تالية لوجود المجتمع وقيامه. ولا يمكن أن يسبقه: إن المجتمع الإسلامي عندما يقوم «يحتاج حينئذٍ ـ وحينئذٍ فقط ـ إلى الأحكام التي تنظم علاقاته فيما بينه، كما يحتاج إلى الأحكام التي تنظم علاقاته مع غيره.. وحينئذٍ ـ وحينئذٍ فقط ـ يجتهد المجتهدون فيه، لاستنباط الأحكام التي تواجه قضاياه الواقعية ـ في

---

(١) النساء: ١٠٣.
(٢) الظلال ٢: ٧٤٩.
(٣) انظر الظلال ١: ٢٤١.
(٤) أنظر الظلال ٢: ٧٤٧.
(٥) أنظر الظلال ٣: ١٢٢٥.
(٦) أنظر الظلال ٣: ١٤٨٩.

الداخل وفي الخارج ـ وحينئذٍ ـ وحينئذٍ فقط ـ تكون لهذا الاجتهاد قيمته، لأنه تكون لهذا الاجتهاد جديته وواقعيته[1]..

أما طريقة سيد في كلامه حول آيات الأحكام فإنه ـ في معظمه ـ مجرد إشارات سريعة بدون تفصيل أو توسع في الأقوال والأدلة، أو عرض للمذاهب والآراء المختلفة في المسألة، ويذكرنا دائماً بأن التوسع والتفصيل ليس من طبيعة الظلال، ولذلك يحيل على الكتب الفقهية المتخصصة بهذا.

فعندما أشار إلى موضوع الغنائم حدد أن الظلال ليس ميداناً لها «ونحن ـ على طريقتنا في هذه الظلال ـ لا ندخل في هذه التفريعات الفقهية التي يحسن أن تطلب في مباحثها الخاصة»[2].

وعندما تحدث عن المحرمات من الحيوانات، واشتراط التذكية للمأكولات منها أشار إلى اختلاف الأقوال الفقهية فيها وفي التذكية، وأحال لطالب التفصيل على الكتب الفقهية المتخصصة[3]..

هذه هي نظرة سيد قطب إلى آيات الأحكام وطريقته في تفسيرها، وموقفه منها، إنه يربط الفقه بالمجتمع الإسلامي، ويربط الأحكام الفقهية بالعقيدة، ويجعله كله عبادة لله، ويدعو للاجتهاد في مسائله، ويدعو إلى المعالجة الواقعية له، وهو سلفي لا مذهبي ـ باتزان وعلمية وعفة لسان ـ في مسائله، ولا يتوسع فيه في الظلال.

---

(١) الظلال ٣: ١٥١٩.

(٢) الظلال ٣: ١٥١٨.

(٣) الظلال ٢: ٨٤٠ و ٨٤١.

المبحث الثامن

آيات الجهاد

انطلاقاً من منهج سيد قطب في التفسير، ومن «دخوله عالم القرآن بدون مقررات سابقة» و«بيان الملابسات التاريخية لنزول القرآن» على وجه الخصوص، فقد كان له فهم خاص لموضوع الجهاد في سبيل الله، ورأي خاص فيه.. وتوفيق فريد بين آياته، وملاحظة واعية لمراحله..

كان المسلمون في مكة مأمورين بعدم القتال، بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فما هي الحكمة من ذلك؟ ولما هاجروا إلى المدينة وقامت لهم دولة فيها أُذن لهم بالقتال، ثم كان القتال المفروض عليهم على مراحل: أن يقاتلوا من قاتلهم، ويكفوا عمن اعتزلهم، ثم أن يقاتلوا غير المعاهدين، ثم أن يقاتلوا المشركين كافة.. فما هو السر في هذا الترتيب؟ وهذه المرحلية؟.

وقف يبين الحكمة من كف المسلمين عن القتال في مكة، وسجل فيها النقاط التالية: ـ

١ ـ ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد للصحابة الكرام، الذين عاشوا قبل إسلامهم بأخلاق خاصة فردية اندفاعية.. والآن لا بدّ أن يُعوَّدوا الأخلاق الدعوية والمعاني التنظيمية.

٢ ـ وربما كان ذلك لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ ـ وبخاصة في المجتمع العربي القبلي ـ بينما لو كانت الدعوة قتالية من يومها الأول فإن موقف الكفار منها هو العناد والقتال منذ اليوم الأول.

٣ ـ وربما كان ذلك اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت، لأنه لم تكن في مكة سلطة نظامية تواجه المسلمين وتعذبهم، وإنما كان كل بيت يتكفل بتأديب وتعذيب مسلميه..

٤ ـ وربما كان ذلك لما يعلمه الله من أن كثيرين من الكفار المعاندين الذين يعذبون المسلمين الآن سيكونون من جنود الإسلام، فكيف لو قُتلوا الآن على أيدي المسلمين؟

٥ ـ وربما كان ذلك وسيلة لكسب القبائل العربية الأخرى، لأن البيئة العربية القبلية تقوم على النخوة، ولذلك تعجب ومن ثم تثور وتنتصر للمظلوم الكريم الشريف الذي يحتمل الأذى ثابتاً..

٦ ـ وربما كان ذلك لأن عدد المسلمين قليل وكانوا محصورين في مكة.. ولو واجهوا المشركين مقاتلين بالسلاح لتمت إبادتهم، وزالت الدعوة الإسلامية..

٧ ـ وربما كان ذلك لعدم وجود الضرورة العملية لحمل السلاح والقتال، فوجود الدعوة، ممثل في شخص الداعية محمد ـ ﷺ ـ وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع ـ حسب معايير النظام القبلي في ذلك الوقت ـ وهذا واضح في روايات السيرة[١].

والذي ينظر في هذه الحكم التي أوردها سيد، يعجب بالعقلية العلمية، والنظرة التأملية له، ويعترف له بالإضافة الكثيرة في موضوعات التفسير والسيرة والتاريخ والأحكام وغير ذلك..

فأما بعد الهجرة فإن الرسول ﷺ ـ لم يشرع بالقتال فوراً، وإنما عقد معاهدة مع اليهود ومع من بقي مشركاً من أهل المدينة، ومع المقيمين حولها، وكانت طبيعة المرحلة التي تمر بها الجماعة المسلمة تقتضي ذلك، وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يهدف من المعاهدة إلى أمرين:

١ ـ اعتراف سكان المدينة ومن حولها بالكيان السياسي للجماعة المسلمة،

---

(١) انظر الظلال ٢: ٧١٣ ـ ٧١٥ و ٣: ١٤٣٧ ـ ١٤٣٩.

وسلطانها الفعلي على المدينة بقيادة الرسول ـ ﷺ ـ وهذا يعني فتح المجال أمام الدعوة الإسلامية، والتحرك بتبليغها للناس بدون عوائق.

٢ ـ التفرغ ـ في هذه المرحلة ـ لقريش وعداوتها للإسلام معروفة، ومركزها بين القبائل مرموق. والقبائل تنتظر نتيجة ونهاية المعركة بين قريش والجماعة المسلمة. ولهذا كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام يرسل السرايا لتتعرض قوافل قريش، وأول سرية أرسلها بعد الهجرة بسبعة أشهر[١]..

ثم توالت المراحل بشأن الجهاد بعد ذلك بحسب قوة الجماعة المسلمة في المدينة ونموها وحركتها. نظر سيد في الآيات التي تتحدث عن الجهاد، ولاحظ الجو الذي نزلت فيه، والمرحلة التي وصلتها الجماعة المسلمة، وخرج من ذلك برأي فريد في الجهاد، وهو ما أطلق عليه اسم «المرحلية» بمعنى أن الجهاد مر مراحل مواكبة للمراحل التي مرت بها الجماعة المسلمة، فعندما كانت مستضعفة في مكة كان القتال غير مشروع، وعندما بدأت تتقوى في المدينة جاءت أحكام الجهاد: قتال من يقاتل فقط. قتال غير المعاهدين. قتال الذين يلون من الكفار. قتال المشركين كافة.

وسيد قطب في قوله بالمرحلية في أحكام الجهاد لا يوافق معظم السابقين ولا كثيراً من المعاصرين!! أما السابقون ـ الذين كانوا يعيشون في ظل الخلافة الإسلامية، ولم يدر بخلدهم أن يضعف المسلمون إلى درجه تزول فيها خلافتهم وتذهب دولتهم ـ فقالوا إن كل مراحل الجهاد السابقة منسوخة بآية «السيف» في سورة التوبة ـ باعتبارها آخر ما نزل في أحكام الجهاد ـ وهي قوله تعالى: ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد. فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾[٢].

---

(١) انظر الظلال ٣: ١٤٣٩.

(٢) التوبة: ٥ وانظر ابن كثير ٢: ٣٣٦ ـ ٣٣٧ إذ أورد أربعة أسياف: السيف الأول المشار إليه. وآية السيف الثاني في قتال أهل الكتاب: التوبة: ٢٩. وآية السيف الثالث: قتال المنافقين

أما بعض الكتاب المسلمين المعاصرين فإنهم يجعلون هذه الآيـة خاصة بحالات خاصة ويغفلون هذه المرحلية للجهاد، ويعتمدون مرحلة من مراحله المتقدمة، ولذلك يمسخون الجهاد ويشوهونه، ويحرفونه عن طبيعته إذ يقولون إنه «للدفاع» وليس إلا.

أما سيد فإنه بوسائله الموضوعية لا يقول بأنه للدفاع، وهو كذلك لا يعتبر المراحل الأولى المتقدمة منسوخة بآية السيف، وإنما يُعمِل المراحل كلها، ويُجوِّز الأخذ بأية مرحلة منها حسب قوة الجماعة المسلمة.

وفي ذلك يتحدث سيد عن مراحل الجهاد السابقة، وعن المرحلة الأخيرة له في سورة التوبة: (إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة، بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من ظروف الأمة المسلمة، بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة. ذلك أن الحركة والواقع الذي تواجهه في شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هي التي تحدد ـ عن طريق الاجتهاد المطلق ـ أي الأحكام هو أنسب للأخذ به في ظرف من الظروف، في زمان من الأزمنة، في مكان من الأمكنة، مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة، والتي يجب أن يُصار إليها، متى أصبحت الآمة المسلمة في الحال التي تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام[1]..

وفي وقفته أمام المرحلية في الجهاد التفت إلى آراء بعض المسلمين المعاصرين فيه، الذين يعتمدون مرحلة سابقة من مراحل الجهاد ـ أمام ضغط الواقع السيء البائس للمسلمين، وانطلاقاً من الهزيمة الداخلية في نفوسهم أمام الواقع الجاهلي القوي ـ ويعتبرونها هي الممثلة لطبيعة الجهاد العامة، ويغفلون المرحلة النهائية للجهاد في سورة التوبة.

فأجاز للأمة المسلمة ـ في مرحلة الضعف ـ أن تأخذ بمرحلة من مراحل الجهاد السابقة، لكن على أنها مرحلة، وليست صفة عامة وحكماً

التحريم: ٩. وآية السيف الرابع: قتال الباغين من المسلمين: الحجرات: ٩. وهذا معنى قولهم: «بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف».

(١) الظلال ٣: ١٥٨٠.

نهائياً، وأنها حالة اضطرارية خاصة يجب العمل على تجاوزها إلى المرحلة النهائية للجهاد كما هو في بيان القرآن الكريم:

«إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعاً معيناً، وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة، وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية، لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام.. ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى، وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين.. إنما معناه أن على الأمة المسلمة أن تمضي قدماً في تحسين ظروفها، وفي إزالة العوائق من طريقها، حتى تتمكن في النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة، والتي كانت تواجه واقعاً غير الواقع الذي واجهته النصوص المرحلية»[1].

وحتى لا يبدو سيد «بِدْعاً» في قوله بالمرحلية في الجهاد، وفي فهمه لطبيعة الجهاد، استشهد بكلام أحد العلماء السابقين، المعترف له بالإمامة والرسوخ في العلم، والسير على منهج السلف فيه، وهو الإمام ابن قيم الجوزية. إذ أثبت ـ في أكثر من موطن في الظلال ـ تلخيص ابن القيم لسياق الجهاد في الإسلام في كتابه «زاد المعاد في هدي خير العباد» في الفصل الذي عقده باسم «فصل في ترتيب سِياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بُعث إلى حين لقي الله عز وجل».

وخلاصة تلخيص ابن القيم في أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يكن مأذوناً له في الجهاد في مكة، ثم أُذن له بالقتال بعد الهجرة، ثم أمره الله بقتال من قاتله. ثم أمره بقتال المشركين كافة.. وكان الكفار مع الرسول عليه السلام بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام، حيث أُمر أن يقاتل أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية. وأُمر بقتال الكفار

---

(١) الظلال ٣: ١٥٨١.

والمنافقين. وجعل أهل العهد في السورة ثلاثة أقسام: الذين نقضوا العهد أُمر بقتالهم، والذين لهم عهد مؤقت أُمر أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم.. والذين لهم عهد مطلق أُمر أن يؤجلهم أربعة أشهر. ونتج عن ذلك أن أسلم أصحاب العهود هؤلاء.

واستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة إلى ثلاثة أقسام: محاربين، ومعاهدين، وذميين. وبعد أن أسلم المعاهدون صاروا قسمين: محاربين وذميين.

وصار أهل الأرض مع الرسول - ﷺ - بعد سورة براءة ثلاثة أقسام: -

مسلم مؤمن به.
ومسالم له آمن.
وخائف محارب.

واستخلص سيد من تلخيص الإمام ابن القيم أربع سمات أصلية وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين:

١ - الواقعية الجدية.
٢ - الواقعية الحركية.
٣ - وضوح الهدف المرسوم وتحقيقه وفق خطة مرحلية مرسومة.
٤ - الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى[1].

ولما كان سيد قطب يصوِّب بعض الأخطاء في الفكر الإسلامي المعاصر في الظلال، وبما أن موضوع الجهاد أخطأ بعض الكتاب المسلمين المعاصرين في فهمه وبيان طبيعته، فقد تولى سيد إزالة هذا اللبس، وتصويب هذه الأخطاء وتجلية موضوع الجهاد كما هو في منهج الله. وبيان طبيعته وبواعثه ومراحله وأهدافه.

---

(١) انظر تلخيص ابن القيم وتعليق سيد عليه في الظلال ٣: ١٤٣١ - ١٤٣٣» وانظر زاد المعاد لابن القيم ٢: ٩٠ - ٩١.

وكانت أطول وقفاته في النقاش والتصويب والبيان في تعريفه بسورة الأنفال[1]، وفي تعريفه بسورة التوبة وأثناء تفسيره لها[2]. باعتبار السورتين تتحدثان عن الجهاد، وتعرضان صوراً من جهاد الرسول ـ ﷺ ـ.

«إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر، وتحت الهجوم الاسشراقي الماكر، لم يفهموا طبيعة الجهاد، ولا المرحلية فيه، ولذلك عرضوه عرضاً خاطئاً..

إنهم يجعلون الجهاد للدفاع عن حدود الوطن الإسلامي. وهم في هذا يحاولون أن يجدوا في النصوص المرحلية دليلاً لفهمهم هذا، فيوردون بعض هذه النصوص ليخلصوا منها إلى أن الإسلام لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار، أو الذين يهددونها من الخارج، وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين. وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها! ومعنى ذلك ـ في تصورهم المهزوم ـ أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض، ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون الله، ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله في الأرض كلها، ما دام هو آمنا داخل حدوده الإقليمية[3].

وقد بين سيد الخطأ المنهجي الذي وقع فيه هؤلاء ـ بعدما بين النفسية المهزومة التي أقبلوا بها على النصوص وتعاملهم معها بمقررات سابقة في تصورهم ـ وهو أنهم لم يلاحظوا «المرحلية» في نصوص الجهاد، ولم يحسنوا ترتيبها المرحلي.. «يعمد أولئك الكتاب إلى ليِّ أعناق النصوص ليؤولوها تأويلاً يتمشى مع ضغط الواقع وثقله، ويستكثرون على دينهم أن يكون هذا منهجه وخطته..

إنهم يعمدون إلى النصوص المرحلية فيجعلون منها نصوصاً نهائية،

---

(١) الظلال ٣: ١٤٣١ ـ ١٤٥٢.

(٢) الظلال ٣: ١٥٦٤ ـ ١٥٨٣ و ١٥٨٦ ـ ١٥٩٨ و١٦٠٦ ـ ١٦٠٩ والظلال ٣: ١٦٢٠ ـ ١٦٣٠ و٣: ١٧٣٦ ـ ١٧٤٤.

(٣) انظر الظلال ٣: ١٥٨١.

وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة فيجعلون منها نصوصاً مطلقة الدلالة، حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة أولوها وفق النصوص المرحلية! وذلك كله كي يصلوا إلى أن الجهاد في الإسلام هو مجرد دفاع عن أشخاص المسلمين وعن دار الإسلام عندما تهاجم! وأن الإسلام يتهالك على أي عرض للمساومة»[1]. وقد حرص سيد قطب في وقفته المطولة أمام الجهاد في تفسيره لسورتي الأنفال والتوبة ـ في الصفحات التي أشرنا إليها في هامش الصفحة السابقة ـ على بيان طبيعة الجهاد في الإسلام، والحديث عن بواعثه ومراحله وغاياته، والرد على الأفكار الخاطئة حوله.

يقرر أن «بواعث الجهاد ينبغي تلمسها في طبيعة الإسلام ذاته، ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة..

ويحدد طبيعة الدين بعبارات صريحة، هي نفسها تبين طبيعة الجهاد: «إن هذا الدين إعلان عام لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد ـ ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد ـ وذلك بإعلان ألوهية الله وحده ـ سبحانه ـ وربوبيته للعالمين... إن اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور.. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب، ويقوم الناس منهم مقام العبيد... إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض»[2]. هذه هي خلاصة نظرة سيد لآيات الجهاد، وهذه هي طبيعة الجهاد وبواعثه، وأهدافه ومبرراته، وغاياته ومراحله..

---

(١) الظلال ٣: ١٥٤٦ ـ ١٥٤٧.

(٢) الظلال ٣: ١٤٣٣ وانظر ما بعدها إلى صفحة ١٤٤٤.

ثبت المراجع

١ ـ الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي.
المكتبة الثقافية ـ بيروت ١٩٧٣.

٢ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني. وبهامشه الاستيعاب لابن عبد البر.
مكتبة المثنى ـ بغداد ـ بدون تاريخ.

٣ ـ إملاء ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن. لأبي البقاء العكبري.
دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩.

٤ ـ الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه. لمكي بن أبي طالب القيسي.
تحقيق الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات.
طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الأولى ١٣٩٦ ـ ١٧٩٦.

٥ ـ البرهان في علوم القرآن. لبدر الدين الزركشي.
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
طبعة عيسى الحلبي بمصر ـ الطبعة الأولى ١٣٧٦ ـ ١٩٥٧.

٦ ـ التصوير الفني في القرآن. لسيد قطب.
دار الشروق. بدون تاريخ.

٧ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
طبعة مصورة عن طبعة المكتبة التجارية الكبرى. بدون تاريخ.

٨ ـ تنزيل القرآن لمحمد بن شهاب الزهري. نشر صلاح الدين المنجد.
سلسلة رسائل ونصوص رقم (٩) دار الكتاب الجديد. بيروت ١٩٦٣.

٩ - التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي.
دار الكتب الحديثة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٨١ - ١٩٦١.
١٠ - جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ. لابن الأثير الجزري
١١ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن. لمحمد بن جرير الطبري.
تحقيق وتعليق محمود شاكر. طبعة دار المعارف بمصر. بدون تاريخ.
١٢ - الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن. للدكتور عدنان زرزور.
مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى. بدون تاريخ.
١٣ - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. لسيد قطب.
دار الشروق. بدون تاريخ.
١٤ - الدفاع عن القرآن ضد مطاعن النحويين والمستشرقين. للدكتور أحمد مكي الأنصاري.
دار المعارف بمصر ١٣٩٣ - ١٩٧٣.
١٥ - الرازي مفسراً. للدكتور محسن عبد الحميد.
دار الحرية - بغداد: ١٣٩٤ - ١٩٧٤.
١٦ - الرازي من خلال تفسيره. لعبد العزيز المجدوب.
الدار العربية للكتاب - ليبيا وتونس: ١٣٩٦ - ١٩٧٦.
١٧ - روح المعاني لمحمود شكري الآلوسي.
دار إحياء التراث العربي - بيروت. مصورة عن طبعة المنيرية بمصر.
١٨ - زاد المعاد في هدي خير العباد. لابن قيم الجوزية.
راجعه وقدم له: مصطفى عبد الرؤوف سعد.
مكتبة مصطفى الحلبي بمصر - الطبعة الأولى - ١٣٩٠ - ١٩٧٠.
١٩ - سنن الترمذي بشرح الإمام أبي بكر بن العربي.
طبعة الصاوي ١٣٥٣ - ١٩٣٤.
٢٠ - سيد قطب الشهيد الحي. لصلاح عبد الفتاح الخالدي.
مكتبة الأقصى - عمان. الطبعة الأولى: ١٤٠١ - ١٩٨١.
٢١ - شرح الأصول العشرين للإمام الشهيد حسن البنا.
بدون تاريخ أو ناشر.
٢٢ - صحيح البخاري. للإمام محمد بن إسماعيل البخاري.
طبعة محمد علي صبيح - بدون تاريخ.

٢٣ ـ ضياء السالك إلى أوضح المسالك لمحمد عبد العزيز النجار.
الطبعة الثالثة: ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣.
٢٤ ـ علوم القرآن. مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه. للدكتور عدنان زرزور.
المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى: ١٤٠١ ـ ١٩٨١.
٢٥ ـ الفن القصصي في القرآن. للدكتور محمد أحمد خلف الله.
مكتبة الأنجلو المصرية. الطبعة الرابعة ١٩٧٢.
٢٦ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب.
الطبعة الأولى ـ دار إحياء الكتب العربي بمصر ـ بدون تاريخ.
٢٧ ـ في ظلال القرآن لسيد قطب.
دار الشروق ـ الطبعة الخامسة ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧.
٢٨ ـ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله. لعبد الرحمن حبنكة الميداني.
دمشق ـ دار القلم.
الطبعة الأولى ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠.
٢٩ ـ مجلة الثقافة المصرية.
٣٠ ـ مجلة حضارة الإسلام الدمشقية.
٣١ ـ مجلة المقتطف المصرية.
٣٢ ـ مجلة الهلال المصرية.
٣٣ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.
تحقيق أحمد شاكر ـ دار المعارف بمصر.
٣٤ مشاهد القيامة في القرآن. لسيد قطب.
دار الشروق ـ بدون تاريخ.
٣٥ ـ معالم في الطريق. لسيد قطب.
دار دمشق ـ بدون تاريخ.
٣٦ ـ معركة الإسلام والرأسمالية. لسيد قطب.
الدار السعودية للنشر والتوزيع. الطبعة الرابعة ١٩٦٩.
٣٧ ـ مفحمات الأقران في مبهمات القرآن. لجلال الدين السيوطي.
على هامش الجزء الخامس من حاشية الجمل على الجلالين. المكتبة الإسلامية ـ بيروت.
٣٨ ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني.

تحقيق محمد سيد كيلاني.
٣٩ ـ مقدمتان في علوم القرآن. لابن عطية ولصاحب كتاب المباني.
نشر آرثر جفري. تصحيح عبد الله إسماعيل الصاوي.
مكتبة الخانجي ـ الطبعة الثانية ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢.
٤٠ ـ مقدمات تفسير القرآن لحسن البنا.
مكتبة حطين ـ بيروت. الطبعة الثالثة ١٣٩١ ـ ١٩٧٢.
٤١ ـ النبأ العظيم. للدكتور محمد عبد الله دراز.
مطبعة السعادة بمصر: ١٣٨٩ ـ ١٩٦٩.
٤٢ ـ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب. لصلاح عبد الفتاح الخالدي
دار الفرقان. الطبعة الأولى ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.
٤٣ ـ النقد الأدبي أصوله ومناهجه ـ لسيد قطب.
دار الشروق ـ بدون تاريخ.

الفهرس